رواية

مروة جمال

بيوفوس
الممالك الخمس

ثنائية الملح والظل (I)

تشكيل للنشر والتوزيع

ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

إهداء

إلى قارئ يبحث عني ولا أعرفه.. أبحث عنك في صمتي!

المقدمة

هذا الفراغ المعلَّق بين القمة والهاوية، الخروج من يودوس درب من دروب المستحيل، فمن الشمال مملكة التاج، أرض البارود وأصل قوتها المحمية بتماثيل المينوتور(1) الحيَّة، لا توجد قوة في العالم قادرة على هزيمتهم. ومن الجنوب مملكة فم المجهول، قصر المشعوذ وبحر غاند(2). ولا يوجد رجل عاقل يقدر على مواجهة الأفعى، أما جهة الشرق فالعراء الذي يتبع أرض الموت، والغرب امتداد الغابة المحرَّمة والمستنقعات التي لا يتخطاها بشر.

***

ممالك يودوس الخمس

مملكة العرش، مملكة الإقليم، مملكة أرض الموت، مملكة فم المجهول، مملكة غاند.

***

بارق الراعي

رُعب الذئاب المجسَّد!

هل يجوز حتى في الخيال أن ينتصر رجل على مائة ذئب؟! نعم... بارق!

الأسطورة تقول إن عمره حينها كان ثمانية عشر عامًا، يرعى أغنام أبيه ويجلس في وقت راحته على صخرته الصلبة، في حين يمضغ فكاه ببطء متلذذ ثمار الجوافة. يومها تمكن منه التعب فغابت عيناه في سُبات خفيف لدقائق معدودة، وبعدها لا يعلم أهل الإقليم تحديدًا ما حدث، كل شاة ركضت في اتجاه وكانوا عشرة ذئاب دفعة

واحدة.. فتكوا بالكلب الهزيل وبدأوا في مطاردة وجبة لحوم حية دسمة.. حتى استيقظ هو!

لا يعلم أهل الإقليم ماذا حدث تحديدًا، ولكنه عاد بقطيعه كاملًا وعلى كتفيه عشرة رؤوس ذئاب!

وقال الراوي في تلك الساعة وهذا اليوم وُلِدَ من جديد بارق الراعي!

***

شاهق الأرقب

ستستوطن بيتك العناكب!

***

نبوءة حرير

كانت حرير امرأة تغزل نبوءاتها فوق جسدها العاري، يُقال إن لها وجه بلا ملامح إلا من شق رفيع يشبه الثغر تتحدث من خلاله.. لا ترى ولا تتنفس.. لا تأكل ولا تشرب، ولكن جسدها نابض بالحياة. لها ثديان بلون المرمر وجسد أملس مثل شلال حليب. ولها فخذان طريان يقال إن أول رجل حاول لمسهما أُصيب بلوثة وطُلِب من الحداد قطع يديه لأنهما تحرقانه بألم لا يُحتمَل.. لم يمسَّها رجل بعدها، وحتى الأفكار الجامحة بمعاشرتها كما يأتون النساء طردوها من مخيلتهم الجامحة. فلن يجازف رجل بافتعال حريق في كنزه الثمين ثم الذهاب إلى حداد كي يقطعه!

يقال إن كل نبوءة منها تخبئ عُريًا وحين تكتمل النبوءات ستنال حقها في الستر.. ولها أربع نبوءات لم تقلهم بعد، وتلك النبوءات ملامحها!

كان شاهق يقف أمامها بلا تأثر بكل فتنة عارية أمامه،

علَّم الإقليم رجاله ألا يتأثروا بـ حرير.. فوق جسدها خيوط كثيرة متشابكة مثل شبكة عنكبوت، ولكنها لم تخفِ العُري بعد.. هي بعد خمسين عامًا ومائة نبوءة باتت بنصف مستور.

مال الشق فجأة وقد بدا أن الصوت الذي يبدو كعويلِ امرأة داخل مغارة لديه نبوءة من أجله.. لا يذهب أحد إلى حرير من تلقاء نفسه، فنبوءاتها ليست سعيدة. هي تستدعي من تختاره وحينها عليه الذهاب!

وقف شاهق أمامها بملامح كالحجر في صلابته، عينان تشبهان شرارة اللغم، وذاك التوحش الصارم في نظرته.. فنظرة شاهق لم تبتسم من قبل أبدًا! وقف في شموخ وسمع نبوءته ورحل.. لم يخف ولم يتردد.. غبي من يعاند نبوءات حرير وقوي من يذهب إليها.. يصادقها حد الانتصار عليها!

بعد النبوءة بعشرة أيام تزوج بـ آكلة العناكب!

"سيراب"

***

سيراب

آخر النسل وآكلة العناكب

ابنة المجهول

يُقال إن نسل ساحرات الإقليم بلا آباء.. ظل شيطاني أسود يأتي مرة كل عام ليخصِب من وقع عليها خيار حجر النسل.. وفي ليلة ما وقع الخيار على أمها وجاء الظل كما المتفق وعاشرها، ولكن ما حدث بعد ذلك كان لعنة ساحرات الإقليم كلهن.. لم يظهر بعدها الظل أبدًا.

كانت سيراب نجم آخر نسله!

السنة الخامسة والعشرون بعد ميلادها.. وبالعدد نفسه خمس وعشرين امرأة اصطففن في دائرة، تتوسطهن عجوز بشعر فضي مجعد يصل إلى كاحليها وتُمسك في يديها أداة خشبية متوسطة الطول في آخرها تجويف في حجم بيضة نعامة ممتلئ بقطع خشبية دائرية مجوفة، هزتها العجوز في تتابع محسوب لتخرج ضوضاء أشبه بلحن مع دندنة صوتها المحسوبة بلغة خاصة لا يفهمها سوى بنات جنسها. ظلت تحرك الأداة في البداية بهدوء ثم عنف وتضرب بها على رأس النساء حتى بدأ جميعهن النزف في اللحظة نفسها. صرخت العجوز بحماس.. قفزت.. نظرت نحو سيراب الواقفة خارج الدائرة بأمرها بكراهية وظُفر وقد بدا أن اللعنة ستتلاشى أخيرًا، سيعود الظل من جديد.. سيعود نسل ساحرات الإقليم وقوتهن ولو على جثة تلك الملعونة.. أطرقت سمعها وزاد تنفسها بشكل ملحوظ، خرجت من الدائرة، جذبت سيراب بعنف ثم أرقدتها في المنتصف تمامًا فجلست سيراب مرتكزة على ركبتيها ووقفت فوق كتفيها العجوز!

تمتمت بتلك الصلوات الغريبة التي تتلوها من أجل الظل، ثم فردت ذراعيها في انتظار المعجزة حتى.. حتى جحظت تمامًا وخرج من حلقها صراخ يُقال إن جدران سور الإقليم اهتزت معه قبل أن تتحجر تمامًا مثل تمثال محروق!

تمثال في جوفه ورقة منقوش عليها اسم سيراب نجم وتحته بحروف محترقة كُتِبَ القانون الجديد..

نسل ساحرات الإقليم سيكون منها!

***

جبار

كي تنال نكهة الحياة.. ابتعد عن طريقه

أرضٌ قاحلة، بواقٍ مائدة حرب تقتاتها العقبان والنسور. دماء أعطت المشهدَ الباردَ على حدود أرض الموت لونًا! ورأس مقطوع بالكامل يتدحرج بعد أن بُتِرَ العنق بسيفه.

لا غنائم.. لا ذهب.. لا نساء.. مجرد موت!

أقوى رجال البارود في مواجهة زمرة جديدة ظنوا أنهم قادرون على التمرد، رفع قدمه على صخرة صلبة وأخرج من كيسه الجلدي قنينة شرابه المعتق وبدأ ارتشافه ببطء.. بدا مهيبًا ومخيفًا حتى للطيور نفسها التي تجمعت لتقتات الجثث، ملامحه المصقولة تحت لحية قاسية يظهر فقط نصفها من تحت قلنسوته السوداء العتيقة. وستضيق العيون رعبًا حتى عيون الجثث نفسها إذا ما واجهت مجددًا ظل تلك القلنسوة.

ضيَّق عينيه وأعاد سيفه إلى غمده بهدوء جليدي، في حين كانت الدماء ما زالت تتساقط من الفولاذ الصلب. طريق الموت يتشكَّل.. وانتهت الطيور من وجبتها والموتى استقاموا مجبرين نحو رحلتهم إلى أرض الموت.

اقترب من أولهم، مرَّر السيف مجددًا على عنقه شبه المنحور ثم قال بنبرة عاتية قاسية تشبه فحيح الثعبان الأسود نفسه:

- حتى في أرض الموت المجد للبارود.. تذكر!

واستكمل الموتى رحلتهم في طاعة.

بؤس في الحياة وبؤس بعدها.

والمجد للبارود.

وشيطانه الحارس..

جبَّار..

***

البارود

لا تعطِ شعبك فرصة الوصول إلى النضج.. التهمْه وهو جنين لم يخرج من رحم المعرفة بعد!

أجراس أرض العرش تدق، رُدِمَ آخر خندق! الخنادق ممنوعة في أرض يودوس.

والكتب.. والكتابة.. والرفض!

خمس ممالك وإن كانت السيطرة فعليًّا على ثلاث فقط، ولكنَّ الثلاث تحت سيف الطاعة.

الحاكم يجب ألا يكون سياسيًّا فحسب، بل آمر وناهٍ وجلاد وحفار قبور. ويُقال إن البارود الأول حفر قبرًا ضخمًا لنصف سكان مملكته ودفنهم أحياء كي يزرع الخوف في قلوب النصف الآخر..

ونجح..

وحسب التاريخ الصحيح منه والمزيف

هو أسوء بارود فيهم.

صراخ أشبه بالعويل، ونار مضطرمة تأكل اللحم الحي، في حين شق صراخ صاحبه عنان السماء. خمسيني له سمرة مجعدة يعمل حمالًا للبضائع والخبز وجلود الحيوانات.. والنساء! عملية تهريب بائسة لبضعة نساء كي لا يُنفَّذ الحكم فيهنَّ، حُكم الخدمة في قصر البارود. ومن تدخل القصر مصيرها معروف.. مُخجل، وقاهر للرجال.

لا تعطِ شعبك فرصة التمرد، ومن يحاول اطعنه في شرفه!

توقف الصراخ، بات ما تبقى من جسد الرجل منحوتة

فحمية ستبقى عبرة حتى الصباح، أما امرأته وابنته فأُرسِلتا إلى القصر.. المرأة للرجال والفتاة لـ فراش البارود.

أو كما مقولة سيراب خادمة البارود وآخر نسل الساحرات:

العذراء تمنح الحياة لقلب الوحش!

***

غضب الراعي

في وحشة الغاب هناك قبس ضوء.. هو الظلام

المنبوذ..

قيل إن القابلة التي أخرجته من رحم أمه أخذته في لحظتها ووضعته في عين الشمس ثم قالت لهم وعيناها تلتمعان مثل حجر نار أن مصيره مرتبط باللعنات. وكانت أول لعنة موت أمه حتى قبل أن تشمَّ رائحته. هو محصن بجحيم الشمس وبرودة الثلج وظُلمة فم المجهول نفسه.

المنبوذ المطرود من الإقليم لسبب أبقته عائلة الراعي سرًّا أسود، قال الناس إنه مظلوم وهو ناسبه أكثر دور الظالم.

اختار عربة، وظلامًا، وحصانين كل منهما بستة أرجل لهم حوافر من الجلمود الثقيل، يقال إنهما يستطيعان سحب قصر البارود نفسه! وغادر بلا رجعة، وحين يعود لن يفاوض في انتقامه وسيهاجم قلب عدوه الفزع حين يظهر أمامه من جديد.

***

بداية

هي صافحت الخضوع فأعجبها، وعقدت معه هُدنة!

منزل منعزل صغير وبئر وحافة النهر ورقص "نهاية" وهي!

تجلس دومًا على مقعد خشبي صغير تراقب "قلب" وهي تدلل جعبة أسهمها وتحاول هي أن تضع الإبرة في موضعها الصحيح كل مرة كي تتقن التطريز. استسلام جديد من نوع آخر ورداء يجب أن ترتديه. رداء كل النساء.

تسخر قلب بنظرة وتنظر "نهاية" بدعم، وتظهر "ضوء" فجأة بصوت مثل وقع صخرة ثقيلة فوق رأسها:

- بنات "ضوء" لا يليق بهنَّ هذا.

وتأخذ منها قطعة القماش وتحرقها.

هي مثل خدر ضعيف، مصباح أصفر بارد تهالكت شمعته، عدة أعوام تتكدس والأمس مثل اليوم.. بلا معنى مع الكثير من الألغاز. قالت لها "ضوء" مرة في لحظة صفاء: "تمتلكين الكثير من الحب في قلبكِ وهذا هو هلاككِ، يومًا ما عليكِ أن تهزمي رقة قلبكِ".

الحب شقاء.. وهي تحب "ضوء"، و"قلب" و"نهاية" وأباها الذي لا تتذكره.. تحب مشاهدة شعائر الزفاف، ولون الشمس في بداية الشروق، وغناء الشعراء بالحكايات عن فتيات وجدن نرد الحب. تحب النعجة الصغيرة التي هربت نحو منزلهم يومًا وقررت ابتياعها من عائلة الراعي وباتت تطعمها بيدها كل يوم.

حتى استيقظت يومًا ما وقد ذبحتها "ضوء"!

ذبحتها بثبات بارد مخيف وقالت بقتامة صارمة ومباشرة كلون الدماء على الأرض تحت قدميهما:

- الشاة تُذبَح!

***

قلب

"قلب النبال".. جسد حي ودماء.. وسطوة تتخطى صراع البقاء. فالقوة في صقل القلب بنصل حاد.

كانت ترفض العناق، حالة العناق كلها تصيبها بالغضب والضيق وإثارة الشفقة. تسحب جعبتها ونبالها وتقسم جسدًا ضعيفًا حيًّا ثم تحزن.. رغمًا عنها يتسلل هذا الحزن الغبي الضعيف فتتوجه إلى ملكات النحيب تنقدهن وترتاح!

"قلب النبال ووتر".. مسجونة في إقليم خاضع.. تاريخها من أثداء نساء عدَّة قلن إنهن رفضن إطعامها، ولكن كانت هي من رفضتهن.. لن تشرب خضوعهنَّ ولا أحلامهن المدهونة بعطر الأزهار الساذجة. هي ستدهن جسدها بدماء كل عدو تقتله.

وتنظر كل يوم إلى النافذة، إلى شبح المرأة التي أنجبتها وصقلتها ودمرتها..

تعقد العزم وتعاهد نفسها على النجاة

- لن أصبح مثلك يا "ضوء"!

نهاية

النهر في الإقليم شريان حياة، وامتداده شريان موت..

تتشبث "بداية" بالحياة وتتمرد "قلب" باحثة عن امتداد الموت. أما هي.. لا هذا ولا ذاك.. هي عاشقة الأرقب.

هي المتلاشية أمام حضوره.. العاجزة عن نيل نظرة.. الطفلة في إمبراطوريته.. في مقلتيه حكاية تبدأها وتنهيها في أحلامها كل ليلة ولا تجرؤ على ما هو أكثر. هي ليست أكثر من كسرة خبز يابسة قد يفتتها بحذائه دون أن يدرك.. تركض نحو "ضوء"، تبكي.. تتحملها "ضوء" وهي الوحيدة المباح لها الحنان. تسألها في حزن.. في يأس:

- كل هذا يحدث لأننا وُلدنا في المنفى، في قصر المسخ؟

ولا تجيب "ضوء".. تبتسم لها في غموض ثم تتأرجح جفونها بشكل مخيف قبل أن يتبدل صوتها وتقول ببأس مجنون:

- أنتِ الأقرب إليها، ولهذا فقط نلتِ آخر قطرة حنان!

***

الفتاة

في غصن شجرة تدلَّت أربع ثمرات، وقع ثلاث.. واحتجز الغصن الرابعة!

الثلج أمامها والبحر خلفها وفي المنتصف هي أسيرة المسخ.

مشعوذ

خادم القمر الذي نهشته الأسطورة
ولم ترَه أبدًا

***

الفصل الأول
هل تخاف روح نمت في أرض المسخ؟!

صباح.. شمس بعيدة.. وثرثرة بومة! تُسجن الأميرات في أبراج مرتفعة عاجيَّة، وهي برجها من حديد عنيد، منع عنها الماضي وقتل المستقبل. غرفة عالية ولكن بِاسم قبو! ولم تسأل.. قبلت الزنزانة بأسمائها دون جدال. شعرها الأسود الفحمي مجموع في جديلة قبيحة جمعتها البومة بمنقارها.. بعينيها قتامة مسكوبة حتى إن البومة تقول إن ظلام بؤبؤيها اختلط بالصحن الأبيض فبات قبحها لوحة. جسدها نحيف حزين بمفاتن منكمشة جافة مثل نهر ماتت أسماكه. مرآتها مكسورة.. كل المرايا كُسِرَتْ وليست هي من كسرها.. تقول البومة بصوتها الكئيب العجوز الأشبه بخرير مياه مستنقع:

"لقد ملَّت قبحكِ".

القبو شديد البرودة، حتى النار التي تلفحها "جمر" في أركانه من حين إلى آخر لا تجدي، "جمر" جنية رائعة الجمال، لها بشرة من العاج النقي وخصلات بلون النار المتقدة.. أما شفتاها بلون البرتقال الحار. وحين تغضب تشعل النار في القبو كله فتخاف هي وترتعد وتصرخ ولا ينقذها سوى حضور "ثلج"، "ثلج" الجنية الأخرى، جمالها مختلف.. هادئ ومخيف، تؤلمها حين تمسك رسغها وحين تعانقها بقوة كي تحميها من حرارة نيران جمر. ولكنهما صديقتاها الوحيدتان في هذا المنفى، هذا القبو التعس وقصر المشعوذ التي لا يوجد لديها أدنى فكرة لمَ هي أسيرته.

- يريدك في فراشه؟

قالتها لها مرة "جمر" بغضب تام، وكأنها تغار عليه.. البومة

ترقص، تقول إن "جمر" عشيقة المشعوذ و"ثلج" أيضًا، بل ويتعاركان عليه. انكمشت في ثوبها السماوي الضخم جدًا على جسدها الضعيف ثم سألت البومة بعجز:

- أرأيتِه من قبل؟

وتجيب البومة وهي تنقر أطراف جناحها:

- لا يوجد له وجه.. هو ملعون بالفراغ.

ثم تطير، تختفي كما تظهر فجأة وتوصيها بهمس صارم ألا تخبر "جمر" و"ثلج" بأنها تزورها، همسها يبقى في أُذنيها متجولًا حتى تعود بعد أيام..

" لا تثقي بهم!".

تتجول هي بين النوافذ، قبوها بين نافذتين تبدوان أحيانًا وكأنهما تتحاوران بصمت. تلصق جبهتها الصغيرة بالزجاج، تراقب الأفق البعيد، من الجنوب بحر غاند بلا سفن.. ومن الشمال الثلج الممتد على مساحة شاسعة وقطيع الكلاب الذي يدور حول القصر بلا تعب ولا كلل.

تستمع لضحكات القناطير(3)* المخيفة وركضهم خلف بعضهم بعضًا، ثم القتال الشرس في نوعٍ من الرياضة. تهرب من هذا كله ثم تترك العنان لأحلامها، وهي الشيء الوحيد الذي لم يقدر المشعوذ على سجنه. ربما يومًا ما تهرب، تتخطى قطيع الكلاب وحراسة القناطير وصفحة الثلج الممتدة حتى حدِّ الغابة المظلمة. ثم تبكي حين تدرك أن أحلامها مستحيلة، المسار الوحيد من حراسة القصر العتيد وما حوله أن تمر كجثة.

عادت إلى وحدتها، الفراش المزيَّن بمفرش قاتم يضيء الورد المنقوش عليه في الليل، تسمعه يتضاحك.. يقص القصة ألف مرة وكأن عليها أن تحفظها.. تسمعها وتبكي

ولا تفهم أيضًا، لا تفهم سبب احتجازها طوال تلك السنوات في قبو مسخ لم تراه أبدًا.

***

حكاية المشعوذ، وضوء القمر، والأربع فتيات.

يحكى أن..

ليلة زفاف سحرية في أرض الإقليم، "فيصل" الأرقب وجميلة الجميلات "ضوء". يقال إن جمالها كان بفضل نفحة ساحرة سخية لبطن أمها، باركتها بطحن أوراق الورد ثم خلطها بالرحيق ودفعتها في مهبلها بعد أن عاشرها زوجها مباشرةً. كان سحرًا محرمًا قالوا إنه يجلب الفتنة واللعنة في الرحم نفسها. جاءت "ضوء" بجمال لم يكن له مثيل قط.. حتى إن البارود الثاني طمع فيها لنفسه، ولكن "فيصل" نما إلى علمه الخبر فأعلن خطبته إياها أولًا. كان يلهث خلفها في الحقول، يجمع الورد الذي يتعلق في جدائلها الذهبية الطويلة. ثم يصنع منه تاجًا ويهديه إليها.

ليلة زفاف سحرية، شيوخ ونساء وقانون وضعه "الأرقب" الأب بتوقف ملكات النحيب عن النواح لمدة ثلاثة أيام، أما "البارود" فأرسل الهدايا كاتمًا غيظه مباركًا القوانين التي وضعها بنفسه. فحين يطلب رجلٌ امرأة للزواج تُصبح له، وإن رفضت يأخذها رجال البارود جارية بلا ثمن في قصره. إنه قانون الطاعة المفروض على يودوس مثل قوانين أخرى عدَّة تضمن للبارود حكمه.

أُشعلت النيران وتم المراد وعاشر "فيصل" زوجته معاشرته الأولى، ونام قرير العين وقد شعر أنه امتلك الجنَّة وما فيها. حتى استيقظت البلدة في صباح اليوم التالي مع صراخ لم يُسمع له مثيل قط. كان صراخ "فيصل" بعدما اختطف عُقاب ضخم بحجم منزل كامل زوجته وطار بها إلى قصر

المشعوذ.

كان الشعراء يقصُّون الحكاية على قيثارة.. حكاية المشعوذ وضوء القمر.

قالوا إن العشق قد لَوَثَ عقله، نظر إليها مرة وفقد اتزانه، وقالوا إنِ الحكاية كلها مجرد لعنة، لُعنت "ضوء القمر" بسحر محرَّم ولهذا اختطفها المشعوذ.. قيل وقيل.. ولا يعلم الحقيقة سوى "ضوء القمر" و"فيصل" الذي فقد عقله.

انتفض الإقليم في اليوم التالي، قررت عائلة الأرقب شنَّ الحرب، وكان الأخوان "فيصل" و"رقيب" على مقدمة الجيش. خاض الرجال أرض الغابة المظلمة، تخطوا الأهوال وفقدوا الكثيرين.. سقط الشجعان في السرداب وتجمدت الأحصنة على فوهات الثلج القارس. حتى واجهوا قصر المشعوذ وكانت المواجهة الأولى والأخيرة والقاصمة لكل محاولات قادمة.

قصر مغناطيسي(4)* أسود يجذب كل قطعة معدن ممكنة نحوه، فقدوا سيوفهم.. عتادهم.. دروعهم.. حتى أجمة الفرس نُزِعَتْ منهم. هنا عرف "الأرقب" أن المعركة خاسرة قبل أن تبدأ، تمكنت بثورُ الحزن من وجهه والغضب والعجز، وربَّت كتف ابنه ورحل. أما "فيصل" فأرهقه السخط، يقال إن أخاه قيَّده بالسلاسل كي يجبره على العودة معهم. كان كل ليلة يبكي بأنين حزين ويسحب قيثارة شاعر من حاشيته وينابيها. كل ليلة من تسعة أشهر كاملة حتى جاء العُقاب الضخم من جديد وحمله إلى قصر المشعوذ وعاد بعدها بخمسة وأربعين ليلة كاملة ومعه طفلة!

ابنته الأولى "بداية".

سهم مسمم أصاب العائلة، قطعة لحم لونها يميل إلى

الصفرة الباهتة يُجزم "فيصل" أنها ابنته ويظن أبوه أن العائلة قد خُدِشَتْ بنسلِ المشعوذ. أما "فيصل" فانزوى وحيدًا حزينًا وقد سُلِبَ ربع عقله، مات بعدها بوقت "الأرقب الكبير" وتسلم "رقيب" إرث العائلة، و"فيصل" يذبل.. يفقد نفسه.. ويحدث ما لا يصدقه عقل حيث يعود العقاب بعد مرور تسعة أشهر أخرى، يطير به، وبعد خمسة وأربعين يومًا يعيده من جديد وعلى ذراعيه طفلة أخرى..

***

"قلب"!

كانت النساء تخاف من "قلب"، وإن وجد "رقيب" امرأة لـ"بداية" كي ترضعها فشل أن يجد لـ"قلب"، فقد تكاثرت الشائعات في الإقليم أن الفتيات هم من نسل المشعوذ وليس "فيصل". خاصة بعدما فقد "فيصل" نصف عقله تمامًا وكان يقضي صباحه جوار الصعاليك يتناول معهم الخبز الجاف. وظل الأمر كذلك وقد أحضروا للفتاة المسكينة حليب الماعز كي تقتات به، حتى أعلنت كبيرة الساحرات أن البنات لـ "فيصل" وما خلف هذا من تفاصيل في فم مجهول يجب ألا يعرفه أحد. ولكن "قلب" بعدها رفضت أثداء النساء، كانت تقضم الحلمات حد النزف، فلم تجرؤ امرأة على إرضاعها. كانت الوحيدة التي لم يدخل الحليب البشري جوفها أبدًا. في العام الثالث عاد "فيصل" وقد قارب الجنون تمامًا، لم يكن أحد يعلم ما يحدث في هذا القصر وكيف أصبح حال "ضوء القمر" بعد ثلاث سنوات من الأسر وأخذ فتياتها منها.

الثالثة كانت "**نهاية**"، ويُقال إن النساء تسابقن كي يرضعنها.. كان لها وجه جميل لطيف يشبه جوهرة رقيقة

ومع أن "قلب" تفوقها جمالًا فإن ملامحها اللطيفة زرعت الحنان في قلوب جميع النساء حولها. ولكن "رقيب" اختار لها جارية من أرض العرش أهداها إليه "البارود" بعد أن حملت من أحد رجاله وأنجبت.. وقوانين البارود صارمة قاسية، فهو يأمر بقتل النغول بعد ولادتهم على الفور.. ومن يجرؤ على إخفاء نغل يُذبَح معه.. جاءت المرأة بحزنها وحسرتها لترضع "نهاية" وقالوا بعدها إنها أورثت نهاية الخوف والحزن ونصف القوة.

وحين اعتاد أهل الإقليم الحكاية وباتوا كل عام ينتظرون "فيصل" وواحدة من بناته، لم يأتِ العقاب في العام الرابع ليأخذ "فيصل" كما المعتاد.. بل جاء وبين مخالبه جسد "ضوء القمر".

توقفت الورود عن الحكي، كل ليلة يتوقف حديثهن عند النقطة نفسها، تنطفئ أنوارهنَّ ويسود الصمت والظلام والفراغ وتبقى هي وحيدة في فم مجهول لا تفهمه. من تكون؟ ما اسمها؟ ماذا حدث؟ من هي "بداية" ومن "نهاية" ومن تكون "قلب"؟ بنات "فيصل" حقًّا أم المشعوذ؟ وهل هي مثلهنَّ! هل جاءت من رحم "ضوء القمر"؟

تتسرب دمعة من عينها المشوهة بظلام أسود وسط الصفحة البيضاء، تلقي بالماء فوق إناء ضخم وترمق ملامحها التي كلما كبرت قبحت أكثر.. تضحك ثم تبكي وتجزم أنه من المستحيل أن تكون ابنة لضوء.. أو الأسوأ.

ربما الثلاث فتيات هنَّ بنات "فيصل".

أما هي فابنة المشعوذ.. ابنة المسخ!

ولهذا احتفظ بها..

***

- وحين عادت "ضوء القمر" في المرة الرابعة لم تعد الفتاة، ويقال إن "فيصل" حينها فقد عقله بالكامل وذهب إلى قصر المشعوذ وحده ولم يعد من حينها.

همست "قمرية" بحزن غريب، حزن ممتزج بالإثارة.. مالت بشفتيها المبللتين بالخمر نحو شفتي "غضب" ثم غابت معه في قُبلة طويلة وهمست فوق رأسه الممتلئ بالكثير..

- أنت لا تملَّ من تلك الحكاية.

طفا فوق ملامحه تعبير غريب، يُقال إن لا شيء يبهر "غضب" الراعي أبدًا، فهو الرجل الوحيد الذي يمتلك مقاليد الرحلة ذهابًا وإيابًا من فم المجهول.

غاص بجسده في الفراش أكثر وقد ضمَّها بساعديه فسحبها معه..

- لأنها حكاية مبتورة، لا يعرف أحدٌ نصفها المجهول.

مطت شفتيها بابتسامة شقية:

- ربما أنت تعرفها، فأنت الوحيد المسموح لك بالاقتراب من قصر المشعوذ.

غاص في الفراش أكثر، شعرت بجسدها يُسحَق.. حاولت التملّص منه حيث إن العملات الفضية التي نقدها إياها لن ترمم لها عظامها المكسورة، ولكنه لم يعطها فرصة، سحقها أكثر وأكثر ثم قال بسوداوية مغلَّفة بالحنق:

- أنا مجرد راعي.. يطعم كلابه الغنم!

منعت فمها الثرثار من المتابعة أو حتى التفكر، "غضب" الراعي هو رجل بين روايتين متناقضتين.. في الأولى قوي، بطل حكاية شعبية.. الوحيد القادر على تخطي السرداب والغابة المحرَّمة وأرض الثلج حتى أسوار قصر المشعوذ.. وفي الثانية مجرد أجير.. راعي أغنام مسموح له بمباركة

المشعوذ وظلاله، تخطى الصعاب فقط لأنه لا شيء.. مجرد نكرة سكير يدفع أجرة للعاهرات كي يسمحن له بوطئهن.

وبين الرواية الأولى والأخيرة هي مجرد امرأة من نساء عدَّة، مسحوقة في لحظة فارقة تحت جسده، عنقها محاط بأنامله وحكمتها تستدعي الآن الصمت، ففي الروايتين هو رجلٌ قوته قوة خمس رجال.. ومزاجه حين يغضب حجر صلب قادر على تحطيم عظامها، وما نفع العملات لعاهرة بعد الموت!

استقام عنها وفي ملامحه برود قاتمٍ، نظرة شيطانية متحجرة وتسكع قاسٍ في عينيه على عريها المكتنز في جسد حليبي مميز، أرادت أن تستقيم وترتدي ملابسها إلا أنه أوقفها بفرقعة إصبع. قال ساخرًا وكأنما راودته فكرة:

- ماذا لو أرسلتكِ إلى الراعي؟

والتمعت عيناه بقسوة وهو يكررها:

- بارق الراعي.

نال انتباهها، تلوَّت في الفراشٍ مستعرضة عُريها بأسلوب ركيك لم يبهره ولم يكن مبهورًا من قبل من الأساس، بعض الرجال تجتث قوتها من السيطرة على النساء وبعضهم لا يستهويه سوى المسوخ.

وإن كان المشعوذ المسخ الذي يطعمه فـ"بارق" هو المسخ الذي يستحق العقاب.

وحشة مستحكمة ارتسمت على ملامحه، وهسيس قاتم طلَّ من بين شفتيه في حين نقدها تلك المرة عملات ذهبية..

- سأبعث بكِ إلى قصره، توجد خادمة ستسهل لكِ

الدخول.

ارتجفت شفتاها في تردد، قصر هازم الذئاب بنفسه ليس بجدران سهلة..

- ماذا تريد؟

توهج بريق عينيه ثم تابع وهو يمرر سبابته حول شفتيها:

- عصفورة!

حدَّقت إلى ملامحه بتوجس ثم حاولت أن تتذاكى كنهج جميع العاهرات في يودوس:

- ولِمَ تحتاجني لهذا الغرض؟ تستطيع تلك الخادمة إتمام المهمة ونقل الأخبار التي تريدها.

عقد حاجبيه ساخرًا وكأنما يعيد التفكير:

- أخطأتِ التعبير، عصفورة ليس التوصيف المناسب، ماذا عن حدأة!

رمقته بنظرة ساخرة مثلما فعل:

- أتعلم؟ يليق بي.

وشوشها بقسوة:

- وأعلم أنكِ ستسعين إلى فِراشه.

وبفجأة وبلا مقدمات استحوذ على عنقها بحركة واحدة، أحاطه بأنامله الغليظة وقد خمشت أظافره الجلد الناعم فتسللت بوادر نقاط دماء طفيفة..

- لو حاولتِ خيانتي يا قمرية لن أقتلكِ.. سأرسلكِ إلى أرض المشعوذ، وهناك قد تعرفين ما حلَّ بـ "فيصل".

نثرت كلماتها بتوسل وحشرجة، وقد فشلت محاولة معاندتها معه تمامًا:

- لا أريد أن أعرف.. في يودوس المعرفة هلاك.

رفع حاجبه الأيسر بتأكيد صارم:

- والراعي؟

أذعنت باستسلام:

- أنت الراعي الوحيد الذي أعرفه.

تركها وقد انثنت شفتاه باستهزاء، توجه إلى النافذة وقد رمق الأفق البعيد.. باقٍ على رحلته عدَّة أيام وعليه أن يجهِّز البضائع من أجل قصر المشعوذ، طعام كلاب الحراسة والقناطير، مخزون القصر، رحلتاه كل عام شتاءً وصيفًا.. يوصل الزاد ويأخذ نصيبه من الذهب. يشارك الرياح الظلام في وحدة قاتمة مرورًا بممالك يودوس الممنوعة. ويعود ليتدثَّر بفتنة عاهرة باردة دون روح!

فوق بؤبؤيه نقش يحمل اسم امرأة واحدة.. امرأة عشقه التي قتلها أخوه الأكبر بعد أن اختطفها منه بارق الراعي!

***

يُقال إن الراعي رجلٌ بلا مخيلة، حياته أغنامه وأراضيه، وعليه أن يبقى متيقظًا للذئب!

نظرته بدت سوداء بلا نهاية، في حين أن العجوز لهيب تجلس تحت قدميه، تناور وتحاول وتتحدث بابتسامة كهيكل عظمي:

- نحتاج إلى النسل يا بارق.

تسحب وسادة، تنتف كل ريشها حتى تنهيها ثم تأخذ أخرى وأخرى، تضرب فوق صدرها بغضب:

- سينتهي نسل الراعي، ويسيطر الأرقب على الإقليم.

رمقها بامتعاض ثم شقت فمه ابتسامة قاتمة:

- أوتظنين أنني أكترث!

وهي عجوز ماكرة، تمتلك حكايات سنوات مرت.. وأسرارًا مدفونة منذ زمن تحت الأرض.. تمتلك الخبيث والطيب، تمتلك السر المدفون في قلبه.. قالت بقسوة:

- نحتاج إلى نسلك أنت وليس نسل "غضب"، ولكن لو عاندت لن نقف مكتوفي الأيدي.

قدحت عيناه بشرار مع ذكر سيرة الآخر وانتفض وقد انتصب جسده بقوة أمامها:

- نتوقف مسارات الحديث هنا يا عمة!

كانت قد تسللت إلى عمق غضبه وأحزانه، أخرجت من قلبه شراسة سوداء ونفثت فيها النيران عن قصد. استقامت فواجهته، ورغم انحناء قامتها بدت قوية. امرأة مصقولة بالفقدان.. عائلة الراعي تتضاءل يومًا تلو آخر، ونبوءة "حرير" تتحقق.. إن نسلهم من الرجال لن يعود سوى من رجل واحد، ولكن "حرير" خبيثة كعادتها تعطي من النبوءة فقط ما تريده.. لم تُصرِّح بالاسم. وهم اختاروا "بارق"! الراعي المدموج بروح محارب.. صاحب رمح رأس الذئب واللهيب الأزرق القاتم الذي يضيء عينيه فقط لحظة الانتشاء. انتشاء لم تختبره سوى زمرة الذئاب تحت سطوة رمحه والمرأة التي عشقها.

***

وكلاهما ميِّت!!

رتبت العجوز "لهيب" الكلمات في عقلها قبل أن تنطقها، بحنكة سنوات تعلمت أن تشكِّل الحديد وهو ساخن، ومعدن رجل كـ"بارق" قوي إذا ما شُكِّلَ لا سبيل للتراجع.

- أنت الوريث الشرعي لإرث الراعي، الخائن لا يُورَّث.

ثم قدحت عيناها بشرار قاتم:

- و"غضب" خان.

ضغط على فكه مجددًا مع ذكر سيرته، اقشعر جسده وتجمع فوق أهدابه حزن كثيف كسا نظرته بظلمة تامة، قال وهو يطحن حروفه:

- أخبرتكِ أن تتوقفي عن ذكر سيرته.

تسللت من عينيها نظرة جرداء بلا شعور:

- ونحن على استعداد للغفران له إذا لم توافق على ما نريده.

لهث بعنف:

- لو تخطى حدود الإقليم سأغرس رأسه فوق رمح.

بدت هادئة وكأنما حققت مأربها:

- تقتل أخاك يا "بارق"؟

اكتست ملامحه بظلام تام، عتمة نظرة وروح وقلب وثأر حتمًا سيأتي وقته.. هذا الأخ.

هذا الغضب. ولد الراعي الأصغر.. والرجل الوحيد الذي عجزت نبوءات حرير عن الاقتراب منه، هذا الخائن يومًا ما سينال جزاءه.

ضم بارق قبضته بعنف، وضرب بها الجدار بعدما خدشت أظفاره الطلاء القاتم عليه. مخزون الحزن والألم تفجر فوق ملامحه، تأتي القوة وتتكاثر وتنفجر وتغيب مع ذكرى رحيق، اسودَّت ملامحه بقتامة وقال بكلمات سوداء كالحفر.

- افعلي ما تريدين، فقط لا تختاري امرأة ثرثارة.

ثم أردف بهسيس أسود قاسٍ:

- أريدها امرأة للنسل، النسل وفقط.

التمعت عينا العمة "لهيب" بانفعال يشبه اسمها:

- لديَّ طلبك، هي من رحم امرأة ولود ونبوءة حرير مهَّدت إليها.

التمعت عيناه باهتمام والعجوز تتابع بخبث:

- قالت حرير إن النسل سيكون من بيت الأرقب.

اكتست عيناه بسخرية رافضة:

- بنات "فيصل"!

ردَّت بخبث:

- نسل الراعي سيكون من إحداهنَّ، كل ما عليك أن تختار.

ولم يكن الأمر ذا أهمية له، ولو حتى بشبه اشتهاء.. مزيج من الغضب واللامبالاة اجتمعا في ملامحه قبل أن يقول ببرود قاتم:

- لا فارق.، كما تنصُّ التقاليد فلنأخذ الكبرى.

ووافقته العمة بحماس وكأن الاختيار ناسبها تمامًا، فلا سبيل إلى نسل من المتمردة "قلب" ولا الضعيفة "نهاية". إذن قُضِيَ الأمر، وكررتها بصوت رخيم مع التتمة المناسبة الأمر.. أم ربما بدايته!

- هي "بداية" اذًا.. وسأعلن رغبتك فيها يوم غد.

***

أنف مكسور مشوَّه، فم معوج قليلًا نحو اليمين.. وكلمات تخرج ببطء وكأنها من قلب مغارة.

عادت "ضوء" إلى بناتها مسخًا!

نصف الحكاية دومًا مجهول، صعب العثور عليه ولهذا يترك الراوي مهمة إيجاده لأبطاله.

تحركت "ضوء" بخطواتها الثقيلة نحو البئر الحجرية كي ترفع دلو الماء وتبدأ كما المعتاد في تحضير الفطور لبناتها، هناك في انعكاس المياه كل يوم منذ عادت محمولة بين مخالب العُقاب تنظر إلى نفسها، وكلما وجدت جمالًا شوَّهته.. كسرت أنفها عدة مرات وها هو التأم بشكل معيب. لوى الحزن والبكاء فمها لم يعد كما كان. أما صوتها فهو كئيب منذ زمن.. منذ اختطفها المشعوذ أول مرة وقضت أول أيامها تصرخ باحثة عن نجاة.

تنهدت بابتسامة راضية غامضة.. رفعت الدلو وعادت متوجهة إلى المنزل وهي تراقب من بعيد رقصات "نهاية" ومجهود "بداية" لترتيب المائدة وتمرد "قلب" وهي تحاول أن تصيب هدفًا بسهمها من مسافة أبعد.

سبعة عشر عامًا تقريبًا مروا على عودتها، هم عمر.. وتجمد لسانها، عمر الرابعة التي هناك فقدتها، أخذها منها بمجرد ما رآها تخرج من رحمها مغلفة باللزوجة والدماء. تمت مهمتها في هذا الحين، أعطته ما يريد وبعدها لم يمهلها حتى فرصة لتتشبع من ملامحها أو تذيقها حليب ثدييها.. أمر العُقاب بحملها فورًا وعادت إلى بناتها وإلى "فيصل" مجرد حطام.

صرخت بقسوة.. انتبهت الفتيات لتلك الصرخة المضطربة التي تخرج منها من حين إلى آخر، تحاول "بداية" ضمها ولكنها تدفعها بعنف! "نهاية" تبكي كما العادة أما "قلب" لا تقترب. تواجهها بقسوتها نفسها وتطلق سهمًا لفظيًّا نحو قلبها.

- ربما عليكِ أن تكفي عن الصراخ وتخبرينا أصل

الحكاية.

وتبتسم "ضوء" بمرارة، وجهها يتحول إلى خريطة قديمة قبل أن تقول ببأس قاتم:

- ستعرفينها عندما يحين الوقت!

التففن حول المائدة.. "ضوء" صامتة كصنم كالعادة دون أن يقرب الطعام فمها، في حين كانت "نهاية" تختلس النظر إليها بحذر. و"بداية" تتحاشها.. لها سبعة أيام تتحاشى التواصل المباشر مع عيني أمها ولا تفسر ولا تصارح مهما ضغطت عليها "قلب".. "قلب" التي سعت لاستفزاز أمها فبدأت تغرف الخبز والحليب من الصحن بسلوك رجولي فظ، فما كان من "ضوء" إلا أن نظرت إليها بهدوء تام واستقامت في فتنة شامخة لم يفلح كل التشوه الذي ارتكبته في محوها، ثم قالت ببرود:

- تأكلين مثل ثور.

وتركتهم ورحلت كما العادة إلى عزلتها!

***

تدرك "نهاية" جيدًا أن الصباح في منزلها مكرر، بسيط وقاتم قدر عبوس أمها وهي تضع أمامهن طعام الإفطار ومساعدة "بداية" لها في صمت وربما يكون الحَراك الوحيد تمرد "قلب". تمرد "قلب" رائع، مصقول وحُر.. هي على طرف حافة الإثم بالنسبة إلى نساء الإقليم ولها ولـ"بداية". حلم لا يجرؤن على تحقيقه. كلتاهما تتمتعان بخيبة غريزية ولكن "قلب" انتصرت على تلك الغريزة. شحنة غريبة قاتمة سلبية تمكنت منها حين فكَّرت في "شاهق". ابن العم المسؤول عنهن كرعايا اضطر إلى قبولهن. ولكنه رائع مع "قلب"!

يشجعها.. يدعمها.. بل إنه حتى تحديًا للتقاليد علَّمها رماية السهم بنفسه! حزن صغير لطيف عاد إلى السكون بقلبها، ثم مرَّر في دمائها حسرة امتزجت بسلاسة مع نظام دفاعها الهش. لتقطع سكون الفطور فجأة بتوتر لفظي أحيانًا نتعجب منه "بداية" ولكن "قلب".. "قلب" تفهمه عن ظهر قلب!

- لقد قررتها.. نعم اتخذت قراري ولن أتراجع فيه.

ابتسامة هادئة اجتاحت ثغر "بداية" قبل أن تنظر إليها في حنان وقبل أن تقاطعها "قلب" بعينين لامعتين بشراسة:

- لا لن تفعلي..

اتسعت عينا "نهاية" بغضب ثم كررت بنفس عبثها المعتاد كل مدة:

- سأفعلها.. يومًا ما سأفعل وسترين يا "قلب".

ابتسمت "قلب" بشراسة أقوى وبهدوء تام:

- لا تصبّي جام غضبك عليَّ.. هو بالنسبة إليَّ معلم روحي وليس أكثر.

شدَّت "نهاية" قبضتها بتوتر:

- ما قصدكِ! لا أعلم ما هذا الذي تتحدثين عنه.

كان الأمر هنا مزاجية خاصة لقلب، هي تُلاعب "نهاية" بقسوة.. تسخر من شعورها بفظاظة وتحاول "بداية" يائسة ترويض كلتاهما.. إذ إن الفظاظة لا تناسب امرأة والتهور لا يليق بفتاة برقة "نهاية".

اقتربت "قلب" من "نهاية" التي كانت قد استقامت عن الطاولة وأحاطت كلا كفيها بوجهها ثم قالت بصوت حميمي ساخر:

- لا تقلقي.. هو أيضًا يريدك.

- "قلب"!

قاطعتها "بداية" بحزم في حين توترت ملامح "نهاية" كلها، توتر عذري لطيف، توتر محاط بالأمنيات والأفكار والحيرة، توتر عن عشق لا تعرف متى نبت ولِمَ.. تشعر وكأنها فتحت عينيها على حبه وتجاهله إياها. رجل العائلة الأوحد والأول والرائع والقوي والمخيف.. عشرة أطنان من القسوة أمام فراشة.

اتسعت عيناها بصدمة وخوف ورفض ونفي ورغبة يائسة في التصديق:

- ما.. ما هذا الذي تقولينه؟!

نظرت "قلب" باستهجان نحو ملامحها البريئة، بالأحرى خيبتها.. كل امرأة تتشبث بتلك البراءة هي كتلة من الخيبة، ونساء الإقليم فصيلة من الخيبات. ابتسمت ساخرة ثم قالت بنبرة قاسية كالحدش:

- يا غبية ألا ترين كيف ينظر إليك!

تراجعت إلى الخلف بخوف.. نعم خوف.. عشقها إياه ليس أكثر من حلم فردي، أمنية مبتورة بلا تطلعات ولا أمل أحمق بأنه ينتبه.. نظرت نحو "بداية" بعجز ثم عادت إلى النظر نحو "قلب" بتوسل مكتوم أن تفعل.. أن تسحب ما قالته، ألا تشعل حريقًا في قلبها لن تخرج ناجية منه..

ولم تفعل "قلب"..

وركضت هي هاربة من الحريق..

ركضت نحو باب الخروج في نصف بكاء وفكرة الهروب من الإقليم كله تراودها.. فكرة لا تجرؤ على تحقيقها، حتى "قلب" نفسها لا تستطيع. فكرة مثيرة للشفقة تراود النساء

في أحلامهنَّ مثلما تحاول "قلب" أن تراودها بفكرة أنه يراها.. يشعر بها.. يريدها.

وبُتِرَ همسها الداخلي مع اصطدامها بجسده الصلب، لحظة بالنسبة إليها قيد، باتت مكبَّلة متجمدة تمامًا حتى قلبها خاف أن ينبض. في حين مالت عيناه هو إلى الأسفل قليلًا ينظر إليها وكأنها لا شيء.. قبل أن يدفع الباب كله بيده ويتخطاها.. في حين ركضت هي دون أن تلاحظ جانب عينيه الذي اقتنصها.

نظرت نحوه "قلب" بمكر لم يعجبه، في حين انكمشت "بداية" مع صحن طعامها الذي لم تكن أنهته بعد.. قال بقسوة صلبة وعيناه تتجول في المكان:

- أين "ضوء"؟

حين رفعت "بداية" عينيها نحوه لاحظت أن عينيه متحفزتين مثل عيني صقر، لم تكن من عادته زيارتهن في هذا الوقت الصباحي، إلا أن "قلب" لم تبدُ متعجبة.، بل ردَّت بنبرة ثابتة ساخرة:

- أنت تعرف أن "ضوء" لا تأكل.. تتغذى على جذور النباتات المطحونة في غرفتها المخيفة الممنوع علينا أن ندخلها..

- يبدو أنكِ أحببتِ فكرة الحكايات التي تُحاك عنكن وقررتِ أن تضيفي إليها بعض الإثارة.

- عليكَ أن تتوقع أي شيء من فتاة تشعر بالملل.

ثم زادت وهي تبتسم باستمتاع غير مكترث للإقليم بمن فيه:

- ولكن أتعلم، هذا أفضل.. على الأقل يبتعد أنصاف الرجال عن فكرة الزواج بنا.

عقد حاجبيه بهدوء وقد فهم ما تلمّح إليه.. بنات "فيصل" لا يتزوجهن أحد، كل امرأة لديها شاب تبتعد تمامًا عن فكرة الزواج ببنات المختل و"ضوء" التي لُعِنَتْ منذ ولادتها. في حين اصطدمت "بداية" بعينيه القاسيتين وقد تسلطتا عليها فجأة دون سبب واضح.. شعرت بالرهبة، بالتردد.. بالحيرة، وحاولت أن تنظر نحو "قلب" فتنقذها فبدا وكأنها تبدأ مناورتها الصامتة الخاصة بينها وبين شاهق. مرت عدَّة لحظات وصمت مطبق قاتم يدور بين ثلاثتهما حتى مالت زاوية شفتيه بانفعال صلب قبل أن يقول بصوت عميق:

- يبدو أن هذا يناسبكِ.

ولم يعطها فرصة للرد. كان يفهمها جيدًا، يفهم تمردها وأحلامها، بل حتى الأفكار التي تدور في خلدها ولم تخبر بها أحدًا، ولهذا خصَّص اثنين من رجاله لمراقبتها حين تخرج من المنزل، تزور ملكات النحيب أو تتوجه للبستان القريب لتتدرب على الرماية. استدار بعدها فجأة بهيبة نحو "بداية" التي أُجفلت من حركته، فارتعش الصحن بيدها وكاد الحليب الدافئ الذي لم يندمج كليًّا بعد بكسرات الخبز ينسكب. ظلَّت متسمرةً ومتحفزةً في انتظار كلماته حتى قال هو أخيرًا وعيناه متصلبتان بقوة غامضة:

- وها قد جاء رجل كامل.

توترت "بداية" أكثر، أغمضت عينيها وقد تمكنت الرهبة منها ككل.. أنفاسها هربت.. شعرت وكأنها في انتظار حُكم إعدام أو حكم نجاة، لا تعلم! رغبة مكبوتة داخلها كانت تريد الهروب من هذا المنزل.. من تلك الحكاية التي غرستهم فيها "ضوء" أو غُرِسَتْ فيها معهم رغمًا عنها. رغبة ساذجة في منزل دافئ، رجل لطيف بسيط.. نعم هي لا

تريده قويًّا أو مبالغًا في سطوته مثل "شاهقٍ". هي تريد رجلًا أبسط من هذا كله. رغبة تدفعها بعيدًا عن المنزل خاصة بعدما قالت له "ضوء" حين اقتربت من فراشها في الظلام قبل سبعة أيام وهمست بحروف مسممة:

"سأقتلك!"

مجرد أمنية تبخرت في الهواء، ومخاوف جاورت مخاوف جديدة مع ذكر اسم من طلبها، وفي قانون الإقليم من أصبح بمنزلة الزوج بمجرد الطلب.

- بارق الراعي!

***

- هيا حاولي.. اسحبي السهم بقوة وسيطري على الوتر بأصابعك.

مدَّت يدها بغضب، وتلك المرة حين جذبت السهم مع الوتر بعنف جرحت إصبعها، جرح بسيط طفيف أدى إلى اختلال الثبات للحظة وهرب الهدف.. حمامة محظوظة!

انثنت شفتا "شاهق" بانفعال قاتم:

- هذا ما يحدث حين تفقدين تركيزك!

استدارت له "قلب" بعنف وقد تشنجت كل ملامحها، لقد تهدَّم ثبات ما.. ظنت أنهنَّ - مؤقتًا - في أمان.. لن يتقدم أحدٌ لطلب واحدة منهن سوى بمباركته، لا يجرؤ أحد على تحدي عائلة الأرقب. والآن هو جلب قاتل الذئب إلى المائدة.

قالت بضراوة من بين أسنانها:

- لماذا؟

شذرها بنظرة جامدة قبل أن يقول وقد أظلمت عيناه

وهو يلمح "نهاية" العائدة من بعيد بخطوات شاردة دون أن تلمحهم.

- لا تتجاوزي حدودك يا "قلب".

إلا أنها انفعلت.. قالت بعينين ناريتين:

- أنت تُرسلها إلى منزل قاتل.

ابتسم وقد سحب السهم وبدأ يداعب الوتر بسيطرة دون أن يجرح نفسه كالهواة..

- يا عزيزتي كلنا قتلة في حكاية ما.

ثم استدار نحوها بانفعال متشح بالسواد والحقيقة:

- أنتِ نفسكِ بمجرد أن تتقني الرماية ستغرسين السهم في قلب أحدهم.

راقبته بصمت حذر في حين دار هو حولها بحُنكة، كان يلتهم أفكارها التي لم تصرح بها لأحد:

- ألا تريدين هذا حقًّا يا "قلب"؛ أن تلوثي طرف سلاحك بالدماء كي تضاهينا قوة.

رفعت ذقنها في شموخ معاند:

- وما دمتَ تعلم هذا لماذا دربتني بنفسكَ؟

قالتها باندفاع مطلوب، لحظة مصارحة واجبة.. وفكرت هل يجب أن تصارحه أيضًا بشأن "نهاية".. أنها ترى الآن أنه سيقدم كل واحدة منهنَّ لرجل في زيجات تناسب العائلة ويحتفظ لنفسه بـ "نهاية" كتحلية. إلا أنها صمتت، نظرت نحوه بحذر وهو يسحب السهم ووتره ويوجهه نحو بومة تتوجه نحو نافذة أمها ولكنه لم يضربها. مط شفتيه ببرود ثم قال بكلمات محكمة:

- بعض التمرد يحتاج إلى السيطرة بطرق خاصة.

شعرت بمزيج من الغضب والنار الحارة تجري في عروقها، واجهته بشراسة غير عابئة بشيء.

- أهذا ما تفعله.. تكبح تمردي بوضع حدودك.. كي أتحرك كدجاجة تظن أنها تنعم بالحرية في قفص!

هنا واجهت عيناه عينيها، ردّه بدا باردًا ولكن لا يوجد ضمان مع "شاهق الأرقب".

- أفعل ما أعرف أنكِ تحتاجين إليه.

وفجأة وبلا مقدمات غرس أصابعه في لحم ذراعيها، آلمها بسطوة تأديبية كي تدرك الحقيقة، ثم تابع بهسيس قاتم:

- إياكِ أن تنسي يا "قلب" من تكونين.. إياكِ أن تقعي في نفخ غرورك.

معه هي حائرة على الدوام، لا تعرف هل يشجعها أم يحبطها، يقدرها أم يهينها.. يحافظ عليها أم سيسلمها كجارية باسم زوجة في يوم ما مثلما فعل لتوه مع "بداية".

قالت وقد اغرورقت عيناها بشبه دمعة.. مجرد شبه، "قلب" لا تبكي.. "قلب" الأرقب لا تبكي:

- لن أسامحك أبدًا على ما فعلته مع "بداية".

أمَّا هو فلم تتبدل ملامحه، كانت جامدة كنبرته التي بدت باردة مثل صقيع مظلم.

- ومن قال إنني قد أطلب منكِ الغفران!

واقترب منها، وصلتها أنفاسه باردة مثل هواء تهديدي:

- لا تتجاوزي حدودكِ يا "قلب".. هناك وجه مني لا أريدك أن تريه.

وهي بمنزلة الأخت الصغرى له.. العنيدة، المحاطة بقوة

مثل اللعنة لا تتمتع بها نساء الإقليم. تثير إعجابه وغضبه في اللحظة نفسها.

أما هي فاقتربت منه بابتسامة مسيطرة أخيرًا بعد الكثير من الانفعال، استعادت رباطة جأشها بسرعة وتحدته كتلميذة مشاغبة:

- أنا أريد أن أتعلم من كل وجوهك يا شاهق..

والمبارزة بينهما مثيرة، ممتعة بلعبة حرب وعقل.. هي ترفض مكانة الإناث المعتادة وهو يدعمها، شيء غامض داخله دومًا ما يدفعه إلى تشجيعها، حتى إن كان تحت ستار السيطرة على التمرد بمجاراته. ولكنها تظن أنها تفهمه.. تظن أنه سيؤمن زيجاتهما واحدة تلو الأخرى كي يأخذ هو "نهاية"!

لا تعلم أن موافقته على الراعي ومباركة الطلب سياسية بحتة، عليه أن يقوّي روابطه مع العائلة التي تساويهم قوة في الإقليم. خطوة أولى كي يحقق ما يصبو إليه.

هي ما زالت قليلة الخبرة لتفهم متاهات عقل رجلٍ مثله.. يودوس كلها لا تفهم متاهات عقل رجلٍ مثله..

وأنهى الحوار بنبرة باترة تقلب الأوراق تمامًا:

- إليكِ وجه آخر إذن.. بعد عدَّة أيام سأتزوج من "سيراب نجم"!

***

كانت "بداية" تنظر من النافذة في صمت، حلَّ الظلام وأمها ما زالت في خلوتها لم تغادر الغرفة بعد.. أحيانًا تختفي "ضوء" في الغرفة أيامًا، لا يسمعون حتى أنفاسها فيظنون أنها ماتت وتعفنَّت في فراشها أو وهبت نفسها لمخالب العقاب كي يغرسها فيها ويأخذها للمشعوذ مجددًا،

ولكن ولا واحدة منهنَّ تجرؤ على كسر قفل الغرفة، يهزم خوفهم منها خوفهم عليها ويبقون هكذا في حيرة، حتى تظهر هي فجأة بوجه قاتم وجسد جميل لامع وكأنه جسد فاتنة ثلاثينية فوق وجه مشوَّه وتطلب "نهاية" فتأخذها وتدللها وتطعمها وتغني من أجلها وهي تعانقها في حنان.

تلك المرة تأخرت "ضوء" في الظهور، تنهدت "بداية" وهي تنظر من النافذة مع تفكير طويل:

- "نهاية" تبكي عند البئر.

ردَّت "قلب" بجمود:

- ما الجديد؟

حدقت إليها "بداية" بغضب ولوم:

- ألا تشعرين أنكِ السبب.. أنتِ من أخبرتِها بهذا الهراء عنه والآن هو سيتزوج.

نظرتْ نحوها "قلب" في صدمة:

- هل تظنين حقًّا أن زواجه سيمنعه عنها حين يريدها؟!

ثم مطَّت شفتيها بقسوة غاضبة:

- في كل الحالات كانت ستبكي.

وبعدها التمعت عيناها في تمرد، رفض الفكرة نفسها..

- لأن الغبية تحبه.

فكرة من وجهة نظرها تقود المرأة نحو الجحيم، قفص.. سجن.. أي تعبير يبيح تحكم رجل فيها ودخولها بكل رضا لشراك النسل والفراش والأثواب المنفوشة!

"نهاية" تريد، و"بداية" مجبرة.. والنتيجة واحدة.. نعجة في قيد.

اقتربت من "بداية"، جاورتها وهي تراقب أختهما الصغرى ثم قالت بسوداوية:

- هذا الإقليم يكره النساء.

ردَّت "بداية" ببؤس غريب، بؤس يقول إنها بدورها تحمل أفكارها الخاصة ومخاوفها ورفضها المكتوم:

- يودوس كلها تكره النساء.

ضحكت "قلب" ساخرة:

- يودوس تكره الجميع.. باستثناء البارود ورجاله.

لكزتها "بداية" متابعة:

- والساحرات؟

وهنا عبثت "قلب" بمزاح قاسٍ:

- يبدو أن "شاهق" قرر أن يعيد إنتاجهنَّ.

ضحكة قوية تسللت من كلتاهما، ضحكة ما لبثت أن تحولت إلى بتر، خوف من مجهول بدايته "قاتل الذئاب"، ولأول مرة تنظر "قلب" نحو أختها بخوف وحُب.. تحيطها بكلتا يديها.. وتقول بنبرة وحشية قاتمة:

- ارفضي.

ابتسمت "بداية" باستسلام:

- وهل أملك بديلًا.. هل تمتلكين أنت!

اشتعلت "قلب".. تلك الكلمة.. الحقيقة البائسة، تشعلها أكثر وأكثر. حقيقة الهروب منها وَهْم.

كانت الأفكار الحزينة تتوالى في عقل "بداية" في حين يتوالى في عقلها هي التمرد. ترفع رأسها في شموخ.. تلتمع عيناها وتقول بجدية تامة:

- أنا سأرفض! لن أتزوج بتلك الطريقة أبدًا.

هلعت "بداية"، تكسرت نبرتها بلا تصديق:

- هل جننتِ؟ هل تعلمين ما مصير كل فتاة ترفض الزواج.. ستُسلَّمين كجارية رخيصة لقصر البارود، يتشاركك رجاله أو لو كنتِ محظوظة يبقيكِ مع محظياته.

قرأت "قلب" في وجهها التلاشي، أحلامها.. أفكارها.. شخصيتها تتلاشى مع الخوف، حتى إنها رضيت بـ"الراعي" فقط لهذا السبب. الخوف. الخوف من هذا المصير والخوف من شيء آخر غامض لم تصرح به. الخوف هو صاحب الصولجان، هو سيطرة الحاكم، الخوف رسالة خاصة حفظها الجميع رغمًا عنهم فبعثرت باقي الرسائل.

همست "قلب" بمعاندة امرأة ستكتب رسالتها الخاصة:

- هذا جيد.. سأكون له إذن كواحدة من محظياته، وحينها سأقتله وأحطم كل تلك القوانين.

شعرت "بداية" بالشفقة من أجلها، "قلب" مأخوذة بشجاعتها.. تظن أن رمي السهام الذي تجيده صقل قلبها مثل الفرسان.. هي قوية، ربما أقوى واحدة فيهنَّ، ولكنها ليست أقوى من "البارود". ولا حتى من أضعف رجاله.

رعدة باردة سرت في أوصالها وهي تتصور المشهد، "قلب" مذبوحة في فراش "البارود"! لا تعلم لمَ قفز إلى مخيلتها هذا الهاجس المخيف، بلا تفكير انتفضت وعانقتها، عانقتها بشدة حتى إن "قلب" شعرت بألم طفيف في عظامها نتاج هذا العناق.. ارتخت ملامحها في حنان ورغم هذا قالت في رفض:

- "بداية".. ما بكِ؟

- أرجوكِ.. لا تفعلي هذا أبدًا.

ضحكت "قلب" ساخرة وقد أرادت كسر التوتر:

- ألن يكون أفضل من الزواج بثَوْر بري مثل هذا الذي ستتزوجينه؟

شردت "بداية" في صمت، عادت إلى مراقبة الصغيرة التي كادت دمعاتها تغرِق النهر نفسه، حمقاء في الثامنة عشر عاشقة لرجل جاوز الخامسة والثلاثين. سمكة أمام كراكن.

قالت بإرهاق وقد بدت في تلك اللحظة شبيهة بملامح أبيها.. تشبثت بذكراه في يأس وكل ما تمتلكه عنه مجرد حكايات.

- هل تظنين أنه حي؟

كانت "قلب" تدرك تمامًا ما تتحدث "بداية" عنه، "بداية" تؤمن أن أبيها هو جانب الضوء.. الحياة.. حتى لو رحل إلى الجزء الأكثر ظلامًا في يودوس. ولكن أين تحيا هي.. هي في جانب أمها المعتم.

وكررتها بيأس ساخر:

- نحن في جانب "ضوء" المعتم!

تجاهلت "قلب" إحساسها بالضياع لأنها كرهته.. هي تكره الضعف.. الاستسلام.. المحاولات الأنثوية المثيرة للشفقة للتكيف. جارت سخريتها بظلمة رغمًا عنها:

- وأنتِ ستذهبين إلى جانب الراعي المعتم.. هنيئًا لكِ.

رمتها غاضبة ورحلت بعدما منحتها ابتسامة باهتة، وحين عادت "بداية" لمراقبة "نهاية" من جديد وجدتها قد تركت النهر وتعود أدراجها إلى المنزل. تعود بفائض ضخم من الحزن والحسرة، وعلى الأرجح ستطرق باب "ضوء" كي تبكي في أحضانها.

"ضوء" وما في أعماق نفسها الذي لا يفهمه أحد..

وعادة الكلمة لترن في أُذنيها من جديد، نبرة "ضوء" وعتمتها في جنح الليل.

"سأقتلك يا "بداية".

***

- "بداية" ستتزوج سيد الرجال، و"نهاية" يريدها نصف شباب الإقليم إن بارك "شاهق"، أما أنتِ.. قليلة الحياء طويلة اللسان لن يتزوجك أحد.

- جميل!

دومًا ما يبدأ الحوار بين "زليخة" و"قلب" مثل عنف سريع، تضرب "زليخة" بيد من حديد وردٍّ "قلب" مطرقة. "زليخة" هي المرأة المتطوعة المجنونة في عرف نساء الإقليم التي تساعد الفتيات، بل وتحبهنَّ.. عجوز بأنف ضخمة كما تشاكسها "قلب" وتدسّ دومًا أنفها فيما لا يعنيها. لم تتزوج.. يُقال إن أحد حراس "البارود الثاني" أحبها حبًّا جمًّا فكان يقتل كلَّ مَن يفكر مجرد فكرة في الاقتراب منها، ولأن الزواج ممنوع على حراس "البارود" كان البديل أن يأخذها جارية، ولكنه رفض.. قال لها في لقائهما الأخير بصوت عميق رخيم.

- أنتِ امرأة يليق بها الحرية.

دومًا ما تضحك "قلب" ساخرة مع تلك الحكاية، تسألها بصدق وكأنها مع كل شيء ترتوي بتلك القصة:

- حارس لـ"بارود" كيف يفكر هذا؟

وتبتسم "زليخة" في حكمة تخصها:

- لهذا قتله..

ارتفع حاجبا "قلب" بسخرية:

- أنتِ عجوز الشيء وعكسه.. تؤمنين بحرية الاختيار وتباركين زواج "بداية" مثل بقرة.

زجرتها "زليخة" بعنف وهي تنظر نحو "بداية" المسكينة:

- تحشَّمي يا "قلب"...

إلا أن "قلب" لم تصمت، قالت بمعاندة:

- أنا أقول الحقيقة وأنتم تحيكون الكذب على قياسكم.

نظرت نحوها "زليخة" بحكمة وبدا وكأن عينيها السوداوين الضيقتين جدًّا بفعل مرض بصري عجز الحكماء عن علاجه تتسلقان ملامحها الجميلة قبل أن تبتسم مستهزئة:

- وأنتِ ماذا ستفعلين يا "قلب" حين يأتي طالبكِ؟

زمجرت "قلب" من بين أسنانها:

- لن يحدث...

- سيحدث.. لقد رأيتكِ في أحلامي وسط موكب.

تشنَّجت ملامح "قلب" كلها، انفجرتْ في جبهتها تلك العروق الزرقاء الصغيرة بنبض واضح.

- لا بدَّ أنها كانت "بداية" والتبس عليكِ الأمر بنظرك منتهي الصلاحية.

- "قلب"!

تلك المرة كانت "بداية" من زجرتها على الفور، وقد حاولت الاعتذار للعمة "زليخة" كما تناديها بحرج شديد، إلا أن "زليخة" أومأت بابتسامة غريبة وتابعت بحكمة سنواتها السبعين:

- لا، كانت أنتِ.. مزيَّنة بشكل رائع وترتدين ثوبًا بلون

أبيض براق يظهر تكور نهديكِ.

حدَّقت "قلب" إليها بغيظ ثم صرخت فيها بقوة:

- تهذين يا امرأة.. وهذيانكِ ممل.

وتركتهم بغضب عدواني تام.. توجهت إلى القوس.. "قلب النبال" ووترها ومارست ما يناسبها فعله.

لن تكون مجرد جسد بتوقيع فتنة.

هي "قلب النبال" نفسه.

***

- "رملة" تكرهك.. تقول "زليخة" إنها ترسم صورة لكِ على الأوراق كل ليلة ثم تمزقها.

بدأت بها "بداية" الحديث بعدما توجهت لأختها التي فتتت ثمرة تفاح ناضجة بأسهمها، مرة تلو مرة متحدية نفسها كي تصيب قطعة أصغر..

قالتها "قلب" بمشاكسة قاسية:

- تمزق نسخة مني إذن.. لأنها جبانة لا تستطيع مواجهة الوحش.

كانت تعرف مقدار فتنتها جيدًا، وتفهم حقد الفتيات الضعيفات عليها بسبب لهاث أغلب شباب الإقليم خلفها، وما يوقفهم فقط عن طلبها صرامة شاهق وخوف أمهاتهم. صمتت قليلًا ثم قالت بمكر يتجه نحو هنيهة ثرثرة مستقطعة بعيدةٍ عن دروس الرماية والتجول مشاكِسة نساء الإقليم كلهنَّ:

- أما زالت تتملق العجائز كي تجد زوجًا؟

ضحكت "بداية" مجارية تلك الفسحة من الثرثرة اللطيفة التي تشتاق إليها مع أختها:

- لقد غسلت جميع أثاث المنزل للعجوز "كنز" منذ أيام، وفي النهاية طلب "مدين" ابنُها ابنةَ بائع التمر وستتزوج على الأثاث الذي غسلته هي.

ومع "نهاية" الكلمة لم تتضاحكا، بل شردت "بداية" وقالت "قلب" بنوع من البؤس الساخر:

- تستحق..

ثم زادت بفلسفة تخصها، منطق قاسٍ ولكن يناسب العميان.. من يتشبثون بقوانين "البارود" في طاعة عبيد ليس أكثر:

- لأنها تبارك قوانين "البارود"، تتغنى بها وتدافع عنها ولا تكترث بكونها مصنفة كبقرة لا تمتلك حتى اختيار الثور.

مررت "بداية" تساؤلها ببساطة تناسب قلبها، لم تكن تفهم سبب أن يكنَّ إنسان لآخر تلك الكراهية الضخمة دون أن يكون قد آذاه.

- ولماذا تعتقدين أنها تكرهك كل هذه الكراهية؟

قالت "قلب" بفطنة تفهم "رملة" ومثيلاتها:

- لأنها امرأة كسول، وأنا امرأة تناسب جبهة قتال.. لأنها لا تستطيع حتى في أحلامها أن تكون أنا.

كانت "بداية" حزينة، كانت تفكر، ألا يكفيهم الماضي بكل مخاوفه ولعناته.. الحاضر أيضًا ممتلئ بالحقد والكراهية! ردَّت "قلب" وكأنها سمعت أفكارها:

- لا تستهيني بالحقد، الحقد يولد البغض.

قالت "بداية" في ضياع وسط ثبات أختها الصغيرة:

- يبدو أنكِ لا تكترثين.

مطَّت "قلب" شفتيها في لامبالاة حقيقية:

- ولمَ أكترث بذبابة!

حينها انفعلت "بداية" بصدق:

- لا أعلم.. أنا لا أطيق فكرة كراهية الآخرين إياي؛ تخيفني.

رمقتها "قلب" بنظرة تقريبًا عارية من الشعور، كانت تحاول أن تمنع تأثرها الفطري نحو أختها الكبرى اللطيفة جدًّا، لطيفة ستتزوج بثور بري يعرف الإقليم أنه قتل زوجته. إلا أن شعورها حينها جنح نحو الطرف المضاد؛ غضب ضخم مكتوم نحو "شاهق" الذي بارك تلك المهزلة. اقتربت منها، وإن حافظت على الجمود نفسه، فإن ملامستها يديها كانت ملامسة انتماء، جميعهنَّ ينتمين إلى بعضهن بعضًا.. نفس الدماء والضوء ولعنة المسخ.

- أنتِ تتوجهين إلى وكر "قاتل الذئب"، لا تدعيه يشم رائحة خوفكِ.

ارتجفت شفتا "بداية" أخيرًا باعتراف، ذاك الهاجس الذي ينبض في قلبها وتتجاهله، تتجاهله لأنها لا تمتلك سوى الخضوع:

- هل تعتقدين حقًّا بأنه قتل زوجته؟

ضاقت عينا "قلب" بقسوة باردة، بدا القتل هنا حدًّا ضعيفًا مقررًا، جميع سكان هذا الإقليم قتلة بشكل ما، ألا تُقتل النساء بدم بارد بعد موت أزواجهنَّ. قالت ومخيلتها تزعجها.. الخبر مهما بدا قاتمًا أفضل من المجهول ألف مرة:

- المشكلة ليست في القتل يا "بداية".. الجميع يعلم أنه حتى الآن يحتفظ في فراشه بجثتها.

وبترت "قلب" الجملة، كل شيء توقف بعدها حتى الأنفاس.. ونما خوف "بداية" غير المرئي أكثر وأكثر،

وكأنها تهرب من مجهول إلى مجهول أسوء.

كل شيء يتكرر في عقلها همس وصور.

صوت "ضوء"..

"سأقتلكِ يا "بداية".

صوت "زليخة"

"نجاتكِ مع الراعي في الطاعة".

وصوت "قلب" وحاشيتها الأخيرة.. حاشية مرعبة، غير قابلة للتصديق:

جثة زوجته السابقة التي يحتفظ بها في فراش!

***

اعترفت "جمر" في لحظة سُكر مسرحية، كانت ترتدي رداءً أسود فوق عري جميل وتبكي لأن المشعوذ هجرها..

- لا يحبكِ؟

- هل ترك القصر؟

سألتها الفتاة في ملل، لم تكن تبتغي البحث عن عبثية عاطفية بين سجَّانها وصديقتها.. هي نطقت بها دون ترتيب أو إرادة.. هي في قعر الحكاية ولا تفهم كيف ستطفو على السطح ومتى. محجوزة وكفى وكأنَّ السجان نفسه نسي شأنها! انكمشت "جمر" في ثوبها فبدا وكأنه يأكلها ثم قالت في حسرة غاضبة:

- بل ذهب إلى المتاهة!

انتبهت هنا عينا الفتاة، أي متاهة.. هل يرقد هذا القصر الملعون فوق متاهة بائسة أم إن المشعوذ يخرج.. يرحل نحو مكان قاتم بعيد. سألت تلك المرة ولكن بنبرة حذرة متأنية:

- ألا يخرج المشعوذ من القصر؟

ضحكت "جمر" حينها ضحكة باردة مخيفة:

- هو ملعون.. لا يمتلك قوة خارج القصر، أضعفته السنوات وتمكنت منه. وعليه كل عام أن يقضي شهراً كاملًا في المتاهة، يبدأها وينهيها كي يعود حيًّا من جديد.

- أين توجد؟

- في باطن الجدار في غرفة سرية لا يعرفها سواه.

وضعت الفتاة كفها فوق شفتيها في تفكُّر وشفقة:

- وكأنه مثلنا بشكل ما ضعيف.

كانت "ثلج" تراقب كلتيهما بابتسامة ماكرة، تخلق من بين يديها أسهمًا ثلجية صغيرة وتوجهها نحو "جمر" المشتعلة فتطفئها حتى تشتعل من جديد. وكانت "جمر" مشتعلة فعلًا.. بسبب العشق والغيرة.. قالت بغضبٍ أنثوي هو واحد سواء كانت إنسية أم جنية أم جمرة!

- هل وقعتِ في غرامه!

انزعجت الفتاة، خافت وارتبكت وشعرت بأن كل ما حولها لا تفهمه.. حتى نفسها لا تفهمها.. صرخت نافية التهمة:

- لا!

إلا أن "جمر" تابعت بغضبٍ خبيث:

- السجينة تحب سجانها.. هذا أمر شاهدته من قبل.

انتفضت الفتاة بفضولها الذي لا يهدأ:

- هل تقصدين أن أمي أحبت المشعوذ؟

ضحكت حينها "جمر" بقسوة، ضحكتها نفسها هنا بدت

مشتعلة:

- يا غبية.. "ضوء" لم تكن سجينته، هو من البداية أرادكِ أنتِ منها..

ارتعش جسدها ككلٍ، أحاطت نفسها بذراعيها بحزن وقد شعرت أنها هي مَن في المتاهة، تدور وتدور وتعود إلى النقطة نفسها. تركض في محراب سجانها ركضًا محدودًا مقيدًا، سجان لم تره.. لا تعرفه.. أشبه بظل.. بكابوس غريب. ارتبطت به دون وعي، جاور مصيرها مصيره دون خيار. ونظرت نحو "ثلج".. منقذتها أحيانًا، البرودة اللطيفة من نيران "جمر" وقسوة هذا القصر الكئيب.

- لا أفهم.. أنا حتى لست جميلة.

اقتربت منها "ثلج".. كانت لمساتها مؤلمة، وكأنها تهرس عظام وجهها، تعاقب القبح أو تحاول إعادة تشكيله. إلا أن هذا كان فوق قدراتها.. توقفت بعدما كادت تجمد ملامحها وهمست بالقرب من كل تفاصيل وجهها همسًا باردًا قاتمًا:

- هو ينتظرك من قبل ولادتكِ.

ثم وضعت فجأة يدها على ثغرها؛ كانت تمنعها من الاسترسال في الحديث. شعرت ببرودة تامة تتملك منها وكأن جسدها كله يتجمد، يموت.. قبل أن تهمس لها "ثلج" من خلال اللمسة.. استطاعت أن تستمع لها من خلال تلك اللمسة.. صوتها وكأنه صدى خمس نساء جميعهنَّ يصرخن بكلمة واحدة:

- تلك المرة حين يخرج من المتاهة سترينه، لقد حان الوقت.. ولهذا عليكِ أن تهربي.

وقبل أن تنطق بتساؤلها كان عقلها قد مرره، أيقنت أن

ما يحدث بينها وبين "ثلج" نوع من التواصل الروحي لا تعلم عنه "جمر" شيئًا.

- كيف؟

وتناثرت الحروف مثل أشلاء.. سراب من الممكن أن يُصبح حقيقة، ونجاة حتمًا ستثير جنون الوحش.

- من خلاله.. الرجل الوحيد المسموح له بالقدوم إلى هنا.. "غضب الراعي".

الفصل الثاني
غضب الراعي!

تركتها "ثلج" مع فكرة مغروسة؛ أمنية.. مجازفة.. قرار مخيف تحتاج إلى أن تستشير فيه البومة على الفور. ظلَّت تطوف في الغرفة بتوتر، و"جمر" باقية لم ترحل.. زاغت عينا الفتاة وسألتها بسذاجة تامة في حين تحاول بلهفة مراقبة النافذة:

- ألا تريدين النوم؟

غامت عينا "جمر" ولكن بهدوء.. سكون غريب مريب قبل أن تتأمل ملامح الفتاة من كثب وتقول بخبث:

- هل تصرفينني؟

ارتبكت الفتاة أكثر.. تحركت إلى الخلف مسرعة فكادت تتعثر بطرف ثوبها السماوي الضخم وعينا "جمر" تشتعلان بغضب مثل طوفان، تهمس بفحيح وهي تقترب منها:

- هل تمارسين الألاعيب الآن؟

انتفضت تنفي.. حتى إن كلماتها انفكت بلا وعي:

- لا.. لا.. أنا فقط كنت أريد النوم.

إلا أن "جمر" كانت نارية.. محتدَّة مثل لهيب، اقتربت منها أكثر وتلك المرة كانت لمستها مثل لسعة عقابية، عقاب كنوع من التسلية أو ربما التحذير. وفجأة طلَّ سكون.. فتحت عينيها ببطء لتجد أن "جمر" قد رحلت، القبو أصبح هادئًا فجأة وكأنما صخرة صمت سقطتْ فوقه، أمَّا هي فكانت مهشَّمة.. تفكر في كل ما حدث، جنون "جمر" وخطة "ثلج"، المشعوذ ومتاهته التي على ما يبدو

سيخرج منها تلك المرة لها. و... **غضب الراعي**.

هذا الرجل الذي لا تعرفه والذي عليها بحيلة مستحيلة ما أن تهرب من خلاله. توجهت إلى النافذة حيث تحط البومة حين تحضر، وتدثَّرت بالغطاء تاركة فراشها وحكاية الزهور اليومية وقد أيقنت أن الوقت حان لحكاية جديدة، خليط من الخوف والتردد والإثارة يحيط بها، ورغبة قوية في التراجع عن الفكرة والاستسلام لمصيرها المحتوم مع المشعوذ. ولهذا عليها أن تسأل البومة.

***

"نهاية" تحب العناق و"قلب" تكرهه.. ولهذا حين كانت تزورهم "زليخة" في الصباح حين تتمرد "ضوء" عليهنَّ وتختفي في غرفتها بالأيام، فتأتي وتعد لهم الطعام والحليب والأعشاب وتُجلِس "نهاية" على فخذيها ثم تقطِّع لها ثمرة برتقال. كانت "زليخة" عجوزًا بجسد ضخم، طالما سخرت النساء منها وشبَّهن جسدها بأجساد الرجال، حتى إن واحدة منهنَّ مرة أطلقت شائعة خبيثة أنها تمتلك عضو رجل، ولكن كلهنَّ حبسن ألسنتهنَّ حين وقع في عشقها أحد حراس "البارود"، لم يكن رجلًا ضعيفًا، بل كان رجلًا له هيبة.. كان يخبرها دومًا بالحكايات عن البارود الأول والثاني وقوانينهم، وهي تقصها للبنات، فتنهرها "ضوء" ولا تبالي.. تقصها مجددًا ومجددًا ثم تلوي فمها ساخرة..

"كي يفهمن عقاب التمرد".

ولكن حكاياتها لم تكن تخيف "قلب"، بل كانت تغذي تمردها أكثر.. تتذكر "قلب" حين كانت صغيرة في عمر العشر سنوات وقد أخذتها معها إلى السوق لابتياع بعض الأشياء.. وقفتا حينها أمام موكب غريب، مزين

بورود سوداء وشرائط داكنة، والرجال يحملون امرأة فوق أكتافهم على ما يشبه الفراش ولكنه مدعوم بقضبان خشبية أفقية عريضة. كانت المرأة تبكي بحرقة وتولول وتنتف خصلات شعرها، كانت شابة في عمر أمها تقريبًا، ومزينة وكأنها عروس! حينها سألتها "قلب" بلهفة طفلة تتوق إلى المعرفة:

- ما هذا؟

أجابت "زليخة" ببساطة قاتمة:

- إنها تتحضر للموت.

- لِمَ؟

- لأن زوجها مات.. كل امرأة يموت زوجها يجب أن تلحق به (5)

- ولكنهم يضعونها في القارب حيَّة؟

أعلنت "زليخة" الجواب باستسلام غريب وتفسير أغرب، يبدو ساخرًا من الإطار إلا أنه حقيقة مؤكدة.

- الأفعى تحب اللحم الطازج يا عزيزتي.

وبعد سنوات كررت "قلب" الكلمة نفسها لـ"نهاية"، فسَّرتها ساخرة والموت في الإقليم دومًا ما يتغذى على نصوص قوانين يودوس التي لا تتغير.. وإن تغيرت فالتوقيع لـ"بارود" يشكلها تبع مزاجيته.

كل رجل يجبره الموت على ترك أنثى تُقدَّم قربانًا حيًّا للأفعى غاند، وبهذا يضمن سكان يودوس عدم ثورتها جوعًا، ويقدمون ولاءً مخفيًّا المشعوذ.. لا ضير من مغازلة العدو أحيانًا حال تبدل الحال.

بعد سنوات كانت "قلب" هي من أمام الموكب و"نهاية"

جوارها خائفة، مذبوحة بالفكرة والتصور.. و"قلب" تسخر أكثر:

- حين تموت المرأة يداعب هو زوجته الثانية والثالثة والخامسة والعشرين لو أراد.

سألتها "نهاية" في عجز بريء:

- ولو كان متزوجًا بخمسة وعشرين واحدة ومات؟

- إذن ستنال الأفعى وجبة دسمة!

قالتها "قلب" باستهزاء وسأم، غناء الشعراء المجانين يتغزل في "غاند" وغناء خادمي "البارود" يلعنون المشعوذ وأفعاه، ويودوس محاصرة بين مطرقة وسندان لا يبدو منهما فكاك. تابعت بهدوء بائس والرجال يدفعون المرأة وينزلونها في القارب بعد أن قيدوها به ووضعوا جوارها الطعام والشراب.

- الخنازير تمتلك حظًّا أفضل منا يا "نهاية".. فحتى لو تخلصتِ من قيد زيجة فُرِضَتْ عليكِ ستُقدَّمين كوجبة خفيفة للأفعى.

وخبأت "نهاية" عينيها عن النظر نحو المرأة المكلومة، في حين ينسحب الناس بعدها لأشغالهم وكأن ما يحدث قانون حياة.

يودوس قاسية بأمر "البارود".

هكذا علمتهم أمهم و"شاهق"، وحتى "زليخة".

ولكن "غاند" والمشعوذ.. الجحيم نفسه.

***

"نهاية" تحب العناق..

والنهر وقفز الأسماك الملونة وشكل النجمات في السماء

حين تشكل حروف اسم "شاهق"! واليوم هي ستتوقف عنه.. هي لن تعانق أحدًا أبدًا، اليوم هو أسوأ يوم في الحياة.. يوم الحزن التام.. يوم اختطاف العقاب لـ"ضوء" ويوم رحيل "فيصل" ويوم زواج "شاهق" بامرأة أخرى. امرأة سيلامسها، يعانقها، ينظر إليها كل صباح وتراه كل مساء قبل أن تخلد للنوم، امرأة محظوظة جدًا وهي التعيسة.. هي أتعس فتيات الإقليم.

كانت في ثوب، بل تتدلى من نسيج.. ضعيفة مهانة مهزومة وعليها أن تحضر عرسه. أسبلت أهدابها في عجز، و"بداية" كانت من تجاورها، تدعمها بحنان أخت كبرى وتُقبِّل كل لحظة جبينها وكتفها ومنابت خصلاتها البنية الهادئة، تحثها ألا تبكي وهي.. هي كانت في انهيار، زحام الموكب طلَّ وهو يقف في مقدمة منزله في انتظار عروسه.

- "نهاية"!

نبرة "بداية" تناديها.. حروف نقشت في صدرها تصدُّعًا.

انتبهت مع الصوت، وعجوز تدفعها بمهانة وسط الجمع كصغيرة بدرجة جمال متواضعة مباحة للملاحظة. كانت أحد كارهي أمها وأرادت بخبث أن يراها شاب فاسد ويطلبها. وكان هو على بُعد أمتار منها، عيناه لا تراها كالعادة.. عيناه عشقها.. مأساتها.. وجع ساق غير محتمل لو فقط التقيا في نظرة.. "قلب" كذبت عليها وكانت حمقاء لتصدق، "شاهق" لم يرها أبدًا.

ولن يفعل.

هزمتها عَبرة، وتهليل آخر نسل الساحرات يتعالى.. لحظة جبارة خانقة وجمال "سيراب نجم" يظهر من تحت وشاح خفيف أسود. شعرت برأسها مسجون في خيوط عنكبوت فعلًا، وعالمها ينتهي كاسمها تمامًا، كانت لحظة غير عادلة،

نصف انهيار وانسحاب تام، وهي الضعيفة قليلة الحجم قد هرستها الأجساد المتتابعة وأفقدتها اتزانها كما يفقدها عشقه هُويَّتها.. حاولت الركض، الهروب ولكن انتهت بسقوط مهين.

وهنا لاحظ.. عيناه انتبهت بنظرة قاتمة كتأثير مقصلة في حين ترفعها النسوة مغشيًّا عليها!

يأخذونها في زاوية ويحاولن إفاقتها، احتجز كل اللحظة في نظره وحبسها في قبو ذاكرته، ثم أخذ عروسه وصعد إلى غرفته.. "شاهق الأرقب" صاحب المتاهات العدَّة، وهو على بعد خطوة من إنهاء أولها.

***

جدار بلون قرمزي قاتم، فراش ضخم، وعنكبوت معلَّق على النافذة تركه لها كتحلية!

مكتوب لها منذ ألف عام.. هكذا أخبرتها "حرير"، ولكنها راوغت وقالت بهيئة زئبقية ماكرة بعدها إنه لن يعطيها ما تريد بالسهولة التي تتوقعها.

نظرة ثعلبية تسربت منها نحوه، في حين بدأت تتهادى في جلبابها الأحمر الحريري اللامع، كان ينسدل على جسدها بإغواء مرتَّب. له أطراف مغزولة من خصلات فضية حقيقية! خصلات جداتها، إرث عائلة "نجم"، إذ كل وريثة للساحرات تمتلك جلبابًا أطرافه مطرزة بخصلات الجدات. حول عنقها وحتى سرة البطن يمتد سلسال فضي في طرفه حلية دائرية مفرغة مرصعة بالياقوت الأحمر. أما في أذنيها قرطان ضخمان بهيئة السلسال نفسها، ولكنهما ليسا فارغين، بل الياقوت الأحمر قلبهما.

تنهدت بنعومة حية وهي تقترب منه وتمرر أصابعها ببطء

فوق كتفه:

- أنت رجلٌ استثنائي.

ثم طلت ابتسامتها، بدت مثل قناع، في حين انفرجت شفتاها بخبث نبيذي الطلَّة:

- أنت رجلٌ ماكر.

شقَّ هو صرامة ثغره تعبير هادئ ساخر:

- لستُ أنا.. أم العقرب رأت أن تجهز لكِ العشاء بطريقتها.

قهقهت بغرور:

- هل تظن أنها تخافني؟

مطَّ شفتيه وتابع وكل شيء فيه ثابت؛ نبرته.. جسده، هيئة عينيه الشبيهة بجبل من الغطرسة:

- تلك العجوز قتل "البارود" كل عائلتها أمام عينيها، لا أعتقد أنها تخاف شيئًا.

مالت بعنقها وتخطته، توجهت إلى النافذة ثم فتحتها، وبدا وكأنها تُشبِع مسامها من الهواء قبل أن تمسك بالعنكبوت الصغير المسكين الذي حاول الهروب وتأخذه في فمها في قضمة واحدة. ابتسمت بعدها باحتيال ثم استدارت له:

- كل حاكم يمتلك تصريحًا بالقتل.

لم يُدهَش، الجميع يعلم أنها خادمة "البارود".. لم يُعقِّب بل راقبها بجمود هادئ وهي تقترب منه، تدس نفسها في صدره، تلتصق به حد اندماج اللحم باللحم وارتطام العظام بالعظام. تزحف هي وعطرها بين مساماته وتهمس بإغواء شبيه بالتعاويذ:

- اقتلني بطريقتِكَ الخاصة يا "شاهق".

استقبل رغبتها ببرود تام، لم تُحرِّك به شعرة.. اضطجع فوق مقعد.. تواطأ غروره مع خطته والتمعت دُكنة عينيه وهو يبدأ شعائر ليلة زفافهما بطريقة مختلفة:

- أعطيكِ ما تريدين وتعطيني ما أريد يا "سيراب".

أكل نظرتها الغضب والحقد، كانت تعلم أن "شاهق الأرقب" لن يجاري نبوءة حرير بإرادته فقط للتحقيق، هناك خطة خبيثة ما تنمو في صدره ولكنه بدأها سريعًا جدًّا، لغة الأجساد التي تجيدها مع كل رجل لم تفلح معه. ومع هذا تحركت بثقة فوق رؤوس أصابعها.. وضعت شفتيها فوق شفتيه في قُبلة جامحة، قبلة تصيب أي رجل بتخمة العظمة، ومنهم من يسلم نفسه وأمواله أحيانًا بعدها في سبيل ليلة مع ساحرة. إلا أنه استقبلها بتحجر، ثبات مثل ما يتحاكون عنه حقًّا، فـ"الأرقب" رجلٌ مثل كومة حجر.. التأثير به معركة.

تنهدت والتعب المزيَّف يتساقط من كلماتها:

- ألا يجدر بنا النوم حتى ثم نتفاوض بعدها..

سخر بنبرة خشنة:

- ربما يتعارك معكِ النوم بعد ما سأطلبه منكِ.

وتقدم نحوها، تأملها مطولًا ثم اقترب حتى صارت المسافة بين فمه وأذنها قريبة جدًّا، وقال بنبرة ثابتة هادئة ما جمَّدها. انتفضت عيناها فتسرَّب منها شعاع فضي خالص قد يبدو لرجلٍ عادي مرعبًا، ولآخر سحرًا فاتنًا، ولكن له مجرد تناثر شظايا أول صدمة.

همسهست بعدها بفحيح متقطع تهديدي:

- ما تطلبه مستحيل!

تركها وتوجه إلى فراشه ليرقد باسترخاء ويطيل النظر بهدوء نحوها، في عينيه عتمة بها ركض خيول عدَّة جميعها رغباته وفي جعبته خطة أخبث مما تصورت. والمعركة بدأت مبكرًا..

شاهق الأرقب لن يمنحها النسل بسهولة، فهو يطلب بفي المقابل المستحيل نفسه

***

قنديل يرتعش نوره، حانة مظلمة متواضعة، سمين يغطُّ في نوم عميق، وعاهرة تتحرك بتثاقل كي ترافق محاربًا قديمًا قرر أن يدفع كمية لا بأس بها كي يشعر بالحياة من جديد. رجال "البارود" حين يصيبهم العجز يتوارون.. ينقدهم "البارود" الكثير من الأموال كي تلتمع أعين الشباب الجدد بالانضمام طوعًا إليه. فالمرتزقة لا ولاء لهم.. الجيش قوته في حماسه، ولائه وإيمانه وعقيدته.. ارتاحت عيناه والعاهرة تدلله، كانت تعامله برفق كشيخ هش لم يتبقَّ من عمره الكثير، وبخوف ورهبة أن يكون أحد القادة المخفيين في جيش "البارود" أو جاسوسًا خبيثًا يبحث له عن صيد مذنب كي يقتلوه في نوع من الرياضة. ملأ رئتيه بالهواء ثم تنفس ببطء وأغمض عينيه وهو يقول في نوع من الثرثرة:

- هل تعلمين ماذا فعل "البارود الأول" ليضمن ولاء رجاله؟

أُجفلت العاهرة، لم تكن تعلم ما يجب فعله من رغبة في سماع الحكاية أو الهروب في أبراج الصمت والأمان الخاصة بسكان يودوس كلهم.

ضحكت بإغواء وقد حاولت ممارسة عملها بإتقان كي

تلهيه:

- لا أعلم! أنا مجرد امرأة تكسب رزقها.

لم يعقِّب.. ارتاح أكثر بفم ساخر كئيب وقرر سرد الحكاية وإن كان يعرفها الجميع فعلًا:

- قطع آذانهم؛ كان يظن أن الصمم سيعطيه مزية السيطرة عليهم ولا يجعلهم أداة في يد طامع في الحُكم، إلا أنه اكتشف أن الصمم جعلهم فريسة سهلة لأعدائهم، فباتوا في القتال رجالًا منقوصي الانتباه. حمقى يسهل قتلهم.

تململت في عدم رغبة في سماع الباقي، خاصة حين لمحت ظلًّا طويلًا تعرف إلى من ينتمي تحديدًا؛ **"أقوى محاربي البارود وجبَّاره"** خلع الظل خوذته الحديدية وجلس إلى طاولة قريبة منهم، في حين أشار للنادل بطرف سبابته كي يتقدم ويسكب له كوبًا ضخمًا من النبيذ ويضع أمامه طبق اللحم. خلع عن بنطاله بثقة الحزام الجلدي العريض الذي يعلِّق فيه سيفه المصنوع من الفولاذ الصلب، ثم رفع قدمه باستعلاء على المقعد أمامه، فلاحظت مقبض خنجر صغير يظهر من رباط جلدي فوق حذائه. بدأ يقضم اللحم بهدوء ويرتشف النبيذ دون أن ينظر نحوهم، ولكن هي كلها ارتجفت.. وثبت ترغب في الرحيل، إلا أن الشيخ أوقفها ونقدها أموالًا أكثر ولم يبدُ الأمر من أجل جسدها، هو فقط يريد من يستمع للحكاية. نظرت إلى الظل بتوجس ثم جلست مضطرة، والشيخ يغيب بابتسامة ماكرة ويتابع الحكي:

- حتى جاء "البارود الثاني" وقرر أنهم يحتاجون إلى السمع، وتوقفت المملكة عن قطع الآذان، ولكن بدلًا من ذلك قطع ألسنتهم؛ أراد أن يقطع عنهم إمكانية التآمر

عليه، ونجح لوقت حتى اكتشف أن الرجال قد خلقوا بينهم نوعًا من التواصل رغمًا عن ذلك، ونجحوا فعلًا في التآمر عليه حتى قتلوه ونصّبوا بينهم أول أخرس بارودًا.. حينها زاد الهرج والمرج، عاثوا في المملكة فسادًا. اغتصبوا النساء بلا تمييز وقتلوا نصف الرجال، ولم يسيطر عليهم سوى "البارود الثالث". أكثرهم مكرًا على الإطلاق.

ابتسم "جبَّار" ابتسامة جانبية ساخرة، والشيخ بعدها تابع بهسيس معاند:

- هل تعلمين كيف تحافظ عائلة "البارود" على نسلها. كل "بارود" يضع وريثه في مغارة، سرداب مجهول تحميه الدببة وتعويذة الساحرات. يترك معه أمه حتى يشتد عوده ويصل إلى درب الرجال فيطلب منه أن يقتلها. وحين يقتلها يحترق قلبه ويصبح بارودًا بحق.

التمعت عيناه حينها، في حين ضرب جبار بالكوب الفارغ الذي أنهى نبيذه لتوه سطحَ الطاولة وقال بصوت خشن سرب إلى عظامها الرهبة:

- هل انتهيتَ يا "تاريخ"؟

حينها تجمدت دماء العاهرة ككل، لقد سمعتْ عن هذا الرجل.. يطلق على نفسه "تاريخ" يدور في الطرق والأزقة مع الشعراء المجانين ليقص حكايات "البارود"، ويضع حواشيه وتفسيراته بسخرية لاذعة ثم يغيب.. يختفي أشهرًا على حدود أرض الموتى منفيًّا بأمر "البارود" وجبَّاره ويتسلل ويعود من جديد.

ابتسم الشيخ بمشاكسة:

- لمَ لا تقتلني وترتاح؟

قال جبَّار وقد تململت عيناه من حوار مكرر لا يستحق

أن يبدد عليه طاقته:

- أنت تعلم.. نحن نحتاج إلى التاريخ دومًا، الحقيقي منه والمزيف.

ثم استقام وسحب خوذته وأعاد تركيب حزامه وسيفه وقد بدا لناظره مخيفًا.. سواد عينيه ظُلمة تعرفها كل عاهرة في يودوس.. كل من تركت نفسها حتى حملت بنغل أو نغلة وكانت مهمته هو الأسوأ والأصعب والأحقر..

"قتلهم".

بلا تردد... بلا ذرة شعور.. بلا ندم.

من تراودها نفسها بالإبقاء على نغل سيجدها جبار.. وفي النهاية سيذبحه.

استقام ثم سحب الشيخ الهزيل بذراع واحدة وجرجره خلفه في رحلة يفعلها كثيرًا، عربة نغول ورحلة جديدة نحو أرض الموت.

***

الشعب وإن فقد الدكتاتور، سيستهويه دكتاتور آخر وسيسلم نفسه إليه برضى!

الشعب يخنى في البداية قهرًا، وبعدها نجاة، ثم ببساطة يعتاد الانحناء.. يظن أنه الخيار الوحيد.

الشعب لا يستطيع الحياة دون قوانين، حتى لو جائرة.. امنعها عنه وسيتوسل إليها بنفسه!

حَمَام مذعور، وعصفورة سيئة الحظ!

وقف يراقب هذا السهم الشارد الذي ظهر من بعيد كي ينغرس في النهاية في قلب عصفورة مسكينة سقطت تحت قدميه مباشرة، طارت بسرعة كبيرة وهزمها السهم بسرعة

أكبر، وفي النهاية ماتت بسرعة تفوق الاثنين.

نظر نحوها نظرة باردة بلا معنى، ثم رفعها بيده أمام وجهه مباشرة وقد تأملها ساخرًا:

- موت بلا ثمن.. يا لها من حقارة!

وفي لحظة قذفها خلفه لكلب يتجوَّل فالتهمها على الفور، في حين مالت شفتاه في انحناء قاتم:

- إنها عدالة الأرض!

تنفَّس ببطء، بدا وكأنه يشمشم عبق الأرض والعصفورة المأكولة وأنياب الكلب وعطر أنثوي ليس ببعيد. تحرك ببطء والكلب خاصته في أعقابه، كان كلبًا ضعيفًا هزيلًا لا يستطيع حتى اصطياد العصافير بنفسه، وجده في أحد رحلاته وقد تجمَّعت حوله بعض القطط الشرسة وأخافته ومنذ حينها احتفظ به! حينها تعجب أحد رجاله، فنظر نحوه بنعومة وهدوء ثم مط شفتيه بعقلانية قائلًا:

- ماذا! أتظن أنني بلا قلب؟!

ثم قتله.

فرجال "البارود" لا يحق لهم التفكير!

رجال "البارود" لا يحق لهم الزواج ولا النسل.. المتعة فقط وإن جاءت بالنغول فمصيرهم معروف.

كل بارود وضع قوانينه، وهو تعلَّم جيدًا من أبائه حتى استحق اللقب.

هو أسوأ بارود فيهم

انتبهت أذناه لصوت سهم قريب، والعطر يتزايد.. وثب فوق صخرة كانت في طريقه ثم تعلق بفرع شجرة قوي استطاع بسلاسة أن يتوارى خلفه ويراقب باستمتاع المشهد

أمامه. فتاة محتجزة في ثوب داكن لا يناسبها، كانت صبغته خضراء مثل أوراق أشجار اللبلاب إلا من رقعة بيضاء مربعة تحيط بصدرها أو بالأحرى تخبئه، خصلاتها بنية ناعمة تنسدل حتى خصرها وعيناها متحفزة مثل غارة حرب تسقط بشكل أهوج مع أسهمها على أجساد عصافير مسكينة.

حدق إليها بعينيه مدةً وجيزةً بتأمل صارمٍ، ثم أشار إلى كلبه كي يبتعد قبل أن يثب من جديد تاركًا الفرع ويقرر الظهور بنفسه. قال بنبرة ساخرة هادئة:

- مثل وردة ترتدي خوذة!

استدارت وقد بدا الصوت مثل الصدى، لمحة من خيال.. عمق طفا على سطح الفراغ حولها وبسلاسة احتله. دارت بجسدها دورة كاملة مرتين بشكل سريع مضطرب وفي الثالثة لمحته فوجهت سهم قوسها نحوه!

تأملته للحظات قليلة بنظرة تقييمية، ملابس تمرر ثراء.. طلَّة راقية لا تشبه بأس رجال عائلتها، عيون زرقاء.. شعر ذهبي! عمر يقارب الثلاثين، لا يَمتلك أحدٌ تلك الخصلات سوى سكان مملكة العرش. يُقال إنهم معروفون ببذخهم حتى إنهم يشبهون البهلوانات، يحيط بهم "البارود" نفسه في نوع من المتعة الرخيصة التي يحتاج إليها كل حاكم. رمقته بازدراء غير مبالية بوسامته قبل أن تقول بنبرة جامدة:

- أنت منهم؟

ابتسم بهدوء واثق، لم يبدُ أنه رف له جفن من توجيه سلاحها، كان يتأملها ببطء.. يتأمل كل مساحة فيها ظاهرة أم غير ظاهرة.

- من؟

تابعت وقد احمرَّت وجنتيها في غضب من نظراته:

- سكان العرش.. حاشية "البارود".

اتسعت ابتسامته أكثر وبدا حجر الياقوت واضحًا في بِنصره وهو يرفع يده متعجبًا:

- أهكذا تسمونهم؟

رجة تردُّد تمكنت من ملامحها إلا أنها تابعت بشجاعة:

- هكذا يُطلِق هو عليهم!

- هل تكرهينه كما الجميع؟

مطت شفتيها وقد تأكدت الآن أنه من حاشيته، جاسوس بهلواني من هؤلاء الذي يرسلهم "البارود" حتى أقصى الإقليم كي ربما يحصي عدد كارهيه وقتلاه.. مساحة كابوسية للبعض كي يستعرض قوته فيخاف كل مَن تُسوِّل له نفسه بالعصيان.

كانت ذكية بما فيه الكفاية لتتجنب الإجابة، عادت خطوتين إلى الخلف، لن تغامر بفكرة كونها مجرد سبية قد يفكر هذا البهلوان الوسيم أنها ستكون متعة مؤقتة لـ"بارود" أو رجاله كما يحدث مع كل فتاة تختفي أو كما تقول العجوز "زليخة" يأكلها النهر!

- أعتقد أنه مرتاح تمامًا مع فكرة الكراهية، لا يكترث.

غابت عيناه لوهلة مع نقطة في جسدها، تمامًا بين الترقوة والعنق، بدت مراقبة حركة الشهيق والزفير المتسارعة ممتعة.. عبرت عيناه النهر خلفها بعد ذلك ثم قال بصوت واثق واضح:

- ربما إذن عليكِ أن تسأليه بنفسك.

ووقع قلبها الشجاع في قدميها في تلك اللحظة، تهدمت

أحلامها والنهر خلفها بات نهر موت.. لن تسقط في هذا الفخ المهين، سبيَّة رجل أو رجال عدَّة يقلبون جسدها الحر بين أناملهم الغليظة في نوع من القتل البطيء.. مهانة السبي أسوء مائة مرة من مهانة الزواج في الإقليم، وتذكرت كلمات "بداية".. عقلانيتها في مواجهة الأمور أمام تمردها هي. وتهور أفكارها فكرة تلو فكرة. الملجأ الوحيد الآن أن تقتله، ترفع القوس وتطلق السهم في لحظات نحو صدره ثم تركض بكل قوتها.. أو تسحب جثته إلى النهر كي لا يقع الإقليم في المتاعب بسبب بهلوان مقتول..

مائة فكرة وفكرة في ثوانٍ معدودة حتى قررت التنفيذ فعلًا، هي امرأة لا يليق بها الانتهاك.. هي امرأة تختار مصيرها!

وتوقف السهم في لحظة.. قبل أن ينطلق تمامًا مع عبارته المُكملة والتي بكل صورة جمَّدتها!

- وها هو أمامك.. البارود بنفسه.

حضرت الدهشة ولكنها حجزتها، كادت تتراجع ولكنها رفعت ذقنها في شموخ وتحفز:

- أنت كاذب!

عقد حاجبيه وهو يراقب رد فعلها الممتع الذي انتزعه لتوِّه:

- لمَ؟

شدت قامتها في شجاعة وسهمها ما زال متيقظًا:

- لماذا سيترك "البارود" قصره ويأتي إلى هنا؟

ضاقت عيناه الزرقاوان في سخرية:

- ربما للاستمتاع بالهواء المنعش.

سخرت هي أكثر وقد تسرَّبت منها ضحكة لطيفة:

- تريد أن تخبرني أنك قطعتَ كل تلك المسافة من العرش للإقليم كي تستمع بالهواء المنعش!

ثم تابعت مستهزئة وهي تراقب رد فعله من كثب:

- ثلاثة أيام فوق ظهر حصان.. أربعة إن كنت من محبي مشاهدة المناظر الطبيعية وتتغوط أكثر مما يجب!

وهنا التمعت عيناها في تحدٍّ، كانت تتواقح لتغضبه وقد اقتنصت بطرف عينيها يمناه القريبة من غمد سيفه.

مطَّ شفتيه بلامبالاة وقد فهم ما يدور في خلدها تمامًا:

- تفكرين من فينا أسرع.. سيفي أم قوسك؟

عقدت حاجبيها بانتباه وعيناها تنتبه أكثر وأكثر.. سهمها متحفز الآن أكثر وأي شخص ولو حتى هاوٍ سيدرك أنها لو فعلتها قد تصيبه ولكنها لن تقتله.

جال بعينيه في المكان متجاهلًا إياها ثم تابع بهدوء ناعم مثل هدوء الثعابين الليلية التي تقضي على فريستها دون حتى أن تدرك توقيت اللسعة:

- القتل ليس بتلك السهولة.

- أنت تقول هذا.. على اعتبار أنك "البارود" كما تدعي..

- أن تكون حاكمًا يعني أن تمتلك قانونًا للقتل..

- الجبناء يقتلون بقانون والشجعان ينفذون.

- هذه أقوال المرتزقة التي يرددها الشعراء المنبوذون من أرض العرش.

قالت هازئة:

- شعراء منبوذون! غريب؛ أعرف أن "البارود" قتلهم

جميعًا.

ابتسم هو بمكر يفوقها.. يفوق كل يودوس:

- ما زلتِ مصرَّة على أنني لست هو.. هل أبدو لكِ وسيمًا جدًّا لأليق بحاكم متجبر.

قالت وهي تمط شفتيها بغرور:

- تصوُّري دومًا عن الحاكم بأنه سمين، أكل الكثير من اللحم والخبز ولم تعد لديه طاقة على المعاشرة فتتولى جواريه كل الجهد.

ولا ينكر أنها أعجبته.. عنيدة شهية وتستخدم لسانها وعقلها في وقت واحد.. قال بنبرة ثعلبية:

- أنا تركت الطعام.. وأكلت النساء ما رأيكِ؟

ردَّت ببرود:

- هل من المفترض أن أخاف؟!

- لا أعتقد أن تلك الكلمات ستخيف امرأة مثلكِ.

- معاشرة الكثير من النساء لا تمثل بالنسبة إليَّ إنجازًا ما سواء كنت البارود أم أحد بهلواناته.

سخر باستهزاء:

- لا يبدو أنكِ ستصدقيني أبدًا.. أنا أشعر بالتعاسة.

ثم ابتسم بمكر تام:

- ماذا عليَّ أن أفعل كي تقتنعي.. أقتلكِ مثلًا؟!

وقبل أن تدرك كانت حركته سريعة ماهرة تفوق مهارة أي رجل رأته يقاتل يومًا، سحب سيفه من الغمد بسرعة قاتلة فكان السيف هو من اعترض السهم الذي أطلقته وليس جسده، حركة مستحيلة أجفلتها قبل أن يسحبها بغتة

فيحاصر ترقوتها بساعده ويشلّ حركتها تمامًا، ويده الأخرى تعيد السيف بهدوء. همس بقسوة هادئة جوار أذنها دون أن يترك لها فرصة للفكاك:

- هل تظنين أن الحاكم لا يستطيع القتال؟

حاولت التملص ولكن دون فائدة، بدا قربه مزعجًا في تلك اللحظة، تلامس لا يناسب الحرية التي تبتغيها. انفعلت حدقتاها برفض، ولكن كبرياءها منعتها أن تطلب منه الابتعاد، بل فجأة وبلا مقدمات مررت استسلامًا كاذبًا حتى استطاعت أن تتلوى بين يديه بجسدها الهزيل ثم تهرس فجأة وبلا مقدمات أطراف قدمه بحذائها الضخم. كانت ترتدي حذاءً ذكوريًّا يخص شاهق، سرقته منه وحشتْه بالكثير من القماش كي يناسب مقاسها.

تأوَّه ضاحكًا وقد ترك لها مساحة الهروب، في حين عدلت هي خصلاتها سريعًا وجذبت القوس في وضع دفاعي:

- هل تظن أن النساء لا تستطيع القتال؟

التوت شفتاه بمتعة ثم قال بخبث غير بريء:

- لهنَّ أرض معارك تناسبهنَّ.

رفعت عينيها نحوه في تحدٍّ:

- الآن ما رأيكَ أن نجرب؟ أطلق السهم وأرى من الأسرع تلك المرة.

- لا لن تفعلي.

- لمَ؟

قال بغرور:

- لأنكِ الآن واثقة أنني هو.. البارود.

وجارته على الفور.. لأول مرة يقابل امرأة تجاري غروره.

- وما الذي جعلك واثقًا من ثقتي؟

رفع حاجبيه وقد بدا مسيطرًا على الكلمات كلها؛ خاصته وخاصتها.. كيف الفوز في مواجهة رجل يصنع قانونًا..

- ممتعة تلك اللعبة، ولكنِ ما رأيكِ في لعبة أخرى.. لنرفع مستوى التحدي قليلًا.. وجِّهي سهمك نحو تلك البومة.

كانت البومة تبدو سريعة جدًّا.. هي تعرفها، تلك البومة الكئيبة التي تأتي لنافذة "ضوء"، شعرت بظلمة غريبة في أعماقها تدفعها كي ترفض ولكنه كان يتحداها.. يتحداها في مهارة الإطلاق نفسها وعلى طائر سريع قارب على الهروب. ودون تردد أو ذرة تفكير أخرى وجهت السهم نحوها وأصابتها.

لمحتها تسقط بعيدًا في حين اتسعت ابتسامته هو برضا ماكر وهو يشير نحو صدره:

- الآن دوري.

إلا أنه تابع بعدها على الفور بنبرة صارمة بدت مخيفة:

- ولكن لو لم أمتْ.. سأقتلكِ.

وتركتْ السهم.. لأنها في تلك اللحظة كانت واثقة أنه هو.. "البارود" بنفسه.. وهذا "البارود" لن يموت بمجرد سهم مبتدئ لم ينجح حتى في قتل الطير.. أصابتها فقط.

وكان السؤال الذي قفز إلى خاطرها في تلك اللحظة وسقط فوق قلبها مثل ثُقل.. ماذا يفعل هنا؟ وماذا يريد؟!

***

قالت "بداية" فجأة بلا مقدمات:

- لقد حاولتْ قتلي.

مرَّرتها بارتجاف وهي تضع أمام "قلب" صحن الخبز والحليب لكي تتناول كلتاهما الفطور، في حين اختفت "ضوء" منذ يومين و"نهاية" مصابة بكآبة العشق. لم تستوعب "قلب" الاعتراف، ولكنها استوعبت الخوف، وجه "بداية" الشاحب وهي تستعيد ما حدث منذ ساعات فقط حيث تفاجأت بـ"ضوء" فوق رأسها ممسكة بخنجر غريب أسود وهي تقول بنبرة غريبة:

- ارحلي قبل أن أقتلكِ.

هذا المنزل محاط بغبار اللعنات والجنون، والصقيع والظلام وظل البومة، انفعال مذبوحٍ تسربٍ من "بداية"، في حين كان انفعال "قلب" انفجاراً، انطلاقاً بحدة سيف "الأرقب" نفسه وجنون فوق باب "ضوء" المغلق وهي تدفعه بكل قوتها وتضربه بكلتا يديها:

- اخرجي يا "ضوء".. اخرجي يا مختلة.

كانت كلماتها حادة، عنيدة قاسية قاتمة، و"بداية" تجذبها كي تتوقف و"نهاية" تبكي.. "قلب" مهتاجة عمياء من الغضب و"بداية" يائسة نادمة على الاعتراف والباب يُفتَح.. يُفتَح بصرير بطيء، و"ضوء" تخرج ووجهها مثل قنديل "ضوء" مغبر، قنديل مرتعش فقد الزيت والحياة والهواء وقارب على الانطفاء. كانت ملامحها كلها متصلبة مثل جثة، في جحين ترمق ثلاثتهنَّ بغضبٍ وألم..

قالت بصوت ثقيل كئيب:

- ماذا تريدين يا ابنة "فيصل"؟

ولم تكن "قلب" تعرف الخضوع، ولا الخوف منها.. حتى

حين كانت تختفي وتخرج عليهن بظلامها ووجهها المشوَّه الذي ابتدعته لا تخاف أيضا، هي تراها مجرد امرأة تحدث ضجيجًا كي تتكيف مع لعناتها.. امرأة تكرههن قبل أن تحبهن، وتحبهنَّ رغم أنها تكرههم، امرأة لامست عقلهنَّ بطريقة واحدة محرَّمة فقط ثم جعلتهنَّ يقسمن بالدماء ألا يخبروا أحدًا!

تحدتها "قلب" بكل جبروت ممكن:

- ابتعدي عنها وإلا سأخبر الجميع.

شحب وجه "بداية"، في حين اختبأت "نهاية" خلف باب غرفتها و"قلب" تتابع بجنون صاخب:

- تُرى ماذا سيفعل معكِ "البارود" يا "ضوء" لو علم أنكِ علمتِنا القراءة؟

بدا المحيط حولهن أكثر توحشًا، "قلب" تهذي و"ضوء" ثابتة، ترمقها وكأنها مجرد طائر ضعيف عنيد لم يقوَ بعد. طائر منتفخ بالتهور والحماقة.

- سيكون نصيبك إذن الموت المحتم وهنَّ معكِ..

واقتربت منها، ربَّتت بسبابتها بقسوة فوق صدرها:

- نبض هذا القلب يا "قلب".. سيصمت!

وابتسمت لها ابتسامة قاتمة غريبة، ثم طفقت تتحرك وتتركهنَّ.. تعرج فوق قدمها بتثاقل.. تعرج فوق قدمها اليسرى بسبب جرح حديث.. جرح نتاج سهم أصاب البومة!

***

قالت "قلب" بتذمر:

- أيجب أن يكون الأمر هكذا.. موكب الحمقى!

"نهاية" لا تشعر بها.. كانت في عالم آخر، وشاهق يتقدم "بداية" التي كانت تتحرك في تيه، رأسها منخفض وتخطو وكأنها ستتعثر في ثوب زفافها الطويل، والوشاح الأبيض نصف الشفاف يغطي ملامحها. أمام المنزل توقّفت عربة مغلقة ومزينة بنقوش ذهبية تحمل رمز الذئب المقتول.. علامة "الراعي"! كانت عربة سوداء تبدو فخمة ومن الداخل مقاعد مبطنة مريحة بقماش القطيفة القرمزي. ظنت "بداية" أن "ضوء" سترافقها، إلا أنها تفاجأت بأن "لهيب" تفتح لها باب العربة كي تستقلها وحدها، في حين تقف "ضوء" من بعيد وتبتسم لها ابتسامة غامضة. راقبت "قلب" كل شيء من كثب بملامح متجهِّمة، كانت تكره مواكب زفاف الإقليم، إذ تتزين العروس مثل هدية ويضعها أهلها في عربة حتى تصل إلى منزل الزوج. كانت تشعر بغُربة "بداية".. توترها.. اللعينة "ضوء" كان يجب أن ترافقها في العربة إلى منزل الراعي ولكنها تركتها وحيدة. قالت فجأة محادثة "نهاية" التي كانت في عالم آخر:

- هل تظنين أنها ستفعل معنا هذا أيضًا؟

- من؟

- "ضوء القمر".. تُلقينا في عربة وتتخلص منا وكأنها تزيح ثقلًا.

قبضت "نهاية" كفيها على بعضهما بعضًا ثم قالت في حزن:

- أمي تحبنا يا "قلب".

ولم تُعقّب "قلب" في لحظتها.. ظلت تراقب عربة "بداية" التي بدأت تبتعد وقد اصطدمت عيناها بعيني "شاهق" الذي نظر نحوها في صرامة قاسية. واجهته ساخرة وقد رفعت ذقنها ثم تابعت بنبرة ميتة:

- ولكننا لسنا في أمان معها.

ولم تفهم "نهاية" ماذا يحدث، سحبت "قلب" يدها وهمست في أذنيها ببطء وقد تكسَّرت الكلمات على مسامعها:

- أغلقي بابك ليلًا.. تلك المختلة أرادت قتل "بداية".

***

يرمقها بتمهل، من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها. عيناه تمر ببطء وكأنما يتناول وجبة من فطائر الجوز والعسل مع نبيذ حار. عيناه قاسية وشفتاه ساخرتان، أما الهيئة ككل فهي هيئة راعٍ، وجهه القريب من بدائية قاتل ذئب كما يصفونه، وخصلاته المشعَّثة نوعًا ما مع لحيته القاتمة مثل حكايات الغابة المحرمة. قدماه مرفوعتان باستعلاء على مقعد خشبي أمامه وظهره مضطجعًا على المقعد باستعلاء وقح. ولكن وسط كل هذا عُمق صوته كان نشازَ اللوحة. عمق أنيق استثنائي، عمق يناقض هويته أو على الأقل ما سمعته عنه..

- "بداية".. اسم غريب.

ظلت صامتة بلا جواب، مشهد عبثي لا يشبه خيالاتها أبدًا، لم تُحمَل في الثوب الأبيض حتى غرفة النوم، ولم تُرمَق بنظرة انبهار ورغبة. فقط تحركت خلفه كالشاة حتى مخدعه، والآن تقف أمامه في نوع من التقييم. والغريب أنها تستشعر أنه يكرهها.. أو لا يريدها.

حركت رأسها نافية بشكلٍ عفوي فلفتت انتباه عينيه الداكنتين في حين حادثت نفسها نافية:

"لا لا.. طبعًا لا يكرهكِ، هو لا يعرفكِ من الأساس كي يكرهك"، "ولكنه لا يعرفكِ كي يحبكِ.. أنتِ له مجرد

أداة نسل"، "لا لا اصمتي.. تلك ليست كلماتك بل كلمات "قلب"، "ولكن "قلب" معها حق.. دومًا معها حق".

كانت فقرة محادثة مُرهقة بين نفسها ونفسها، والغريب أنه دومًا تنتصر أفكار "قلب"، تفحمها فلا تجد ردًّا. تجمدت ملامحها وغابت في سكون شارد أراحها وقتًا قصيرًا من مراقبته. ولكن لم تلبث حتى تملكتها قساوة نبرته:

- هل انتهيتِ؟

نظرت نحوه في تلعثم:

- من ماذا!

مضغ أحرفه بعنف حارق ظهر فجأة:

- من هذا الشرود الأحمق.

ثم انتفض فجأة فأجفلها، هرس ذراعها بأنامله الخشنة وتابع بهسيس قاتم:

- لا تشردي أبدًا أمامي.. غير مسموح.

لم تكد تنطق حتى شعرت بجسدها يُدفع إلى الفراش، وبعدها ثقله المظلم فوقها مُكبِّلًا يديها في بداية لم تتوقعها "بداية". ابتلعت ريقها برعب لا تتصور ماذا يمكن أن يحدث الآن تحديدًا. أسيعاشرها مثل شاة.. بهيمة بلا روح ولا عقل ولا أحقية رغبة كما تقول "قلب". شهقت تبتعد بل تحاول، كان ثقل جسده كثيرًا على جسدها الضعيف، أصاب عضلاتها كلها بنوع من الخدر. حتى حين شعرت بيده اليمنى وقد رفعت طرف ثوب زفافها بعنف كي يفعل ما يجب فعله تجمدت تمامًا، تجمدت في خوف واستسلام وحزن.. تركت نفسها لتلك اللحظة الفاسدة غير المفهومة، تتجرع مذاق رجل غريب عنها رأت

وجهه فقط منذ بضع دقائق، ملامحه العابسة حتى وهو يعاشرها.

انتهى سريعًا بمنتهى الجمود والقسوة. حتى إنها لم تعرف ماذا عليها أن تفعل، حين استقامت أدركت أنه مزَّق نصف ثوبها العلوي، فطفقت تخفي جسدها بوشاح وتحاول أن تبتعد، إلا أنه أوقفها بنبرة واحدة فظة:

- توقفي!

ارتجفت ككل. كانت على شفا حفرة من الانهيار، جسدها كله يؤلمها وروحها تؤلمها أكثر، لم تكذب "قلب"، هي كانت فعلًا مجرد بقرة من أجل ثور. وقفت على بعد مترين منه ثم قالت بصوت هارب ضعيف:

- أرجوك أريد النوم في غرفة أخرى.

لم يُعقِّب، تحرك ثم شعرت وكأنما يده ضخمة.. ضخمة جدًا وهو يسحب الوشاح من فوق نصف الثوب الممزق ليتأملها بعدها بنظرة تقييمية فجَّة. حاولت سحب الوشاح ولكنه لم يسمح لها، رماه تحت قدمه ثم داسه، وقد اقترب منها هارسًا كلتا ذراعيها بقبضتيه ثم قال بخشونة:

- ألم تعلِّمكِ أمكِ طاعة الزوج؟!

رفعت عينيها نحوه في صدمة، كيف يمكن أن يكون في العالم رجل بتلك الفظاظة والقسوة، هل استخلصت منه ساحرة ما كل أنواع الشعور الجيد فتركته هكذا ممتلئًا بالظلمة والجمود. رفعت عينيها في لحظة شجاعة مستحيلة وواجهته، وحينها لمحت في عينيه مجهولًا قاتمًا، نظرة لن تنساها ما حيَت، ونظرة ربما لم يتوقعها هو نفسه حين التقت عيناه إياها.. نظرة اندمجت مع لهيب أزرق! وبعدها لم تكن تتوقع أن يدفعها إلى فراشه مجددًا ليعيد الكرَّة من

جديد وإن غالب همسه الشغف تلك المرة:

- أنا لم أنتهِ منكِ بعد..

***

البحر هائج، تقول "ثلج" إن الأفعى لم تأكل اللحم البشري منذ شهر، وهذا يجعلها غاضبة.. حتى إنها منذ أربعة أيام أطلَّت من البحر وقضمت قنطورًا. تحركت هي بتوتر، كانت تكتم شعورها وخوفها.. انتظرت البومة أيامًا ولم تظهر.. تأخرت أكثر مما يجب، حتى إن جديلتها أصبحت قبيحة أكثر. نظرت نحو "ثلج" في عجز وهي تكاد تبوح بكل شيء، كلمات البومة وزياراتها وصوتها القبيح الكئيب الذي اعتادته. إلا أن "ثلج" قاطعت أفكارها دون أن تدرك رغبتها في قول شيء:

- "غضب الراعي" سيحضر غدًا، لقد رتبتُ كل شيء.

شعرت وكأنما انسكب فوق رأسها ماء ثلجي.. كانت هشَّةً جدًّا لاتخاذ القرار وهشَّةً لرفضه، كل ما مررته جزع وتوسل:

- ماذا إن عرف المشعوذ، ماذا لو ألقى بجسدي لـ "غاند" كي تأكل؟

كانت ترتجف، تشعر وكأن هروبها من القبو مستحيل، وإن فعلت فكل ما ستناله عقاب أبشع. التمرد ومضة تُطفأ بسهولة بالغة بسبب الجُبن.

قالت "ثلج" بهمسٍ مثل الصقيع الموجع:

- هل تعلمين كم يمتلك المشعوذ من ظلال؟

بدت حائرة وهي تسمع، عن أي ظلال تتحدث "ثلج"! وتابعت "ثلج" وقسمات وجهها تختلف، تتحول إلى خريطة مرسوم عليها وحوش! مسخ ضخم وجهه خليط من ملامح

أسد وثور، وفوق ظهره علامات سياط. في المنتصف العُقاب، كان يبدو ضخمًا جدًّا مخيفًا أكثر من وصف حكاية "ضوء".. قالت "ثلج" إنه اختفى، لا تعلم هل يخفيه المشعوذ قاصدًا وسيظهر من جديد، أم إنه مات بعد معركة سرية مع "غاند". في جانب آخر المستذئب.. ظلٍ شرس، كان يتركه على أعدائه فلا يُبقي منهم لحمًا ولا شحمًا، وقوته القصوى في اكتمال القمر. وتقول "ثلج" إنَّه تمرد.. أراد أن يسيطر على المشعوذ نفسه ويقتل باقي الظلال، فحبسه المشعوذ في قبو هنا تحت القصر كي لا يرى القمر أبدًا. تحت بدت أقوى الظلال، ضخمة مرعبة، لونها يتشكل على وجه "ثلج" بين الأسود والأخضر الداكن، وعيناها حيّة وكأنها تراها تمامًا.. كانت "غاند"، أفعى المشعوذ والظل الأقوى. حجمها يكبر عامًا بعد عام وستصل يومًا ما إلى حجم البحر وقد تبتلع حينها كل يودوس.. هي الظل الأقوى للمشعوذ، قيل إنه وقت "البارود الأول" افتعل معها معركة دموية عنيفة، تهشم فيها أسطول كامل أكلته عن آخره وكبر حجمها بشكل سريع. ومن وقتها حرم كل "بارود" بناء السفن وبات طعامها أنثى بشرية مع كل موت تقتات عليها وتنمو ببطء. تاهت الفتاة أكثر، وشعرت بالرعب.. لم تكن تعلم أهي هنا تخاطب "ثلج" أم خريطتها:

- ولمَ لا يتركها لتكبر أكثر وأكثر ويحكم بها يودوس؟

ضحكت "ثلج" من سؤالها البريء:

- لو كبرت لن تكون هناك يودوس.. الأفعى هي الفناء.

شعرت باللغة مثل السكاكين، تكتب نهايات مخيفة:

- ولمَ يبقيها إذن؟

- لأن الشر يحتاج إلى عدَّة شرور لتحميه، بشرط ألا تكبر عنه فتبتلعه.

قالت الفتاة مصعوقة:

- كيف تخدمينه رغم هذا كله؟!

وهمٌ داخلها كان يحيا.. يقول إن المشعوذ ليس سيئًا لتلك الدرجة والدليل بقاء "جمر" وثلج معه وله.. شعرت وكأنما هي في نفخ.. ذبيحة تُجهَّز لوقت معلوم ولا تفهم الغرض. صارت تخشى البقاء وصارت تخشى الرحيل.

اختفت الخريطة من علي وجه "ثلج"، عادت ملامحها الشاحبة الجميلة المخيفة، حدّقت إلى الفتاة بحنان ثم قالت بنبرة جامدة مثل صخرة:

- ارحلي من هنا.. إن خرج من متاهته سيكون الأوان قد فات..

تشبثت بها الفتاة في عجز، صوت ضحكات القناطير تحت النافذة مخيف، يقدم وجبة كوابيس دسمة لأحلامها.

- ماذا سيفعل معي؟

سحبتْ جسدها من أمام النافذة، توجهها نحو اتجاه الثلج.. لا تجيبها عما سألت بل تقول بفحيح هادئ وترسم بأناملها لوحة من ثلج، مسخ يلتهم عذراء بعد أن سقطت في براثنه.

- كل شيء وارد.

وتابعت بكلمات مثل السم والترياق:

- لقد انتظركِ أكثر مما يجب، وحين الوقت لو نالكِ لا نجاة!

ثم ضحكت.. ضحكة بسيطة هادئة وقد شكّلت تلك المرة من ثلجها مرآة فواجهت بها ملامحها في قسوة..

- اهربي من هذا القبح!

شعرت أنها تنصت لهذيان.. نتوه أكثر وأكثر.

- ماذا تقصدين؟

ابتسمت "ثلج" في مكر ودفعتها نحو النافذة، ومن بعيد لمحت "ضوء" عربة "غضب الراعي".. كانت تبدو مثل كتلة حديدية بلون الفحم يجرها شيطانان ينطلق من منخارهما لهب.. شعرت بالرهبة.. قالت بصوت متردد خفيض:

- هذا الرجل يبدو مخيفًا.

- هذا الرجل هو فرصتك الوحيدة للخروج من هنا.

تسربت الكلمات من فم "ثلج" كحقيقة واحدة من وسط العتمة، العتمة التي يجب أن تهرب منها.. واستدارت مومئة.. يأس ربما، عجز، تمرد واستسلام في آن واحد.. اتخذت قرارها وكفى.

- ولكن كيف؟

قالتها بانتباه وهي تلف جسدها بعيدًا عن النافذة، تنظر إلى الورود على الشرشف وكأنها ستفتقد الحكايات، ولكنها يجب أن ترحل.. يجب أن تجد "ضوء القمر".

وكان جواب "ثلج" فزَّاعة.. ولكنه السبيل الوحيد:

- جثة!

***

قصر مظلم في أعماقه..

ضحكات القناطير تتتابع ورطل لحم ملقى في زنزانة المسخ كي يسد به جوعه، أربع خادمات قادهن حظ عثر من الهروب من قوانين "البارود" نحو ظلام المشعوذ، عبروا البحر في قارب مرتزقة التهمتهم "غاند" وتركت النساء للمشعوذ من أجل الخدمة في القصر، ماتت أصغرهنَّ

اليوم، كانت هزيلة جدًّا تشبه عود نعناع يابس. وكانت مُوكَلة بوضع الطعام للمستذئب وكل مرة كانت تظن أنه سيلتهمها، ولكنه لم يفعل.. بل كان ينظر إليها بعينيه المخيفتين ويزمجر بصوت خفيض مرعب ولا يقترب. حتى ماتت فجأة.. وجدوا جرحًا طوليًّا يمتد من أعلى عنقها حتى معدتها، جرحًا قاتلًا دون أن يُؤخذ منها لحم. ربما المستذئب، وربما المسخ.. وربما قنطور راودها عن نفسها ورفضت فقتلها غيظًا. لن يعلم أحد.. المشعوذ في متاهته و"غضب" سيحمل الجثة كما الطقوس نحو أرض الموت. الفارق أن كيس الخيش الذي يحمله قنطور غاضب لا يحمل جثة الخادمة.. بل جسدًا آخر، ضعيفًا هزيلًا كان محتجزًا.. والآن هي تهرب!

***

جسدها يصطدم بجسد القنطور السفلي، كان جسده جامدًا مخيفًا وكأنه بقوة ألف حصان وليس حصانًا واحدًا، حين لمحت حوافره من قماش كيس الخيش شعرت بالرعب التام. كان يحملها بذراع واحدة ويلقي الكيس على ظهره بلا اهتمام، وخطواته تتجه إلى خارج القصر.. دست "ثلج" في فمها ثلاث نقاط دماء منعت عنها الأنفاس والحركة.. كانت مثل جثة حية.. تشعر ولا تستطيع أن تتحرك، ترى وتسمع ولا تستطيع أن تتحدث.. النقطة الأولى ستوصلها نحو باب القصر.. أما الثانية فستبقيها في أمان حتى يقذف بها القنطور في عربة "غضب" وتنتهي مبادلاتهم المعتادة من الطعام والعملات الذهبية والتبغ.. أما النقطة الثالثة فستضمن سلامتها حتى نصف أرض الثلج، وبعدها كل ما عليها أن تحافظ على سكونها تمامًا حتى يصل "غضب" إلى أطراف الغابة

المحرَّمة، وهناك تستطيع الهروب. شددت "ثلج" عليها أن تلتزم بالقوانين، حيث لو اكتشف "غضب" أمرها قبل أن يقطع مسافة أرض الثلج سيعيدها إلى القصر من جديد، ويأخذ ثمنها عملات ذهبية. من خلف قماش الكيس الخشن المملوء بالثقوب الخفيفة الصغيرة، وبينما قذفها القنطور فجأة على العربة شعرت بألم رهيب في ظهرها، حتى إنها صرخت فعلًا ولكن لم يخرج منها صوت بفضل نقطة الدماء الثانية. استطاعت أن تلمح نصف وجه القنطور، كان وجهه البشري نحيلًا، ولكن له أذنا خيل بارزتان وأنف طويل حاد.. لحية خفيفة نصفها منتوف على ما يبدو في معركة، وفم يمضغ شيئًا ما استوعبت بعدها من حديثه مع "غضب" أنه تبغ. في النهاية لم تلمح سوى فم قاسٍ وعينين سوداوين باهتتين، وكلماته تتسرب بسخرية:

- سأحضر لكَ في المرة القادمة سنجابًا ميِّتًا، كي يناسبكَ مضغه.

رمقه القنطور بكراهية ثم استدار، في حين جلس "غضب" وقد أزاح عن رأسه القلنسوة الثقيلة، ثم أسند قدمه اليمنى إلى طرف العربة وبدأ يحصي عملاته، صوت الهواء يشق السكون جواره وانتباه بطرف عينيه إلى الكيس الملقى خلفه قبل أن يصفِّر سريعًا بنغمة خاصة وتنطلق أحصنته في سرعة رهيبة فوق مساحة الثلج الشاسعة، لتبقى هي في الخلف مع نقطة دماء أخيرة تضمن لها سلامًا لنصف المدة. سكون مخيف.. مر وقت شعرت أنه طويل جدًّا، ولم تكن تدرك أهو نصف المسافة أم أقل حتى سمعت همس نقطة الدماء الثالثة في أذنيها:

- باقي النصف.. تماسكي.

ورحلت.. تركتها حية من جديد تتنفس، صوت حوافر الجلمود خاصة الأحصنة على الثلج قوي جدًّا، حتى لو صرخت قد لا يشعر بها، ولكنها كانت مذعورة، تكتم شفتيها بيدها، وتخاف أن يستدير فيلمح أي حركة غير مقصودة منها من تحت الكيس، ومن رؤية طفيفة من الثقوب لمحت القصر يبتعد، النافذة.. بحر "غاند".. كل هذا الظلام يبتعد عنها وتبتعد عنه. ويكتسح فراغ الثلج مكانه في حالة مجهول مقفر مخيف..

مجهول جديد عليها.

استسلمت براحة والوقت يمر.. الأحصنة لا تتوقف والثلج يركض تحت العربة، ألوان خضراء قاتمة تظهر من بعيد وأشجار كئيبة على أطراف الغابة تظهر، ورغم كآبتها كانت أفضل شيء رأته في سنوات عمرها السبعة عشر..

مشهد الغابة المحرمة.

ووسط كل لهفتها وخوفها وسكونها الجامد من الرعب الذي ظنت أنه نجاة طل صوته فجأة وهو يستدير بجانب وجهه وثغره يميل بحنق، وعيناه تقتنصها من تحت كيس الخيش الملقى خلفه:

- من أنتِ وماذا تفعلين في عربتي؟

***

الفصل الثالث
من أنتِ وماذا تفعلين في عربتي؟

"غضب الراعي"!

بدت عيناه نفقًا أسود غاضبًا كئيبًا ونبرته لعنة، يستدير لها بكامل جسده وقد بدا وكأنه واقف فوق حصانيه كشيطان حار الدماء. انكمشت في عجز، وجدت نفسها تعود إلى الخلف زاحفة، في حين كانت تتخلص ببطء من الكيس الخشن حتى رفسته تمامًا بقدميها ووصلت إلى حافة العربة من الخلف.. تذكرت هنا بقوة كلمات "ثلج" وتحذيرها الشديد ألا يكتشف بأمرها وإلا سيعيدها إلى المشعوذ من جديد وسيأخذ في المقابل عملات الذهب. وهنا قفز في ذهنها هاجس آخر.. هل يعرف من تكون؟ هل يعرف أهميتها للمشعوذ وعند هذا سيعيدها بجشع، هل يعرف الناس بحكايتها من الأساس، أم إنها مجرد لا شيء بالنسبة إليهم. كانت المخاوف تتوالي في عقلها بسرعة شديدة، وبينما ذكرى غناء الورود المضيئة على الشرشف تعود. غابت أنفاسها تمامًا، وشعرت وكأنما مضغت حروفها أكثر من مرة قبل أن تجيبه:

- أنا... أنا هربت، إنها القناطير.. أخاف منها.

ثرثرت بصدق أحمق، أرادت الكذب ولم ينطقه لسانها، فكان كلٍ ما فعلته تمرير خوفها من القناطير. جف الريق بعدها تماما في حلقها وشعرت بأمعائها كلها تتقلص رعبًا، وعيناه هو تضيق بتعبير ميّت قبل أن يكرر سؤاله بحنق:

- هل أنتِ خادمة.. هل تخفيتِ مكان زميلتك الجثة؟

تكسرت نظرة عينيها وهي تومئ في عجز.. نعم.. نعم خادمة، هذا أفضل تبرير ممكن وهو ساعدها. كان

الفجر على وشك القدوم، هي في تلك اللحظات المتذيلة بالظلام حيث السماء يابسة بضوء ميت يحاول الاستيقاظ والسكون يبتلع كل شيء حولهما مثل وحش صامت. أما هو فعدّل من وقفته بخشونة، رفع إحدى قدميه على ظهر الحصان ثم أخرج حفنة من التبغ مضغها بلا اهتمام قبل أن يقول بنبرة قاتمة:

- اخرجي من عربتي.

تجمدت بخوف حائر:

- ما... ماذا؟

مطّ شفتيه بلا اكتراث ثم أشار إلى أرض الثلج الشاسعة خلفهما وقال بهدوء آمر:

- عودي من حيث جئتِ.

نظرت خلفها في عجز.. كانت رهينة لحظة، ورهينة المشعوذ، ورهينة رجل لا تعرفه، ورهينة نصائح "ثلج"، ورهينة البومة التي اختفت وتوقفت عن نصحها، نظرت إلى السماء اليابسة تبحث عنها، ثم نظرت إلى الغابة القريبة البعيدة.. مفتاح نجاتها ربما، أو بدايته.. شعرت بصدرها كله ينبض وليس قلبها فقط.. انتهت الرحلة قبل أن تبدأ. لن ترى "ضوء القمر"، لن تقابل أبدًا أخواتها.. ستعود خاضعة إلى المشعوذ أو الأفضل أن تموت في الطريق.

نظرت نحوه نظرة توسل، في حين هز كتفيه هو بعدم اكتراث.. لم تكن ذات قيمة ليخسر المشعوذ من أجلها والأكثر أمانًا أن يتخلص منها قبل أن يشعروا بها.. قبل...

فمع حركتها العاجزة لتغادر العربة لمح بحافل القناطير تقترب!

- اللعنة

قالها وهو يشتم ويبصق تبغه، ثم قفز مرة واحدة إلى منتصف العربة، فرفعها من ذراعها وكأنها ريشة ثم أجلسها في المقعد الأمامي ووثب جوارها، عيناه تستدير مجددًا بسرعة حارقة ليحسب مسافة القناطير الغاضبة، ثم صرخ في خيله وشدَّ اللجام على آخره لتنطلق الخيل بعدها فجأة بسرعة كادت تُسقطها، تشبثت بحافة المقعد خلفها برعب دون فهم، في حين كانت العربة تأكل بعدها بقايا الثلج تحت العجلات وتنطلق بلا توقف نحو الغابة المحرمة، كان الطريق قد بدأ يضيق سريعًا ويلتف بشكل ثعباني، وبدا أن الخيل معتادة إياه ومرت به مئات المرات. تتحد الأشجار أمام ناظرها وكأنها تُغلقه ثم تعود لتنفتح فجأة مع مرورهما، هو محتد جدًّا، وغاضب، وتشعر أنه سيهرس عنقها بمجرد أن تتوقف العربة، لم تكن حمولة العربة ثقيلة حيث هو تخلص من كل بضاعته في قصر المشعوذ، فكانت حركة العربة تُسرع بسلاسة، ولكن القناطير الثائرة كانت أيضًا تركض بجنون، وإذا ما التقيا مع حصانيه في معركة لا يضمن الفوز. كان حريصًا على ألا تسقط الفتاة، فربطها دون أن تشعر بحزام جلدي حول خصر كليهما معًا، وكانت نظرته تتسارع نحوها كل دقيقة فيرى الرعب المتجسد في ملامحها والاختلاف.. ملامحها تختلف! تتشكل بفعل ما يحدث حولها.. رذاذ الثلوج يسقط فوق وجهها فيعطيه بريقًا يشبه قطعة "ثلج" حيَّة، أنفها.. شفتاها.. تفاصيل الوجه.. كلما ابتعدت عن القصر تختلف! صرخ بحماس وقوة وتوجس وفضول وجنون مصيري، في حين شدَّ سير أحصنته لتسرع أكثر، الغابة قاربت جدًّا، الأحصنة مثل البرق عبر الأشجار والقناطير تصرخ بعنف وحقد.. حتى أخيرًا نال مراده.. وصل إلى حدِ الغابة المحرمة وتوقفت القناطير. لم يكن مسموحًا لهم بالمرور. عادوا يجرون ذيول خيبتهم وغضبهم

ويلعنون أنفسهم مفكرين في لحظة خروج المشعوذ من متاهته واكتشاف ما حدث. أما هو فحيَّاهم بتحية منتصرة ساخرة ودخل بها نحو ظلام الغابة.

أبطأت الأحصنة من سرعتها، حلَّ الظلام والهدوء رغم أنه وقت شروق الشمس. كانت هي ما زالت تنظر خلفها كل حين ونتأكد أن القناطير رحلت فعلًا. نتأكد أنه لم يلقِ بها أو يسلمها، وهذا بدا غريبًا على فهمها. دون تفكير وبمجرد أن توقفت العربة استقامت لتخرج منها، إلا أنها لم تكن تدرك وجود الحزام الذي يربطها به فسقطت في حينها ودون أي سيطرة فوق صدره العريض. انكمشت وارتبكت وهي تحاول الابتعاد، في حين صمت هو متأملًا ملامحها، بشرتها التي باتت قطعة من "ثلج" أبيض متورد بالحياة، وعينيها التي اندمجت مع لون الشجر الأخضر الذي تساقط على وجهها وشعرها. وملامحها.. كل ملامحها التي مررت الفتنة بشكل سريع جدًّا، وكأنما هناك غشاء قُبح سقط!

قال ونظرته تتشح بالسواد المتفكر:

- أنتِ مسحورة!

لم تكنِ هي تفهم ما يحدث لها، كان شعرها ما زال كما هو، مجعد في جديلة فوضوية تشعر به ثقيلًا خلف ظهرها، الرياح تلفح وجهها وتركت لتوها فمَ المجهول نحو مجهول آخر لا تعرفه. أنفاسها تتسارع وشفتاها ترتجفان في تيه وتشوش:

- لماذا فعلت هذا؟ لم تسلمني لهم!

بدأ ببطء في فك الحزام الذي يربطهما معًا، ثم قال وهو يمط جسده ويأخذ بعض الهواء في شهيق بطيء كي ينظِّم أنفاسه قبل أن يقول ببرود هادئ:

- القناطير لا تستمع لأحد يا جميلة.

ثم أظلمت عيناه بعمق وخطورة وهو يتأملها بتفكر:

- وهذا الهياج ليس من أجل خادمة.

شعرت وكأنما سواد عينيه يشتعل، نار مضطرمة وُلِدَتْ في مقلتيه، وهي كتلة نبض كاملة، تشعر حتى إن عينيها تنبض بتوتر تام.. ابتلع أنفاسه في غضب تام ثم زفر وقد بدا الحنق على شفتيه وقد استوعب من تكون:

- لن يغفر المشعوذ هذا أبدًا.

قالت والخوف ما زال متمكنًا منها وإن هدأ لوهلة:

- ماذا تعني؟

هذا "الغضب" على ما يبدو لن يعيدها مضطرًّا، لقد دخلت الغابة، هربت على الأقل من غارة القناطير. أمامها شهر، شهر كامل قبل أن يغادر المشعوذ متاهته ويعلم بهروبها.. أو ربما شهر إلا أيامًا لا فارق.. ستتولى "ثلج" مهمة إلهاء "جمر"، هكذا أخبرتها، وربما تظهر البومة وتساعدها وتجد "ضوء القمر". أفكار حالمة ضئيلة ولكنها موجودة.. الآن تمتلك الأمل.. نظرت نحوه بعينين مغرورقتين بالدموع فجأة، عبرات تشكلت في مقلتيها لتكون نهرًا:

- لن تعيدني أرجوكَ..

مط شفتيه بسخرية وقد قفز من العربة، ربَّت ظهر أحد حصانيه ثم ارتفعت عيناه نحوها بنظرة مظلمة شاحبة، نظرة لم ترَ مثلها أبدًا:

- ليتني أستطيع، لقد أوقعتِني في فخك ولكن لا تقلقي.. سأحرص أن تدفعي الثمن.

***

- الراعي سيمكث في الفراش تلك المرة سبعة أيام!

قالتها خادمة وهي تكتم ضحكتها بمكر، في حين لكزتها الأخرى كي لا يشي أحد بنميمتهما عند الراعي. إلا أنها لم تتوقف.. كانت متوسطة في العمر.. ثمانية وعشرون عامًا.. مثل كل فتاة كانت تحلم بفارس أو أن يقع في غرامها صاحب القصر، وربما أخوه الأكثر جاذبية؛ "غضب". حتى طلبها صانع حوافر الخيل فاستسلمت لقدرها. قالت بصوت خافت وهي تتنهد:

- يا لها من محظوظة.

أمسكت الخادمة الأخرى ذراعها محذرة:

- تأدبي يا "سبيل".

زفرت مستسلمة وعادت إلى تجهيز الطحين لإعداد الخبز، مطبخ قصر الراعي ضخم جدًا إذ إن الراعي الكبير كان معروفًا بكرمه وإعداد الولائم من حين إلى آخر لعائلات الإقليم كلها. لم تكن عائلة الراعي مقربة لأي بارود منهم.

"لا تتدخل في شؤون البارود ولا يقرب القصر".

وصية الراعي الكبير..

كانت آخر وليمة ضخمة قام بها قصر الراعي ليلة زفاف "بارق" و"رحيق"، وبعدها اختلف كل شيء.. وعادت الخادمة إلى تنهداتها:

- هل تعرفين أن رحيق منعته عنها، تدللت وصبر حتى وجدها مستسلمة في الفراش لأخيه.

كانت الخادمة الأخرى أكبر عمرًا، لها ملامح متيبسة على الدوام ووجه جامد حزين. ابتلعت حكمتها من سنوات

الخدمة في القصر وتربية "غضب الراعي" نفسه. لم تره أبدًا سيئًا إلى هذا الحد..

هذا النغل الذي ظُلِمَ في حضوره وغيابه!

وعمر الذاكرة في منزل الراعي طويل، بين خبايا سنوات وسنوات.. الراعي الكبير الذي أعجبته جارية فنالها وكي لا يُذبَح النغل تزوجها.. وهذا النغل هو "غضب". قاطعتها بنبرة حازمة وإن لم تُخرسها تمامًا، بل جارت الحديث:

- لا أحد يعرف ماذا حدث ليلتها..

قالتها بنبرة ثقيلة كئيبة وبدأت في خض العجين بعنف، كانت صورة "رحيق" الفاتنة تتجسد أمامها وعشق "غضب" الجامح لها.. عشق كان يصنفها امرأته حتى سقط نص القانون فوق رأسه ورأسها حين طلبها "بارق." وتلو الزواج بشهر واحد.. سقطت "رحيق" من الشرفة العلوية و"بارق" يرمقها بجمود من النافذة!

انتبهت من شرودها على رنين الجرس.. كانت رئيسة الخدم تتحرك وخلفها فتاة جديدة، جميلة بجسد أبيض مثل الحليب الطازج ولها عينان سوداوان لامعتان بهما خبث. لم ترتح لها الخادمة العجوز، ولكن الأخرى "سبيل" نظرت إليها في إعجاب وقالت ساخرة:

- تلك قد تغير قانون الراعي ويتخذ محظيات.

لم تعلق "جهينة"، لم يكن "بارق الراعي" من اللاهثين خلف النساء يومًا، على عكس "غضب" المشهور بمغامراته. عوَّده أبوه القسوةَ منذ الصغر، فكان يرسله ليرعى الغنم كي يتعلم كل شيء من القشرة إلى العمق، عادة ما كان يعود متسخًا منهكًا بشعره المجعد الأسود وجسده الضخم الملقب بجسد الثور، فيجلس في مقدمة المنزل ويأكل الخبز

الطازج بيده المتسخة، وأبوه يتفاخر ضاحكًا وأمه ترغي وتزبد. كانت بعدها تأخذه في غرفتها وتقضي الليل كله في تعليمه الكياسة وحسن السلوك ليعود في الصباح وتشكله القسوة من جديد، حتى جاء اليوم الذي هزم فيه الذئاب وتبدل كليًا.

ومن وقتها أصبح "قاتل الذئاب"

تخطت "قمرية" الخادمات بزهو واستقرت في الغرفة التي حددتها لها رئيسة الخدم، لم يكن دخولها إلى القصر بالأمر الهين، ولكن ليس صعبًا جدًا أيضًا، فالراعي لن يدير باله بخادمة من خدم لا يعرف عددهم من الأساس. وهدفها الآن ليس الراعي نفسه.. بل التسلل إلى الدور العلوي!

***

غاضب، مخيف، صاحب أقوى هيبة في يودوس كلها.. ويقف أمامها بلا موعد.

زيارة صباحية مفاجأة أجفلتها، في حين كانت لتوها استيقظت من نوم مضطرب، فوجدت أن "ضوء" قد اعتكفت في غرفتها بعد أن تركت لهنَّ الحليب على الطاولة و"قلب" خارج المنزل.

وهي وحيدة.. أمامه، ومعه.

لم تدرك حتى أن عينيها لأول وهلة تصلبت فوق ملامحه، ضئيلة جدًا وهو الحصن الضخم، عاجزة وهو نصل سيف الأرقب. قلبها اجتاز رقمًا قياسيًا في النبض. شعرت بغصة في حلقها، أرادت أن تقول شيء ولكنها توقفت حين أدركت أنها لا تمتلك أي تعبير ممكن. حتى صباح الخير خذلتها.. ثمة دموع تحاول أن تستبق اللحظة وتريد أن تنفجر من عينيها وكان هذا ليصبح أسوأ مهانة ممكنة..

خاصة حين تخطاها هو.. دفع طرف الباب بقدمه بتسلط وقال بنبرة خشنة متعجلة:

- أين "قلب"؟

شعرت بنفسها تتعثر خلف جسده الضخم بعد أن أغلقت الباب وهي تدمج حروفها بأنفاسها الحائرة:

- لا.. لا أعلم، استيقظتُ ولم أجدها.

- هل استيقظتِ من النوم لتوك؟

انحنت شفتاه بتعبير ساخر قاتم لم تلمحه، كانت عيناها تأكل الأرض وعيناه هو تأكلها.. تأكلها بشكل فطري تمامًا وكأنها امرأة تخصه.. تخصه منذ وُلِدَتْ، منذ جاءت إلى العالم.. تخصه حتى من قبل أن يدرك هذا.. كان وجهه متصلبًا قاسيًا بدرجة صارمة، جسدها الصغير البكر ملفوف في ثوب بيتي شبه شفاف! ما هذا الذي تفعله.. هي حمقاء تمامًا وتصيبه الآن وفي هذا التوقيت بالحريق. حاوطتها عيناه مثل كماشة، بينما وهي تتابع بعفوية بريئة:

- "قلب" خرجت.. لا أعلم أين هي..

كانت تحاول التقاط أنفاسها وهي تحادثه.. لم تكن قد رأته منذ زواجه، ظنت أنها قوية.. ثابتة حتى.. تخطت غرزة الجرح الأولى وبعدها ستكون بخير رغمًا عنها. ولكنها أيقنت أن ظهوره ببساطة مزَّق كل الغرز الممكنة. قست عيناه وهو ما زال يراقبها دون أن تدرك... ثم انسابت نظرته على تفاصيلها قبل أن يقول بصوت عميق صارم لا يترجم أبدًا ما يحترق في دواخله:

- هل تجيدين إعداد أوراق التوت يا "نهاية"؟

ماتت عزيمتها، تسمَّرت في صدمة وهي لا تصدق أنه يطلب منها إعداد شيء له.. شيءٍ سيتذوقه، سيمر بحلقه

ويرتاح في معدته ومن صنع يدها هي.. حتى إنه نطق باسمها، لا تتذكر آخر مرة نطق باسمها، ولكن يبدو هذا من وقت بعيد.. بعيد جدًا. استدارت على الفور بحماس عفوي نصفه سعيد ونصفه حزين.. قالت بصوت متقطع في حين كانت قد ركضت إلى موقد النار فأشعلته ثم علقت الإبريق الضخم في مكانه:

- العمة "زليخة" علمتني.

بدأت سريعًا في طحن الأوراق ودمجها بالعسل دون أن تدرك غياب عينيه الشرس مع تفاصيلها، لقد بدأت مفاتنها تتضح.. تتضح بشكل خطر ألهاه الآن عن سبب قدومه وما يخص "قلب". انعقد حاجباه وهو يتأملها، في حين كانت هي تركض بكل شعورها كي تعد له أفضل مشروب ممكن. شعرت أنها استغرقت وقتًا طويلًا عن العمة "زليخة"، وخافت أن يكون العسل قد تجعد مع الأوراق فلا يذوب في الماء كفاية، توترت جدًا من أمر هكذا بسيط، حتى إنها سكبت لنفسها القليل أولًا كي تتذوقه قبل أن تقدمه إليه. إلا أن صوته فجأة هاجمها كمطرقة رأس:

- هل انتهيتِ؟

أدركت أنه يقف خلفها تمامًا، لم تكن تعلم أنه متربص بها من البداية.. حتى إن يده امتدت من خلفها فأخذ المذاق الذي سكبته لنفسه، كان قلبها ينبض بقوة حتى إنها لم تستطع التفوه بشيء.. اندمجت حرارة الكوب مع حرارة أنفاسه خلف ظهرها، ظلت على وضعها الصنمي العاجز حتى احتل صوته العميق الفراغ من خلفها:

- ليس سيئًا!

ثم صمت للحظات قليلة لينحني قُرب أذنيها ويقول ببطء:

- العسل لم يذب بالكامل بعد.. ما زال يحتاج إلى بعض الوقت.

كانت عاجزة عن فهم تلميحه، ضائعة تمامًا.. انفلتت همساتها متقطعة من بين شفتيها في تلعثم:

- كنت.. كنت سأسكب لك المزيد.

- لا داعي.

قالها باترًا بجمود، ثم استدار فجأة وابتعد عنها لخطوات معدودة حيث إنه حتمًا إن لم يفعل هذا الآن لكان قد أخذها بين ذراعيه. قال بعدها بنبرة صارمة سيطر بها على لهاث أنفاسه:

- اذهبي وبدِّلي ملابسك، ولا تفتحي الباب بهذا الثوب مجددًا.

وترك المنزل وخرج.. خرج وقد غاب غابت أنفاسها تمامًا، احمرَّ وجهها كله وهي تنزل بنظرها مكتشفة الثوب، لتدرك أنها تستطيع أن تلمح تقريبًا كل تفاصيل جسدها من خلاله.. لم تستوعب حتى أنه رحل.. ركضت نحو غرفتها وبكت في مهانة.

***

سلاح المحارب أذناه.. سلاح المحارب صمته.. سلاح المحارب ثباته.

هبَّت رياح قوية ضربت جبهتها المستنفرة، غاضبة مثل أنثى نمر جائعة. عيناها تقتنص طائرًا مسكينًا يبحث عن وجبة الصباح خاصته، وهي قررت أن يكون لها الوجبة.. ماذا لو اصطادته وقدمته لـ"شاهق" وليمة على مائدة فطوره هو و"سيراب" لتقول له بلغة الافتراس "لم أعد أحتاج إلى دروسك".

كان طائرًا غريبًا، لم يكن عصفورًا ولا حمامة.. كان حجمه أكبر، لونه أسود حالك، وله ضفيرة من الريش الطويل تتدلى من صدره، في حين ينمو فوق عرفه ما يشبه التاج. كان قبيحًا ونغمًا ولا ينتمي إلى المكان.. والغريب أنه لم يبتعد في مساره مثل بقية الطيور، بل ظل يحوم باستفزاز فوقها وكأنه يدعوها إلى قتله.

تنفست أربع مرات، ثم رفعت قدمها اليسرى على صخرة أمامها، ورفعت ثوبها الأبيض الطويل فانحسر عن ساقها كي تتمكن من الوقوف جيدًا، كان ثوبها نسيجًا أبيض طويلًا مطرزًا بخيوط بنية من الأسفل، وقد ربطت فوق صدرها وخصرها صدرية جلدية من اللون البني أيضًا مشدودة بأربطة قوية من الخلف، لم تكن ترتديها لترفع نهديها مثل باقي النساء، بل كانت تشعر أفضل بجسدها وهو مضموم في إطار ضيق.. كانت تتمنى أن يتاح لها ارتداء بنطال ودرع مثل المحاربين لا ثوب يبرز مفاتنها. تركيزها انصبَّ على الطائر وقد تلاشى إحساسها بكل شيء حولها سواه، في حين امتلكت أناملها الوتر وباتت مستعدَّة للقنص. ومتأخرة.. متأخرة للغاية أيقنت دعس حفنة أوراق جافة بقدم ثقيلة خلفها قبل أن يحتلها في لحظة، يأخذ جسدها وحركتها وقوسها ونبالها تحت سيطرته ويوجهها بعيدًا عن الطير موجهًا حركة السهم نحو ثمرة تفاح نضرة قبل أن يهمس همسًا واثقًا ثقيلًا:

- التفاح يناسب جمالكِ أكثر!

مخزون حنق داخلها تفجَّر، تملَّصت منه ثم خلصت جسدها وابتعدت، لكنه كان قد نال منها القوس ولمسة جامحة لأعلى فخذها العاري.

كان غضبها متوهجًا فوق وجهها بشكل جعلها في عينيه

بالغة الفتنة.. حتى إنه لا يمانع أبدًا الآن في إعادة الكرة مجددًا ونيل لمسات لمزاجيته. أمال عنقه وهو يرمقها باستمتاع زاد من غضبها أكثر، فلم يستطع لسانها كبح سخرية انتقامية:

- ماذا؟ هل آلمكَ عنقك من ترك العرش والتجول لعدَّة أيام في أرض الإقليم؟!

توجهت عيناه مع معاندتها المتهورة قبل أن يبتسم بمكر:

- علَّمك شاهق الرماية ونسي أن يروض أخلاقكِ.

ردَّت على الفور بجموح وإن حافظت على السخرية:

- "بارود" يتباهى بمعرفة كل شيء.. سلوك مثالي يناسب حاكمًا.

مطَّ شفتيه بابتسامة مجارية لسخريتها:

- تعلمين.. علينا من حين إلى آخر الالتزام بالمبادئ الملكية.

بدا لطيفًا وهو يحاول أن يكسر الثلج المنتصب بينهما، لا يشبه التصور الذي كان عنه في مخيلتها، لا يشبه رجال الإقليم أيضًا.. هو بالغ الأناقة، شجرة ذهبية وسط غابة! ظلت ثابتة مكانها ترمقه بتحفز، وهو يتقدم نحوها ببطء ويناولها القوس وصوته يتهدج بتلاعب:

- شيء متمرد لطيف جدًّا.

رمقته بغضب وهي تسحب القوس منه بعنف:

- شيء!!

تجاهل تعقيبها ثم تجولت عيناه في السماء باحثًا عن الطير حتى وجده، كان ما زال يحوم فوقهما وقد فرد جناحيه في استمتاع آمن، وبدأ يدور حتى استقر على فرع شجرة

باحثًا عن حشرات تسد جوعه. قال بعدها بنبرة هادئة مسيطرة:

- طائر التاج (6)*.. لا تقربيه هو يخص العرش.

كلمته الأخيرة بدت تحذيرية بصرامة، إلا أنه بعدها ابتسم بهدوء ثعباني:

- هو من حاشيتي.. حين تلمحيه اعلمي أنني قريب.

التمعت عيناها بنزال ثم قالت متسلية:

- يا له من سر عظيم لا يسمح للحاكم بالتجول سرًّا.

- منحته لكِ أنتِ فقط، كي تصبح بيننا إشارة خاصة.

عقدت حاجبيها بتفكر مُزعج مع كلماته، ما هذا الذي تفعله.. أي جنون ترتكبه وهي تقف هنا وتحاور صاحب قوانين يودوس التي تمقتها. التمعت عيناها بجمود وغضب وكراهية وتشتت ومواجهة متهورة لتتسرب كلماتها بهمسٍ عفوي:

- أنت ظالم!

تفحَّصها وعيناه ساخرة لكن ملامحه كانت جادة تمامًا، نبرته فولاذية مصقولة ونظرته حدُّ سيف:

- كي يكون هناك مظلوم لا بدَّ من ظالم.. العالم يحتاج إلى الاثنين.

اعتصرت كلماتها بحنق:

- القهر والظلم والقانون الجائر في نظرك عدل العالم؟!

ضاقت عيناه وهو يتأملِ حماسها، روحها الحية في إقليم هو قتل أرواح نسائه.. ردَّ بخفة ساخرة:

- أنا مثلك جئت ووجدت كل هذا.. الفارق أنه يناسبني.

مطَّ بعدها شفتيه بابتسامة راضية في حين مر سؤالها هي مثل تمة سخرية:

- لو لم تجده ماذا كنت ستفعل؟!

- كنت سأكتبه.

والتمعت عيناه بنشوة؛ لا توجد متعة أكثر من وضع القوانين!

تفحصته بقسوة متابعة باستهزاء:

- يا لك من تعيس! فالبارود الأول اختار البعض والثاني تمَّم.. لم يتركوا لكَ مساحة ضخمة للإبداع.

التمعت عيناه بخطورة ثم قال والابتسامة تلك المرة تناور شفتيه:

- لا تستهيني برجل اقتنص حكمه وهو في السابعة عشر من زمرة مهتاجين أغواهم الخرس.

رفعت ذقنها مجارية ولم تضطرب، رغم قسوة نظرته ونبرته التهديدية جارته بشجاعة:

- آآاه.. كابح التمرد، لم تمنع عنهم حواسهم ولكنكَ حافظت على الجهل.. مثلكَ مثل "البارود الأول" مانع القراءة الذي اقتنص المعرفة وحده..

راقب توهجها بصمت قاتم وهي تتحدث، كانت عيناه ترسم دائرة حول جسدها ثم ببساطة يحتجزها في خياله فيها. يعبر بعينيه فوق تفاصيلها بتأنٍّ، كانت عيناها ترتعش بغضب هادر، نعم، ولكن لمحة توتر.. لمحة بسيطة سريعة تمر على الجميع دون انتباه ولكن ليس عليه.. نطق فجأة بصوت ثابت عميق فأجفلها:

- هل تجيدين القراءة يا "قلب"؟!

رعشة قاسية مثل لسعة عقرب مرَّت بجسدها كله دفعة واحدة قبل أن تستدعي ثباتها سريعًا على الفور، تقلب الطاولة وتتصنع البلاهة مع زاوية ابتسامة جانبية صغيرة ارتسمت على شفتيها:

- يا ليت.. إنها أمنية محرمة.

لم يستسلم سريعًا، ناوشها بخبث ماكر:

- لا أعلم.. ربما علَّمك "شاهق" كما علمكِ الرماية.

انفعلت بقسوة، لم يكن مباحًا في عقلها فكرة محاولة إيذائه "شاهق" بأي صورة.. ربما هي مغتاظة منه الآن، لكنه ابن العم، وحنان الأخ الأكبر الذي تعرفه، الدماء نفسها تجري في عروقهما.

- هل تبحث عن ذريعة لإيذاء "شاهق" الآن؟!

ضحك بنبرة عالية، ضحكته بدت شيئًا خارقًا قويًّا واثقًا بقوته.. من تخدع؟ رجل يمتلك بأس تماثيل المينوتور وخمس فرق من الحرس قادرين على تطويق يودوس والمعرفة وتزوير التاريخ أو حرقه تمامًا إن أراد. من تعاند؟!

تابع وهو يمط شفتيه بغرور:

- "البارود" لا يحتاج إلى ذريعة ليقتل!

ثم أردف بلامبالاة هادئة:

- أنا أحافظ على حياة نصف خصومي، وإلا أين المتعة!

انقبض قلبها بقوة، كانت تعلم أن العلاقة بين "البارود" وسكان الإقليم ليست أفضل شيء، مجرد مناورات سياسية مطلوبة.. و"شاهق" شوكة قوية ساكنة لمدة، لا يخضع ولا يحارب. والآن تثق أن البارود ينظر نحوه بعين التربص. تعجَّلت بعدها في الكلمات، نجح أن يوترها فانتصر

الغضب:

- ماذا تفعل هنا يا...

وتوقفت.. بما عليها أن تناديه، يا سيدي؟ لن يحدث أبدًا.. يا "بارود"!!

التوى فمها بسخرية جريئة وذكية، كانت تريد تحويل دفة الحديث عن ذكر "شاهق"..

- هل اسمك "البارود".. أم إنه مجرد لقب مكرَّر، لا يعلم أحد اسم "البارود" أبدًا.

أعجبه تهورها الأحمق المغلف بما تظنه شجاعة..

- هل تريدين معرفته؟

ردَّت بصلابة وقد ارتعش جانب فكها:

- ربما!

تسلل شعاع نظرته الأزرق لها بخبث شديد ثم تابع بتسلية:

- عليك تقديم الثمن إذًن.

- هل قدمه أحد من قبل؟

- كل امرأة عاشرتها عرفت الحقيقة.

- إذًن لن أعرفه أبدًا.

واستدارت راغبة في الرحيل، هو يمتهنها بطريقة الرجال. يناور بشكل رخيص يناسب طريقته في الحكم. كادت تهرول ولكن كان قرارها متسرعًا بحماقة، فمع سرعة سيطرة ساعده على خصرها تعثرت قدماها تحت الثوب الطويل وكادت تسقط، إلا أنه رفعها بذراع واحدة ثم حاصرها على جذع شجرة قبل أن يقول هامسًا وهو يقيد تملصها منه:

- اهدئي لن يحدث الآن.

كان يرمقها وكأنها صارت من ممتلكاته، بل هي من ممتلكاته فعلًا.. ألا يمتلك الإقليم بسكانه. انتفضت بعنف أزعجه، فمرر يده بهدوء فوق جبهتها ثم قال بغموض غريب:

- أنا رجلٌ ظلمه التاريخ، والحاضر، ويريد أن يفتكَ به المستقبل.

ثم أمال رأسه أمام شفتيها الشهيتين ليتابع بأعين ناعسة:

- أتفتكين بي يا "قلب"؟

خرج صوتها ضعيفًا رغمًا عنها من فرط المقاومة:

- اتركني.. لا أحب أن يقيدني أحدهم.

تأملها بإعجاب ثم تابع دون أن يتركها:

- أنتِ عنيدة ومتهورة.. تحتاجين إلى القيد.

- ولكنه لا يليق بي.

ردَّت على الفور بكبرياء.. أشاحت وجهها عن نظرته المترقِّبة وشعرت بارتجافة تامة في جسدها وهو يقترب ليستنشقها. ثم تابع بمراوغة:

- المغامرة بيننا ستكون شائقة.

دون تفكر.. عقلانية أو منطق رفعت كفها بغية أن تلطمه، لا تدرك فعليًّا ماذا حدث بعدها وكيف.. قبض معصمها بقوة آلمتها ثم تحرك بها إلى بِركة قريبة فدفع جسدها لتسقط أمامه في الوحل!

التمعت عيناه بقسوة ثم همس ببطء قاسٍ:

- التمرد مع "البارود" وحل.. تذكري هذا.

كانت أنفاسها لاهثة، خصلاتها متناثرة فوق صفحة وجهها الفاتن ومفترق نهديها يطل رغمًا عنها من فتحة الثوب المدمجة بالصدرية الجلدية التي لم ترتدِها لهذا

الغرض، غابت عيناه معهما لوهلة ثم اتسعت بتألق راضٍ:

- لا مانع من بعض المتعة جوار مسؤولية الحكم.

وختم بقول غريب وهو يستدير عائدًا متوجهًا إلى حصانه، في حين حط طائر التاج على كتفه:

- **كل شيء سيتغير قريبًا.**

***

قالت "زليخة" بنبرة غريبة:

- حرير طلبت "قلب"!

بدا فمها في تلك اللحظة شبيهًا بفم خنفساء ضخمة كئيبة.. لامست بقبضتيها مقبض وعاء الطعام الحار، ثم قالت بنبرة قوية بائسة ونهاية تستمع لها في تيه وصدمة:

- طلبتها وعليها أن تذهب.

ارتجف جسد "نهاية" وقد انتابتها لحظة تفتت:

- لا تخبريها.. تستطيع دومًا ألا تذهب.

أغمضت "زليخة" عيناها ثم قالت بحكمة حزينة:

- لا أحد يستطيع الهروب من نبوءات حرير يا بنيتي.

ثم نظرت إلى الأفق نظرة طويلة وإلى "ضوء" التي كانت راقدة جوار البئر تشحذ سكينًا ضخمة.

- ثم إن "قلب" عنيدة بما فيه الكفاية لتذهب وتواجه النبوءة.

قالت "نهاية" بهمس شارد:

- بل شجاعة..

وزادت متممة:

- ليست مثلي!

ابتسمت لها "زليخة" في حنان، مررت يدها المتغضنة العجوز على مقدمة رأسها وجبهتها، ثم قالت لها داعمة ومدللة:

- أنتِ أشجع بنات "فيصل".

اغرورقت عينا "نهاية" بالعبرات في يأس وهي تتذكر مقابلتها الصباحية مع "شاهق":

- أنا! أنا الأسوأ يا عمة.

كادت "زليخة" أن تجيب، إلا أن باب المنزل فجأة انفتح بعنف لتظهر "قلب" ناقمة ساخطة ووجهها محترق الانفعال وكأنه قاع شمعة، وكلتاهما تنظران نحوها في دهشة مدمجة نوعًا ما بالبلاهة.

رمقتهم في حنق:

- ها.. ماذا؟

ابتسمت "زليخة" في خبث وردت على الفور:

- أيًّا كان من أغضبك لهذا الحد يستحق جائزة.

ابتسمت لها "قلب" ابتسامة صفراء وتخطتها، جذبت وعاء الماء والإبريق وبدأت تغسل قدميها الملطخة بالوحل حتى أعلى الفخذ في غيظ، و"نهاية" تنظر نحوها في إعجاب وحيرة.. كانت "قلب" جميلة حقًّا، ممشوقة القوام بجسد مثالي وساقين رشيقتين جميلتين رغم تلطخهما بالوحل. حتى ملامحها الغاضبة بشدة تحت توقيع حاجبين معقودين بحنق كانت الفتنة المجردة. وتلك الفتنة على موعد مع "حرير".. و"زليخة" تقر وتوضح وتجذب انتباه "قلب" وقوتها وغضبها وغيظها وكل حواسها دفعة واحدة..

"حرير تريدك".

***

- هنيئًا يا "قلب".. حان وقتكِ!

نبرة "ضوء" الساخرة الشبيهة بالمس تمر جوار أذنها، "زليخة" تضحك ساخرة، ولكن في عينيها شفقة.. أما "نهاية" فتتوسل إليها بصمت ألا تذهب. لقد ظنت طوال عمرها أن منزلهن هذا مسكون باللعنات وأشباح الماضي، والآن تدرك أن كل هذا لا شيء.. هي في خضم مرحلة جديدة.

لمحة كبرياء وعناد مرَّت على صفحة وجهها، قبل أن تجفف ساقيها وتسحب بيدها حفنة من خوخ مقطع أنهته "زليخة" لتوها فمضغته مرة واحدة ثم قالت بلامبالاة مصطنعة:

- حسنًا.. لنرى ماذا تريد العجوز المسحورة.

قالت "نهاية" ببساطة تشبهها:

- لستِ خائفة؟

رفعت عينيها نحوها وبدت الصغيرة التي تتوسل الأمان بعد رحيل "بداية"، وزيادة الجنون في "قلب" "ضوء". ابتسمت لها "قلب" نصف ابتسامة ثم قالت بشموخ وقوة:

- أنا لا أخاف يا "نهاية".

- كيف؟

- لا أعلم.. ربما لأنني لم أمتصْ حليب نساء الإقليم وخضوعهن.

كانت تسخر باستياء، فلم تبدُ مستمتعة بكلماتها.. ما زال لقاؤها مع البارود يشغل ذهنها، حقيقة همسه في أذنها تتجسد.. توعد وتتوعد وتهدد وتجمل وتخيف.

"كل شيء سيتغير قريباً".

عادت إلى ملامح "نهاية" متجاهلة أصوات الصراع داخلها:

- لا تخافي، ألم يزرها "شاهق".

وكأن ذكر "شاهق الجبل" الذي يفتت البعير.. غابت ملامح الصغيرة وحل الحزن المظلم، أغمضت عينيها كي تمنع انهيار العبرات المهين، و"زليخة" تزجر "قلب" التي تابعت ببأس:

- أنتِ تستحقين زيارة لملكات النحيب.

كانت ملكات النحيب هن بديلات الغم على وصف "قلب"، تتوجه إليهن من لا ترغب في البكاء والحزن فيبكين ويحزنَّ مكانها.

جزَّت "نهاية" فوق أسنانها برفض:

- لا.. البكاء يريحني.. دونه سيتجمد قلبي.

قالت "قلب" بقسوة مزمجرة:

- القلب المتجمد مرتاح يا غبية.

وتركتهن وانزوت في غرفتها، كان لديها الكثير لتفكر به.. لترتبه.. "بارود".. "حرير".. "شاهق".. "بارق".. "ضوء".

ملعون الإقليم وملعونة يودوس بمن فيها.

هي امرأة ستساير مصيرها، ترتدي عباءة سوداء وتتسلل، ومن يعلم قد يكون الخلاص على يديها.

***

وكر مثل كهف..

دَرَج حجري غير منظَّم يخدر وفي أسفله عظام منثورة..

عجوز استقبلتها، كان لها أنف ضخم قبيح ووجه مجعد يعبّر عن عمر مائة عام، عيناها تتوجهان من تحت غطاء الرأس ولها سبابة رفيعة طويلة عن باقي أصابعها تشير فقط بها إلى القادم كي يتبعها. كان شروق الشمس قد بلغ الإقليم كله سوى منزل "حرير".. لطالما تأخرت الشمس عنها وهجم القمر سريعًا، يتناهى إلى مسامع المار بسور الوكر صوت زقزقة عصافير مختنقة وهسيس ثعبان جائع، وإذا ما تلصص بحثًا لا يجد شيئًا. كلها أصوات "حرير".

"حرير" للجميع حكاية.. أسطورة سفلية خرجت من باطن الأرض ورهبة مكتوبة فوق الرقوق الممنوعة وحكايات الشعراء. كانت شيئًا لا بشريًا متصلبًا على سطح بئر مردومة، جسدها محاط بشبكة خيوط تخفي عريا وتقدم غيره.. ووجها سطح أملس بلا ملامح سوى من شق مستقيم كئيب يتحرك كي يمرر حروفها. مع اقتراب الشمس وشروقها من النافذة التي كانت المنفذ الوحيد للضوء في المكان كله، شعرت "قلب" وكأنَّ الظل خلف تلك المخلوقة يستطيل ويتضخم ليصبح وكأنه نسخة أخرى منها تنسدل من طرف قدميها كزئبق غير منتظم الشكل حتى أعلى الجدار.

كان مشهدًا داعيًا إلى الخرس.. أقوى الرجال تصيبهم الرهبة من رؤية "حرير"، فماذا عنها هي! ادَّعت التماسك في شموخ، الخوف في يودوس وباء أصاب الجميع وهي لن تسمح له بامتلاكها.

- "قلب"!

تحرك الشق منبتًا نبرة كئيبة مثل ضحكة ساحرة عجوز، كان الصوت يبدو وكأنه لا يخرج من الفم، بل من

مؤخرة الرأس، وكأنما هو صدى يلتفُّ حول جسدها ويعود.. ابتلعت "قلب" ريقها ورمقتها بثبات شجاع، لم تفهم ما المفترض عليها فعله.. هل تحاور "حرير" زوارها.. أخذ انطباعهم عن النبوءة! بدت أفكارها ساخرة مشاكسة بالنسبة إلى الموقف.. هي أمام امرأة تتنبأ بمصيرها، تقودها إليه أو تقوده إليها لا فارق، فنبوءات "حرير" دومًا ما تتحقق. توهَّجت عيناها العسليتان وهي تنتظر باقي جود الشق دون أن تنبس بشفة، وتساءلت أفكارها.. هل تنبأ الشق لـ"فيصل".. لـ"ضوء".. للفتاة الرابعة التي يتحاشى منزلهم الحديث عنها.

بدا صوت "حرير" التالي شبيهًا بالموت كما يصفونه، لم تتصور أن تستمع في حياتها صوتًا بتلك الكآبة، لم تتصور أن يُرجفها شيء هكذا أبدًا. صوت مموَّج، أحرفه في ثوب ترنيمة وغريب مثل نقر غراب فوق جثة.. صوت يلتف حول الجسد والعقل وجريان الدماء في قلب حر.

صوت به قوة كفيلة ليجذب كل الحواس دفعة واحدة، ويدفعك منومًا نحو بئر مردومة، وفي النهاية ستغرق فيه.

صوت النبوءة

التي اقتربت جدًّا.. ولم يكن خيارًا يستدعي التنفيذ، كان ما سيحدث:

- ستغادرين يودوس.. جهزي "قلب قوسك"!

"قلب النبال" نالت نبوءتها، أول نبوءة من أربعة.. وفي الوجه الخالي من الملامح ظهرت عينان، واحدة بلون حجر أزرق والأخرى ظلام مشتق من لهيب.

أول ملامح "حرير".

***

ماذا تظنين نفسك فاعلة؟

صوته الغاضب الحاد كاد يخترق الجدران، عنادها كان في البداية تمردًا ضعيفًا.. شيئًا مباحًا السيطرة عليه بحدٍّ.. والآن هذا التمرد يجنح نحو منحنى خطر.. خطوة لم يتصور حدوثها!

- أنا لم أفعل شيئًا.

تنهدت "قلب" بصوت متعب وقد كانت نبوءة "حرير" تحتل نصف دماغها فعلًا، كل شيء يحدث بسرعة مجهدة.. "البارود".. "حرير".. والآن جنون ملامح "شاهق" أمامها.

- أين كنتِ؟

- عند "حرير"، ألم يخبركَ رجالكَ الذين تبعثهم خلفي.

- رجالي، نعم.. الذين فقدوا رؤيتك بسبب حرس البارود.

توترت ملامحها مع كلمته.. كادت تهم بالتفسير، إلا أن نظرته هو تحولت فجأة، باتت مثل أدغال مخيفة:

- هل تدركين إلى أين ستوصلكِ حماقتكِ؟!

قالت ببأس قاتم حقيقي:

- هل الإدراك مسموح لنساء يودوس يا شاهق!

لم يكن في مزاجية لمعاندتها.. كانت عيناه مصبوغة بلون دم أحمر غاضب، وفي عقله ألف فكرة..

- الزمي المنزل.. لا تخرجي ولا يلمح أحدهم طرفكِ حتى أتصرف...

وقبل أن يتم كلمته جاءه أحد رجاله يركض.. كان يلهث بسرعة وهو يشير إلى الطريق المحاذي للنهر والمؤدي

امتداده إلى منزله:

- سيد "شاهق".. لقد جاء "البارود".. كان كما علمنا يمكث في ثكنة عسكرية صغيرة على أطراف الإقليم، والآن هو يتحرك في موكب نحو منزلكَ.

الوقت من ذهب واقتنصه "البارود" قبل أن يقطعه سيف "الأرقب".

***

- "قلب"! لا أتمنى لها سوى التعاسة.

كان اسمها "رملة"، وكانت في هذا الحين تتجول حافية خلف شاعر وسيم عشقته، ولكن الشعراء المضادين للبارود وهبوا نفسهم لنضال الحرف، فحرَّموا على نفسهم الزواج كما حرَّمه هو على حراسه.

وسط تدفق شعاع الشمس بغزارة على الإقليم وبعض السكون في تلك المنطقة القريبة من أرض الأرقب، حيث هي منطقة صفوة ظهرت رايات سوداء وذهبية.. موكب عسكري ليس ضخمًا، ولكنه بالتأكيد نخم. يتوالى فيه فرسان بدروع فضية، يعلم الجميع أنهم الحرس الرابع للبارود، وخلفهم ذوو الدروع البرونزية.. الحرس الأول!

"البارود" له خمسة فيالق من الحرس.

الخامس أصحاب العصى، وهم فئة من المتدربين الأقوياء تكمن مهارتهم في القتال بالعصيان الخشبية الثقيلة المسننة بنصال حادة قوية تُصنع لهم خصوصًا، الرابع حراس الفضة وهؤلاء الأكثر عددًا ويتكون منهم أغلب الجيش، الثالث فيلق جبار ومنهم الصفوة، وهم الأقوى في حرسه، والثاني حرس سري لا يعلم بشأنهم أحد، أما الأول ففيلق خاص بحمايته الشخصية والمهام الأصعب في الميدان.

وهنا شهقت "رملة".. فالجميع يعلم أن حضور الفيلق الأول يعني حضور "البارود" بنفسه..

كانت الأحصنة تتحرك بشكل نظامي باهر، حاملو الرايات في البداية، وخلفهم الفضة ثم الذهب، وخلف أربعة أحصنة هم الأضخم عربة ملكية بدا الجميع واثقًا أنها تحمل "البارود" بشحمه ولحمه. انتبه الجميع، بدأ الزحام يتدفق حول الموكب الذي بدا واضحًا أنه يتجه إلى منزل "شاهق الأرقب".

هناك وصل "شاهق" ورجاله قبله بدقائق معدودة، كان يقف في تحفز، وسيراب جواره وعيناها لامعة باهتمام وفخر.. مع اقتراب الموكب بدأ الجميع في الاستعداد للركوع سوى "شاهق"!

كان هناك اتفاق قديم.. عائلات "الراعي" و"الأرقب" لا تركع. ولهذا حين بدأت "سيراب" في الميل راكعة شذرها بنظرة هي أصل الجمر نفسه كي تستقيم، نادى حاملو الرايات بتحية تخص "البارود" وتنبئ بقدومه، وبدأ حراس الصف الأول في الاصطفاف ثم الترجل عن أحصنتهم، وأعين الجميع متعلقة بالعربة التي لم يخرج منها أحد!

خلع هو خوذته، وقد كان واقفًا مع حرسه الأول ويرتدي مثلهم تمامًا، ليظهر من تحتها شعره الذهبي المسترسل، في حين واجهت عيناه الزرقاوان بأسَ عيني "شاهق" وسط انبهار الجميع به.

البارود الشاب في قلب الإقليم وفوق جسد الأرض، قرر ثم نفَّذ سريعًا دون أن يعطي "الأرقب" فرصة هروب.

أمام الجميع بات الخبر واضحًا وملجمًا للألسنة.

طلب البارود "قلب".

***

هي لا ترفع عينيها نحوه.. تتحاشاه! بشكل عاجز ساخر.. هي كل ليلة بين ذراعيه وتتحاشاه!

كانت منهكة، تتسرب منها أحيانًا تنهيدة مثل أنين وهي معه، لحظة الاستحواذ تلك رغم أحقيته بها كانت تُرهقها. الخادمات يتتابعن على الغرفة لوضع الطعام مع ضحكات نسائية خبيثة ويخرجن.. ستة أيام هي محبوسة معه بين أربعة جدران. يأكل ويشرب ويشرد ويطلبها أو يأخذها عنوة بلا مقدمات.. لا يحادثها إلا قليلًا، شعرت وكأنما هي امرأة بدور محدد، مجرد أداة نسل كما جزمت "قلب". افتقدت "قلب".. افتقدت "نهاية".. افتقدت "ضوء" والبئر وحتى البومة الكئيبة التي كانت تطير حول منزلهنَّ. تجولت عيناها في أثاث غرفتها الفخم.. ما تتمناه أي امرأة، خزانتها الممتلئة بالجواهر، وإن لم ترتد أيًّا منها، هو قال لها بأمر أنه لا يحب الحلي.. تستطيع أن ترتديها وحدها حين تشاء. تنهدت وقد حان موعد العشاء المعتاد والخادمات يُدخِلن الطعام ويرتبنه على الطاولة الصغيرة في مواجهة الفراش. هو منشغل بمراقبة النافذة، وهي لا تعلم أي شيء منها يريده أولًا. ظلَّت واقفة مكانها مثل صنم يشعر بالملل قبل أن تنطق فجأة مقاطعة انتباهه:

- هل أستطيع أن أزور عائلتي؟

كانت توزع نظراتها القلقة على جسده ككل، هو رجلٌ ضخم الجثة، حين يأخذها أحيانًا بكل قوته تشعر بدوار شديد، ولهذا كانت تحرص ألا تغضبه. وإن يبدو عدم إغضابه مجاهدة..

ردَّ بنبرة قاتمة وعيناه لا تترك ما يراقب:

- لماذا؟

لا تفهمه.. كيف لماذا؟ ألا يشتاق المرء إلى عائلته!
ردَّت ببديهية متسارعة:

- لأنني اشتقت إليهم.

ردَّ بغطرسة خشنة:

- حين أنتهي منكِ تستطيعين الذهاب!

هو حقًّا ثور بري كما تقول "قلب"، كلماته مباشرة مهينة، وحتى حين يطلبها أحيانًا يعبر عن ذلك بأمر فج. تنهدت مستسلمة ولا تصدق أنها ستقول هذا:

- متى تحديدًا؟ يوم غد!

كانت لهجتها يائسة، لولا هذا اليأس الأحمق لألصقها في الجدار بلطمة.. تركت عيناه مشهد النافذة وقد ضاقت عيناه في سخرية قاتمة:

- ربما.. ماذا، هل الأمر لا يعجبكِ؟

شعرت برهبة تامة من سؤاله، لم تعرف بما عليها أن تجيب، وقبل أن تدرك شعرت بلحم ذراعها ينهرس بين أنامله، في حين اقترب هو في وثبة وهمسه يقسو عليها في سخط:

- أخبريني يا "بداية" يعجبكِ أم لا!

هزت رأسها نفيًا ودموعها تكاد تتساقط:

- لا.. لا أعلم!

كانت أبسط من مكر النساء في تلك اللحظة، وإن كان كل رجل يحتاج إلى الصدق جوار المكر.

لا يعلم هو نفسه لِمَ جذبها في تلك اللحظة في قسوة مفرطة، كان يفهم تيهها، ولكن هذا الرفض المدمج بالخجل كان يثير جنونه.. تركها بانفعال قاتم وعاد إلى الانتباه

للنافذة.. حتى ظهر مرساله فوق حصان مع إشارة ضوئية متفق عليها، مشعل أربحه فوقه ثلاث مرات ثم رحل..

بدأت المهمة!

***

ظهور الحاكم المبالغ به مطلوب، والمبالغة تُبهر العامة..

عاد إلى مملكته، نفَّذ ما أراد ووضع قانونه وعلى الجميع الطاعة.. وبعد عدَّة أيام ستأتيه "قلب النبال" عروسا..

كان يجلس بسلطوية هادئة ولكن خطيرة على مقعد عريض أشبه بالأريكة، كلا ساقيه ممتدتان على مسند فاخر من القطيفة السوداء، في حين تقف جواره خادمة كي تسكب له النبيذ. يتطلع بلا انبهار إلى جموع الراقصين الذين ظهروا أمامه بشكل منظم ومرتب أشبه بقوس مفتوح، كان جميعهم من العبيد الخلاسيي المظهر، شعر رأسهم محلوق، وصدورهم عارية فوق بنطال أبيض واسع من الأعلى ويتدرج حتى يصير ضيقًا جدًّا عند القدمين، كل واحد منهم يعلق في خصره سيفًا طويلًا رفيعًا من الفولاذ المطلي بالفضة وبحافة ناعمة غير حادة بالكامل. له مقبض معدني مميز محفور عليه علامة قصر "البارود" في تخصيص لدورهم. لم يكونوا من المحاربين.. بل مجرد بهلوانات متعة بسيوف باهظة للغاية.

تحركوا باحترافية واتخذوا مواضعهم مع بداية العزف، وبعدها تبعتهم الراقصات بزي شبيه بلون السماء عاري البطن، وقد تخللت خصلات كل واحدة منهن زهور صغيرة بلون الزي نفسه.. وتصاعدت الموسيقى بعدها مرة واحدة، في حين أمسكت بعض الراقصات ما يشبه الستار الشفاف لتظهر بعدها امرأة أشبه بالحوريات.. كانت ممشوقة القوام ببشرة بيضاء ناعمة ووجه يختبئ

جماله خلف وشاح أبيض شفاف ينسدل من غطاء شعر مدمج بتاج صغير ويغطي وجهها، كانت تدور باحترافية مثل أفعى فاتنة، تتلوّى بين سيوف الرجال التي حاوطت نصولهم خصرها وترقص بإغواء مدروس وعيناها مسلطة عليه وحده. لم تكن ترتدي ثوبًا مثل بقية الراقصات، بل بنطالًا شبيهًا بخاصة الرجال، ولكنه شفاف، في حين غطت نهديها بصدرية مزركشة من الجواهر الثمينة. حتى إن بعض تلك الجواهر كان معلقًا في أطراف خصلات شعرها الأسود الطويل بتصميم فاتن..

كانت مجهزة بعناية لتبهره..

ارتشف نبيذه بهدوء، وعيناه مسلطة عليها بتجمد خالٍ من التعبير، يرمقها من فوق كأس النبيذ وكأنما ترقص على حافته، وعيناه تبرقان بانفعال خاص به. كانت ملابسه كلها من اللون الأسود؛ قميص حريري مفتوح إلى منتصف الصدر على بنطال ملكي أنيق من اللون نفسه، ملابس ليست قاسية ومشحَّذة بالدروع الذهبية مثل حرسه الخاص الذين يقفون خلفه مباشرة وقد نُقش فوق سيوفهم علامة المينوتور. لا سوداء بقتامة صارمة ودروع حديدية مدعمة بحواف جلدية وقد نُقِشَ على أطرافها رمز أرض الموت لخاصة جبار ورجاله.

كانت تتلوّى وخلفها الراقصات الحديثات، جميعهنَّ من فائض التمرد أو سوق العبيد.. عذراوات تمردن على قوانينه.. منهنَّ من استسلمت لمصير القيد من رجاله، ومنهنَّ من هربت فوقعت تحت رحمة النخَّاسين والمرتزقة. كانت أغلب الوجوه لا تجذب انتباهه حتى الراقصة الفاتنة نفسها، سوى وجه واحد.. وقوف بملامح تائهة ومحاولة يائسة لمجاراة خطوات الرقص لتفشل فتؤنِّبها المسؤولة عنهنَّ

بضربة سريعة من سوط خفيف من الريش على مؤخرتها الصغيرة. تندمج ثم تبتعد بتشوش وحائرة تبحث لنفسها عن بقعة منزوية لتختفي بها.. لم تكن تعلم الشعائر ولا تفهمها. ضربة سريعة فوق جرس مجوَّف وانتهاء العزف والرقص معًا، في حين ركعن جميعهنَّ وكل واحدة تجاهد كي تجد لنفسها مكانة في مساحة عينيه.. دور المحظية أفضل مائة مرة من نهاية في مخدع الحرس ليتقاسمها في النهاية أكثر من رجل مثل عاهرة رخيصة. حاولت بعجز أن تواكبهنَّ.. عيناها حائرة بلا اتجاه وتتحاشى النظر نحوه برهبة.. حتى حدث.. التقت عيناها فاقدة الخبرة باقتناص نظرته المتوهجة قبل أن يقول ببطء مدروس آمر بين الصمت المطبق على شفتي الجميع..

- أنتِ.

***

القوارض حين تجوع تنهش أي شيء، وهذا هو حال رجال البارود.. الحرس الجائع كما تطلق عليهنَّ نساء القصر، كانت أقدامهم على الأرض تشبه الخشخشة، في حين اختار كل رجلٍ منهم فتاة يقضي بها وطره حيث الزواج محرَّم عليهم.. "البارود الثالث" لم يقدم الصمم ولا الخرس.. بل منع السكون إلى امرأة، كان يريدهم أشبه بالحيوانات، يسمع يطيع يأكل يشرب يشبع غريزته ثم يعود إلى القتال حتى يموت دون إدراك حقيقي لواقعه. ارتعش جسدها بضيق وأحدهم يدفعها، في حين مرت جوار مرجل يغلي وسحلية ضخمة تنتظر أحشاء ذبيحة. ساعات قليلة وينتهون جميعًا من الضحك والقبلات والنشوة وإن جاء النغول فهم لسكين "جبَّار"!

وجدت نفسها أمام خيمته.. جميلة الجميلات تُمنَح للقائد

الأقوى، كان فيلق "جبَّار" وإن لم يكن الأفخم ولكنه الأكثر بؤسًا.. تحت إمرته سبعون رجلًا، ليس محتاجًا، إذ قوته والصفوة خلفه وهم قادرون على هزيمة جيش يتكوَّن من مائتي رجل. كان قد عاد لتوه هو وصفوته من معركة.. خمسة وعشرون من أصحاب المس كما يُطلَق عليهم، وهم من سكان أرض العرش المنبوذين، لهم ما يشبه الخيم على أطراف المملكة ويأكلون ويشربون من جود الغابة.. قرر أحدهم في لحظة جنون بدء فوضى، وانتهوا في دقائق معدودة على يده جبروته هو وصفوته قبل أن يعودوا برؤوسهم.

بدت حولها العتمة طاغية سوى من تسلل ضوء ضعيف من شمعة، كانت ما زالت بثوب الرقص الفاحش الذي حاولت به إبهار البارود بلا جدوى، ولكنها مغطاة برداء أسود ضخم وقلنسوة كي لا يتعرَّض لها الرجال.. أي نعم لا يستطيع أحد أخذ ما هو لـ "جبار" ولكن لا داعي لفوضى مع يائس مخمور. شعرت بهزَّة خفيفة على الأرض أربكت ثباتها، وحينها طلَّ صوته بخشونة عميقة، في حين كان يجلس إلى طاولة ويشحذ نصل خنجر صغير.

- إنها حوافر خيل الصفوة.. الأسرع في الإقليم كله.

استعارت ابتسامة ماكرة ثم رسمتها على شفتيها:

- وماذا عن حصان قائدهم؟

على شفتيه تجول نصف انفعال باسم لم يكتمل، كان تركيزه كله منصبًّا على شحذ خنجره، وهي تبدأ في خلع الرداء وتقترب متهادية. قاطعها فجأة بنبرة كالطعنة السريعة المباشرة:

- لم يخترِكِ البارود؟

هزت ضحكتها ساخرة مع الأحرف:

- الجميع يعلم أن البارود لا يختار الراقصة الرئيسية، هو لا يميل إلى الفتنة الواضحة.

ثم تلوَّت بإغواء وقد انفجرت شفتاها رغبة في إثارته:

- ربما أنا من البداية أريدك أنت.

تابعت بهمسٍ محسوب وهي تحشر نفسها بينه وبين طاولته، تلتصق به وتحاول أن تقدم شفتيها الشهيتين له في قُبلة، وإن اصطدمت على الفور بنظرته الثاقبة.. كان ثابتا مثل جبل.. صخرة.. تمثال حجري.. تلوَّت بمكر:

- ماذا؟ ألا أعجبك؟

زفر بهدوء ثم مطَّ شفتيه وهو يتأمل فتنتها ولكن بلا تأثر:

- هل تظنين أن هناك امرأة في يودوس قادرة على خداعي؟

وقبل أن تُكمل ما انتوته، حيث كانت تحتفظ في حزام رقيق جدًّا حول خصرها بخنجر رفيع صنعه لها الحداد خصوصًا كان هو قد قلبها بيد واحدة على الطاولة وباليد الأخرى وضع خنجره فوق عنقها.. لهاثه قاتم مرعب وعيناه عينا رجل لم يعد يحصي عدد قتلاه..

- من أنتِ ومن أرسلكِ؟

تنفست بيأس بعدما سقط الخنجر من يدها وذهبت فرصتها سدى. رفعت نفسها بيأس وبأس حتى قاربت أذنه اليمنى ونطقت ما بدَّل ملامحه تمامًا، وبعدها تمت مهمة الخنجر فوق عنقها.. ورحلة ذهاب بلا عودة إلى أرض الموت.

***

خطوة تلو خطوة..

لحظات نحو مصير يقول قلبها إنه سيكون جيدًا.. اختارها "البارود"!

هذا أفضل مائة مرة من أن تنتهي في فراش أحد رجاله كي تتحول إلى عاهرة بعد أن يمضغها.

اختارها البارود..

وستتحول إلى محظية..

لا تفهم تحديدًا المعنى، ولكن قالت "خزام" المرأة التي دربتهن على الرقص إن المحظيات لا يغادرن جناح "البارود" أبدًا، يحتفظ بهنَّ في غرفة جدرانها من الذهب الخالص، ولهنَّ خدم خاص لرعايتهنَّ.

كانت الغرفة التي دخلتها ضخمة جدًّا، أرضيتها من الخشب المدمم، وكان اسمه هكذا لصبغته المختلطة باللون الماهوجني اللامع. كانت دافئة بفعل لهيب يتصاعد من مدفأة عريضة، وفي منتصفها فراش كبير له عمدان تمتد حتى السقف البعيد، والمصمم على شكل قبب عكسية جميعها تحوي رسومات لم تفهمها. الرسم ليس ممنوعًا في الإقليم، ولكنه غير مستحب، يقر "البارود" من له أحقية الاحتفاظ باللوحات من عدمه، وله رجالٌ يحددون أيضًا ما المسموح برسمه. كان الرسم يحوي مجموعة ضخمة من النساء عرايا تمامًا بعضهنَّ بائسات وبعضهنَّ يتضاحكن، كانت الأجساد مندمجة بشكل غريب وكأنما هو رسم فوق رسم حتى إنها لم تفهم في البداية أنها أجساد من الأساس ويحرقهم شعاع شمس. النوافذ كانت ممتدة بطول الجدران تقريبًا وتنسدل من فوقها ستائر قرمزية ضخمة أطرافها

مغزولة بخيوط من الذهب الحقيقي. وفي الطرف الآخر بمواجهة الفراش بعدَّة أمتار، كان هناك حوض استحمام بيضاوي مصنوع من العاج وممتلئ بمياه دافئة معطرة بأوراق زهور الأقحوان.

شعرت بالتوتر حين انفتح باب الغرفة فجأة، خطواته خلفها اقتربت.. تستطيع أن تشعر بعطره الذي احتل المكان على الفور. توترت أكثر حين تخطاها، كان يرتدي مئزرًا حريريًّا بلون أزرق داكن، ويمسك في يد كأسي نبيذ، وفي الأخرى الإبريق نفسه، ملامحه هادئة باعثة للراحة وهو يبتسم لها ويضع الكأسين على الطاولة ويبدأ في سكبها بنفسه.

تلجلجت لا تعلم ما عليها فعله:

- عفوًا سيدي.. دعني أسكب أنا لك.

كانت تبتلع ريقها بصعوبة شديدة وهي تتحدث، قلبها العذري يعلم أنها على بعد دقائق من تسليم نفسها له.. لم تكن ترغب في هذا، كانت تريد أن تتزوج الشاب الذي يغني على قيثارته قرب منزلها ولكنَّ الشيخ القبيح صاحب مخزن القمح طلبها أولًا. لم تكن لتتحمل أبدًا معاشرة هذا الشيخ حتى لو على موتها. ارتجفت فجأة حين لامس ذراعها الهش العاري بسبابته قبل أن يقول بهمسٍ دافئ باعث للطمأنينة:

- لا تخافي.. تعالي..

وجذبها كالمنومة نحو الحوض، بدأ يخلع هو عنها الملابس بنفسه.. كان ثوبًا من النسيج الأزرق السماوي، صدره مربع مزين بعدة جواهر شفافة وينسدل على جسدها بتدرج، عاري البطن ويمتد حول الخصر حزام مزركش مناسب الرقص.

قال ساخرًا وهو يحل الحزام ويلقيه أرضًا:

- لم تكوني ماهرة في الرقص مثل الباقيات.

توترت ولم تعرف بما عليها أن تجيب.. الراقصة الرئيسية كانت ماهرة بشكلٍ رائع، كانت تتلوّى مثل أفعى، كانت الكمال مجسدًا في امرأة ولكنه لم يخترها، بل وقع اختياره عليها هي.. رمشت بعينيها عدّة مرات بحيرة تامة ثم قالت بقلة حيلة وكأنها مذنبة:

- أنا آسفة!

التوت شفتاه بمكر وقد كان قد أسقط عنها آخر قطعة ستر قبل أن يسحب يديها نحو حوض الاستحمام متابعًا بهمسٍ مدمر لأعصابها:

- ليس الرقص ما أبحث عنه.

هنا تركها، توترت بقدر رهيب حين وجدت أنه تخلى عن ملابسه أيضًا ولكنه لم يقربها، جلس في حوض الاستحمام بهدوء ثم أشار إليها أن تحضر كأسي النبيذ لها وله.. مشيت كالمنوّمة وقد كانت ترتعش كلها وهي ترى نظراته المسلطة عليها، حتى ناولته الكأس فأشار لها بعينيه أن تجلس بدورها في حوض الاستحمام في مواجهته. كانت الرعشات تتابع فوق جسدها الصغير، رعشة خجل.. رعشة خزي.. رعشة من التقاء جسدها البارد بالماء.. رعشة إدراك ما فعلته في نفسها، وجودها الرخيص ولو حتى في فراش الحاكم.. العار الذي جلبته لأبيها.. هبطت من جفنها الأيسر دمعه التقطها هو بطرف كأس نبيذه. ثم لامس طرف الكأس بسبابته حتى هبطت الدمعة واختلطت مع النبيذ ليرتشفها في نشوة قائلًا:

- مذاق مالح رائع مع النبيذ.

كان خفقان قلبها يزيد، توترها في أوجِهِ.. بكاؤها اليائس يريد أن ينفجر.. واستسلامها المريح يتقدم ليأخذ الريادة.. دفعتٍ ما في كأس النبيذ مرة واحدة في جوفها، وهو مضجعًا ينظر إليها في استمتاع، تفاصيل المشهد ليست جديدة عليه، الفارق في المحتوى. وكل مرة ينعشه المحتوى بمذاق مختلف.. جذبها فجأة، ذاق باقي النبيذ من فوق شفتيها، ضمها إليه سريعًا وكانت هي مستسلمة كي تنهي الأمر وتنتهي.

محظية..

محظية..

لا فارق هي مَن اختارت أم ظلمتها يودوس.

باتت هنا وانتهى.

يده تسحبها من عنقها، يرفعها نحوه.. قبلته الثانية بدت مرعبة وكأنها تسحب روحها منها.. حتى إنها لم تفهم كيف ومتى انتقل بها إلى الفراش..

كانت في الجنة وفي الجحيمِ، في عذاب مدمج بلذة. كانت سعيدة ونادمة وخائفة.. مُجبرة ولكن رضوخها أفضل خيار ممكن.

ومع شهقة النهاية، تمة ملحقة بنشوة، لم تستوعب حتى الخاتمة، فابتسامته جارت ألم طعنة خنجره الحارق في صدرها.. قبل أن ينتزع قلبها بنفسه.

***

الفصل الرابع
فوق الفراش الملكي.. جثة جديدة!

جلس على مقعده الوثير بانفعال يشبه رماد هادئ.. الغرفة متشبعة برائحة الدماء والمتعة، والفراش ينبض بالموت. ارتجفت الستائر وكأنما بها حياة، ومرَّ نسيم خفيف من النافذة المفتوحة التي تركتها الخادمة منذ دقائق بعدما نظَّفت الغرفة. لا جديد.. جثة تلو جثة ويحيا البارود.. قلب تلو قلب ويحيا البارود.. ذروة النحر والمذاق.. ويحيا البارود.

كان عاري الصدر منتعشًا بحمام صباحي بارد، وقد بدت أطراف خصلات شعره المبللة مشبعة ببريق ماسي باهر، عيناه بها بقايا حريق يشبه عمق الشمس نفسها وجواره كأس نبيذ صباحي في انتظار الفطور! وليمة الحاكم.. خادمة عجوز من ملامحها تشعر وكأنها تخطت مائة عام، مع أن عمرها فقط خمسون! وجه يشبه ملامح حرباء وكفوف متغضنة بدت عروقها واضحة وهي تقبض بها فوق صحن الطعام الذهبي. وليمة مثل فزاعة.. رعب لمن يدرك وهي الوحيدة التي تعلم هذا السر.. ولهذا هي طباخته وخادمته وحبيسة قصره، أو ما يُطلق عليه تحديدًا طابق المحظيات! هي المحظية الحيَّة الوحيدة ودورها مقتصر على إعداد وجبته كلما نال واحدة.

"البارود" لا يحب مشاهد الدماء المبالغ بها.. والقلب يجب أن ينضج جيدًا!

غمرها بنظرة مرعبة قبل أن يبتسم بسلام تام ويشير بسبابته لها كي تضع الطعام. قلب العذراء كامل النضج والنبيذ والخبز والفواكه.

حتى خيال شعراء يودوس لن يصل إلى هذا الحدِّ!

عقد حاجباه باهتمام وهو يقطع بالسكين أول مذاق، ثم قال بهدوء واللحم يذوب بصعوبة في المضغ:

- تركتِه ينضج أكثر مما يجب يا "زهوة".

تنحنحت العجوز بخوف مدمج بالقلق ثم قالت بإنهاك:

- أصبحتُ بنصف قدرة يا سيدي "البارود".

وتمتمت بنبرة منطفئة يائسة:

- أنا أموت!

اقتنص تاريخها في عينيه ثم تابع بلا اكتراث:

- ما زال لديكِ بعض السنوات.

تابعت وحروفها تتساقط من صف أسنانها الهشة:

- يبدو أن الموت يقترب سريعًا من مُصاحبيه.

- هل تظنين حقًّا أنكِ صادقتِ الموت؟

وشعرت وكأنما سخرية عينيه طائر أسود ضخم يرفرف بجناحيه فوق رأسها قبل أن ينهي عبارته بقتامة محذرة:

- أنتِ خادمته.

- عفوًا سيدي.

قالتها وهي تتراجع، صوتها المرتجف يجاري خطواتها المنتهية القوة.. هل خارت قوتها بسبب رائحة القلوب المسروقة، أم بسبب حمل جثامين العذراوات ودفنها في القبو. تلك الأرواح تطاردها في أحلامها الآن، ولكنهن لسن غاضبات منها، بل يقولون إنها ستذهب إليهم قريبًا.

مضغ قطعة أخرى باستمتاع، تجرع نبيذه وهو يراقب الأفق من النافذة مستمتعًا بالمشهد الجميل لعصفورة تتسلل

للنافذة بحثًا عن طعام، استقام حينها بمرح وفرك بإبهامه وسبابته بعض كسرات الخبز ووضعها للطائر على النافذة. مطَّ شفتيه بهدوء ثم قال لها وعيناه تراقب العصفور الجائع:

- هل تعلمين ماذا سيحدث بعد ذلك؟

نظرت إليه العجوز في حيرة وعدم جواب، في حين تابع هو ببديهية رائقة المزاج:

- سيموت.. ربما يصطاده إنسان أو يأكله طائر أكبر أو حتى يموت فوق عشه. في النهاية الموت ينتظره في مكان ما.

وابتسم بقسوة، شعرت وكأنما ظله يتعاظم خلفه، ونبرته تخرج بارتياح بديهي:

- الجميع يموت آجلًا أم عاجلًا.. الفارق أنني عجلت بالأمر فلا داعي لكل تلك الدراما.

اقترب منها بعدها ودار حولها نصف دائرة بنظرة قد تبدو هادئة ناعمة، ولكنها جمَّدت الدماء في عروقها، قال ببساطة وعيناه تمرر كابوس:

- هل تريدين الموت يا "زهوة"؟!

نظرته تربصت بكل انفعال منها، تردد وخوف وثبات زائف كانت تظن أنها تتميز به، طباخة القلوب البشرية للبارود ليست أكثر من مجرد سجينة.. صدى أصوات المحظيات المقتولات يتتابع في أذنها حتى أصابها بالجنون والعجز. العجز الذي منعها حتى عن الإتيان بجواب واضح، قلب يقول نعم ولسان مرتجف بلا.. وإن لم يستمع هو لكليهما، اتخذ قراره فعلًا، وبينما كان يستدير في لحظة واحدة مد ذراعه وكسر عنقها!

أغمض عينيه بعدها متخذًا شهيقه ببطء وهو يرمي جثتها

الممددة على الأرض بطرف عينيه، ثم قرع الجرس ليأتي أحد حراسه ليقف بطاعة جوار الجثة الجاحظة في انتظار الأوامر..

- ادفن تلك وأخبرهم أنني أريد طباخة جديدة!

أمر سريع قاتم خالٍ تمامًا من الشعور.. وإن كان يشعر بالضجر، فمذاق القلب تلك المرة لم يعجبه.

التوَت شفتاه بابتسامة قاسية وهو يعد نفسه قريبًا بمذاق من نوع آخر، مذاق زوجته المستقبلية التي سيشعر بطبول قلبها المرتجف تحت صدره. القلب الذي سيحقق النبوءة!

***

- أريدها بثمن بخس.

قالها بنبرة كريهة كشفت عن صف أسنان متهالكة بتساقط جعل مساحة فمه شبيه بجلد شاة مرقَّع، خلفه كان هناك قفص حديدي بحجم غرفة يحوي أكثر من عشرين فتاة تتراوح أعمارهنَّ من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين يتدافعن بيأس في تلك المساحة الضيقة وقد أرهقهن الجوع والعطش والتزاحم، حتى إن أصغرهنَّ تمنت لو يأخذها هذا القبيح وتنال كسرة خبز وماء وغرفة واسعة ولو كانت تحت جسده الضخم.

ضيَّق البائع عينيه بخبث، وقد لاحظ انتباهه للأجساد الشبه عارية، في حين كان يحصي النقود في جيبه، ثم قال بنبرة نخاس خبير:

- خمسون قطعة فحم.

كتم أنفاسه ثم عاد يحصي النقود في جيبه، كانت عملات الفحم هي الدارجة بالنسبة إلى فقراء الإقليم وبعض ساكني مملكة العرش. لوى شفتيه تبرمًا وعيناه

تتفحص وجوه الفتيات حتى لمح جسدًا منزويًا يجلس في جانب القفص وقد بدا أنها لا تشارك باقي الفتيات حماس الهروب، رأسها مائل بين ركبتيها، فلم تتضح ملامحها، في حين انسدلت خصلات شعرها الشقراء جوار جسدها كله وقد داسته الفتيات مرارًا دون أن تتحرك.

بدت بائسة.. قوية.. قوامها ممشوق طويل وكأنها تنتمي إلى سكان قبائل السرداب، وهم مجموعة أفراد من اللصوص غادروا الإقليم منبوذين فاتخذوا لأنفسهم مكانًا على حافة السرداب. قبائل السرداب مشهورة بالقوة وطول القامة حتى في نسائها.. منازلهم مصممة وموزعة على شكل دوائر محاطة بـ سور مسحور لا يتخطاه أحد سوى بإذنهم. وكانت تلك تعويذة "سيراب" لهم كي تحميهم من شر سكان السرداب، لم تكن ملامحها ذات فتنة ملحوظة.. إلا أنها لم تكن تستحق تلك البقعة العفنة والثمن الزهيد الذي سيعرضه.

- عشرون قطعة فحم.

قالها بحسم وعيناه تراقب البائع المتردد بإمعان، كان يعلم أنه سيرضخ في النهاية.. لديه أكثر من عشرين فتاة وإن لم يبعهنَّ في خلال أيام سيأخذهم رجال البارود لأنفسهم في أحد جولاتهم الليلة. مدَّ البائع يديه وقد بدا غير مبالٍ إلا بتلك النقود القليلة، في حين أشار نحو القفص وقد قالَ بصوت جهوري قبيح:

- اختر من تريد.

- أريدها هي!

أشار نحوها بحركة خاطفة واحدة. لم يعلق البائع فتلك كانت أسوأهم على الإطلاق.. متمردة مزعجة ممتنعة عن الطعام وقد علم من الرجل الذي أخذها منه أنها "أرملة"،

أي ليست عذراء، ومن ثَمَّ لن تكون له صفقة رابحة. سحب السلسال المربوط بيديها فسقطت فوق وجهها قبل أن تفهم حتى ما يجري، استقامت بعدها ببأس وظلت ترمق النخاس بجمود وهو يفك القيد عنها، وهي تناظر أصابع يدها بصمت وبعدها وفي لحظة سريعة جدًّا كانت قد بصقت في وجهه. انفجر النخاس بغيظ ولف على الفور قبضته على خصلاتها كي يُركِعها لكي تلعق حذاءه عقابًا لها، إلا أن القبيح صاحب رقعة الأسنان أوقفه على الفور ثم غمغم باقتضاب:

- لم تعد تخصك الآن.

أحصى الرجل نقوده مغتاظًا أما هي فتحركت مُرغمة ومربوطة بحبل قذر خلف خطوات مالكها الجديد. القادم لا يحتاج إلى تفكر، ستكون خادمة لفراش هذا السمين حتى يمل منها. على الأرجح هو من النصف الفقير في الإقليم وجنته فراش من الطوب والخيش! كانت تريد أن تبكي ولكنها تماسكت. فكرت في زوجها الراحل الذي فقد حياته في السرداب والخطة الحمقاء التي رتبتها أمها كي تهرب من جحيم الأفعى "غاند" فوقعت في قبضة النخاسين في النهاية. خنقتها عبراتها وهي تتذكر نظراتها المتوسلة نحوهم كي يرحموها ويتركوها لحالها، ولكن لا سبيل مع قلوب أغلقتها القسوة. نالها منهم ثلاثة ثم باعوها بثمن بخس لشيخ بعربة متنقلة حتى وجدت نفسها محتجزة مع بضعة فتيات يائسات غذاؤهم الخبز اليابس والماء. بدا ظل الرجل متعرجًا على الأرض غير الممهدة، وخطواته الثقيلة تسبق حصانه المتعب وهي خلفه، في غمده سيف متهالك على الأرجح غير مصقول جيدًا وتتدلى من حزامه على الطرف الآخر قربة ماء ممتلئة. كانت تشعر بالعطش الشديد،

أرادت أن تطلب منه المياه، ولكنَّ كبرياءها منعتها. فكرة التوقف على الطريق بين الأشجار تمنح احتمالًا آخر من نيلها بشكل مقزز سريع مثل حيوان ضال. كان هو على النقيض يتهادى باستمتاع، يملأ رئتيه بالهواء النقي ويقضم ثمرة تفاح نصف يابسة ولكنَّ مذاقها يعجبه. توقف بعدها فسحب قربة الماء ليشرب ثم رمقها بنصف عينيه فلمح ريقها يزدرد. ابتسم بخبث ثم استدار لها بكامل جسده وقال بصوت جهوري مبتهج:

- تشعرين بالعطش؟

بتردد ممتزج بالتعجب أومأت فما كان منه إلا أن اقترب وناولها القربة فبدأت تتجرعها بعطش شديد. ابتسم بخبث قاتم حتى انتهت وقد نبَّأها حدسها بالقادم، إلا أنه لم يفعل شيئًا، أخذ القربة وتجولت عيناه في المساحة حوله وكأنه يقيم مسافة الطريق الذي يجب أن يسلكه. قرص الشمس قارب على الاختفاء والمسافة التي سيقطعها طويلة لن يتحملها حصانه العجوز ولا تلك الشقراء مهما بدت قوية. للحظة شعر بالشفقة من أجلها، مجرد لحظة مرت سريعًا فبؤس يودوس لا يمنح رفاهية ذلك الشعور. رمقها بنظرة باردة كئيبة ثم سحبها خلفه نحو بعض الأشجار والظُلمة، فراشه البائس كل ليلة.. قذفها بثمرة تفاح يابسة أخرى كي تقتاتها ثم بدأ يحصي ما تبقى له من نقود كي يبتاع عربة متهالكة توصل كليهما إلى أرض العرش. قصر "البارود".. وبيعة يشعر أنها ستكون له جيدة له، ولكنها ليست جيدة لها على الإطلاق!

فبعد أيام وجدت نفسها في القصر.. طابق المحظيات.. والوظيفة.. طباخة البارود الجديدة.

***

تمزقت الغيوم، وأعلن الطير بأجنحته الخبر العظيم "طلب البارود "قلب".

كلمات لها حواف شوكية، نظرة "شاهق" حمراء كالدم، وهديل الحمام يتزايد في السماء وكأنهم فرحون برحيل من كانت تقتلهم. عيناها هي متجمدة بلا تعبير، خليط من الغيظ والغضب وخط نشوة عنيدة يتعرج بين عروقها ويدفعها نحو أرض العرش. نشوة عنيدة تواجه شاهق، تواجهه بكل غضبها وعزمها، وتهسهس بقسوة مطعونة بالحزن:

- أرأيت.. أنت لا تسيطر على كل شيء يا ابن العم.

أُضرمت النار في حدقتيه قبل أن يضغط فوق أسنانه باحتراق أسود:

- ما رأيك أن أدفنكِ هنا..

امتلأت عيناها بالغضب له ومنه، ولكنها آذته، كانت تؤذيه وتؤذي نفسها:

- سيغضب بارودك!

هرس ذراعها بأنامله، كاد يحطم عظامها ونبرته الهادرة ترج الجدران كلها:

- لم يكن عليَّ السماح لكِ أبدًا بمغادرة المنزل.

ريح غضبه الساخنة لفحت بشرتها، غيظه متناثر حول الجميع مثل أشلاء وهي لا تهدأ.. بل تحرق الأشلاء بشرارة نار عنيدة:

- ستسقط سيطرتك يا "شاهق".. عصفت بمنزلنا وأنت من بدأتها.. أنت من سلمت "بداية".

ثم ساد نظرتها حقد حزين:

- وستسلمني رغمًا عنك للبارود، ومن يعلم متى ستسلم "نهاية".

حينها تأوهت من ضغطة يده التي توحشت على عظامها. لهيب مستعر بحدقتيه لا ينطفئ، وترتيب يُبتر على غير رغبته. فقبل إتمام اتفاقه مع آكلة العناكب يستحوذ البارود على "قلب".

ذِكر "نهاية" فجَّر براكينه فكادت تهرب من سيطرته، إلا أنه بعدها أغمض عينيه مستعيرًا صلابة الأحجار من جديد قبل أن يهرس معاندتها بثبات:

- "نهاية" ليست متهورة مثلكِ..

لحظتها مالت عيناه بنظرة خاطفة سريعة إلى الأخرى، كانت تقف خلف جدار متوارية وتراقب بقلق ما يدور بينهما. جسدها الصغير المفعم بالحياة الوردية كله يرتجف والتغييرات التي تتابع حولها فوق تحملها.

عاد إلى الأخرى وقد توهج هسيسه تلك المرة:

- ستنفذين ما آمركِ به.

صرخت فيه، صرخت بكل قوتها وحنقها وإشراقة الحرية التي تسري في دمائها.. هي ليست ملكًا لأحد، لا هو ولا البارود ولا لعنة "ضوء القمر" ومشعوذها..

- لا!

خطوة تمرد طليقة ربما غير مضمونة العواقب ولكنها حيَّة.. حرة تناسبها. حقد مسبل العينين وخطط انتقام مشتتة لا تعرف إلى أين وإلى من؟

إلا أنها بثَّت شعورها المشتت كله في عبارة:

- لن أكون دميتك في قصره يا "شاهق".

وزادت بعزيمة صارمة وصورة الآخر تتشكل في خيالها:

- الأمر بيني وبينه..

كان على شفا ارتكاب مجزرة، نسف متاهاته والاختفاء بثلاثتهن في السرداب أو حتى في جوف تماثيل المينوتور في نهاية مشرفة. لهجته كانت لا تحتمل جدالًا، وملامحه مررت واجهة مثل درع حديدي غير قابل للاختراق:

- أوامري تُنفَّذ.. حتى وأنتِ في قصره، بين ذراعيه، تفتحين ساقيك في انتظار نسله، ستخضعين لأوامري أنا في النهاية.

انفجرت ملامحها بحُمرة كرامة وكادت تصرخ لتقاطعه إلا أنه أوقفها.. انعكست فوق نظرته ظُلمة تامة، قبل أن يتمم بنبرة باترة:

- أغلقي هذا الفم والتزمي الصمت.

ضاقت عيناها بسخرية تامة، توترت ببريق بأس حزين..

- إلى متى! إلى متى سيستمر الصمت يا ابن العم.

وكانت دواخله صرخة قتال وهيئته جماد، صفحة صلبة من البأس.. صوته العميق يرن في أذنيها وأذن "نهاية"، بأس متشح بالسواد وخندق مغلق لا يفهم أحدٌ حقًّا فحوى ما بداخله.. فقط نبرة قاتمة مرتبة وجواب صلب ختامي.. دهاء خبيث لم تفهمه في حينها.

- **حتى تظهر مباهجه**

***

يقرأ تعابيرها وهو يناظرها بهدوء تام، كل ما تفعله.. صواب.. خطأ.. هفوة.. لمحة.. كانت تجلس إلى طاولة الطعام بتوتر بيّن، ولكن أيضًا بكياسة، قالت نسوة الإقليم

إن "ضوء" لم تعلم بناتها الكياسة ولا قوانين يودوس، ولهذا أحضر لهنَّ عمهم "رقيب" "زليخة". وتبدو تلك من أمامه تلميذة "زليخة" النجيبة.

كانت تجلس باستقامة، تُمسِك بالشوكة الحديدية متباعدة الأطراف من ثلاثة نصول وملعقة الطعام وتمرر قطع اللحم الطرية المقطعة لثغرها الصغير ببطء. قال ببريق متزن وعيناه عليها لا تتركها، في حين كان يغرس الشوكة خاصته في قطعة اللحم ببطء منظم دون أن يقربها..

- هل يعجبك المذاق.

- جيد.. شكرًا لك.

ردَّت بتوتر وقد تسلل صوتها الرقيق بعفوية خالصة، لن ينكر أن صوتها جذب انتباهه من أول وهلة.. كان رقيقًا جدًّا يشبه فتنة حلم، تتخلله أنفاسها أحيانًا، وهذا ما يدمج به إثارة خطرة غير مقصودة.

- هل تعلمين أن كل اللحم والبقول والخضراوات تأتي من مزارعنا.. مزارع الراعي وحده.. أي إنني ببساطة أُطعم الإقليم.

- ولكنكَ تأخذ الثمن..

نطقت بها فجأة دون تفكير، كان عدم التفكير بالأساس مرتسمًا فوق ملامحها. اعتراض صغير لطيف ضعيف مدموج بالارتجاف. ولهذا لم يغضب.. بل ببساطة ابتسم! ابتسامة هازئة بهدوء مرتب، ابتسامة غير همجية. قال فجأة بنبرة قوية أجفلتها وأرجفتها أكثر:

- هل تعرفين موكب الحمقى يا "بداية"؟

لم يبدُ أنها تواكبه، نظرتها كانت حيرة ممتزجة بتعجب، هل يتحدث مثل البشر.. يتحاور؟! عقد حاجبيه متابعًا:

- إنها حكاية من التراث، عن موكب كان يقيمه "البارود الأول" كل عام لمعارضيه.

تأملته باهتمام في حين تحولت عيناه إلى قسوة ساخرة:

- كان يجتمع معهم في أرض العرش، في مساحة احتفال ضخمة أمام قصره، يرهقهم بالطعام والشراب والنساء ثم يسألهم عن وجه اعتراضاتهم.

- وبعد؟ ماذا يحدث!

سألته بلهفة بسيطة تشبهها، حتى إنها لم تلحظ أن القسوة الساخرة زادت..

- كانوا يعترضون على كل شيء.. تلعب تُخمة التمرد والخمر في عقولهم فيعارضون، حتى إن سألهم عما يريدونه أو أحلام الخير التي يبيعونها للعامة. وهكذا عام تلو آخر يقضي عليهم وعلى أحلامهم حتى بات موكبًا للحمقى لا يريد أحد المشاركة فيه.

اقترب من مقعدها وقد سحب مقعده هو بحركة جسده حتى اصطدمت ركبتها الضعيفة بركبته الجامدة ثم تابع وهو يرفع ذقنها بهدوء لتواجه ملامحه:

- الاعتراض بلا تفكر مجرد حماقة يا زوجتي العزيزة.. سأمررها كحماقة كي لا أعاقبكِ.

بعدها غمرها بنظرة باردة ثم تركها فجأة.. في حين أشاحت هي بوجهها بتوتر:

- أريد أن أزور عائلتي.

لم يعقب، استقام وقد جهَّز نفسه للرحيل ثم تفحص وجهها ببطء أربكها قبل أن يقول بجمود وهي تتحاشى النظر نحوه:

- السائق سيوصلكِ ويعيدكِ.. لا أعود إلى المنزل وامرأتي خارجه.

امرأته.. بدا تعبيره واضحًا بلا جدال. امرأة لا تخطو دون إذنه، لا تتحرك إلا بموافقته.. امرأة الراعي.. امرأة الثور البري.. امرأة قاتل الذئاب غير القادرة على قتل نملة، كانت تحرص في منزلها أن يعود النمل سالمًا إلى جحوره.

كانت رمز السلام، أما هو فرجل سكنت طبول حربه بعضَ الوقت وحتمًا ستعود.

وبعدها في إحدى أراضيه الشاسعة قال مساعده الشيخ بخبث، وكان هو يقف مستندًا بقدمه اليسرى إلى صخرة متعرجة، وقد رقد جوار جسده المنتصب جذع شجرة عجوز مقتولة!

- لقد كانت الشمس كريمة مع مزارعنا هذا العام.

نظر "بارق" بضيقٍ نحو الجذع الممدد مثل جثة يابسًا أمامه ثم قال بتعبير منزعج:

- من فعلها؟

كان الرجل يوقن الغضب المكتوم داخله، دومًا ما كانت عائلة الراعي تمثل الفزاعة لإخافة المتمردين ومثيري الفتنة والقلق داخل أرض الإقليم، كلُّ شاعرٍ يتجول في براري يودوس يعود بحكاية تجذب حولها خليطًا من فارغي الرؤوس أو المتشبثين بالأمل. كلاهما نقيضان يكرهان "البارود" ولكن أسوأهم هؤلاء من يبتغون الخلاص من "البارود" بأي شكلٍ ولو ببيع روحهم للمشعوذ و"غاند". ولكن بعد تصنيف "غضب" نكادم للمشعوذ كل شيء اختلف، لم تعد هيبتهم كما السابق، وكل مدة يتطاول أحد الغوغاء على أرضهم في نوع من إثبات

القوة الفارغة بقطع أشجاره.. غوغاء يتركهم "البارود" عن قصد كي يُرضخه له تمامًا.

اكتست عيناه بقسوة صلبة قبل أن يشير لأحد رجاله الذي جاء لاهثًا وعلى وجهه الرعب..

- هل رأيتهم؟

ردَّ الرجل بهلع:

- لم أرَ ملامحهم، ولكنهم كانوا يرتدون السواد وخصلات شعرهم طويلة مثل النساء تمامًا ولكنهم ليسوا نساء.

ضاقت عيناه بالبريق الذي يعرفه رجاله، "صائد الذئاب" شهيته بدأت، ولا مانع من دمج الذئاب بالجبناء الذي يظنون أنهم قادرون على كسر هيبته وسط الإقليم. الذئاب تُقتل بالمواجهة والجبناء بالخديعة. لوى ثغره بتفكر ثم أشار بذقنه نحو الجهة الشرقية من الأرض وقال بنبرة آمرة:

- أحتاج إلى خمسة وعشرين رجلًا خفيفي الوزن.. ولهم قدرة على النوم بعين واحدة.

رمقه مساعده الشيخ بحرص:

- ماذا تنوي يا سيدي؟

ردَّ وعيناه عالقتان بالأفق أمامه، واللهيب الأزرق يناور كي يظهر:

- افعل ما أمرتك به، لا أريد أن يشعر بهم أحد حتى الأشجار نفسها.. فقط يراقبون في صمت كل ليلة دون كلل أو ملل.. لن يظهر الجبناء قريبًا إلا مع خديعة الاطمئنان، وأنا سأقدمها لهم.

***

الجميع ينظر نحوه برهبة ووجل..

يُقال إنه رغم قوانين البارود وجبروت رجاله، فإن سكان الإقليم ولاءهم إلى "شاهق الأرقب". حين يمر في الطرقات هو ورجاله على الخيل تتبعهم النظرات برهبة ممزوجة بالإعجاب ويتودد لهم القاصي والداني، فعائلة الأرقب ومنذ زمن بعيد تسيطر على جميع مناجم الذهب والفحم. عائلة الأرقب شريان القوة والمال، وعائلة الراعي شريان الحياة والتجارة. أما البارود فالقوة التي سقطت فوق رأسهم! كان سكان الإقليم ينظرون دومًا نحو "شاهق" برهبة ممتزجة بالحيرة، هو لا يركع للبارود ولكنه سيصبح صهره.. تزوج قبلها من "سيراب" آخر نسل الساحرات المعروفة بولائها إلى العرش. وصار صهراً للراعي رغم التوتر بين العائلتين، لم يكن أحدٌ يفهم ما يدور في خلد هذا الرجل وكيف هي متاهاته. ولكنهم رغم كل تلك التناقضات المكللة بالغموض كانوا يقدرونه، قلوبهم تراه حاكم الإقليم الأوحد رغم قوانين البارود. كانت النساء تربي الصبيان ليكونوا مثله وتتمنى لو أنه تزوج بإحدى بناتهن، أما الرجال فكانوا لا يجرؤون على مخالفة أمر له.

عبرت خيوله متسارعة مثل مس أمام الراعي ورجاله، تحية مقتضبة باردة بدت مثل ثقل على الأنفاس وزرعت الشك والتساؤل في نفوس سكان الإقليم. لماذا رضخ "شاهق الأرقب" لطلب الراعي لـ "بداية"، البارود فاجأه ولم يمتلك الرفض والجميع يعلم، ولكن "بارق" لم يكن ليستطيع إجباره. لا تسري الأمور هكذا بين عائلات الإقليم القوية. هل سكنت شوكة "شاهق" حقًا.. كسره البارود كما تثرثر بعض الألسنة، الألسنة دومًا ظامئة إلى النميمة، توقظ داخلهم شغفًا ما وشعورًا زائفًا بالقوة.

النميمة أحيانًا تبقى مثل حكايات التراث، تُعمِّر مثل أشجار العرعر.

توقف "شاهق" بفرسه على ضفة النهر، نظراته مع ينبوع حي يفرز مياهًا بلون الفضة الصافية. في حين يتعاظم سقوطها على الحصى مثل أصوات جنيات تغني ثم تغيب في عتمة التربة لتغذي جذور النباتات الهامسة. اختار نبتة وسمع همسها ثم رحل.. همس النباتات لا يمرر النبوءات ولا يكشف سرًا، فقط يداعب هاجسًا ما في قلبك.. إما أن يؤكده إما يدحضه فيريحك من انتظاره.

نال الهمس الذي انتظره ثم توجه إلى "ضوء القمر"!

***

إصبعها يحاول أن يرسم لوحة في الهواء، يتحرك ساخرًا وبعدها لا يرسم، بل يكتب! تعاهد نفسها في مزيج أحرف ألا تسقط.. ألا تستلم أبدًا.. صورته تطل.. تقتحم خيالها بقسوة، يكتسحها في حضوره.. يكتسحها في غيابه.. يكتسحها حتى في خيالها.

شعرت بالغضب، والغباء.. شعرت وكأنما فقدت حتى فرصة التفرُّس في ملامحه.. التقييم.. القبول أو الرفض. ببساطة هو رجل قرر أن تكون له بكل الطرق.

كانت "زليخة" جوارها تمسك بصندوق ذهبي عتيق وتضع فيه بانتقائية جواهر عدَّة.. ملامحها حزينة مثل موت، ونبرة صوتها تموج بعجز غاضب:

- أي رجل.. كنت لأرتاح لكِ مع أي رجل سوى هذا!

اكتست ملامح "قلب" بسخرية لاذعة:

- لماذا؟ إنه الحاكم.

- إنه الشر نفسه.

تحولت ملامح "زليخة" إلى نفور تام، شعرت "قلب" وكأنما تذكرت العجوز حبها السابق، المقتول بسببِ "البارود الثاني" فقط لأنه يفكر! يستخدم عقله وهذا في عُرف كل بارود ذنب خطر.

ابتسامة كاذبة كسول تراقصت فوق شفتيها:

- ربما هذا البارود مختلف!

لم تعلق "زليخة"، عادت بصمت لترتب الجواهر في الصندوق، كانت نساء الإقليم قد بعثت كل واحدة منهن بجوهرة ثمينة هدية حين علمن بطلب البارود نفسه لـ"قلب". منهنَّ من تبتغي التودد لزوجة الحاكم القادمة، ومنهنَّ من حركها الغل ومنهنَّ من حرِكها الخوف. إلا أن النتيجة واحدة، مستقبل "قلب" رُسِم من جديد بعد هذا اليوم.. بعد جبروته في طلبه.. بعد نبوءة "حرير"!

والتمعت عيناها وكأنها وجدت شيئًا.. كنزًا محشورًا في ثغرة.. نظرت إلى "زليخة" وهي تحملق إليها بعدم فهم:

- لقد قالت لي "حرير" أنني سأغادر يودوس.. يودوس وليس الإقليم.

اعوجَّت ابتسامة "زليخة" وهي تجيب بصوت ثابت عميق:

- لطالما كانت "حرير" خبيثة في نبوءتها.. لن تعطيكِ كل شيء، دومًا ستربكِك.

تعلقت عينيا "قلب" بها في حيرة لأول مرة.. "قلب" الشجاعة تائهة.. "قلب" العنيدة خائفة.. "قلب النبال" ضائعة في حكاية لا تفهمها. ردَّت تكرر الكلمات متشبثة بمعاندتها:

- قالت سأغادر يودوس.

- تلك الساحرة لا يأتي منها الخير أبدًا.

كان هذا صوت "ضوء"، ظهرت فجأة بملامح قاتمة مثل ظلال غابة، كانت ما زالت تعرج على ساقها.. وجهها حزين، أول مرة تلمح في وجهها هذا الحزن العميق ومتدثرة بثوب أبيض أهلكه الرماد من المدفأة فبات رماديًّا. قالت عبارتها ثم اتكأت على مسند المقعد الخشبي فساعدتها "زليخة" على الفور لتجلس، إلا أنها دفعتها بعنف.. لم تكن ترغب في الجلوس، كل ما كررته بؤس قاتم وقد أفلتت حروفها الخشنة من بين شفتيها:

- هذا المصير لا هروب منه.

شعرت "قلب" وكأنما اجتاحتها شرارة، ومضات سريعة مرت بعقلها وهي تتذكر لقاءاتها المحدودة به. رجل يريد امرأة.. يا لها من نهاية تعسة لتمردها. رجلٍ نظرته ظلم، وموت، وجبروت، ومجهول لا تفهمه.. رجل يثير حضوره في جسدها قشعريرة وتقاوم، تقاوم تلك الفكرة المزعجة أنه أقوى منها.. بل أقوى رجلٍ في يودوس.

قالت والعزيمة تقدح من عينيها مواجهة "ضوء":

- لن أهرب من مصيري.. أنا امرأة تهزم مصيرها!

ولا تعلم لمَ انتظرت بسمة هازئة من أمها، انتظرت قتامة مغلفة بالكراهية أو بيعة مثل بيعة "بداية".. لا.. هي ليست مثل "بداية"، و"البارود" ليس مثل أحد! حدَّقت إلى الفراغ بتعب وقد شعرت بألم في أحشائها ثم قالت باعتراف منهك سريع لا يحدث معها كثيرًا:

- أفتقد "بداية"..

رغم أنفها الشامخ المرتفع دومًا في كبرياء كانت تشعر بالضعف، تشعر برغبة تامة في العناق الذي تكرهه.. عناق

لن تمنحه لها "ضوء"، ولن يكون من "زليخة".. ولا "نهاية" الصغيرة الضعيفة.. بل "بداية"، "بداية" وفقط.

وقبل أن تُكمل عبارتها كانت الثانية تقف على الباب وهي تبكي، تبكي وكأن العالم سقط فوق رأس الجميع:

- البارود يا "قلب"!

***

نبضات قلبها مسموعة، تبكي وتبكي حتى أصابت رأسها بوجع لدرجة أنها لم تعد تريد هذا العناق الآن. تنهدت "قلب" بيأس و"بداية" تحاول بجهد كتم عبراتها:

- هل سيعكس البكاء الأمرَ؟

التوَت شفتا "بداية" بحزن عميق:

- لا ولكن هو كل ما نمتلك.

- لا.. أنا لا أبكي.

قالتها "قلب" وقد تتابعت الشرارات من عينيها ثم أردفت بقسوة:

- ولن أبكي يا "بداية".

انبعث الخوف من عيني "بداية":

- أنت ذاهبة إلى قصر الظالم.. ماذا تظنين؟ العيش كملكة! هل تعرفين ما يصيب زوجات البارود إن أنجبن؟

تجاهلت "قلب" المخاوف وتشبثت بقوتها من جديد:

- بسيطة لن أنجب له!

- وكيف هذا؟ هل تظنين أنكِ قادرة على منع نفسكِ عنه!

وفجأة وجدت "بداية" نفسها تنطق بتهور، تهور لم تصدقه

"قلب" نفسها:

- اهربي!

- ماذا!!

- اهربي.. اهربي من هذا المصير التعس.

كانت تتحدث بيأس تام، نبضات قلبها قوية حتى إن "قلب" تشعر أنها تسمعها، خوفها يسبح حولها مثل شياطين مرئية وأناملها مثنية بتوتر تام على الطاولة.

- أو تعالي اختبئي عندنا في القصر.. في الدور العلوي، إنه الطابق المحظور على الجميع.

كانت ترتجف كلها من أعلى الرأس حتى أخمص القدم، تشعر وكأنما فقدت "قلب" إلى الأبد.

تراها منحورة فوق فراش البارود.. تراها منحورة في مغارة من فلذة كبدها!

أمسكت "قلب" بوجنتي "بداية" بثبات وقد التمعت عيناها العسليتان بصرامة:

- اهدئي وتوقفي عن التفوه بهذا الهراء.

رمقتها "بداية" بعينين متسعتين:

- إنه "البارود".. لا يوجد رجل قادر على هزيمته.

أما "قلب" فقد سحقت حروفها وهي تخرجها، من وسط الخوف وجدت الشجاعة ومن وسط اليأس التمع أمل..

- أنتِ قُلتِها رجل.. إذن فلتهزمه امرأة.

***

العربة تأكل الطريق متسارعة، هو على مقدمتها وهياجه زاد وهو يشد السرج ويدفع الخيل لتسرع أكثر. يتجاوز كل

شيء سريعًا جدًّا.. الأشجار الضخمة، الصخور الكبيرة التي تظهر فجأة على الطريق فتبدو مثل جبل، وظلال الأغصان التي يتراقص ظلها مثل الثعابين.

- تشبثي جيدًا!

كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي نطق بها منذ ثلاثة أيام كاملة، أجلسها في العربة بعنف وربط الحزام الجلدي حول كليهما ووضع فوق ساقيها بعض الخبز والفاكهة لها وله وانطلق. كانا يأكلان والعربة تتحرك، تنام هي بإنهاك رغمًا عنها فيسقط رأسها على كتفه وتعود لتستيقظ فجأة، كانت تشعر بالخجل والخوف خاصة كلما مد قبضته فجأة للطعام فلامس فخذيها ثم أخذ ما يريد منه ومضغه سريعًا وهو يقود أحصنته. لم تسأله سر هذا التعجل فقد كان بينًا أنه يريد الابتعاد بأقصى مسافة ممكنة عن قصر المشعوذ قبل اكتشافه الأمر. كان حاسمًا في كلماته قبل أن ينطلقا..

- التوقف للتبول فقط ولا تشربي الكثير من المياه.

لم تتعجب من معاملته الفجة، فهي سقطت فوق رأسه مثل خبر لعين، ليست جميلة بما فيه الكفاية لتجذب اهتمامًا فطريًّا منه. لا تعرف أنها تبدَّلت، فهي لم تلمح وجهها في مياه النهر منذ أن غادرت القصر. غابت الشمس وعادت أكثر من مرة، في الصباح تبدو الغابة لطيفة، مثل أي غابة.. أشجار وممرات وصخور ومرتفعات بعيدة عليها منازل! شعرت بالتعجب التام فلم تكن تتوقع أن يعيش أحد بتلك الغابة، لقد سمعتْ حكايات كثيرة عن ظلمتها من البومة، عن ناس فقدوا حياتهم وهم يحاولون تخطيها، عن لعنات المنحدر وجنيات النهر التي تخطف العقول. مدفوعة بفضولها ومللها وشذرة خوف من

القادم المجهول، سألته فجأة، قطعت صمت ثلاثة أيام كاملة ببساطة تامة..

- أين المنحدر؟

اقتنصها جانب عينيه بدهشة وتركيزه كان منصبًّا على الطريق، شفتاه انثنيتا بتعبير ساخر، تحملت ثلاثة الأيام والآن تنطق! تتحاور معه ببساطة طفلة وكأن لا شيء غريب حدث ويحدث. زفر بعدها دون أن يخفف من سرعته أو يتوقف ثم قال هازئًا:

- وأنتِ يا جميلة من أخبركِ عن المنحدر؟

- البومة!

ردت سريعًا دون تفكر، تجاهلت نعته إياها بالجميلة متصورة أنه يسخر منها، تنفست وهي تنظر إلى لحاء الأشجار المتجعد البني الذي يظهر ضوء الشمس تفاصيله، الأزهار الكثيرة المتناثرة على سطح الأرض في مشهد بديع لا يبعث الخوف على الإطلاق.

قالت وهي تتأمل حول شيء حولها:

- الغابة ليست مخيفة كما ظننت!

كان الجو صبوحًا رائعًا، وزقزقة العصافير تتزايد في تلك البقعة، وهذا ما يقدم شكلًا من الحياة. مياه النهر تتلألأ، والحصى الصغير يلتمع على ضفافها. فجأة دون توقع منها توقفت العربة، صهل الخيل بسعادة وراحة، ووثب هو بعدما فك الحزام بينه وبينها ليضع الطعام أمام الخيل خاصته والماء، ثم يمط ذراعيه ويترك أنفاسه للهواء والشمس. قالت بتوتر وضيق وهي تعاود سؤاله ولكن بحرص تلك المرة:

- متى سنتحرك مجددًا؟

استدار لها وتأملها قليلًا فشعرت وكأنما دُكنة عينيه تلتمع وهو ينظر نحوها، شيء من أعماقه يطلِ ويظهر، شيء لا تفهمه ولا تعرفه.. قال بنبرة ساخرة نوعًا ما:

- لمْ تسأليني لمَ ركضنا كل تلك المسافة؟

جاوبت ببديهية بريئة:

- هربًا من المشعوذ.. سنكون أكثر أمانًا حين نخرج من الغابة.

رفع حاجبيه وقال بنبرة صارمة وإن كان المحتوى هازئًا:

- أخبرتكِ البومة بهذا أيضًا؟

- لا بل "ثلج"!

نطقتها فجأة، ثم جحظت عيناها وقد أدركت أنها تفوه بأكثر مما يجب لهذا الغريب. لامست خصلات شعرها الفوضوية التي لا تليق بجمال الملامح الواضح أمامه، ثم قالت باختصار مرتبك سريع:

- أرجوكَ كل ما أريده الخروج من الغابة.

رفع أحد حاجبيه ثم قال بمكر:

- هذا ما أفعله، نحن في طريق الخروج.

ابتهجت ملامحها ولكن هذا لم يستمر كثيرًا، حيث تمتم كلماته بعدها ليس بسخرية بل حقيقة مؤكدة كليهما!

- أمامنا سبعة عشر يومًا.

همست بخفوت مصدوم:

- ماذا؟

رمقها حينها بنظرة حارقة غاضبة تمامًا أفهمتها أنه لولا هجوم القناطير لكان قد أعادها إلى القصر وتخلص منها،

ولكن الحيوانات الثائرة لن تستمع له، كانت لتقتله بلا تردد وتأخذها. كان يتصرف تبع ما أُجبر عليه، وهذا يشعل في صدره الغضب. تابع وهو يتأمل ترقب عينيها:

- مسافة الغابة عشرون يومًا.

رأى الصدمة وقد تشكلت فوق ملامحها، أيقن أن المسجونة تلك جاهلة بتفاصيل عدَّة. مشتتة مثل ريشة عصفورة وسط ريح عاصفة. بل حتى تردد بحماقة تامة:

- لنركض مثلما فعلنا الأيام السابقة.

تعالت ضحكته ساخرة:

- كان هذا الدرب المُضِل، لا يمتلك أحد رفاهية التجول فيه.. يجب أن يكون المرور به سريعًا حاسمًا بلا توقف.

- لماذا؟

- لأن من يفقد الوقت به يصيبه الضلال ويبقى مختلًّا إلى الأبد.

طأطأت رأسها وهي تحاول الاستيعاب، المرور بالغابة ليس مجرد طريق، بل أشبه برحلة تخوضها الآن مع هذا الغريب.. كيف كانت تفكر "ثلج"! كيف كانت لتتخطاها وحدها.. بعفوية تامة نظرت نحوه بشكر، ملامح أشبه بقلب حزين يفرح:

- شكرًا لك!

عقد حاجبيه باستياء وهو يرمق شكرها:

- ماذا!

كررتها بجمال مثل قرص الشمس وقت الشروق:

- شكرًا لأنك لم تتركني، ولم تعِدني إلى القصر.

كانت تدرك حماقة ما تفوه به، تعلم جيدًا أنه فعل

ذلك مضطرًّا، وأن الرجل الذي أمامها ليس ببطل.. بل هو رجلٌ بلا مجد يخدم المشعوذ ويملك تصريح المرور للمحرمات بفضله. هز هو كتفيه بلا مبالاة وبدت كلماته إجابة عن تساؤلها الذي لم تنطقه بعد:

- نحن في أمان ما دام المشعوذ في متاهته.

ثم غامت عيناه بنظرة ضبابية محذرة:

- لو خرج قبل أن أتخطى الغابة لن أخرج منها، وأنتِ يا جميلة ستعودين إلى سجنه.

ثم وثب فجأة فاقترب منها بقسوة وقد جذب زندها الضعيف فآلمها:

- وأنا لا أهتم بمصيركِ، ولهذا لا داعي للشكر والثرثرة.. أنتِ فوق رأسي ومعي رغمًا عني وعنكِ حتى أرى ما سأفعله بكِ حين أغادر تلك الغابة اللعينة.

اصطدمت بغموض دُكنة عينيه حتى تجمدت، أشاحت بوجهها هاربة منه، ملتصقة بنظراتها بالعشب الأخضر ولحاء الأشجار وأجنحة الطيور التي ترفرف فوقهم. هي هواء الأرض وهو صخورها الصلبة، هي هشة مثل غصن شجرة وهو الجذع، هي زقزقة عصفور سعيد وهو مد يده في الماء فأخرج سمكة!

تركها تتلوى على الأرض ثم قال بنبرة آمرة قاتمة:

- اشوي تلك حتى أنتهي!

ومتأخرة أيقنت ما يفعله، خلع ملابسه تمامًا وغاص في مياه النهر طلبًا لحمام دافئ حالما تنتهي هي من إعداد الطعام.

***

كانت سجينة المشعوذ، وباتت سجينة الراعي!

وليتها شاة ترتاح ثم تؤكل، بل امرأة تخدمه.. طعام.. شراب.. منذ يومين أمرها أن تغسل ملابسه! زفرت بضيق تحرك هذا القميص المتسخ في النهر ولا تعلم ما يجب أن تفعله بعدها تحديدًا، كانت مرهقة، تشعر بالتعب وقذارة الثوب الذي عليها بدورها، ثوب واسع أحمق يقيد حركتها ويضغطها بثقله حين تحاول الحركة أو الركض أو إشعال النار وإعداد طعامه. في البداية لم تكن تعرف كيف تشعل النار ولكنه علمها بقساوة كيف تضرب الأحجار ببعضها بعضًا حتى تخلق الشرر وبعدها تنفخ فيه بحرص فتشتعل النيران، فشلت أكثر من مرة ولكنها كانت في قمة سعادتها حين نجحت، حتى إنها قفزت بكل قوتها وقد شعرت بلذة غامضة لأنها أدركت شيئًا.. أنجزت شيئًا.. نعم سحر المشعوذ كان مكللًا بالراحة ولكن هنا.. حياة!

تنهدت وقد كان الظلام لطيفًا، بضعة نجوم في السماء ونصف قمر يمرر إضاءة معتدلة، وهو غارق في نومه في خيمة نصبها. ناجت نفسها بصمت بأمنيات عدَّة، أن تقابل "ضوء القمر".. أن تأتيها البومة لتطمئنها، حينها تذكرت المرايا المهشمة، قُبحها.. هذا "الغضب" لا يرمقها وكأنما هي قبيحة أبدًا، بل فتاة عادية.. ابتسمت ساخرة لتوقن رضاها المختبئ بتلك النظرة، لقد أرهقها القبح سنوات، حتى حين لا تراه كان يرهقها في نظراتهم، "جمر".. "ثلج".. البومة.. حتى ورود الشرشف!

زفرت بتعب وتجاهلت النظر نحو وجهها في صفحة النهر الرائقة، لن تفعلها، لن تُثقِل صدرها بتلك الهيئة، لامست بأطراف أناملها المياه مجددًا فوجدت أنها دافئة رائقة، فكرت فيما تنويه في تردد ثم عادت تلتفت لتراقب مدخل

الخيمة، غطيطه ينبئ أنه كان نائمًا مثل جثة، أخبرها من قبل أن تلك البقعة هي الأهدأ في الغابة والأكثر أمانًا. وقت راحة مستقطع قبل المرور بالمنحدر! تنهدت مجددًا والفكرة تلوح في أفقها.. لا بأس من استحمام سريع جدًّا وهو غارق في نومه، رائحتها لا تطاق، وسخ الأرض وبقايا الأسماك التصق بها. لم تتردد، رمقت الخيل بطرف عينيها فوجدت أنهم غفوا بدورهم، بدأت في خلع ملابسها وتركت جلدها الناعم ليلامس المياه، خطوة تلو أخرى.. تندمج المياه بجسدها، تتخلل خصلاتها المجعدة والمعقدة في جديلة بشعة فتفكها ويتساقط شعرها الأسود حولها مثل خيوط "حرير"، أُجفلت في البداية.. شعرت بالرهبة والحيرة والسعادة. شعرت بأن جسدها نفسه يتغير، مفاتنها كامرأة تتضح بعدما كانت محبوسة. جسدها أصبح ناعمًا جدًّا بمظهر يشبه اللؤلؤ. أملس مثل جمال كانت تسمع عنه.. شهقت بتيه وخوف، أخفضت عينيها بتوتر ضخم ترمق انعكاس ملامحها في مياه النهر. ملامحها.. هي نفسها لم تتبدل ولكن اختلفت.

وكأنما سقط ستار!

قبح كان يعاقب وجهها واختفى!

شهقت بلا تصديق.

رفعت كفها نحو شفتيها تكتم الصوت وجسدها كله يرتجف. سعيدة وخائفة، متحمسة وقلقة، تعود مجددًا ترمق وجهها وتتأكد.. تخاف أن تلامس وجهها بالمياه كي لا يختفي، تبتسم وتبكي وتغوص فجأة في المياه وتصعد وتعود إلى الصفحة فتجد وجهها كما هو.. فتنة مزدهرة بضوء النجوم.

صورتها الآن تملأ كيانها وروحها.

شكرًا "ثلج"..

همست بنبرة تناسب الحلم الجميل الذي بات حقيقة، استسلمت لراحة مستقطعة في المياه وحاولت أن تجمع أفكارها المشتتة. هل كانت حبيسة لعنة؟

هل فعل بها المشعوذ هذا؟ أم ربما "جمر"!!

كانت تضيع في فوضى الماضي ولكن الحاضر كانت سعادته أقوى من هذا الضياع. الليل بضوئه الخافت يرسم خرائطه فوق نهديها العاريين والمياه تلتصق مثل الندى بنعومتها. ثقل كان على الصدر واختفى.. سعادة وحرية، بهجة بعد ليالٍ طويلة من الكآبة.. لا تمانع الآن إعداد طعامه وغسل ملابسه.. تحمد الله أنها قابلته.. تميمة حظها.

بدأت تدرك الوقت، لا تعرف كم قضت تحديدًا في المياه ولكنَّ الهدوء خلفها ينبئ أنه يغط في نوم عميق.

هو يرى فتنتها إذن.. ولكن هل رأى القبح؟

هل يعلم أنها تبدلت، أم إنها اختلفت بمجرد التسلل من القصر، أسئلة كثيرة عادت لتقتحم عقلها ولكنها تجاهلتها، كل ما أرادته الإصغاء للصمت، لخرير المياه، الضياع ولو للحظات في تلك المفاجأة السعيدة، أغمضت عينيها واستسلمت للسلام الحالي. شفافية مياه النهر وصوت حركة الماء بسبب قدميها والهدوء الجميل الرائع.

هدوء بُتِرَ فجأة.. شهقة منها ونصف إدراك وصوت مياه قوي عن جسد خرج من تحت المياه أمامها مباشرة!

كان هو.. الماء يقطر من خصلات شعره وصدره العريض العاري أمامها مبتلًّا فوق بنطاله الأسود، نظرته الداكنة مسلطة عليها، وشفتاه تمرران تعبيرًا صلبًا غريبًا.

- كيف؟ كيف أنت هنا! كيف خرجتِ؟

تهتهت بتوتر وفزع وهي تضم ساعديها على الفور مخفية مفاتنها الظاهرة أمامه. مط شفتيه بعد نظرة متفحصة ثم قال ببرود هامس خبيث وهو يقترب من أذنيها:

- كنت أعاشر حورية.

عيناه كانت مشتعلة تمامًا، مشتعلة بشكل أخافها.. لا تعلم فحوى هذا الاشتعال. غضب أم رغبة؟ ثواب أم عقاب!

عادت إلى الخلف خطوتين كي تخرج ثم تجمدت تمامًا. أيقنت أنها عارية وستر المياه يحفظ باقي جسدها عنه.

قالت بأنفاس مضطربة محتجزة:

- اخرج أرجوك.

تأملها بهدوء ثم غاص بجسده في المياه مجددًا بسباحة ماهرة قبل أن يظهر من خلفها تلك المرة بمشاكسة ولكن صارمة، ملامحه تشبه غيم السماء.

- لا أريد.

حاولت أن تحافظ على ما تبقى من ثباتها وهي تقول بعجز أحمق:

- إذن أغمض عينيك وأخرج أنا.

كانت ما زالت توليه ظهرها، وساعداها مكتفان حول نهديها، اقترب منها.. أحاط ذراعيها المرتجفين بقبضتيه ثم أدارها نحوه وقال بصلابة تامة:

- انزلي بجسدك كله في المياه وحركي يديكِ.

شهقت ثم أخفضت بصرها بخجل رافضة إلا أنه ضغط على ذراعيها أكثر بحسم:

- جسدكِ مرتجف بارد، يجب أن تتركيه للمياه الآن والا ستصيبك القشعريرة، وحينها سأضطر إلى تدفئتك

بطريقتي الخاصة.

ابتسم بخبث وهو يقول عبارته الأخيرة ثم تركها وهي بحذر تام تفكر، تغوص بجسدها مضطرة، ولكن دون أن تفك قيد ذراعيها وتتنفس بصعوبة وهي تتلمس الدفء من توازن درجة حرارة المياه حول جسدها. تلعن تلك المفاجأة التي أصابت دقات قلبها بالخلل. أغمضت عينيها تحاول أن تتناسى وجوده حتى تستطيع تنظيم أنفاسها من جديد ولكنها كلما فتحتها كانت تجده متجمدًا أمامها، عيناه عليها لا تغيب.. لا تتركها.. لا يرمش ولا يبتعد بل ترتكز نظراته عليها بحسم.

قالت بمزيج من الارتباك:

- أيمكن أن ترحل الآن؟

ابتسم بشراسة ثم اقترب أكثر، كانت المسافة بينه وبينها قاتلة.. على شفا تلامس..

قال وهو يرفع ذقنها نحوه بسبابته:

- تذكري أنتِ من اقتحمتِ خلوتي.

ثم مالت شفتاه بانفعال جانبي غامض ورحل.. تحرك ببطء وصوته يأمرها بعبث مستمتع..

- لا تتأخري فالخيمة تحتاج إلى تدفئة.

عاد قلبها إلى الركض من جديد، أما القرار ففكرت بجدية أن تقضي ليلتها كلها في مياه النهر.

***

نسمة باردة، صهيل خيل قريب جدًّا.. وكأنه فوق رأسها.. بل فوق رأسها.. حين رفعت نفسها فجأة اصطدمت بمنخاره. شهقت فجأة وعيناها تستوعب

التفاصيل حولها، الخيل جوارها وهو أمامها يمسك بسكينه ويشحذ بعض الأخشاب كي يستخدمها في إصلاح كسر ما في العربة. حاجباه معقودان بجدية ويقول بصرامة باردة:

- ارتدي ملابسكِ!!

تجمد وجهها كله، أيقنت متأخرة الحماقة التي فعلتها ليلة البارحة، هي خافت من الخروج من المياه فانتظرت حتى نام وبعدها خرجت خائرة القوى فتدثرت بثوبها الضخم قبل أن ترتديه ونامت! انتفضت في إدراك ورعب أن يكون الثوب قد انحسر عنها وحينها اكتشفت أن ذلك حدث فعلًا والثوب تحتها مثل شرشف، ولكن جسدها مغطى بقميص يخصه هو، لم يمنحها سترًا كاملًا ولكنه كان كافيًا لإخفاء صدرها حتى ما قبل ركبتيها. توترت وهي تستجمع كلماتها وتحاول أن تفكر كيف سترتدي الثوب الذي اختلط به البلل والوحل. إلا أنه قاطعها بجفاف وهو منهمك فيما يفعله:

- ارتدي هذا القميص.

كان يشير إلى قميصه المدثر لها، تنهدت بتردد ولكنها لم تمتلك بديلًا، استقامت سريعًا، في حين أخفض هو بصره وفي الخيمة ارتدت ملابسها، كان القميص يبدو عليها مثل ثوب قصير، لونه أبيض هادئ وواسع جدًا فاضطرت إلى إن تلف حول خصرها حبلًا خفيفًا مثل حزام كي ترتب مظهره، كان قصيرًا فوق ركبتيها، وهذا ما أزعجها ولكنها لم تمتلك حلًا آخر واعتمدت على الحذاء خاصتها ذي الرقبة المرتفعة الذي كانت ترتديه تحت ثوبها المنفوش. خصلاتها باتت تتخطى خصرها بعدما انفكت العُقد ووجهها مثل المرمر.

كانت فوضى رائعة.. جمال بريء مثالي داخل مظهر متمرد.

تعلقت عيناه بها رغمًا عنه، تصلب السكين فوق قطعة الخشب بلا حَراك.. بدا وكأنما عيناه خانته، التحقت بركب فتنتها ولا تنوي الرحيل. دارت حدقتاها بتوتر:

- أسنتحرك الآن؟

اتسعت ابتسامته بهدوء وردَّ دون أن تتبدل نظرته:

- بعد أن أصلح العربة.

ثم أشار لها بحسم أن تقترب، جاورته مستندة إلى ركبتيها وهو يناولها قطعة خشب أخرى ويطلب منها أن تمسكها أمامه ليثبت بعض القطع بالحبال قبل أن يعيد تركيبها بالعربة، ملامحه بدت متعرقة قاتمة، حاجباه معقودان وتركيزه منقسم بين ما يفعله ورائحة زهور الخزامى التي تنبعث منها. لقد جاد النهر عليها بفتنة مضاعفة، أم ربما غسل عنها لعنة!

طرد غريزته بقسوة ثم قال بنبرة جامدة:

- انتهينا.

واستقام سريعًا يرتب العربة، طلب منها أن تجهز الفواكه والأسماك لأن الطريق سيستمر يومًا كاملًا دون توقف. يجب أن يصلا إلى المنحدر قبل الليل وإلا سيبيتون على حافته وتلك خطورة صغيرة مثلها قد لا تتحملها.

***

يحيا البارود..

حشد سعيد..

مرحبًا.. شعبي الهاموشي العظيم!

كانت الأصوات من بعيد تتعالى، وحين تصل إليه تتلاشى في الهواء، يبتسم هو برضا وأمواج البشر تتدافع أمام ناظريه. قطيع ينتمي إليه خوفًا من الظلال والصمت والمشعوذ..

هو يحب سكان مملكة العرش، شعب المباهج والترف والخضوع، على عكس سكان الإقليم التي صقلتهم قسوة الحياة وما زال ولاء قلوبهم إلى عائلة الأرقب. خطواتهم الخرساء تحبس تمردًا ينتظر من يوقظه، وهو لن ينتظر.. لن يقف مكتوف الأيدي في انتظار تحقق نبوءة النغل!

نبوءة "حرير" الأولى التي كانت من أجل "البارود الثاني"!

"سيسقط حكمك بسبب النغل"

ومن بعدها صدر قانون بـ قتل النغول كلهم!

ريح عملاقة تطل من جهة الشمال، يقول زعيم المتكلمين وهم حاشية الخطب العصماء خاصته إن تماثيل المينوتور تطلق زفيرًا مثل الريح العاصفة تحية لزواج "البارود". يهلل الجمع مع ارتسام الخوف على ملامحهم، ثم يشغلون أنفسهم بمراقبة البهلوانات وألعابهم وعروض القتال الاستعراضية من فرسان القصر. الاحتفال بدأ وسيستمر سبعة أيام.. هكذا نادى المنادي وقد وضح أن الدعوة غير محدودة. "البارود" يريد لشعبه السعادة! خاصة سكان مملكة العرش. العروس ستطل بعد تلك السبعة أيام في موكب ضخم وعلى رأسه "شاهق الأرقب" بنفسه.. لن تتم مراسم الزواج في الإقليم بل ستكون في المعبد الكبير على حدود أرض العرش والمواجه لتماثيل المينوتور. ستقيم العروس وعائلتها في قصر صغير وبعد إتمام المراسم ستتحرك في موكب آخر أكبر وأضخم نحو قصر زوجها.. قصر البارود.

بدت عيناه وكأنما يثور بها موج أزرق، والهياج يتعالى

مدفوعًا بالخوف والرضى والانبهار.

- يحيا البارود.. يحيا البارود.

هو "البارود الثالث"

صاحب المجد الخرافي

لم يجرؤ أحد على التمرد عليه..

هو "البارود الثالث"

داعم الحرس الثاني السري، المجهول الذي يخيف الجميع.. داعِم الحرس الثالث ومن أنشأ الصفوة بقيادة جبار الذي لا يهزم.

هو "البارود الثالث"

لا مجد لسواه

أما قلوب أعداءه فقابلة للأكل.

***

الإقليم

الموكب الأول

"قلب النبال"

بدا الطريق مثل ساحة زحام، مرشوش بالورد وبقايا النبيذ والبشر. خمسون فارسًا بدروع فضية يتقدمون الموكب وقد تعلقت على أعناق خيولهم البيضاء أكاليل من الورد الملون. خلفهم راقصات جئن خصوصًا من قصر البارود، يتمايلن بمهارة وقد ارتدين أثوابًا مكشوفة البطن لونها أخضر زاهٍ، وحول خصر كل واحدة منهنَّ حزام لامع تتدلى منه أجراس الفضة. المعازف في أوْجِها.. عرض باهر يتدافع الجميع كي يلمحه. إنها زوجة الحاكم المستقبلية وحسب ما سمعوا تلك فقط البداية. هذا هو

الموكب الأول وبعد عقد مراسم الزواج في أرض العرش سيكون هناك موكب أسطوري كي يوصلها إليه. خلف الراقصات كان هناك عشرة عبيد ببشرة خلاسية وصدور عارية يقرعون الطبول بترتيب محترف. معازف المزمار وغيره تصدح من فرقة تتلوهم، ثم آخرون يقذفون في الهواء النيران الملتهبة وينفخون فيها بعزمهم مع ثورة العزف بلحن خاص قبل أن تظهر ملكات النحيب بملامح مبتهجة ورقص هستيري، وقد ارتدين قشور ثمار الحب فوق نهودهن العارية مع قطعة قماش سفلية ناعمة بلون وردي زاعق. صدر أمر "البارود" بتوقفهم عن النحيب وقت الزفاف بل والرقص به.

المعازف تثور.. عربة العروس تظهر يتقدمها الفيلق الثالث. مرتدي الأسود.. جبار والصفوة. همست امرأة من الحشد أن الفيلق الثالث هو من سيتولى حراسة الموكب بنفسه حتى تصل العروس إلى مملكة العرش. وجارتها أخرى وهي تنظر بإعجاب نحو جبار وصفوته بأن حصان جبار الأسود مثل شيطان هو أسرع حصان في الإقليم كله، جبار الجبار لا يستطيع أحد هزيمته. تنبعث من عينيه نظرة تُرعب أعداءه. كان يسبق العربة بهيئته القاتمة وقد ظهرت نصف ملامح وجهه من قلنسوته الشهيرة، ينظر بثبات أمامه دون أن يلتفت لفوضى الرؤوس حوله.. رؤوس كثيرة، العامة يزعجونه.. تصيبه ثرثرتهم وفوضاهم بوجع الرأس، ولهذا هو رجلٌ يقضي نصف وقته مع معاركه. على أصوات الموسيقى الهادرة انفعلت الراقصات، بدأت حركاتهم في أخذ رتمًا سريعًا محسوبًا، والطبول تُقرَع بقوة. الحشود مبتهجة ومبهورة وثائرة، البهلوانات ينفثون نيرانهم في السماء فتشتبك مع أجنحة فراشات مسحورة أطلقتها خادمات "سيراب"

لتطير الفراشات في شكل بديع ساحر، وقد رسمت رمز البارود في السماء. أما هي فمتجمدة وحيدة في عربتها لا تعبأ بحرقة الفراشات فوق رأسها، ترتدي ثوب زفاف قاتل في تعبيرات الفتنة، وأعلى نهديها يبرز بشكلٍ ماكر من مقدمته السخية. رعشة قوية احتلتها، تذكرت حلم "زليخة".. حاولت التنفس بانتظام كي تحتفظ بقوتها، إلا أن هذا الثوب المثير اللعين الكاتم على قلبها لم يمنحها حتى حرية التنفس، خصلاتها كانت مزينة بجواهر ثمينة بداية من مفترق الرأس حتى نصفه قبل أن تتوزع بشكل أنيق متفرق حتى آخرِ الأطراف في منتصف ظهرها. كانت ملامحها صخبًا رائعَ الجمال، شفتاها مصبوغتان بحمرة ورود أرجوانية. عيناها مكحلة بإتقان وقد تسرب شعاع العسل النابض منها، عطرها فتاك كما رددت "زليخة" قبل أن تخرج من المنزل. قبل أن تودعها "ضوء القمر" بصمت غامض، و"بداية" بالرفض، و"نهاية" بالبكاء.

الموكب بدأ خطواته، ولا يتوقف، تركض الراقصات في عرض جديد حول عربتها وتنفث "سيراب" سحرها بفخر، فتتشكل نجمات لامعة فوق رؤوسهنَّ، و"شاهق" جوارها يراقب بصمت تام. كان يقف في بقعة عالية بعيدًا عن الحشد الصاخب، وقد بدأ رجاله في تجهيز حصانه ليلتحق بعد قليل بالركب. شذر "سيراب" بنظرة جانبية قاتمة وهي تستعرض سحرًا رخيصًا من أجل البارود الطاووسي، ثم انتبهت عيناه إلى أخرى.. حمقاء صغيرة تتخبط وسط حشد من الفتيات والنساء حول العربة وتحاول جاهدة أن تلمح أختها. كان جسدها يُدفع فعليًّا بين الحشد بلا طاقة، شاب هزيل يقفز بالصورة، يحرك خصلات شعره الناعمة باستعراض، ويحاول مساعدتها وربما حملها على كتفه لو وافقت، أما هي فتبتعد بصمت وخزي، لا تشعر بالنار

المضطرمة في عينيْ رجل نهشت خطواته الأرض ليقترب منها. يظهر فجأة ويزرع في قلبها دقات عنف مستحيلة. بلا مقدمات احتلَّ كفها كفه الضخمة وقد شعرت بالقوة تنبض منه، قوة أرجفتها من أعلى الرأس حتى طرف القدم قبل أن يسحبها خلفه ويخرج بها من الزحام. يثبت كتفيها بيديه لتقف أمامه هو وزوجته التي رمقتها. يعود للوقوف مثل تمثال صلب والعربة تقترب. الموكب في قمة ظهوره.. الصفوة بردائهم الأسود يحيطون بالعربة من كل اتجاه، في حين تعود الراقصات لتتحرك بترتيب استعراضيٍّ ويتصاعد دخان ملون من ما يشبه الأبواق في جعبتهن. الفراشات تعود.. رمز البارود في السماء، الأنظار متعلقة بعربة العروس علَّهم يلمحون فتنتها. وحصان أسود بلون الظلام نفسه يظهر هو وفارسه جوار العربة.. قبل أن يحدث كل شيء بسرعة خاطفة!

في العربة هي وحيدة.. تفكر في أن "ضوء" لم ترافقها أيضًا مثل "بداية".. وتسخر بأنها سترفض مرافقتها في كل الحالات حتى لو جاءت في الموكب الكبير. ثوبها يخنقها، ثوب امرأة في صورة أداة.. يتراءى لها من خلف الستار لون الدخان وحركة الفراشات وخيال رجال الصفوة.

حتى جذب أحدهم الستار، بل مزقه.. ودون أن ينظر إليها مدَّ ذراعه وسحبها بقوة جبارة..

موكب عظيم

رمز البارود يسقط

وجبار يختطف العروس فوق شيطانه الأسود بسرعة البرق

***

الفصل الخامس
قهقهة بحجم جبل.. قالوا إن "حرير" ضحكت!

ركض.. ركض..

نبضات قلبها تركض..

ثوب زفاف غبي يقيدها فوق قيد ذراعه الضخمة التي أعجزت خصرها وأنفاسها وصدرها وكل إنش لامسه. كانت تحيط بها مثل كماشة حربية، وذراعه الأخرى توجه حصانه الشيطاني بسرعة فائقة. سريعًا ابتعد الإقليم والموكب بصخبه.. تصورت أو خُيِّل لها أن الكثير من الفرسان خلفهم في مطاردة حتمًا ستنتهي بقتله، ولكن لا شيء.. لم يستطِع أحد اللحاق بهما، وكأنه نالها بقوة خادعة رغمًا عن أنف الجميع. حاولت أن تتملص.. تقاوم.. ترفع رأسها كي تلمح وجهه الشبيه بالخندق حد اختفائه تحت ظلام القلنسوة. رجل ملامحه بداية حرب ونظرته نبع خالص السواد. الخيل يهدم ثبات الأرض تحت حوافره، والظلام يبدو قديمًا وكأنه هناك من ألف عام.

الإقليم يبتعد والوجهة عكس المفترض ليس مملكة العرش لا.. بل اتجاه معاكس تمامًا.

كان الصهيل قاتمًا في أذنيها، أنفاسها محتجزة تحت قيد جبار! فروع الأشجار تتكاثر حولهم وأمامهم، حتى إنها ظنت أن الفروع القاسية ستمزقهم ولكن.. وسط الظُّلمة انقشعت الفروع.. بدأت تنسحب من أمامهم وكأنه سحر وفجأة وفي خضم طرق مسدودة كثيرة بالأشجار الكثيفة ظهر طريق.. مسار مكشوف غريب وتحديق من عدَّة عيون صغيرة على جانبه، عيون تنتظرهم. كان لون بشرتهم

يشبه لون الغروب، أحجامهم صغيرة نوعًا ما وشعرهم أسود حالك ناعم يتساقط فوق جباههم. وسط شرودها شعرت بالحصان الشيطاني يبطئ حركته. ملمس يده الخشنة فوق ذراعها وهو يشد اللجام بغية الوقوف وقد خف قيد ذراعه قليلًا، على الفور تملَّصت، رفست وركلت وصرخت في طيش وقد اتقدت عيناها بتمرد، في حين كان هو على ثباته، تركها تفعل ما تريد حتى سقطت فجأة من فوق الحصان. وقعت على ظهرها تمامًا وقد تحول ثوبها إلى كتلة من فوضى بعدما تمزقت أجزاء علوية منه بسبب ركلها وحركتها وتوزعت خصلاتها المرتبة حول ملامحها وقد تساقطت منها الجواهر على الأرض، فبدأ النساء والرجال قليلو الحجم في جمعها. حرك سبابته بثبات فأوقفهم على الفور وحينها واجهت الخندق المختبئ تحت قلنسوته. غموض داكن يتلكأ بعينيٍ محارب مر أمامها مثل خطفه قبل أن يلوح بسبابته مجددا للقوم حولها كي ينسحبوا.. في طاعة تراجعوا، أحدهم توجه إلى الحصان فسحبه بهدوء، وكأنه يعرف ما يفعله، في حين تقدم آخر يناوله المياه والنبيذ. أسند قدمه إلى صخرة متوسطة الحجم ورمى لها قربة المياه فسقطت فوق ساقيها، في حين تجرع هو نبيذه بنهم جعل بعضه يتساقط من حول شفتيه. أشاحت بوجهها بعدما رمقته باستنكار وصدمة:

- لا أريد منك شيئًا.

رمقها بنظرة ساخرة ولم ينطق، تحرك ببطء ثم رفعها من ذراعها بقبضة واحدة قاسية آلمتها وقال بصوت قاتم خشن وهو يدفعها نحو ما يبدو مثل حظيرة حيوانات:

- تحركي!

بعناد حاولت التملص منه ولكن دون جدوى، كان

ثوبها الأحمق أيضًا حاجزًا منيعًا أمام أي محاولة ركض أو مقاومة لائقة. بتمرد حاولت التخلص من قيده، وقد بدا حجمها متقلصًا جوار قوته بلا جدوى. لاحظت همهمات النساء وضحكاتهن وهو يدفعها إلى الحظيرة. حذرتها أفكارها من احتمالية نيلها بحقارة ذكورية في هذا المكان المقرف. سقط قلبها رعبًا.. فكرت في سريعًا في أي مهرب ممكن، وظله خلفها ولكن تلك الحظيرة البشعة مسدودة المخارج سوى من الباب الذي دفعها منه بقسوة. فكرت مجددا بتعجل، حاولت أن تبحث عن أي فأس أو سلاح تستطيع تهديده به، أو حتى ركله في ركبته وطرحه أرضًا! ولن يكون الهروب بعدها مستحيلًا من القوم الحمقى بالخارج. كانت أفكارها تتابع سريعًا، وهو خلفها يخلع قفازيه الجلديين ويضعهما في جيب حزامه ويتخلى عن القلنسوة.. شعرت بعجز سخيف وصوته يأمرها بأن تستدير نحوه.

لن تكون تلك نهاية "قلب الأرقب"، لن ينالها خادم بارود أو جباره كما كان يدَّعي من أجل انتقام ما بينهما أو خطة عدو آخر. استدارت له بعزيمة امرأة لا تقبل الانصياع.. خرجت نبرتها مبحوحة من الإنهاك والصدمة ولكنها كانت عنيدة قدر نبالها:

- لا تظن أنك قادر على نيل شعرة مني.

بدت ملامحه خالية من أي تعبير، دون القلنسوة ملامحه هادئة بغرابة. ملامحه تشبه رحمة المحاربين بأعدائهم حين يمنحونهم مزية الموت السريع، وجه لطيف للقتل. مطَّ شفتيه بلا اكتراث، في حين تابعت هي باحتراق مستعر:

- "شاهق" سيجدكِ وسيفصل رأسك عن جسدكِ بسيف الأرقب.

عقد حاجبيه بسخرية قاتمة ثم قال بنبرة مغلفة بالهدوء:

- غريبة.. لم تذكري البارود.

رمقته بنظرة كراهية على الفور، الظالم قاتل النغول يدعي الآن الشرف ويناطحها.. قالت بنبرة مشتعلة:

- هذا إن لم أقضِ عليكَ أنا أولًا.

تجرع نبيذه بلا اهتمام ثم قال بقتامة وهو يتجاهل النظر نحوها:

- أنتِ تثرثرين كثيرًا.

ودَّت أن تصرخ بكل قوتها، تقفز فوق ظهره.. تخمشه وتضربه وتغرس سيفه في درعه الحديدي الأسود. كان الثوب يخنقها، تمزق من ذيله فبات حاجزًا أسوأ ومجددًا وقعت وهي تحاول الاقتراب منه ودفعه، زمجرت بغضب مع استدارته لها وهي مستلقية على ظهرها في عجز ثم استقامت سريعًا في وضع الجلوس و صرخت به محذرة:

- لا تقترب.

عقد حاجبيه هازئًا ثم قال بصوت أجش ماكر:

- أنتِ تزرعين برأسي أفكارًا جيدة جدًّا.

ووسط شهقتها المستنكرة تبدلت ملامحه، ظلام الخندق عاد قبل أن يبادرها بأمر صارم:

- اخلعي ملابسكِ.

نبرته خرجت بغيضة بقسوة حتى إنها صرخت به.. استقامت لاهثة بكل عنفوانها تبتغي الهجوم عليه، اقتربت في تهور إلا أنه أمسك رسغها بقسوة آلمتها حد الصراخ ثم ارتسمت بعينيه دروب من العتمة وهو يتابع، في حين كان يجز على أسنانه:

- لا أمتلك وقتًا لهذا الهذر.

انطوى الزمن للحظة حول كليهما، عيناها عنيدة وعيناه قسوة سنوات لا يعرفها أحد. يتطاير من نظرته الشرر والذكريات الحمراء بلون الدم والعهد الذي اتخذه منذ سنوات، في حين يتطاير منها الحماس الأحمق. حماس لا يدركِ الدور المكتوب لها. انفجرت بغطرسة وهي تنازعه مجددًا:

- لنتعارك.

- ماذا؟!

- عراك حقيقي.. رجل لرجل وليس رجل وامرأة.

كانت تائهة لإدراك قدراتها أو قدراته، نظرتها مكسوة بالتمرد والجموح ونظرته ظلام يشعر بالسأم.. تلك المرأة تضيع وقته. نادى أحد الرجال قليلي الحجم وطلب منه سيفًا ثم رمقها باستهانة وهي تأخذه وتتخذ وضع مبارزة على ما يبدو لا تجيدها، عروس مخطوفة في فوضى ثوب زفاف ممزق تستعد للمبارزة مع فارس أرض الموت.. زعيم الصفوة وجبار يودوس وقاتلٍ النغول. في الساحة المقابلة للحظيرة وقفا أمام بعضهما بعضًا، كان الفجر قد مر وبدأت الشمس تبعث حرارتها الصباحية على جلود الجميع. سيفها مستعد للطعن.. تحركه بكلتا يديها بحماس وشراسة وطيش وصراخ وحركات عشوائية متسارعة حتى.. حتى أسقطه هو بسلاسة من بين يديها بحركة واحدة.

كان قلبها يخفق بعنف من الإنهاك، وهو ثابت مثل حديد صلب، كلماته تنغرس في لحمها وهو يكتسح اللحظة بصوته الصلب:

- الآن انتهينا.. اخلعي هذا الثوب، هناك ملابس في الحظيرة ارتديها لنرحل من هنا وطوال الطريق لا أسمع صوتكِ!

***

هي في بنطال وقميص رجل!

ملابسٍ يبدو أن القوم قليلي الحجم حاكوها على مقاسها خصوصًا، فوق القميص صدرية جلدية مرتبة أشبه بدرع خفيف، وجمعت النساء شعرها في جديلة كي يلملمن الفوضى الناتجة عن الهروب!!

صمتت وشردت في حالها، هروب أم اختطاف.. أي مصير ستناله، أي مصير كان أفضل؟ رهينة هذا الجبار لسبب لا تعلمه، أم دمية في قصر البارود تحت اسم زوجة.

لم يبدُ الآخر على استعداد للمحاورة، كان الرجال يعلقون الماء والطعام في سرج الحصان للطريق بينما هو يشحذ سيفه وعيناه تراقب الأفق باهتمام. صفير الرياح يدور حوله وحصانه يزمجر زمجرة راضية بعد وجبة طعام مشبعة وراحة كما وصف القوم كان يحتاج إليها الشيطان ليكمل عمله. تأملت نظرته المصقولة الطريق، وقد رتَّب مساره على مدار الأيام القادمة.. الدرب الذي يعرفه وحده. تقدمت منه عجوز قصيرة، الملكة المسنَّة كما يطلقون عليها.. يُقال إن عمرها من عمر يودوس.. **"جعبة التاريخ الحقيقي"** ولهذا أراد "البارود الأول" قتلها ولكنها استطاعت الهروب.. عاشت في كهف بباطن الأرض سنوات عدَّة وتزوجت من محارب متمرد لتنجب شعب المطرقة، وقد أسمتهم هكذا لأنهم كانوا يصنعون المطارق من أخشاب الأشجار التي يقطعونها ثم يشكلونها من جديد كي تبدو وهمية، فاستطاعوا لسنوات عدة الاختفاء في الغابات الصغيرة على أطراف الإقليم دون أن يشعر بهم أحد. ابتسمت الملكة لجبار وهي تتقدم منه بحكمة عجوز تحمل تاريخًا خاصًا بينهما..

- حان الوقت!

زفر وقد ضاقت عيناه وهو يلامس بنظرته القاتمة الطريق البعيد:

- الفتاة ليست جاهزة بعد.

فاض تعبير العجوز بالأمل:

- دورك أن تعلمها.

سخر بسوداوية صلبة:

- أتمنى أن يجدي.

ردَّت بحنو لامس مفاتيح قلبه:

- أنت تعلم أنه سيجدي.

التمعت عيناه بصلابة:

- شر "البارود" سيتوحش أكثر.

بدا مجد العجوز في كلماتها، وحكمتها أعمار عدَّة:

- الظالم لا بدَّ أن يصل إلى القمة كي يفتته سقوطه!

وأمسكت جذع شجرة، نفختته بقوة ثم مررته جوار سمعها وكأنها تلتقط إشارة.. بعدها تسرب صوتها الرخيم:

- الرياح معنا.. اختصر المسافة وخذ وادي العميان.. النهر سيساعدك ولكن عليك أن تكتم فم فرسك.

- أي فرس منهما؟!

وابتسمت العجوز لسخريته اللاذعة، بعدها توجهت إلى الجميلة، "قلب النبال" التي لم تدرك دورها بعد.. مررت أناملها فوق جبهتها الناعمة وأحضرت لها القوس والجعبة.. همست لها بأنفاس متقطعة لم تفهمها "**سهم واحد، قلب واحد، ونحيا جميعًا**".

وبعثرت الرياح بسبابتها وكأنها تباركها أو تلعنها لا تعلم.. بينما أشار لها هو بعينيه أن تتقدم ليرفعها وتركب الحصان أمامه.

رفضت بتمرد يليق بها:

- لن أركب أمامكَ مجددًا.

رفضت بتمرد يليق بها وبدأت الرحلة.. ولم يجبرها على امتطاء الحصان أمامه.

ربط رسغيها بحبل وسحبها خلفه!

***

- **سيتدفق الخراب على الإقليم.**

صرخة رجل مستسلم

- **خان جبار البارود.. ستنتهي يودوس.**

صرخة رجل من مناهضي الحاكم

- **نجت المحظوظة.**

ابتسمت "زليخة".

***

موكب للتاريخ

جبار وعروس على حصانه وسرعة فوق إدراك البشر.. وحين حاول الحرس الثالث اللحاق به.. وقف لهم الصفوة.

تجمدت "نهاية" بلا فهم، شعرت بنفسها على هامش مخيف، و"قلب" تسقط في هاوية، "شاهق" وراءها ثابت مثل صنم متحجرٍ لا يفهمٍ أحد ما يدور في خلده. ولكن عينيه كانت شرارًا.. شرارًا ينبئ بنقيضين!

تحولت الضحكات إلى صمت، وسقطت الفراشات

المحترقة بعد صدمة "سيراب" كرماد.

ركض أول منادٍ ولديه لأرض العرش قصة يرويها.. أما حرس البارود الخاص فذبحوه قبل أن يخرج من الموكب وتوجهوا إلى حاكمهم بالخبر الملعون.

***

- كانت أمسية باهرة!

قالتها "سيراب" بهدوء وهي تُلَمِّس فوق ظهر عنكبوت متوسط الحجم سقطت سبع ذبابات في براثن شباكه والآن هو ببساطة يتناول وجبته.

في منزل "شاهق الأرقب"، في السقيفة المربعة على قمته خصصت سيراب لنفسها بقعة خاصة. غرفة تشبه مكعبًا مراوغًا خشبية قاتمة تميل للسواد، على أركانها العلوية الأربعة اتخذ أربعة عناكب منازلهم.. كانت تدللهم جدًا حتى إنها كانت تحضر لهم الطعام بنفسها إذا ما فشلوا في إيجاد حشرات تملأ معدتهم. عناكب "سيراب" الأربعة بهم مزية نادرة ولهذا ظنت مساعدتها أن احتفاظها بهم لبيعهم لاحقًا.

الأول **زئبق**.. لونه أسود مثل ظلام الغابات.

الثاني **شبح**.. كان فضيًا بلون غريب عجيب مزعج للعين.

الثالث **ترياق**.. بلون الذهب الخالص، حتى إنه كان ينسج خيوطه من الذهب أيضًا.

أما الرابع.. **سُم**.. لونه أحمر قانٍ مخيف، وله عينان كبيرتان مع صغر حجمه، فتشعر وكأنما ينظر إليك!

***

تنهدت بانتشاء وهي تضطجع على مقعدها الوثير وقد

رفعت قدميها النحيلتين فوق مسند مبطن مخملي، في حين كانت إحدى الخادمات تمسِّد قدميها، والأخرى تناول ثغرها ملعقة من العسل. جاءت "سيراب" إلى منزل "شاهق" بحاشيتها، فبات محرمًا على خادماته اختراق مساحتها سوى بإذنها وخاصة غرفة العناكب.

وآكلة العناكب ليست غاضبة رغم هزيمة بارودها! بل على العكس تشعر بالانتشاء.

تسللت من خادمة نظرة مترددة، والأخرى تناولها قدحًا ساخنًا من أعشاب مُرَّة هي مشروبها الصباحي المفضل. ناولتها إياه وارتجفت رغمًا عنها، كان العنكبوت سُم ينظر نحوها بعينيه الكبيرتين.

- هو جائع.

رددتها سيراب بنظرة قاتمة خبيثة، والخادمة تتراجع، ليس سهلًا أبدًا أن تُشترى فتاة من عائلتها الفقيرة بين يوم وليلة لتخدم آخر نسل الساحرات. فتاة بلا موهبة دورها يتلخص في غسل الأرضية وتجهيز الطعام والحرص على صحة العناكب. العناكب الوحيدة التي لا تأكلها الساحرة!

طوت عينيها هاربة من نظرة سيراب الشبيهة بالتعويذة ثم قالت بخوف وتلعثم:

- لقد أطعمته يا سيدتي حتى إنني اصطدت له الذباب بنفسي ثم وضعته في شباكه.

صوت سيراب حينها امتزج بضحكة جوار كتلة غطرسة:

- ربما يريد أن يجرب المذاق البشري، مع أنني أخبرته مرارًا أنه ليس جيدًا إلى هذا الحدِّ.

شهقة ارتعاب تمامًا تسللت من الفتاة وقد بدأت تبتعد تلقائيًا عن الشباك الحمراء الشبيهة بعروق الدماء، في حين

تذوقت مسامها الكثير من العرق فبات عطر ذُعرها مغريًا. تلألأت دُكنة عيني سيراب قبل أن تصرفها بفرقعة إصبع هي والأخرى.

- ارحلا!

وانتشت فوق مقعدها بغرور.. تراقب عناكبها الأثيرة وتسترجع ما حدث فقط منذ ساعات.

جبَّار

مفاجأة الموكب

وخائن البارود الذي ستُوزَّع مخطوطات لعناته على كل يودوس.. حماس ناوش ابتسامة شفتيها، وصمت عتيق شكَّل أفكارها.

على ما يبدو أن اللعبة ستختلف يا "شاهق"، ودورك إما كبير جدًّا وإما أحقر مما أظن!

داعبت سُم بطرف سبابتها ثم تركت عيناها للاستمتاع بمشهد خيوطه الحمراء القاتمة في انتظار فريسة جديدة.

***

أفق بعيد وهدف.. هدف متحرك فاسق داعر وحتمًا سيصيبه.

"أريده حيًّا".

كان أمره منذ عدة أيام لـ"صائد العظام". أطلقوا عليه هذا الاسم في البراري لأنه ظل سبع سنوات يدور في مستنقعات يودوس يتغذى على الثعابين وبقايا الحيوانات حتى كما وصفوه فقد إنسانيته.

هو نصف الشيطان ونصف المذموم

ولا يستطيع سواه القبض على رقبة "غضب"!

***

- سيد "بارق"!

طرقات خافتة نبهته مع تردد الخادمة في قطع خلوته، انتبه لها بطرف عينيه، والمسكينة تتابع بتسارع محسوب كي لا تغضبه:

- الفطور جاهز.

عقَّب ببرود وعيناه ما زالتا متعلقتين بالأفق البعيد من النافذة:

- أين زوجتي؟

قالها بقتامة تامة، زوجته التي اختفت في خضم الفوضى بمنزل أمها حتى أعادها السائق قُرب الفجر. ما حدث رجرج الإقليم.. لحظات صدمة وهرج ومرج سادت فجأة، وفارس أرض الموت كما يُطلق أحيانًا يقتنص العروس في خطفة من حُكم البارود.

لم تكد الخادمة تفتح فمها للنطق حتى سمع ما يشبه ضحكة خافتة من تحت نافذته، أمال نظره إلى الأسفل، وحينها اصطدم بمشهد زوجته الشابة وهي تركض بمرح خلف أنثى ماعز صغيرة فشلت جميع الخادمات في الإمساك بها. كانت بيضاء شقية تهرب من الجميع بسرعة تفوق مهارتها وتتعثر وتضحك "بداية" بسعادة حقيقة وهي تحاول الإمساك بها، في حين بدت سعادتها معدية، فقد بدأت جميع الخادمات في الضحك تباعًا قبل أن يحدث شيء غريب جدًّا، اقتربت منها الماعز ثم حكَّت رأسها في صدرها وجلست بين ذراعيها في سلام.

اجتاحتها عيناه دون أن تشعر، كانت تمسك بالماعز وكأنما تمسك بالسعادة نفسها، تحتضنها وتناولها العُشب

وتحرك مياه الدلو بأناملها كي تنبهها وتشرب. امرأة غريبة.. أختها اختُطِفَتْ منذ ساعات وها هي تتباهى بسعادتها..

امرأة غبية!

على مائدة الإفطار كانت ثابتة أمامه بعد جرعة سعادة بسبب كائن لطيف صغير. تخفض رأسها، ليس هروبًا ولكن رغبة تامة خالصة في عدم الحديث. صمت طال بينهما حتى بتره هو بقسوة وهو يتأملها بتفحص:

- مشهد غريب لامرأة اختُطِفَتْ أختها ليلة أمس!

رمشت بعينيها بثبات ثم ردَّت ساخرة بقوة لم يلمحها منها من قبل:

- بنات "فيصل" اعتدن على الغرائب.

نبرته التالية أرغمتها على أن ترفع عينيها نحوه:

- أنتِ الآن زوجة "الراعي".. تتصرفين تبع قواعد هذا القصر.

احمرَّ وجهها رفضًا:

- هل العواطف لها قانون.. أحزن أو أفرح تبع قواعدكَ!

واجهت عيناه واجتاحها هو.. وستخرج خاسرة، معارك الراعي مكتوبة باسمه ضد البشر والذئاب والنساء.

- نعم يا "بداية" كل انفعال منكِ تبع قواعدي أنا.. أنتِ كلكِ لي حتى انفعالاتكِ.

بدا هسيسه قاتمًا صلبًا.. نظرته مدمج بها قساوة ورفض.. وكأنما يرفض سعادتها تلك! بطء حاسم ارتسم فوق شفتيه:

- أنا لا أكترث بما حدث ليلة أمس ولا أمتلك وقتًا للثرثرة.. هربت أختكِ، اختُطِفَتْ، أو حتى ماتت أمكِ..

مكانكِ في منزل زوجك وفي موعدكِ.

رغمًا عنها شهقت غير مصدقة، أناملها مشبوكة وبطنها متحجرة.. لم تكن لها شهية في الطعام، كانت سعيدة وقلقة، ولكن شعور السعادة يطغى على القلق. مجهول جبار أفضل مائة مرة من مصير أسود معروف مع البارود، "ضوء القمر" كانت سعيدة وتلك علامة. و"شاهق".. لم يرسل رجاله خلف المُختطفة!

إلا إن هذا الرجل الذي تزوجته أقسى مما كانت تتصور، كيف يمكن أن يكون هكذا، مزاجية قلب مشحون بالظلمة.. حقد محشو بالغضب.. قسوة مختلة لا تعترف بصلة رحم أو شعور إنساني.

نظرت نحوه بحزن تام:

- كيف يمكن أن تكون بتلك القسوة؟

قست عيناه ساخرًا:

- العالم قاسٍ يا عزيزتي.

إلا أنها تشبثت بنفسها بما هي عليه:

- ولكن نحن نبقى.. رغم قسوة العالم نبقى عائلة وإخوة وأم هي عالمي، مهما فعلت ولا يحق لكَ حتى التلميح بما نطقته لتوِّكَ.

كانت عاجزة، غاضبة، منفعلة بما حدث ويحدث وتشعر وكأنها امرأة أخرى، امرأة تخرج من جسدها هو قرر نفيها على الفور. لم تشعر إلا بجسدها يرفع بقبضة واحدة منه، ولحم ذراعها يتفتت. تحاول أن تتشبث بالطاولة، وعيناه هو ترتجف باستعار تام أرعبها وهسيسه يطل:

- فكري في كلماتك قبل النطق بها يا "بداية"، فالعواقب معي أكبر من احتمالكِ.

أرادت أن ترد إلا أن عينيه أخرستها.. نبرته حسم وأمر:

- يبدو أنكِ نسيتِ دورك، أنتِ لستِ هنا كي أتحمل مغامرات حماسك أو أستمع لمعارك "شاهق" و"البارود" المخفية.. دورك يتلخص في...

وشهقت لا تصدق ما يفعله، همجي قاتم التعبير لا تُناسب البراءة قبضته، فكك حزام بنطاله واقترب منها حتى إنها شهقت في عدم تصديق ورفض...

- ما رأيك أن تنهي هذا الدور سريعًا وتعطيني الطفل الذي أحتاج إليه ثم تغربي عن وجهي.

أشاحت بعينيها مبتعدة عن هذا الشيطان الذي خرج منه وهمست بيأس:

- أنت وحش!

ابتسم ساخرًا:

- يودوس تناسب الوحوش يا جميلة.

دفعته بضعف هش إلا أنه لم يبتعد، كانت نظراته مرتكزة عليها ونظرتها هي تتوتر، تبتعد وتعود وتشعر بالإنهاك فتختفي. تجمدت يدها على صدره مع آخر دفعه وهي تقول بضعف عنيد:

- أرجوك دعني أذهب.

- أين الماعز؟

اتسعت عيناها فجأة مع ذكره الكائن اللطيف الصغير، تنفست بتسارع رغمًا عنها وقد تذكرت ما حدث سابقًا من "ضوء" فقالت بتوسل:

- أرجوك لا تؤذيها.

عقد حاجبيه بتعجب وهو يراقب تعرق جبهتها، خوف

مسكين كاد يثير شفقته وهي تتابع بتعجل مُنهك:

- أرجوك يا "بارق"! لا تذبحها..

قالتها بعفوية تامة، أنفاسها الضعيفة تتخلل الصوت الذي يعجبه.. تنهداتها حارة وثباتها مبعثر وأختها مخطوفة وزوجها يهددها وهي تفكر في شاة!

عقد حاجبيه وهو يتفحصها ثم قال بصوت أجش بطيء:

- ماذا قلتِ؟

ضاقت عيناها في عدم استيعاب حتى انتبهت أخيرًا، لقد نطقت اسمه مجردًا، هي لم تفعلها من قبل.. لم تنطق باسمه من الأساس، هو زوجها الذي محاورتها معه تقريبًا معدومة. هزت رأسها عفويًا في اعتذار.

- آسفة.

كان قد تخطى ثورة غضبه، ترك أفكاره بشأن صائد العظام خلف ظهره مؤقتًا وتجاهل أيضًا تحليل المناورات بين "الأرقب" و"البارود". كان يحتجزها بمزاجية ويأى بها بعيدًا عن كل يودوس. قال وأنفاسه الهادرة تحيط بها:

- قوليها مجددًا.

نظرت نحوه في صدمة وحيرة:

- ماذا!

تابع وهو يحاصرها أكثر:

- قوليها، "بارق".

أغمضت عينيها بخجل وعدم فهم.. هذا الراعي مختل.. همجي مجنون تمامًا. حركت رأسها نافية فأمسك بفكها بقسوة ثم تابع بحزم:

- قولي!

استسلمت يائسة، لم تفهم ما هذا الذي أصابه وما نهاية تلك الحكاية التي تعيشها معه، تلك المرة بتنهيدة رغمًا عنها، من الإرهاق والأفكار والألم..

- بـ.. ارق.

اللعنة.. تلك الـ "بداية" تجيد حقًّا نطق اسمه، شفتاها تنتهج خطيئة ذكره بهذا الجمال. كيف تفعلها كيف.. لولا نطقها له بيأس وببساطة لظن أن شفتيها موسومة بتعويذة فتنة. أغمض عينيه ثم مرت من ملامحه ابتسامة قوية تحمل غموضًا فوق الوصف قبل أن يقول ببطء هادئ:

- هل علمتكنَّ هذا "ضوء القمر".. كيف تسحرون الرجال.

جمالها الخاص بها ارتسم فوق انفعالها اليائس الضعيف.. شعرت به يقترب، أنفاسه تحترق فوق عنقها ومتابعته قاسية صارمة:

- أنا أحب المرأة المطيعة يا "بداية".

ثم عاد من جديد ليواجهها بلهيب أزرق يتسلل من دُكنته فجأة ولا تفهمه..

- التمرد لا يناسب رجلًا مثلي.

وجذبها نحوه كي يُكمل ما بدأه، فُسحة صباحية مع امرأته من بين أفكاره وظلمة تتشتت معها ولكنه يعيدها عنوة من جديد.

هي امرأة ربما يناسبها الضوء ولكنها ستحيا معه في الظلام.

***

المنحدر..

خطورة صغيرة مثلها لن تتحملها!

كان المنحدر يتوسط طريق الغابة.. يبدو مثل فوهة بركان ضخمة حوافها غير مأهولة بالبشر.. جانبا المنحدر المرور منهما مستحيل.. فالحيوانات التي تتخذ من الجوانب ملجأ لها لا يقدر على هزيمتها بشر، ستفتت لحمهما لو حاولا فقط الاقتراب. ولهذا المرور من المنحدر يتطلب عبور جسر ضخم متهالك. يتحمل العربة والأحصنة بمباركة المشعوذ، ولهذا هو يسابق الوقت. عبور الجسر يجب أن يكون نهارًا.. فالجسر يختفي في الليل.

في الليل يصحو التاريخ وتظهر حكاية المنحدر المخفية عن البشر..

***

كانت جواره في هدوء.. أحيانًا تصحو وأحيانًا تنام، وجهها ملائكي بفتنة مبالغ فيها.. ليست مجرد جمال مكرر لا، بل براءة مزعجة.. براءة تغزو الروح باكتساح!

- اللعنة!

شتم بها وهو يقذف بقدح حديدي من العربة، لقد انفكَّ فجأة حزام اللجام الخاص بأحد الحصانين وكادت العربة تنقلب بكليهما. فكَّ الحزام بينه وبينها وهو يسب ويلعن وبدأ بسرعة يحكم سيطرته على اللجام كي يعيد تركيبه من جديد.. كان يسابق الوقت، لا يملك رفاهية معرفة قصر المشعوذ بهروبها الآن، وخاصة على حافة المنحدر.. لو رفع المشعوذ حمايته عنه لن يمر من الجسر أبدًا.. وهي لن تنجو من مواجهة الوحوش حتى لو استطاع هو. تراجعت وهي تلمح غضبه وصمتت تمامًا، كانت خائفة من حنقه المرتسم على ملامحه. تبتسم ببلاهة رغمًا عنها كلما نجح في تركيب حزام اللجام ثم تتحجر نظرتها وهو يصرخ بعنف لأن الآخر

سقط.. الغابة تعاقبه.. عربته تعاقبه.. هل هذا وقت تكفير كل خطاياه!

زفر محاولًا التحكم في نفسه، وهي تنظر إلى السماء بعجز:

- لقد.. لقد ظهر القمر.

- أعلم..

قالها بقتامة تامة وهو ينهي الفساد الذي حدث في عربته، يجاورها من جديد، ولكن دون ربط الحزام.. بل تحرك ببطء.

- سنقضي الليلة على حافته ونتحرك فورًا في الصباح الباكر.

همست بخوف وتردد:

- والحيوانات المفترسة؟

ابتسم بقسوة ساخرة:

- احرصي على عدم إصدار صوت.

ثم تابع منهيًا صدمتها:

- لن تقربنا ما دمنا لن نحاول المرور من جانبها.

بعد ساعة تقريبًا وصلا.. هالها ما رأت.. كان ضخمًا فعلًا، بحجم قصر المشعوذ تقريبًا.. حوافه مشتعلة بلهيب غريب يمثل حلقة ضوء لقاعه.. لمحتوى قاعه!

في القاع.. في العمق المظلم يرقد هيكل قنطور مفصول الرأس عن الجسد بملامح حزينة وأمامه جسد امرأة ممدد ينظر نحوها في حسرة.

تنفست ببطء وعيناها لا تصدق ما تراه:

- ما هذا؟

أما هو جوابه بدا لا مباليًا.. حكاية يعرفها منذ زمن، تناقلتها العجائز آلاف المرات ومن مكَّنه نقاء قلبه من عبور الغابة.

- إنه عملاق المنحدر

انفرجت شفتاها بشفقة لا تعلم كيف نبتت في قلبها نحوه:

- يبدو حزينًا.

قال ببأس غامض وهو ينظر نحو هيكل المسخ:

- محكوم عليه بالحزن في حياته وموته.

- هل تعرف قصته؟

- هل تريدين الاستماع للحكايات يا جميلة.

مررها ساخرًا.. الحكايات القاتمة تاريخه، دور الشيطان ناسبه وناسب الجميع.. الناس تختار شياطينها ثم تحاكمهم بتهمة الشر!

بدا صوته صادقًا كئيبًا يحاكي أسطورة..

- هو قنطور ضخم.. حين رآه الناس ظنوا أنه إله، وحينها قرروا أن يعبدوه.. يطيعوه ويخافوه ويكتبوا القوانين ثم يدَّعوا أنها منه. كلما أصابهم خير شكروه وكلما أصابهم شر استسمحوه.. حتى قرر تاجر جشع تقديم ابنته قربانًا له، ظن أنه بهذا سيملك السلطة. شعرت الفتاة بالرعب والهلع ولم تفهم ما قد يحدث بينها وبين كائن وحشي مثله.. زينها الرجل بالذهب، يقال إن حتى كل ملابسها كانت من الذهب الخالص. وصلت إليه باكية مرعوبة، كانت جميلة، خصلاتها الشقراء تلامس كاحليها.. تصرخ طوال الليل والنهار وتتحرك بعشوائية يائسة، خاف في فورة من حركته الضخمة أن يهرسها فقام بوضعها في علبة خشبية

مبطنة بالحرير، وصنع في العلبة ثقوبًا صغيرة كي يدخل لها الهواء والضوء. يومًا بعد يوم اكتشفت الفتاة طيبة قلبه.. كان مجرد حيوان غريب لا يدرك ولا يفهم نفوس البشر.. لا يمنح ولا يؤذي.. لا يكافئ ولا يعاقب.. كل ما يفعله في الحياة تبع فطرته.

قاطعته بعبارة قفزت على الفور من قلبها:

- وماذا فعلتْ.. أحبته؟

- بل قتلته!

شعت عيناه بالظلمة التامة.. روح العنف رابضة بالإنسان في انتظار فرصة.. الغابة ليست دومًا أرض المسوخ.

الغابة نفوس البشر..

- حين اكتشفت أنه مجرد مسخ بسيط وقع في غرامها استغلت ذلك على الفور وواعدت خمسة وعشرين رجلًا.. كانت تضع له نبتة سامة سوداء على طرف فمه وهو نائم.. يساعدها الرجال في تجميع كمية كبيرة منها ثم طحنها وتجهيزها مثل سائل ثقيل وتمريرها على شفتيه كل ليلة. حتى تمكن السم من جسده ووهن، حينها اجتمع الرجال الذين واعدتهم وأعطت جسدها لهم على أمل أن يترقى أحدهم إلى إله وربطوا سكاكينهم في حبل طويل ثقيل لفوه حول عنقه بكل قوتهم. صرخته حينها رجت الجبال والأرض وقبل أن يدركوا سقط وشق الأرض من تحته وسقطوا معه.. تناثرت عظام الرجال، أما هي فأمسكها وهو يسقط وأحاط بهما أديم الأرض وشكل هياكلهم لتبقى حكايتهم إلى الأبد.. تظهر كل ليلة في الظلام وتغيب في الضوء.

قسوة الحكاية آلمت ملامحها..

- يا لها من قصة غريبة حزينة.

غامت عيناه وقد عاد إلى تاريخه الخاص..

- أحيانًا شيطان الحكايات يكون هو المسكين.

ثم تجسدت القسوة في ملامحه وهمس بخشونة:

- ولهذا دور الشيطان أفضل يا جميلة.

رمى الغطاء بعدها على الأرض وترك جسده لنصف نوم، عيون الذئاب والضباع الجائعة المضيئة تراقبهم من بعيد دون أن تقترب.. خافت فبتر قلقها بعبارة صارمة:

- لن يقتربوا.. الغابة عكس البشر.. الغابة دومًا تحافظ على عهودها.

بدا عبقها جواره مثل زهرة برية شاردة تكتشف العالم، عيونها تدور في لهفة وخوف وتردد.. وملامحها لا تليق بهذا المكان الموحش.

همست بتهدج متردد وأفكارها تموج.. هاجس يدق في قلبها، وجع وتردد وخوف وبومة اختفت!

- هل تظن أنه كان مسخًا جيدًا؟ المشعوذ!

لوى شفتيه بسخرية:

- تربكِ الحكايات؟

هزت رأسها في حيرة وعيناها متعلقة بهيكل القنطور:

- أكان من المفترض ألا أهرب.. هل تظن أنني كان يجب أن أبقى معه؟

التمعت عيناه بقسوة غريبة.. قسوة صارمة صادقة تجد متنفسها في الدُّكنة.. أو كما يناسبه الوصف.. شيطان.

غنيمة المشعوذ كتلة براءة.

والآن هي في حوزته.

***

في أرض الراعي عليك الحذر

هو رجل لا يترك أعداءه

كان الرجال الذين اختارهم يتحركون بسرعة خارقة، كل منهم يلف نفسه بعباءة رمادية مموهة تشبه لون الليل والأشجار المُظلمة، فتجعلهم وكأنهم مخفيين. صعدوا الأشجار بمهارة ولمدة خمس ليالٍ كاملة راقبوا كل شيء. تسلل قوم بعيون جاحظة وأجساد ضخمة مطلية بصبغة سوداء. عيونهم لهب ومناجلهم قوية مخيفة تقطع الأشجار في وقت قياسي.

لقد رأى هذا من قبل.. المتمردون أنفسهم هاجموا أرض أبيه منذ سنوات. يُقال إنهم مجرد مرتزقة.. يُطلَق عليهم رجال الظل. مصدر قوة جانبية للبارود حين يريد إزعاج أعدائه. رضخ أبوه حينها لبعض مطالب "البارود" كي لا تهتز صورته أمام الإقليم واختفت الشرذمة بدعوى كاذبة أطاع الجميع تصديقها بأن الراعي انتصر! هكذا هو الحاكم يمرر الانتصارات المزيفة لمواليه فلا ينالون قوة حقيقية ولا تَجَبُّر! اشتعلت عيناه جوار أفكاره.. البارود يريد شيئًا.. يقدم تهديده وسيظهر في الوقت الذي يريده. مفاوضة بين حاكم وراعٍ.. تكرار عتيق على مر الأزمنة.

ولكن هو ليس راعيًا فقط.

هو قاتل الذئاب!

قال أحد رجاله بتردد:

- سيد "بارق"!

الليل هجم وحساب التوقيت بات دقيقًا، أجساد الظل

تقترب، تقطع سكون الرياح والصمت. ظهور أسود من اللامكان، ورجل واحد منتصب في مكانه.

قاتل الذئاب ورمحه في مواجهة شرذمة تدعي النضال. منتصف الغابة ومن راقبوا من علو الأشجار امتلكوا تفاصيل المعركة، العتمة تجاور الصراخ والرمح يخترق الأجساد بلا رحمة. سيوفهم لا شيء أمام قوته ومهارتهم أمام بأس قاتل الذئاب منقوصة. كان يتحرك بخفة وقوة في الوقت نفسه، يهرس عنق واحد اقترب أكثر مما يجب، ثم يميل ويقذف رمحه ليستقر في صدر آخر.. يسحب سيف الثالث ويذبحه به ويقفز من فوق الرابع ببأس ثم يسحب رمحه من جثة الثاني ليغرسها في جسده. قبضته العظيمة تحطم الوجوه، ورأسه الصلب يضرب الأنوف والجباه وستبقى قسماته الحادة آخر ما رأوه قبل موتهم. بعد قليل ستلتقط الكلاب رائحة عشرين جثة مسجاة ولن يدفنهم في أرضه.. سيتركهم لينالوا ما يستحقوه. رمت عيناه المشهد أمامه بقسوة وقد تناثرت بقايا دمائهم فوق ملابسه ووجهه قبل أن يرفع يده بإشارة واحدة لرجاله كي يتركوا للجبال وجبة سيتحاكى عنها الإقليم غدًا، وسيعلم البارود أن شوكة "بارق الراعي" غير قابلة للكسر.

***

ذهب قاتم مشتعل

احذر بارود!

حرب مسننة

حد نصول ستذبح الأعناق

احذر بارود!

على جدار ضخم ينتصب في ساحة المينوتور كُتِبَ بماء

الذهب منذ سنوات عدَّة

هنا مقر الفارس الأول والأقوى والأخير

احذر بارود!

***

نظرة "شاهق" لا تنحرف، ونظرته هو بدت تتلكأ، انتشر الخبر مثل النار في الهشيم وعمَّت الفوضى الرؤوس كرائحة كريهة. ابن الأرقب يعلنها بنفسه والكبرياء سحابة تحيطه هو ورجاله والبارود بحاشيته في الإقليم..

خان الجبار وغابت العروس

احذر بارود!

- أين عروسي يا "شاهق"؟!

- اسأل جبَّارك..

حدق إليه طويلًا، زرقة عينيه خالطت ضوء الشمس في مشهد مهيب.. صمت قاتم يدور في الهواء بينهما وهدوء موت بعد ساعات فوضى ثقيلة. ترصَّد البارود انفعالات غريمه بهدوء ثم قال ساخرًا وقد التوَت شفتاه بمنطقية غريبة عابثة:

- معكَ حق.. يا له من عالم قميء.. هل ماتت الثقة.. انتحر الضمير.. خلعت الطاعة ملابسها وعاشرها سبعة رجال.

ثم دار حوله وزفيره يختلط بكلمات مغلفة بالصدق والصدمة:

- ماذا يفعل المرء ليجد ولاءً حقيقيًّا.. هل توحش العالم لتلك الدرجة!

ملامح "شاهق" ظلت على حالها، مرسومة على حافة

سيف باتر.. في حين استدار له البارود بنظرة مدعية هازئة:

- هل تعلم يا "شاهق" أنا حقًّا أشعر بالحزن.. لقد طعنني جبار في ظهري

ثم التوت شفتاه بابتسامة كفيلة بإنشاء هزة أرضية تحت أقدام الجميع:

- سيدفع الثمن.. وكل من شاركه سيدفع الثمن.

وسط ثبات الأرقب الشبيه بتمثال ثلجي وليس فقط الآن بل من وقت الاختطاف.. ثباته أثار ريبة الحمقى وفسَّره أصحاب العقل.. لن يفقد الأرقب رباطة جأشه ولن يقع في فخ مطاردة شيطان جبَّار الأسود ليظهر بمظهر الخاسر. سيأخذ خطواته المنتصرة على مهل. وسط كل هذا الثبات الصارم، فرقع "البارود" أصابعه فظهر فيلقه الأول..

حراس الذهب كما يسميهم أحيانًا بسيوفهم المنقوشة بعلامة المينوتور وخوذاتهم الذهبية. أمامهم الصفوة.. حرس جبار الخاص ومخلصوه.. القادرون على هزيمة جيش من مائتي مقاتل. ابتسم "البارود" بنظرة مليئة بالسم:

- الخونة!

ثم تابع بهسيس ساخر:

- هل تعلم أنهم يرفضون مطاردته.. خلعوا دروعهم وأسلحتهم وأقروا بالولاء للخائن الهارب في كرامة عسكرية مزعجة.. القائد يسبق الحاكم، إنها لعنة الجيوش المثيرة للشفقة.

اعتصر "شاهق" كلماته بقوة قاسية:

- بعض القادة حكَّام بالفطرة!

ضحك "البارود" بخبث وكأنما يقرض حروفه:

- لا تثير غضبي الآن يا "شاهق".. أنا أسيطر عليه كي لا أحرق يودوس بمن فيها.

في زرقة عينيه ارتسم اشتعال. دروب قادمة أصعب حتمًا على أعدائه.. اختاروا الطريق الصعب.. مرحى!

لقد كان يشعر بالملل فعلًا.. السياسة خانقة، محجوزة بين الجدران وخرائط الطاولات وأحلام التجار. الحاكم المجنون سعيد!

أشار لحراسه بطرف ذقنه ثم ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة وحشية:

- حتى نجد العروس هناك موكب آخر.. أنت مدعو يا "شاهق" لمشاهدته وكل من يريد من الإقليم.

وضاقت عيناه بانفعال كالخراب.. أعماق موت عتيق ورائحة جثث ملهمة:

- راقب من كثب.. إنه شيء يحدث مرة واحدة في الحياة!

***

إنه شيء يحدث مرة واحدة في الحياة!

تماثيل المينوتور الحية أمام العامة

خلف أرض العرش

أعلى خريطة يودوس

يكمن الشر في جوف ساحة

نصف دائرة من مائة تمثال كل منهم بحجم رجل عملاق. صخور شيطانية دبت الحياة فيها بفعل سحر أسود.

منتصف دائرتهم كرسي العرش الخاص بالبارود، مقعد حجري بظهر ضخم يبلغ طوله خمسة أمتار يساوي من بعيد ثلاثة تماثيل مينوتور أخرى يبلغ طول كل منهم خمسة وعشرين مترًا، ومن يعلم كيف سيكون شكل الحياة في هؤلاء.

خمسة أيام بعد فوضى الموكب كما أطلق الشعراء شامتين على الحدث. جزء لا بأس به من أهل الإقليم سافرٍ ليشاهد العرض القاتم وعلى رأسهم "شاهق".. هو تحديدًا مدعو للمشاهدة وهو يريد.. بل أحضر معه آكلة العناكب! كانت تقف جواره بنظرة سوداء ساخرة متأملة الوادي غير المباح للجميع، المينوتور هم ملوك الحكايات والتاريخ، والقليل من أهل يودوس من رأى حركتهم ونجا!

***

بارود يصنع قوانينه..

يجلس على هيئة سطوة جائرة والتماثيل حوله وقد بدا في أعينهم شرر أحمر بثَّ الرعب في النفوس.. جاريات يركضن على حواف الدائرة وكل واحدة منهنَّ تمسك شعلة. فالعرض ليلي أراده وحش يعجبه الظلام. مشاعل أخرى حول الجميع يمسكها الحرس الرابع، والأول يتوسط مقدمة الساحة مثل كماشة في وسطها فيلق جبار كله.

سبعون رجلًا!

حدث سُمِّيَ.. وبارود يكتب طغيانه بالدماء.. **إعدام فيلق كامل**

أشداق ضخمة في وجه تماثيل مسحورة، طبول تُقرَع ورجال أشداء كان سكان يودوس رغم كل شيء يرونهم أبطالًا. الفيلق الثالث هو الأشد بؤسًا والأقرب للشعب.

طاولات حجرية مستديرة متوسطة الحجم أمام كل رجل كي تستقبل نحر عنقه، مالت نظرة الرجال ببأس وقد استعاروا ثباتهم من دروس قائد غائب.

"المجد لجبَّار".

نطقوها بصوت رجل واحد.. بعزيمة طافت أرجاء الوادي كله.

رمقهم البارود بغضب مكتوم، طافت كلماتهم الوادي والآن ستطوف الأعناق.

إشارة أولى تقدمت التماثيل.

مشهد مرعب مهيب جعل الحناجر تتصلب..

إشارة ثانية وارتفعت الأذرع الحجرية مثل جحيم..

صمت تام في انتظار موت.. أرواح بعد قليل ستسبح في الهواء.. أرواح سبعين مقاتلًا.

إشارة ثالثة وتنفيذ.. فؤوس تتهاوي، كل فأس منهم يضرب العنق بقوة جامحة جعلت الرؤوس كلها تطير لمنتصف الساحة في لحظة واحدة.

حتى الصراخ تجمد في الحناجر من هول الموقف. حمام دماء لن يُمحى من ذاكرة مشاهديه، التماثيل الوحشية تعود إلى مواقعها.. تقف حول زعيمها.. تتصنم من جديد وآثار الدماء باقية على وجوههم.

بارود يصنع تاريخه..

نظرة عجفاء قاتمة في عينيه.. وصخرة سوداء محل القلب..

هو رجل بقلب مينوتور!

لهيب المشاعل جارى النظرة المتبادلة بينه وبين "شاهق" من بعيد.. وقد تناثر صدى صوته في المسامع كلها:

- هذا مصير من يخون والمجد...

وترك عبارته غير مُكتملة ليهتف بعدها الجميع بحماس مرتعب:

- المجد للبارود.. المجد البارود.

انتهى.. رسم الشيطان قوته من جديد لأن البشر بطبيعتها تنسى!

تماثيل المينوتور الحيَّة.. جيش اللاهزيمة.

والذي يريده "شاهق" من "سيراب" فك تعويذته المحرمة!

***

في حضرة البارود أنت رجل الحظ الأول..

ناجٍ أو مقتول حسب المزاجية.

كانت أنفاسه تتبختر، تخرج متشبعة بنبيذ قوي قادر على سحب ثبات ألف حصان. نظرته ناعمة وغائمة تتمازج بقوة مع نبيذه في حالة ساخرة، بات خليطًا أزرقًا قرمزيًا! فرك جبهته وقد أصابه وجع رأس سخيف ثم ضحك ساخرًا، ضحك بقوة لدرجة أنها لمحت خطوط عينيه:

- هل تفهم سر هذا الولاء يا "شيخون"؟

كان يحادث القبيح الذي ابتاعها، منذ وصلا وكلاهما محتجز في قبو نخم.. أرض العرش كلها كانت منشغلة بزفاف "البارود" فتأجل الانتباه للطباخة.

التمعت عينا "البارود" وقد ملأ كأسه مجددًا، ثم سحب "شيخون" الضخم من عنقه بسلاسة تامة وبدأ يسكب النبيذ في فمه وهو يقول بقسوة كالشرر:

- أخبرني.. ما سر هذا الولاء؟

كان "شيخون" يجاهد كي يأخذ أنفاسه، كي يتخلص

حتى من القيد الذي جمَّد به عظمة عنقه الخلفية، بدا مثل حيوان ضخم يركل ويرفس قبل السقوط في القبر. انتهت كأس النبيذ فتركه البارود متململًا وقد لاحق الآخر أنفاسه كي ينطق:

- إنه مثل ولائي لكَ يا سيدي.

نظرة ذابلة ساخرة تسربت منه وخلفها ضحكة:

- أنت خبيث يا "شيخون".

- أنا ولائي الأعظم لك.

كان يلهث برعب، يشعر أن حظه سقط في بحر "غاند" والتهمته الأفعى. يكذب كي ينجو ويعاهد نفسه ألا يعود مجددًا إلى أرض العرش. طافت حروفه في فمه ببعثرة مثيرة للشفقة:

- لقد أحضرتُ تلك.. إنها امرأة ببنية قوية تصلح طباخة في القصر.

هنا ارتجف جسدها هي، لحظة لم تتصورها أبدًا، قصر "بارود"، ومواجهة حقيقية معه.. الحاكم يبدو دومًا مخيفًا من بعيد، فماذا عن القُرب.. حاكم غريب، ظالم بشهادة البشر والأحجار والأشجار، شاب يبدو حزينًا مسكينًا لفقدان عروسه، وقتل لتوه سبعين رجلًا من خيرة الرجال في مذبحة انتقامية!

ابتسم لها ابتسامة تشبه الجحيم نفسه ولكن في زجاجة من العسل، ثم حادثَ "شيخون" وعيناه مسلطة عليها:

- أحضرت لي أنثى من قبائل السرداب!

لهث "شيخون" كي ينقذ نفسه من هذا الغضب الذي فجره جبار واختفى..

- إنهنَّ جميلات يا سيدي، ويتحملن العمل.

زفرته بدت كبعث وحش، ونبرته الهادئة تناقضها:

- معك حق.

ثم ابتسم، رأت في عينيه اندماجًا في البريق لم تدركه في حينها.. أدركته بعدها وقبضته قد أمسكت بتلابيب الضخم قبل أن يمط شفتيه بهدوء ساخر ويقترب منه، يتنفسه وهو يحادثه:

- لم تخبرني أين أجد ولاءً مثل ولاء الصفوة لجبَّار؟

هبط قلب الرجل المسكين في قدميه، لهث مرارًا وتقطعت حروفه:

- أنا.. خادمك المطيع يا سيدي.

- لن تخونني أبدًا.

- أبدًا أبدًا.

- لن أجازف تلك المرة.. سأقتلك على سبيل الاحتياط.

ابتسم بعدها ابتسامة ساخرة واسعة تمامًا، ودون مقدمات ألقى به من النافذة العالية وصرخته التي تبتعد آخر ما التقطته أذناها منه.

مشهد بارودي بامتياز..

تجمدت ظانَّة أن دورها قادم، وظلت عيناها متجمدة عليه، تجمد ثلجي تام أعجبه، تقدم نحوها ثم اقترب جدًّا، قُرب أباح لها نيل عبق النبيذ في دمائه. همس أمام شفتيها وبريق عينيه يتوقد:

- ثباتكِ لا بأس به.

لملمت خوفها سريعًا، أخفضت رأسها في طاعة وردَّت بنبرة بطيئة مستسلمة:

- هل قبلت بي يا سيدي؟

مط شفتيه وكأنه يفكر ثم قال بمكر هادئ يناسبه:

- هل تعلمين، الغوغاء دومًا ما ينتهزون فرصتهم في أوقات الفوضى.

كتمت انفعالها بصعوبة، قبائل السرداب مغضوب عليهم من الجميع وللبارود ليسوا أكثر من شرذمة غوغاء مطلوبة يُلهي بها أحيانًا معارضيه، يتركهم ليتحطموا على صخور بعضهم بعضًا. بدت نظرتها منيعة.. حصن تحبس فيه ماضيها وأفكارها وأحلامها المشروعة بقتله.. كل يودوس تود قتله.. ابتسم هازئًا وهو يحادث أفكاره ثم قاسمها متنفس الهواء بينه وبينها قبل أن يهمس بنشوة آمرة:

- أريد امرأة الآن.. اختاري لي واحدة من الجواري على ذوقكِ.

وتركها تقع في الفخ.. تمارس أول اختيار دون أن تعلم أنها ساقت امرأة نحو الموت.

ستكتشف متأخرًا حين تطهي قلبها!

***

"جمر".. "ثلج"

جنية نقيض جنية

وقصر المشعوذ وطن النبذ

كانت المياه تضرب قاع القصر من الخلف.. "غاند" مستغرقة في النوم، والقناطير التزمت الصمت تفكر في الهروب من عقاب المشعوذ. صمت قاتم وجمر تتهادى، ترمق الباب بتحفز:

- لماذا كفَّت القبيحة عن الحديث؟

جسد الفتاة أمامها بصورته المعهودة، منكمشة في ثوب وشفتاها مخيطتان بخيط لا مرئي من الثلج القاسي!

ردَّت "ثلج" بوحشة باردة:

- اتركيها.. أتهتمين بشأنها الآن؟

التمعت عيني "جمر" بشراسة:

- هي محفوظة من أجله..

أظلم الثلج في عيني الأخرى:

- أعلم.. وها هي في انتظاره.

كانت الخادمة المسحورة المسكينة محتجزة بأمر "ثلج".. خدعة لن تدوم ولكنها كافية حتى تتخطى الأخرى الغابة. أنفاسها قد تتجمد في هنيهة لو حتى فكرت في النجاة بإشارة.

وأي نجاة؟ هل توجد نجاة للبشر في أرض مسخ! كثافة الظلام تزيد، ثلاثة ظلال محبوسة في معاقلها تنتظر سبباً، نهم "جمر" نحو مجهول غريب يزيد وجرعة خمر فحمة بخبث مررتها لطعام "ثلج" ضمنت غيابها. وبحركة واحدة وشعلة خفيفة فككت الخيوط من على فم الخادمة.

سقط السحر الرخيص وظهر وجه أقبح.

- الخائنة!

همست بها باستعار ثم طارت خطواتها نحو السلم الحلزوني القاتم نحو صومعته المحرمة.

- سيدي!

تصرخ.. تتوسل.. تنادي.. والجدران حولها رمادية صارمة صلدة، غرفة دائرية بجدار ملتف مدخله مجهول وخلفه متاهة.

- سيدي!

لا يسمعها، متاهة كثيفة عن إدراك البشر والجنيات، لا يستطيع أحد ولوجها إلا بإذنه..

بكت يائسة، استعرت عيناها بانفجار، عاهدت قوتها أن تمزق "ثلج" بعدما يُرمَّم هذا الخطأ.

بل ستخدم مشعوذها بطريقتها كي تُصلح هذا الخطأ.

أطلقت الوحش!

***

ضوء القمر لن يأتي كاملًا، وهذا جيد.. لأن اكتماله دومًا ملعون!

سهم فخ من ابنتها الوسطى كسر قدرتها على الطيران، ساق باتت عطبة لا تتعافى وصغيرتها وحيدة في قلعة المسخ.

نظرت من النافذة، وتحولت عيناها نحو النهر القريب حيث تجلس "نهاية" وحيدة، تحادث الأسماك والأشجار في ثرثرة بسيطة خائبة وتشتاق إلى "بداية".. تشتاق إلى "قلب" التي أخذها المجهول.

كانت الشمس تناور كي تغيب، وغراب أعرج يتجول في إشارة.. "الشمس لن تطلع عليها غدًا".

ضوء قمر خافت، انطمس بفعل حاسة وحش آخر! انتهى الوقت.. هي نالت أكثر مما يجب، أغمضت عينيها وتوغلت في ذكرياتها، ارتدت ثوبًا أبيض، قبَّلت "نهاية" النائمة على وجنتها ثم قرصتها قرصة خفيفة واختفت! استيقظت بعدها المسكينة لا تستوعب سوى حرارة تنبعث من تحت بابها وصراخ بضعة نساء ودخان أسود.. الكثير منه!

كان الصراخ يتعالى من أمام البيت..

"منزل "فيصل" يحترق".

"أخرجوا الفتاة المسكينة".

"المختلة "ضوء القمر" تحرق ابنتها".

عنقها تشنج، لا تستطيع حتى النظر إلى يمين أو يسار، أنفاسها تهرب، تنادي أمها ولا جواب.. تغمض عينيها كي تعود إلى الواقع، حتمًا تلك أضغاث أحلام.. وتشعر بالباب يسقط في حين يطل "شاهق" والنيران خلفه، يسحبها فجأة.. يأخذها دون أن ينبس ببنت شفة ويحملها بين ذراعيه وهي تظن الآن أن الكابوس جميل!

ركض الجميع نحو المنزل المحترق، يقسم أحدهم أنه رأى "ضوء القمر" ترقص فوق سطحه وبيدها مشعل محترق.. وآخر يلتزم الصمت ولا يصدقه.

ركض الجميع، واقتحم "شاهقٍ" ورجاله المنزل على الفور، لم يفكر؛ كانت خطواته ركضًا قاتمًا نحو غرفة "نهاية"، مرتجفة.. تائهة.. تلف ذراعيها النحيلتين حول عنقه وتدفن أنفاسها في صدره وهي بنصف وعي. تبتكر كلمات جديدة في العشق وبحماقة تامة.

"هذا الكابوس رائع جدًّا".

وضعها على الأرض وقد أحضر رجاله غطاءً صوفيًّا ضخمًا فدثرها به وتركها لـ "زليخة" وملامحه حسم مخيف، عاد إلى الداخل وخطواته تكاد تهدم الأرض تحته.. إلى الأخرى.. "ضوء القمر" .. عاد ورجاله خلفه وما رأوه أقسموا أمامه ألا يعلم به أحد. مشهد سيظل في مخيلته وإشارة بأن العدو لا ينتظر كما توقع.. بل بدأ فعلًا خطواته.

ذُبِحَتْ "ضوء القمر".. وماتت البومة إلى الأبد!

***

الفصل السادس
وادي العميان (7)

في مغاور الجبال يناموا.. وعلى أطراف الوادي لناظرهم موت!

هو رجلٌ معدوم الكلمات.. تسليته على ما يبدو الصمت والقتل، خندق تحت قلنسوة وكهف في عينين بلون القار. كان الطريق طويلًا، معاندتها ظلت صامدة حتى صرخت من ألم باطن قدميها وقد بدا الوجع بحجم جبل يفوق شجاعتها العنيدة. لم ينطق.. ترجَّل عن حصانه دون أن ينبس ببنت شفة ثم فك الحبل وحملها على ظهره وكأنها كيس خيش قبل أن يلقيها على الحصان ولكن تلك المرة خلفه.

ناوشته كهرة صغيرة رغم تعبها:

- ألا تخاف أن أهرب..

مر صمت طويل ظنت بعدها أنه لن يجيب أبدًا، في حين كانت سرعة حصانه ثابتة متهادية، ثم قال بنبرة فولاذية مثل سيفه:

- أنا لا أخاف.

رفعت حاجبيها في يأس وتأملت العراء حولها لتدرك بعدها حماقة ما تفوه به.. أين ستذهب؟

هي في مجهول جبَّار!

مسار ملغم بالمخاطر لا ينتهجه بشر، رحلة جبار الموازية لأرض الموت ولكن تلك المرة من طريق لا يعرفه غيره. لقد مررت لها العجوز بعض الحكايات قبل رحيلهم،

خمسة مسارات

خمس حكايات

الأولى.. وادي العميان. فردوس العمى.. أرض لا يخطوها مبصر.. ذرية ملعونة بفقدان البصر. وهناك نبوءة مزعومة أن قاتلهم مبصر، ولهذا خلقوا قانون خزق الأعين لكل من يتجرأ على عزلتهم.

من بعيد وعلى مدد بصر طلَّ الوادي، مسار محدد والحراس مغروسون على اليمين واليسار. آذانهم صاغية لهفوة.. عبور في عرف بشر عاقل مستحيل! بدأت الملامح تتضح مع اقترابهم، تطلعت نحو الوجوه في صدمة، وجوهٍ صارمة كئيبة تشبه تماثيل منحوتة.. عيونهم سوداء تماما مثل لون الفحم وليست بيضاء كما تعرف عن العميان. بيضاوية برموش طويلة مثل ظلال ضخمة وبعضهم كما نصت الحكايات.. مكان عينيه فجوة!

همست في رعب وقد أصابها مظهرهم باضطراب لم تعمل حسابه:

- ما هذا؟

ارتجف جفنه الأيسر ثم قال بهمسٍ قاتم ثابت:

- نحن على وشك المرور بوادي العميان.. فالتزمي الصمت.

جزت على أسنانها بغضب:

- هذا ليس وقت الأحجية.. كيف سنمر من هؤلاء؟!

التحمت نظرته بقياس المسافة قبل أن يصبح الصوت خطورة عليهم ثم همس بتحذير دون أن يبدل سرعة حصانه:

- هل أخبرك أحدهم أنني أنوي مشاركة خططي معكِ.. اغلقي فمك فورًا.

وهز حصانه بحركة محسوبة وبدأت الخطوات قدرهم المكتوب، حزم تام.. صمت مرعب.. وجوه التماثيل لا تتحرك.. لم يشعروا بهم بعد.. تعويذة قوم المطرقة ستحمي مروره بشرط واحد.. ألا يُصدر صوتًا.. ألا يرفع ذراعه.. ألا يهمس حتى.. تعويذة نفَّذ شروطها هو وحصانه.. وبقيت هي.. المتمردة وراء ظهره.

تراقب في صمت.. عقلها يطرح الأفكار والخوف، الوادي ضيق جدًّا وعلى جانبيه صخور المغاور.. نظرة طائشة منها للتفاصيل لمحت وجه أعمى منهم يتجول..

لا ليس أعمى بل أعور، عينه الأخرى ليست معطوبة.. ليست مخزوقة.. الهمس ممنوع.. لكزته فزجرها بصمت.

والأعور ينظر إليها عينًا بعين.

وحتمًا سينبههم.

ولأنها "قلب النبال" العنيد تصرفت على الفور.. مرت يدها للسهم وجعبته وقرارها اتخذته في لحظة. وكانت متأخرة.. متهورة.. صغيرة الحجم في عالم خطورته تفوق مطاردة حمامة وبومة.. في اللحظة نفسها انتبهت الآذان على الفور لحركة سهمها الطائش ونظموا هجومهم على مصدر الصوت مثل كماشة قتال.. متراصين جوار بعضهم بعضًا ودروعهم الحديدية تغطي أجسادهم، ورماحهم منتصبة نحو ثلاثتهم.. لم يفكر، كان تهورها خطأ بما فيه الكفاية.

زعقة عميقة جوار صهيل شيطانه قبل أن يرفع جسدها بذراع واحدة ويقذف بها بعيدًا على طرف الوادي مواجهًا هجومهم المرتب بجسارة.

خمسون أعمى مثل أدوات قتل أمام رجل واحد.

حصانه يصهل في وضع هجومي والكماشة تقترب وقد

اتخذت وضع دائرة كاملة محصنة بدروع صلبة، رماح أطرافها رمضاء حارقة، وأوان قتل المبصر جنون للجميع.. رمح أصاب الحصان، آخر كاد يصل إليه.. زعقة وقفزة منه وسيفه يخترق الدروع، يكسر الحلقة كي يبدأ قتال.

معركة غريبة كئيبة، تنتزع الحياة بسهولة من أقوى الرجال، قتال جبار! محموم بالقوة الغاشمة، رماحهم طالته ولكنه لا ينهزم.. سيف تلو آخر.. وطعنة تلو طعنة.. أصابهم الجنون، تكاثروا غير عابئين بشيء.. أصابهم الهياج.. والأعور الذي ظنته أعورَ لم يكن سوى أعمي يتباكى.. يرسم فوق وجهه اعتراضًا خائبًا. كانت متجمدة.. منحورة باحتمالية هزيمة.. غاضبة وخائفة وفي خصام مع نفسها ومع الموقف ومع العجوز ومعه ومع العالم كله.. تحك عينيها كي تستوعب المعركة وظلال الأتربة تحيط به وبهم.. طعم اليابسة في فمها والحصان ابتعد عن المأساة.

رجل واحد.

خمسون أعمى هائجًا.

رجل واحد حي..

خمسون أعمى ميت.

فاز الجبار..

وبعينيه طعم القسوة والدماء والرمضاء، بقتل لم يكن ينتويه وبأس مبكر على معارك ما زالت في أولها.

خطا وسط الجثث مثل عادته القديمة، رفع قلنسوته، جذب زجاجة من حمض حارق كان يحملها فسكبها فوق جرحه متحملًا ألمه بجسارة، ثم شذرها بنظرة قاتمة قبل أن يشير لها بسبابته أن تتحرك.

تذمرت بعناد.. رائحة الموت أرجفتها..

- لم أكن أقصد..

ابتلع عمق صوته مساحة السكون بينه وبينها:

- لو فعلتِها مجددًا سأقتلكِ.

وسبقها نحو حصانه.. أمره تلك المرة كان إشارة حاسمة.. ورضخت.

مع رائحة الموت الجميع يصمت. ولا تعرف "قلب النبال" أنها ستعتاده.

***

هي تذرع الغابة بخطوات صغيرة وهو بخطوات قنطور!

كانت تتأنى، تُمسك بالأزهار والأغصان والعصافير وتلامس كلِ شيء مثل طفلة تمارس تهور الاكتشاف. تحمل عصفورًا فوق كفها ثم تضحك بسعادة حقيقية من فرط حركة جناحيه وهو يرفرف مبتهجًا بها. اتخذوا طريق المنحدر في الصباح، فوق الجسر تحركت العربة ببطء وحينِ ربط جسدها بجسده بالحزام المعهود طلب منها أن تُغمِضَ عينيها، وضع عليها عصابة وقال حينها بنبرة حازمة:

- لا تفتحيها أبدًا.. لا تنظري إلى الأسفل.

فعلت ما أراد دون اعتراض، لم تتفوه بكلمة، فقط وثقت به ببساطة تامة ووضعت العصابة. حينها وفي وقت ذلك المرور المقتضب نظر نحوها يتأملها، إنها مغلفة بالبراءة.. الحذر لا يوجد في قاموسها أبدًا، تشبه الطيور المنزلية التي نشأت في قفص. ولا تدرك ما يحويه الغاب من هلاك!

كانت تلك البقعة من الغابة هادئة، طريق ممهد

سيستغرق منهما ثلاثة أيام على الأرجح، ومنازل مهجورة ستضمن لهما مبيتًا آمنًا. زهور بألوان عدة تتناثر والشجر رغم كثافته لا يبعث الكآبة بل العكس تمامًا، كان يبدو جميلًا. السناجب تركض وخلفها أرنب ومن بعيد غزلان تتهادى وتأكل من الأعشاب الممتدة على مسافات بعيدة. عقدت حاجبيها وقد تمتمت وهي تتفكر ببراءة:

- إنها.. إنها ليست مخيفة كما يدَّعون.

قال بسيطرة هادئة على مخارج حروفه، وعيناه تعبر مسافات بعيدة وهو يُقدِّر ما ينتظرهم.

- الغابة أحيانًا تكون انعكاسكِ، هي الظلام داخلكِ.. والضوء والشر والخير والحزن والفرح.. هي كل ما ارتكبته نفسك البشرية يومًا.

ثم صمت ساخرًا لوهلة وبعدها تابع:

- ولهذا يخافها الرجال.

سألته بحيرة:

- لماذا؟

ردَّ ببطء واثق اختبر الكثير، مر بظلمات الغابة حد التشبع:

- لأنها ظلامهم.

سؤالها الثاني كان قريبًا من إدراك المعنى، عيناها متعلقة به وشعور مختلط من الفضول والترقب والانجذاب الذي لم تدركه كليًّا بعد..

- وأنت لا تخافها؟

التمعت عيناه بنظرة داكنة مثل قاع بحر:

- أنا رجلٌ تصالحتُ مع ظلامي.

نظرت نحو عينيه طويلًا وكأنها تراقبها، تفهمها.. فعلت ذلك بعفوية تامة والغريب أنها أربكته!

الغضب ارتبك. مالت حدقتاه نحوها بقسوة جامدة وقال بصوت خشن بدا معترضًا على هذا التأمل البريء:

- ماذا؟!

نظرتها بدت شفافة مثل المرايا، رائعة بشكل لا يوصف:

- كيف فعلتها؟

- فعلت ماذا؟

تابعت بحروف خافتة مشبعة بالفضول:

- كيف تصالحت مع ظلامكَ؟

التوَت شفتاه بسخرية جامدة:

- إنها حكاية طويلة يا جميلة.

اشتعلت وجنتيها رغمًا عنها مع كلمته تلك المرة، خاصة بعد تلك النظرات التي أمطرها بها منذ قليل.. توترت.. ارتبكت.. ضحكت منها الزهور والعصافير، جزت فوق أسنانها باعتراض:

- توقف عن قول هذا.

اكتست نظرته بتعبير غريب لم تفهمه ثم تابع وهو يشاكسها:

- قول ماذا؟

ردَّت باترة على الفور ونجل وجهها يقود كل تعبيراتها:

- يا جميلة.

ضاقت عيناه مشاكسًا أكثر:

- بماذا أناديك إذن.. فتاتي المطيعة؟!

انفجرت بتمرد أحمق على الفور جعل العصافير تطير من حولها:

- أنا لست فتاتكَ ولست مطيعة.

نعم هي ليست فتاته، ليست فتاة أحد.. لم تعد حبيسة المشعوذ، هي حرة مثل عصافير الغابة، مثل الأرنب والسنجاب والغزال وتمتلك اتخاذ كل قرار يخصها حتى لو كان قرارًا خاطئًا. هي حرَّة.. حرَّة، بالأحرف واللغة وجلبة النظرات التي تمررها.

- أحضري دلو المياه نحتاج إلى إعداد بعض الطعام.

قالها باترًا فجأة.. أسقط الحرية في القفص بسلاسة وهي مسكينة تحضر له المفتاح كي يغلقه.

- أملأ الدلو من البئر؟!

- فتاتي المطيعة!

كررها بابتسامة مشاكسة أربكتها، ومجددًا أغضبتها، وأزعجتها وأسعدتها ونالت منها في غمضة عين.

إنها هذه البئر الغريبة المسماة بقلب المرأة.

أغمضت عينيها في ارتباك وتكاد تكون هربت من أمامه دون أن تنتبه لنظرته التي كانت خليطًا من المكر والقسوة. كان الوقت قد تخطى الظهيرة، الغابة تتنفس الضوء.. أما الأشجار فظلالها تكوِّن جبهة حماية لها من الشمس. بقايا منزل كان خياره، يبدو من بعيد غريبًا مثل مسكن أشباح، ولكن من الداخل رغم الأتربة والتدرج الرمادي القاتم الذي بهت على الأثاث كله بدا ملاذًا ممكنًا. كان يسكن منذ زمن سحيق الناس هنا ورحلوا عندما لُعِنَتْ الغابة.. لعنها المشعوذ؟ وجدها هكذا؟ لا يعلم أحد بداية القصة. القصص محبوسة في جوف ما ولا تتحرر.

شردت وان انتهى شرودها مع كتلة ملابسه التي رماها أمامها قبل أن يقول بقسوة خشنة:

- لديكِ بعض العمل.

نظرت نحوه لا تفهم وقد غابت الابتسامة البلهاء الناعمة التي كانت تنير وجهها منذ قليل، قال ببطء جامد وهو يشير إلى ملابسه المتسخة:

- اغسلي تلك الملابس.

ثم خلع قميصه العلوي فجأة مما أهدى وجنتيها احمرار الخجل وتابع:

- وهذا أيضًا.

تهربت عيناها منه وهو يقتنصها بنظرته دون أن يرحل.. ردَّت أخيرًا كي يذهب ويرحمها من هذا الاقتناص:

- حسنًا سأفعل.

صمت لوهلة ثم أردف بمشاكسة:

- اغسلي ملابسكِ أيضًا.

ردَّت ببراءة وهي تفكر في هذا القميص الذي ترتديه ثوبًا واتسخ فعلًا ولا تمتلك غيره..

- ولكن لا توجد ملابس أخرى.

مالت شفتاه بسخرية ماكرة:

- اختبئي حتى تجف.

وتركها وقد خالط التوتر جميع نقاط دمها، تنظر بحيرة وتفكر وبانفعال لطيف محبب على ملامحها تفكر لو أمكنها الاختباء فعلًا. هز رأسه يائسًا ثم قال بغرور وهو يتوجه إلى الدور العلوي:

- هناك ملابس في غرف النوم قد تناسبك.. المنزل ليس قديمًا كما تظنين، سكنته فتاة من قبل وأحد حراس البارود هربًا من قوانينه.

- وماذا حدث لهما؟

- قتلا بعضهم بعضًا.

***

ماتت "ضوء"!

ماتت فجأة.. ماتت سريعًا مثل حكاية بائسة على لسان شاعر أراد أن يزعج مستمعيه بالحزن، ماتت "ضوء" وبكاؤها مبتور.. كلما تساقطت دمعاتها مسحتها بحركة خاطفة وكأنها تحبسها وتختار الصمت. أسوء أنواع الحزن هو الصمت الخانق و"ضوء القمر" تستحقه.

ماتت "ضوء".. "ضوء" التي هددتها بالقتل وقالوا حاولت حرق "نهاية"!

عبث يشبه خيال الشعراء، "بداية" تكابح "نهاية".. و"القلب" مفقود!

كانت تقف في منتصف بهو القصر مثل ذبيحة، خصلات شعرها مبللة من أثر تناثر المياه اليائس من البعض لإطفاء الحريق، رجاله كانوا في المقدمة وهو معهم وفقدها في خضم الفوضى. ثار جنونه حين بحث عنها ولم يجدها وبعث برجاله يفتشون بين الرماد حتى عاد إلى القصر ووجدها. مرتجفة، منحورة بالحزن، تقف في منتصف بهو قصره.. شعورها يسبق كلماتها وهي تردد ببأس تعيس:

- هأنا هنا في المنزل.

عقد حاجبيه غير منتبه لمقصدها، في حين تابعت هي

بانكئام تام، بؤس يتسرب رغمًا عنها ويستحوذ عليها..

- هربتْ أختكِ ماتت أمكِ مكانكِ هنا وبموعدكِ.

تجمدت ملامحه لوهلة، رعشة موتة ذئب قتله في ليلة ما تمكنت منه، غاص قلبه بثقل بين ضلوعه وفتح دروبًا عميقة هو أغلقها منذ زمن. وحين تأملها التقط نظرة ضائعة جوار نبرة تُكمل بلا وعي:

- ماتت ضوء قمر منزل "فيصل".

وبتمزق تام تابعت.. بحرقة واستيعاب تعيس:

- مات منزل "فيصل".

كانت منحوتة مرتجفة، كانت منحوتته المرتجفة.. خطوة أولى وثانية وخامسة بات أمامها صلبًا مثل جبل، جذبها بذراع واحدة.. دفنها بين ضلوعه دون أن ينطق، ذراع تحيط بجسدها والأخرى متهدلة جواره، وذقنه ترتكز على رأسها. شهقت بعنف، خدعها البكاء وانتصر وتحاول كبحه بلا جدوى. وجهها يرتجف وسط صلابة صدره، وكلما فكرت في الابتعاد أعادتها قبضته بحزم. بعد وقت استكانت، أخرجت مكنون صدرها كله حتى شعرت بالإنهاك. شعرت بدوار خفيف كاد يُسقطها.. وقبل أن تدرك أو حتى تحاول أن تستجمع شتاتها كان هو قد رفعها بين ذراعيه بحركة واحدة. انفرطت حروفها في همس ضائع:

- أنا... أستطيع...

لم يعقب، قست أنامله القريبة من فخذيها وهو يحملها في إشارة إلى الصمت، ثم صعد بها إلى الغرفة، وضعها على الفراش ببطء وحنان تام.. حنان راعٍ نحو رعيته. وإن اكتست نظرته بقتامة لها لون خالص السواد. صمت جامد

فوق شفتيه وحجر ثقيل فوق صدره. مرر سبابته فوق شفتيها الورديتين المرتعشتين من البكاء ثم قال بنبرة صلبة:

- تنفسي ببطء.

نفذت أمره بلا تفكُّر، كانت أنفاسها المكتومة تزعجها وشيطان الحزن جاثم فوق صدرها لا يرحم، بدأت في إخراج أنفاسها بتأنٍ ومحاولة مواكبة الحياة بتعب، وجسدها ما زال يرتعش كله. انحنت نظرته نحوها بانتباه داكن ثم قال بصوته الخشن الذي قد يبدو مناقضًا لحنان أفعاله:

- تشعرين بالبرد؟

أومأت في عجز، ودموعها تعود إلى التساقط من جديد، كانت متدثرة منكمشة تحت الغطاء الكثيف الذي وضعه عليها ولكنَّ كل ذرة في جسدها تشعر بقبلات من ثلج، أغمضت عينيها منتظرة أمره المتوقع للخادمة بإحضار دثار آخر بعدما تحرك حول الفراش، إلا أنه لم يفعل.. بل شعرت به يندس في الفراش خلفها ويشاركها الدثار، يلصق جسده القوي الدافئ ببرودتها الهشة ويأخذها في عناق أخطبوطي جعل البرودة تنسحب.. صمتت مستسلمة، عبرات ملتحفة بالكتمان هي التي تتساقط حتى نالت رحمة النوم.. شعر بثبات أنفاسها، الدفء الذي احتلها أخيرًا وتشنجها الذي هدأ فوق صدره.

غفل دفء الشمس عنها تلك الليلة وكان هو جدراها الصلب. شعر.. شعر أنها منه! قطعة حلوة منه.. التحم غضبه بتاريخه واستقام فجأة.

وفي دور علوي بعيد.. ظلام مسموح له اختراقه وحده غاب.

راعٍ وذئبة! رحيق ملطَّخ بالدماء، زوجته ولعنته.

الجثة الحيَّة.

***

- ماتت "ضوء".. ابكي يا "نهاية".

بحسم قالتها "زليخة"، جذبتها في عناق خانق اشتمَّت فيه رائحة الموت والدخان.

عانقتها حتى كادت تكسر عظامها الضعيفة ثم صرخت بها..

- ابكي يا "نهاية".

ولم تفعل.. بكت فقط حين رأته.. نظرت إلى عينيه وانتصر بريق دموع.. هزت رأسها في رفض وقالت فجأة بنبرة صدمته هو.. جمدته وزرعت الجحيم في قلب مشتعل فعلًا:

- لا، لم تمت.. "شاهق" سينقذها.

ثم فقدت الوعي!

***

بعد ساعات هدأ الجميع

نظر الإقليم إلى بيت من رماد جوار النهر وقالوا سيبقى للتاريخ.. سيغني الشعراء حكاية "ضوء القمر" الغريبة وبناتها.

نظر إلى جسدها المرتاح في الفراش الصغير بمنزل "زليخة" وعيناه مثل نبع غامض.. نوافذ مغلقة من المستحيل معرفة دواخلها.. صوته أجش صارم، وثباته مرتكز عليها ونبرته آمرة لـ "زليخة":

- ستعتنين بها يا "زليخة".

- هي في قلبي وعيني.

تأثر العجوز بدا واضحًا على ملامحها، كانت أمينة تحب الفتيات بشفافية، تحبهم بصدق، وتحب "ضوء".. كادت العبرات تهزم بأسها العجوز، إلا أنها تماسكت بعزيمة قدَّرها "شاهق".

"شاهق الأرقب"، رجل المتاهات ونهاية متاهته مجهولة. في عمق ظلامه مدفون سر "ضوء" المذبوحة، والقاتل بعث رسالته، سينقطع الصمت قريبًا ويصحو الأرخبيل.

نظر إلى النائمة مثل طفلة ثم قال بسيطرة قاتمة:

- "نهاية" لا تخرج من البيت أبدًا.

ترددت "زليخة" وهي تعارض:

- ولكن.. الفتاة تحتاج إلى الهواء والشمس جوار كل هذا الحزن.

ثم ابتعلت ريقها بتوتر مكملة:

- كي نتعافى.

- هل آخذ برأيك يا "زليخة"؟!

قالها بحزم كاد يهز الجدران وقد محا صوته كل اعتراض كان قد نما في صدرها.

لن يُجازف.. لن يُجازف بـ"نهاية" في تلك المرحلة. ملامحه المتحجرة تجمدت عليها، جسدها النائم مختطف في مداره دون أن تدرك.. وتستحوذ عليه أيضًا دون أن تُدرك.

رضخت "زليخة"، تراجعت أمام سطوته، في حين داست خطواته الأرض بقسوة مع رحيله.

كتلة الظلال تقترب..

والنهاية حتمًا قادمة..

***

نوم الحزن عميق.. غريب.. ممتلئ بالأحلام اللامنطقية!

"ضوء" أمامها وقصر الراعي خلفها و"حرير" تناديها!

استقامت في فزع، شعرت بوجع رأس قاسٍ وكأنما نامت لمدة شهر كامل. نافذتها كانت مفتوحة فعلًا وصوت الماعز الصغير يتسلل من النافذة وكأنما يناديها. لاحظت أنه رحل.. ليلة أمس كانت مشوهة في ذاكرتها كل ما تلتقطه حمله إياها حتى غرفة النوم و... تجمدت لوهلة ثم تنهدت في تعب وقد تذكرت تدفئة جسدها بنفسه، انقبضت بلا وعي، انقباض متوتر متلجلج جوار شعور متفرق بين الراحلين عنها. فركت جبهتها بإنهاك وقد أرهقها وجع الرأس وقلبها يجنح نحو "نهاية".. "قلب" أخت كبرى تريد أن تؤدي دورها نحو الصغيرة ولا تتركها أبدًا. لا تعلم كيف فعلتها ولكنها تحركت بسرعة وعشوائية بحثًا عنه، أرادت الرحيل على الفور للذهاب إلى منزل "زليخة" ثم العودة بـ"نهاية" لتعيش معها.. هكذا فكرت سريعًا وكانت لديها مهمة استئذانه أولًا ثم إقناع "شاهق". خرجت من الغرفة فوجدت أن القصر على منواله المعتاد، الخدم في رتابة أعمالهم وهو غير موجود.. اختفى مبكرًا جدًّا.. دفعت كفها برفق لتوقف إحدى الخادمات ثم سألتها بصوت متعب:

- أين السيد "بارق".

نظرت نحوها الخادمة الصغيرة بحنان ولم تكد تجيب حتى تجمدت كلتاهما بصوته الخشن الهادئ:

- أنا هنا.

استدارت في توتر فتفاجأت بوجه مثل قناع صلب..

جمود تام اندمج ببأس غريب ودُكنة قاتمة في عينيه.. همسها توتر رغمًا عنها وهي تنص ما تريده سريعًا جدًّا:

- أريد زيارة "نهاية" وإحضارها معي هنا.

عقد حاجبيه وهو يتأمل شحوبها المرتسم على وجهها جوار تلك العزيمة القلقة على أختها الصغرى:

- هنا؟!

ازدردت ريقها ببطء ثم تابعت:

- أريدها أن تعيش معي هنا.

مط شفتيه بلا اكتراث ثم قال بمنطق جاف:

- "شاهق" لن يوافق.

كانت تتوقع رده، بحماس أنثوي نابع من القلب فقط قاطعته:

- أنا سأحادثه، إن لم يكن لديك اعتراض دعني أحادثه.

ردَّ ببرود وقد بدا إصرارها حماقة لا تعجبه:

- ألا تفهمين! "شاهق" لن يسمح بوجود ابنة عمه في منزل "الراعي".. إياكِ أن تحادثيه في أمرٍ كهذا.. إنها إهانة.

استهجنت تمسكه بتقاليد بائسة تمامًا كأهل يودوس:

- هذا أفضل من مكوثها مع "زليخة".

زفر بسأم وقد بدا منهكًا للاستغراق في هذا الحديث العقيم:

- "زليخة" ربتكم.. من الطبيعي وجود الفتاة معها وستخرج على منزل زوجها أو منزل ابن عمها لا غير.

همت بمقاطعته مجددًا إلا أنه أشار لها بطرف إصبعه..

- أنا سأخلد للنوم، تناولي فطوركِ، فوجهكِ شاحب مثل بيضة فاسدة، وبعدها سيوصلكِ السائق إلى أختكِ.

أشاحت بوجهها معترضة على أوامره... تأفف حزين طل منها، وفقدان فوق طاقتها تحاول أن تتناساه وهي تتعكز على حزن "نهاية"، أما "قلب" غادرت ولا تعلم.. أخذها صاحب القلنسوة السوداء والآن هي تشعر بالخوف والعجز ولا تعرف أي مصير ينتظرها.. وقفت قبالته تومئ في طاعة حزينة.. دمعت عيناها في عجز والتقط هو بغضب عبراتها في نظرته.. أراد أن يمنعها من زيارة أختها، أراد أن يستحوذ عليها لساعات، يشرب حزنها قطرة قطرة ويدمجها به حتى ينسى أو تنسى.. كلاهما ينسى مآسيه.

ببرود تام استدارت وقد مررت له نظرة جفاء أزعجته.. لوم وغضب واستهجان رغم كل ما فعله!

النساء حقًّا متمردات بالفطرة.

اشتعلت عيناه بغضب مكتوم ومع استدارتها هرس ذراعها وهو يجذبها نحوه، يُطبق شفتيه فوق شفتيها بشكل خاطف، حاولت أن تتملص منه فأزعجه تملصها، سحبها بقسوة حتى صارا في غرفتهما ثم أغلق الباب بقدمه، غاب في تجويف ترقوتها، ألقاها على الفراش واستحوذ عليها وكأنما يبتلعها في مداره.. يحتجزها.. يريدها له وحده بكل حزنها وضياعها وبهجتها مع الماعز الصغير قبلها بيوم. كانت لحظة مضطربة بتوقيع إعصار تائه ثائر.. لحظة كاملة الحواس بعدما اختنقت حواسه في قبر علوي.. فجأة في وسط دوامته همست هي بضعف صادق، دفعته بكل ما تمتلك من طاقة وكل قوتها تلك أمامه مجرد ورقة هشة:

- لا أريد..

تصلبت أنفاسه بحنق، وثقله كان ما زال عليها مثل كماشة

وخرج صوته بقتامة خشنة.. أكثر خشونة مما سمعته يومًا:

- لا تريدين؟!

ردَّت بأسى:

- لا أستطيع.

كانت عيناها شاردة، مدمرة وتائهة وبسيطة جدًّا، بسيطة لتوقن دقات قلبه الهادرة أو تفهم تكرار التاريخ اللعين الذي تفعله.

هنا في القصر نفسه، في غرفة علوية بعيدة كان يتمناها معها. المرأة التي مررت الانتباه ومرر هو العشق، كانت تراوغ وكان هو صادقًا حد الحماقة.

قلب الراعي وإن خُدِشَ لا يصلح.. أصابه الفساد والعطن، واستنشق طين الخيانة الأسود حتى سدَّ أنفاسه.. فأخذ ببساطة حقه.

صوتها خفيض في عتمته:

- لا أريد.

وصوته أصل العتمة:

- نساء الراعي ملك له.

وفوق فراشهما بطابق واحد هناك آخر، ظلام يحيط به في الليل والنهار، خصلات سوداء شعثاء حول جسد منتهي الصلاحية، عينان بلون الحديد.. وسكون الجثث دون قبر.

الميتة الحية.. مفتاح السر أو ربما خديعته!

معشوقة الغضب وسقطة النغل.

"رحيق"

***

خارج القصر الذي يبدو عائمًا على ظُلمة بحر "غاند"، ضجيج قناطير، وداخله حرب "جمر" و"ثلج"!

صرخت الجنية النارية وارتجت مثل لهيب حار، بخار أنفاسها حارق واستعار بؤبؤيها جحيم.

بين أربعة جدران تمخضت فأنجبت نواحًا، تناديه ولا يسمعها.. تتوسل إليه ولا يشعر بها، تصنع من نيرانها تاجًا وتعود إلى "ثلج" التي قيدتها وهي نائمة بأصفاد من الجمر المحترق ثم تضعه على رأسها البارد ليتشكل نوع من الصراع المرعب فوق رأسها.

الثلج يذوب ثم يعود ليواجه السعير بعزيمة والسعير يواصل الحرق بلا رحمة.

- خائنة.. حقيرة.. سأتركِ له كي يختار عقابك بنفسه.

أنفاس باردة سخية غادرت ثغر "ثلج" المتعبة من القيد:

- ربما يتحقق المراد قبل خروجه.

انقلب الاشتعال في عيني "جمر" إلى أدغال محترقة:

- لن تهنئي بتلك اللحظة.. سأعيدها بطريقتي الخاصة.

تيبست ملامح "ثلج" في ذعر، جنون جنية نارية لم تعمل حسابه:

- ماذا فعلتِ؟

جلست "جمر" أمامها على قوائمها في معاندة نارية:

- أرسلت خلفها الوحش.

كادت "ثلج" تزحف في محاولة مستميتة للتخلص من أساور الجمر:

- يا ملعونة.. سيقتلها.. ولو نالها لن يرحمكِ المشعوذ.

كانت النيران تتوحش من عيني "جمر" وفمها وأصابعها بقوة قاسية، وكلماتها صراخ من سعير:

- وهل تركتِ لي خيارًا؟

وتفجر غضبها بعنف وقد قررت أن تضع حدًّا لتلك المهزلة:

- هي تنتمي إلى هذا المكان.. تنتمي إليه وحده.

لهثت "ثلج" وهي تحاول قدر استطاعتها السيطرة على جنون "جمر" التي قد تدمر كل شيء بهوسها:

- يجب ألا تنالها الظلال.. اسمعي.. لا ترسلي الظلال خلفها مجددًا، لو قتلتها لن يرحمني نعم، ولكن لن يرحمكِ.

رمقتها "جمر" بسخرية:

- أي لعبة تمارسينها الآن.

وكانت "ثلج" حقًّا تمارس لعبة، لعبة حياة أو موت.. لن تخاطر بفقدانها على يد ظل بعد كل ما خططته.

- إنها فتاة مسكينة شعرتُ بالشفقة عليها.

اشتعلت عينا "جمر" بشراسة:

- تلعبين مجددًا يا عاهرة الثلج!

أما "ثلج" فكانت تتوسل.. قوتها خائرة رغمًا عنها بفضل خديعة "جمر" وتقييدها بالأساور النارية في رسغيها وكاحليها ورقبتها، قوتها كلها مستنفذة في كبح هذا الجحيم. بحلقها ظمأ مؤلم وبأطرافها حريق مشتعل. التمع الثلج في عينيها وهي تمرر الفكرة التي كانت تعلم أنها ستجذب "جمر".

- لا ترسلي الظلال أرجوكِ.. فلتحاولي إخراجه من المتاهة.

رفعت "جمر" ذقنها في تفكر على الفور.. متاهة المشعوذ المستحيل عليها اختراقها وحدها، ولكنْ كلتاهما أمر ممكن.. إلا أنها ناورت الأخرى:

- هذا ليس في مصلحتكِ لو تعلمين.

ضاقت عينا "ثلج" بحقد:

- أنتِ لا تعلمين شيئًا عني.

ثم على الفور تابعت لاهثة ومتشبثة بالفكرة:

- لنخرجه من المتاهة.. لنبحث عنه.

كبرياء عنيدة شرسة ارتسمت على وجه الجنية النارية.

- لا أحتاج إليكِ.

بدأت قوة "ثلج" تعود.. تسللت لها بخبث:

- لا تستطيعين فعلها من دوني.. إنها مائة غرفة بأهوالها، لقد أبدع في إخفاء متاهته حتى عنَّا.

سخرت "جمر" مستهزئة:

- ألا تجدين أنه كان محقًّا؟!

على الفور عادت "ثلج" إلى التوسل، مررت الضعف كي تجذب غريمتها:

- لا ترسلي تلك المخلوقات مجددًا.. هو وحده القادر على السيطرة عليها.

ابتسمت "جمر" بقسوة ثم قالت متسلية:

- أعجبتني اللعبة.. توسلي مجددًا.

لهثت "ثلج" وهي تحاول تثبيت قوتها كي لا تنهار:

- ألا تكترثين؟

التمعت عينا "جمر" بقوة:

- أكترث به وحده.. الفتاة لا تعنيني.

- هو يريدها.

- وهذا ما أكرهه.. والآن لديَّ فرصة قتلها وأنتِ ستحملين الذنب.

- لا.. لا تفعلي.

صرخت بها "ثلج" فورًا.. بدت يائسة حتى إن "جمر" تابعت بتشكك:

- البطولة لا تناسبكِ يا "ثلج".

كانت تود سبر أغوار الثلجية إلا أن الأخرى استكملت بمكر فكَّرت فيه سريعًا:

- انتظري يا "جمر".. أنتِ قُلتِ أعجبتك اللعبة فلنحاول.

اتسعت عينا "جمر" باهتمام:

- وماذا سأكسب!

مررت "ثلج" القوانين:

- إذا ما وجدناه سيكافئكِ ويقتلني.

- ويستعيدها.

- إذا ما وجدناه سيكافئكِ ويقتلني وتأخذين قوتي.. سأعطيكِ إياها.

المجازفة الآن تستحق، قوة النار والثلج.. هو نفسه حينها لن يستغني عنها، المجازفة هي مقامرة.. كل شيء أو لا شيء. فكرت بحماس حذر، و"ثلج" تتسلل وتغريها:

- هيا يا جمرتي.. إنه كنز يستحق المجازفة.

نبرة عميقة تسللت من النارية:

- أنتِ حرباء من الثلج.

ومررت باقي كلماتها مثل فولاذ محترق:

- تريدين منحها بعض الوقت.

ثم ابتسمت بخبث تام.. واللعبة هنا كي تكون عادلة تحتاج إلى شروط جديدة:

- كل سبعة أيام حتى نجده سأرسل خلفها ظلًّا.

***

السماء المفتوحة مُلهمة للأمنيات

كانت تراقبها في صمت، تعود نحو قصر.. نحو نافذة.. "جمر" و"ثلج" واحتجاز.. وجدار عتيق تخفف وطأته بومة!

- افتقدتكِ..

قالتها بهمس محادثة نفسها وصورة ربَّتها تظهر.. لطالما رأتها هكذا.. ربتها التي اعتنت بها في ظلام قلعة مسخ. حركت أنفاسها الهواء الساكن، في حين بدأ حساء الخضراوات الذي حاولت إعداده في النضج. خلف باب مغلق يغط هو في نوم ساكن عميق وحصاناه مثله يرتفع شخيرهما من الخارج.

- حصانان كسولان مثله.

حادثت نفسها بتبرم، في حين كان الحساء ما زال يغلي والملابس انتهت منها ووجدت الثوب الذي حدثها عنه، ارتدته على عُجالة، ومع أنه يفوق حجمها بعض الشيء فإنه أفضل بكثير من هذا القميص القصير خاصته.. نعم أفضل، هكذا كررت لنفسها رغم طوله الذي كاد يُسقطها، وتصميمه المنتفخ الشبيه بخيمة ضخمة.

- بشع.

انتفضت مع صوته لتجده يقف خلفها بملامح منتعشة بعد

نوم عميق وشفتاه تنتهجان تعبيرًا ساخرًا وهو يرمق الثوب بغير رضا.

- قبيح جدًّا.. اخلعيه وارتدي القميص.

جارت آخر كلمة منه ابتسامة رائقة، في حين تخطاها ولم يكترث بانتظار جواب منها، شم الحساء ثم قال وشهيته تنفتح:

- يبدو لذيذًا.

عضت شفتيها بخجل قبل أن تجيب بحماس فتاة أعدَّت لتوها وجبة لمنقذها الغريب عنها:

- لقد أعددت البطاطس والجزر والبازلاء والخوخ.

عقد حاجبيه وقد بُترت الابتسامة مع آخر كلمة..

- خوخ!

تلونت ملامحها بالضياء وهي تتابع:

- مذاقه رائع.

قاطعها صوته بحزم:

- نعم فوق فطيرة وليس في حساء خضراوات.

انكمشت سريعًا وكأن ضوء القمر في العالم كله يخبو.. ثم قالت بتلعثم والضيق يطل من بين كلماتها:

- لن تتناوله؟

جذب مقعدًا ليجلس أمام طاولة الطعام وقد بدأ في سكب الحساء لنفسه فعلًا ببساطة ليقول بلا اكتراث:

- أنا آكل أي شيء.

وغمز لها بخطورة!

شكرًا يا "ثلج".. ألم تكترث بإخبارها أنه بتلك الجاذبية

المزعجة. نغمة أنفاسها بدت واضحة في حين كان هو يتلذذ بطعامه، يربّت المقعد المجاور لها كي تجلس معه وتأكل. ويتأمل الأفق الذي بدأ الظلام يطل عليه.. قالت فجأة والدُكنة قد بدأت تحيط بهما:

- ألا يجدر بنا البحث عن بعض الشموع لإشعالها.

رمقها بجانب عينيه..

- تخافين الظلام؟

ارتسم على زاوية شفتيها تعبير تائه، هي فتاة لا تعرف اسمها، أليست تلك بظلمة كافية.

- أهرب منه.. أنا ببساطة أحاول الوصول إلى الضوء.

عقد حاجبيه ثم تبدلت ملامحه بقسوة غامضة:

- ومن أخبركِ أن النجاة في الضوء؟!

قالها بفتور، بأشباح ماضٍ شكلته، تابع بصرامة وهو يدفع صحن الحساء بعيدًا عنه بعدً أن أنهى نصفه:

- الضوء له وحوشه أيضًا يا جميلة.

قالها بصوت عميق ضاعت به، لحظة ضياع طفيفة بترتها في خجل ولاحظها هو بمكر.. استرخى في مقعده وتابع تشكل النجمات في السماء ثم عاد إلى ملامحها.. تحجرت نظرته وهو يراقبها ثم قال فجأة:

- سنمكث هنا ثلاثة أيام.

رمقته في تعجب وتوجس:

- ولكن كيف؟ لقد كنتَ متعجلًا؟

كانت الأغصان تضرب النوافذ بحركة رتيبة مكررة مع الرياح، صوت قادر في الظلام الدامس على إرعابها، ولولا وجوده وضوء القمر شبه الكامل لارتجفت من الخوف.

هو أمانها.. وفي الوقت نفسه تتوجس منه.. هو الغريب الذي قادتها المصادفة إلى مساره والقريب في هذا الخلاء الذي لا يحمل بشرًا سواهما.

نظرت إليه ساهمة بتردد وتبعثر:

- أيجب ألا نغادر الغابة قبل خروج المشعوذ من متاهته؟

- ماذا أخبرتكِ لتوي؟

- ماذا؟

- للظلام وحوشه والضوء أيضًا.

ارتبكت وتصادمت الأحرف في كلماتها:

- من هو وحش الضوء الذي تخافه؟

تسكعت نظرته قليلًا ثم قال وقد بدا أن جعبته تحمل أكثر مما تظن:

- هو أيضًا يبحث عنكِ.

- من؟

- "البارود"!

***

في قاع منحدر حكاية قنطور عاشق.. وفوقه يعبر أول ظل.

الوحش!

قلب خفقانه ضعيف، حبيس المشعوذ وظله، وفي هلاكها قوته.

في قاع منحدر حكاية قنطور عاشق

وبين جدران منزل مهجور رجلٌ فهم ظلامه وفتاة تبحث عن الضوء.

يحمل الهواء رائحة قبيحة.

وهي متسللة في الظلام الذي بدأت تعتاده.. تراقب ملامحها في البحيرة وتبتسم، تفكر فيما يجب أن تعده له في الغد، وتضحك وهي تتذكر تذمره من الثوب القبيح كما يصفه. الخلاء حولها صمت تام إلا من أصوات حشرات صغيرة تمارس غناءها الليلي. الماء محبب فاتر يشجعها على الاستحمام ولكنها لم تفعل.. نخل وجنتيها ينفجر مع تذكرها آخر مرة فعلتها.

في قاع منحدر حكاية قنطور عاشق، وفي وسط غابة مظلمة وحش كاسر يركض.. يركض نحوها تمامًا!

صرخة مكتومة.. ركض ملتاع.. صدمة ونهاية مؤكدة، والكائن المخيف يلهث أمامها وعيناه الحمراوان تشتهي الدماء، شيطان ضخم أرجف كل ذرة في جسدها وأنياب كاسرة قادرة على طحن قبيلة. عادت إلى الخلف ببطء وأغصان الشجر الراقدة على الأرض تتكسر تحت قدميها، والثوب يتآمر عليها، ترفعه بيأس كي يمهلها لحظة ركض وتدور عيناها بقنوط بحثًا عن الآخر عله يظهر.. تلعن غباءها لأنها غادرت المنزل وتتذكر كلام "ثلج" عن المشعوذ وظلاله.

"مسخ ضخم بملامح هي خليط ثور وأسد.. ظهره ملتهب بالسياط".

الذاكرة أيقظت انتباهها. وقفت أمامه والفكرة تعويذة تدور ودون تردد رفعت الثوب قدر استطاعتها وبدأت في الركض.

صرخة بعيدة أيقظته على الفور، فتح عينيه فجأة وثبات جسده ما زال متجمدًا على الفراش قبل أن ينتصب مرة واحدة ساحبًا فأسًا ضخمة كانت سلاحه.. ركض مثل

شيطان غاضب وعيناه تدور حتى وجد ركض المسخ خلف جسدها الضعيف، شتم في سره وبسرعة فائقة فك رباط حصانيه ليمتطي أحدهم والرياح الباردة تتحرك في اتجاه معاكس له مثل لهيب. ثقل الوحش يركض أمامه وهي أضعف من الصمود لو نالها، حوافر الحصان الستة تحتك بالصخور والصهيل يجاور صرخته مع قفزة شجاعة لينتصب أمام الوحش بجسده، زئير في مواجهة فأس غضب.. لهثت ونظرتها منهارة، وصفيره يوجه حصانه كي يأخذها.

ظلمة الغابة مثل كماشة حوله وحول المسخ الجائع وفأس أمام مخلب.

خوار مختلط بعواء شق سكون الغابة وعلامات سياط تشتعل مثل ثورة بركان. حين حملها الحصان انسلت بين الأشجار تراقب المعركة في خوف وعجز، قبضة الوحش تضرب الأرض بعنف يكاد يهرس غضب الذي يقفز بخفة وعزيمة ويغرس فأسه في ذراع المسخ الثائر. أنفاسه لاهثة متقطعة، وفأسه اخترقت اللحم سيئ الرائحة ليعود ويغرسه من جديد بصرخة تساوي صرخة المسخ الغاضب. هوى الوحش بقبضته على الأرض مرة أخرى وتلك المرة كاد يصيبه، هوى قلبها نحو قدميها مع القبضة التي حطمت صخرة كاملة وهشمتها إلى أجزاء حادة انغرس أحدها في جانب جسده الأيمن. صرخت بهلع وهو مقاتل لا يستسلم أبدًا.. دماؤه تتساقط وبأس الوحش الأسود مثل القار يتجبر. يحاول النيل منه بغِل، وهو يثب متفاديًا ورغم جرحه يثابر ويغرس الفأس من جديد. استطاع أن ينزوي في باطن شجرة وبسرعة مزق قميصه ليربطه فوق الجرح ويعود فجأة بضربة قاصمة فوق رأس الحيوان

المستعر. زأر الوحش بعنف. عين تبحث عنها وعين تريد الفتك بغضب. أنفاسه المختلطة برائحة عفن تتسرب إليها.. وزئيره الشبيه بخراب أسوَد يقتل أذنيها. ظلَّ شيخٍ كئيبٍ يبتغيها.. أضعف ظلال المشعوذ يكاد يفتك بهما.. دارت عيناها في يأس، شعرت بالنهاية حين اختفى غضب، كان منذ لحظات هناك موجود.. وفجأة اختفى، اختنقت ببكاء لم يخرج، شعرت بالرعب والعجز.. الضوء الزاهي الذي كانت تحلم به تبدد وحل مكانه الظلام القاتم.

الضوء الزاهي عاد فجأة!

لا ليس ضوءًا، بل نيران مشتعلة، غضب ظهر مجددًا من العدم فوق حصانه المسرع وفي كلتا يديه شعلتان من نار مستعرة لاحقت جذور أشجار ميتة كانت تحيط بالمسخ فحاصرته، دبت النار في الهشيم وهزم الجحيم وحش الظلام، وصاحب الغضب يقفز في النهاية قفزة أخيرة ويشق رأسه.

غاب الزئير.. غاب الخوار.. قُتِلَ الظل!

أول ظلال المشعوذ نال هزيمته

***

تحت السماء المفتوحة تقع كوابيس يودوس

المينوتور!

ملامح الـ "شاهق" مثل غموض غابة.. رجل له أسراره المظلمة.

تلكأت وهي تدور جواره، تمرر طرف سبابتها على غمد السيف المرصع بأختام العائلة. وتأخذ عبق الهواء حوله في أنفاسها.. لوت شفتيها بانبهار ثم قالت مثل هسيس نار تناور:

- سيف الأرقب.. القوة التي يبتغيها الجميع.

- وتخافين منها.

قالها بنبرة قادرة على سطر الموت فوق عنقها لو أراد. رفعت عينيها نحوه في معاندة.. تسلية خطِرة لامرأة لها أحلامها الخاصة. هو صادق نبوءة "حرير" وهي تسلقتها غير مبالية بالموت.

سيف الأرقب هو السيف القادر على نحر الساحرات

من أعماقها طلت نبرتها:

- أنا لا أخاف زوجي.

ثم مر هسيسها ببطء وهي تملس فوق ذراعه مثل أفعى:

- وشريكي..

تمازجت القسوة في ملامحه مع انزعاج محسوب ثم فرض قوانينه بسطوة:

- أنا أقرر وأنتِ تنفذين يا "سيراب".

ضاقت عيناها بخبث:

- أنت رجلٌ لا يعترف برمي النرد.

بدت مقلتاه تروسًا من نار:

- النرد للضعفاء وخديعة الساحرات.. أنا لا أبحث عن وهم فوق الرؤوس.. اخلعي سحر المينوتور ولك حياتكِ والنسل.

وللجحيم عنوان اسمه "البارود".

وللجحيم عنوان.. سحر أسود محرم.

وللجحيم عنوان محاولتها في أرض تعاويذ محرمة.

نبرتها تتسلل وتذوب على طرف شفتيها بخبث:

- أريد ما هو أكثر من النسل.

راقب سطوة الطمع في عينيها بصمت صارم، وهي تتابع وظلها مثل ظل عنكبوت ضخم:

- أريد قطعة من حكم يودوس.

والسحر الجامح يقطع قيد الطاعة.

قررت آكلة العناكب عصيان "البارود" ووضع أحلامها الخاصة أمام متاهات صلبة. سحابة قاتمة نزلت فوق عينيه قبل أن يتابع بلهجة صارمة:

- لن تكون أحلامكِ قابلة للتحقيق مع المساومة يا "سيراب".

رفعت ذقنها في شموخ وهي تعلم أن المفاوضة مع "شاهق" لن تكون سهلة.. هي مفاوضة مع قاع محيط، قلب جبل مغلق.. ورجل حتمًا لن يبوح بكل أسراره.

***

خمد ضوء القمر في الإقليم بفضل سحابة.. ظلام يشبه الموت.. وامرأة تتعثر في ثوب ضخم بسبب إشارة. الحلم يتكرر.. "ضوء القمر".. قصر الراعي.. و"حرير" تطلبها.

الجدران الرمادية لها رائحة عفونة تكاد تطبق على أنفاسها.. الحشرات لها لسان يناديها، النبوءة من نصيبها تلك المرة.

"بداية"

امرأة تشبه ثمرة تين حلوة المذاق، وتشبه المدن بعد زوال الحرب بجمال منهك مخطوف. ساكنة أرض الراعي. وصاحبة النبوءة الثانية من أربعة.

صوت من شق قاتم، نبرة كئيبة تشبه الجثث، حروف اسمها تخرج من خلف الرأس مثل دخان عكر.. أعماق

سوداء تحيط باللحظة ورعب تام. شعرت بالخوف.. بالندم على هذا التسلل الأحمق.. تجمعت الدموع في عينيها.. صوتها يكرر ويمرر بيأس وسط قسوة ظلام وصمت:

- لقد.. لقد طلبتِني في الحلم.

- "بداية".

الشق لا يبوح بالكثير.. والصوت يشبه خض الأحشاء في جثة.. لحظة هجينة على كل سلام عرفته يومًا، لحظة فقدان.. لحظة احتياج إلى "ضوء القمر".. هبت لتقف، تهرب.. تخطو خارج تلك الدائرة الغريبة التي أقحمت فيها نفسها بسبب حلم. طبول تدق في قلبها، العينان ترعبانها تمامًا بلونهما الغريب المتناقض.. الحكايات لا شيء أمام ما تراه.

وكان الحلم محقًّا.. أو الكابوس، لا تعلم.. نالت نبوءتها.. وظهرت ثاني ملامح "حرير".

ثغر مثل حد السيف

- البداية في قلب الراعي!

***

الفصل السابع

بصرها يتنقَّل ببطء على تفاصيل مشهد لم تتوقعه، عيونها الشبيهة ببلورة من العسل المتجمّد متعلقة بالتفاصيل. أكواز الذرة والخبز الطازج.. أباريق الحليب والخمر والعسل، والصفوف تتابع بتنظيم حتى تصل نحوه. ما يحدث أمامها كان نوعًا من المراسم اكتشفت أنه تقليد متبع في عائلة الراعي منذ زمن بعيد.. كل عدة أشهر يتجمع الخدم والحراس والعمال من أنجب منهم حديثًا أو من تزوج وغيره ويقفون في انتظار العطايا والكرم من الراعي الكبير.. والآن الراعي الكبير هو "بارق".

يوم مغلَّف بحنان غريب، عيناه هادئة وعلى شفتيه ابتسامة! رغم خشونته فإن يده تحاوط وجنات الأطفال برأفة قبل أن يربِّت فوق رؤوسهم وينقد الأب أو الأم بعملة من الذهب الخالص. ملامحه منتعشة رائقة تحت السماء المفتوحة وبريق الدُّكنة في عينيه آسر.

تراجعت أفكارها سريعًا، اضطراب طاف حولها يتراقص.. عادت إلى الخلف مبتعدة عن النافذة وكيانها يجنح نحو النبوءة.. ملامح "حرير" والثغر الذي ظهر والصوت المرعب الكئيب مع اللغز الذي لا تفهمه.

"البداية في قلب الراعي"

ما هذا؟! "بارق" لديه قلب!

لم تنتبه أنها قالتها بشكل قريب عفوي وهي تنطق اسمه مجردًا دون لقبه، تحررت للحظات قليلة من قيود الخوف منه وفكرت بقلب أنثى عمَّا يمكن أن تكون عليه تلك النبوءة. كل ما حدث منذ يومين يمر بذهنها من جديد.. لقد تسللتْ ولم تخبر أحدًا أنها ذهبت، حتى

"زليخة"، والغريب أن "حرير" لم تنشر الأمر من خلال خادمتها كالعادة. وكأن نبوءتها هي سرية! حتى هو لا يعلم.. توقعت أن يعلم ويزجرها ويعاقبها بشكل ما، ولكنها اكتشفت أنه لم يعلم.. لا تعرف إن كان ترتيب "حرير" أو حظ لطيف لمسكينة مثلها. ارتعاشة خفيفة تمكنت من جسدها، وظِل عجوز تحرك أمام نظرها مباشرة، دارت في الفراغ بتوتر حتى اصطدمت بوجه غريب لا تعرفه.. امرأة تبدو في المائة من العمر متلحِّفة بغطاء أسود متهالك ويبدو جلدها وكأنما التصق بعظم وجهها مباشرة دون شحم. نظرت "بداية" حولها باضطراب فوجدت أنها تقريبًا وحيدة في البهو العلوي حيث إن الجميع منشغل بالحدث في حديقة المنزل الضخمة. عادت "بداية" للنظر إليها ثم همّت أن تسألها بتوتر مَن هي إلا أن صوت العجوز تسرب سريعًا بكلمة جمدتها..

- قلب الراعي!

تصلبت "بداية" بلا تعبير، اهتز جسدها في ارتعاشة واحدة قوية وتجمع الهواء في رئتيها حد الاختناق قبل أن تكرر العجوز كلامها بشكل جديد:

- قلب الراعي هُنا.

ولفَّت سبَّابتها حول الجدران..

قالت "بداية" في حيرة:

- من أنتِ؟

لم تجِب العجوز.. تحركت ببطء بعمودها الفقري المتقوس وأشارت لها بالصمت. هي مررت طرف الخيط وعليها بعده البحث.

"قلب الراعي هنا في منزله".

"قلب الراعي حجرة ممنوعة!".

لا تعلم كم من الوقت مرَّ وهي متجمدة مكانها، اختفت العجوز كما ظهرت بتسلل رتبته "حرير" كي تدفع المسكينة نحو قدرها وظهر هو فجأة من العدم.. يقف خلفها تمامًا بدُكنة قاتمة بسواد أبانوسي وشراسة تناقض هدوءه منذ دقائق قليلة.

- ماذا تفعلين هنا؟!

- ماذا؟ لا شيء!

لم تكن تدرك أنها تقف تمامًا في واجهة الطابق المحظور، التفاصيل ترتبت في عقلها متأخرًا.. سبابة العجوز، دفعة بسيطة منها لجسدها قبل أن تغادر، وعنقها المرفوع وبصرها المتعلق بمدخل الطابق العلوي المحظور.. "قلب الراعي.. الحجرة.. هل هي هناك؟".

تتابعت أفكارها بسرعة ثم أغمضت عينيها على الفور بارتباك:

- لم أكن أقصد.. شردتُ...

همس مبحوح عنيف طل منه وقد اعتصر ذراعها بقسوة:

- لا تشردي.. مفهوم!

نظرتْ نحوه بذعر، وإن طلَّ منها توسل غريب رغمًا عنها بألا يفعل.. بألا يسمح لغضبه بتشتيت هذا السلام الذي رأته منذ قليل. أومأت سريعًا في طاعة وحاولت التملص منه إلا أنه لم يتركها.. تبدَّل مجددًا على الفور، بل قال برفق غريب:

- هل تناولتِ الإفطار؟

هزَّت رأسها نافية بشكل سريع وتحاشت النظر نحوه.. لم يقل شيئًا بعدها، سحبها في قسوة فجة وكأنما يسحب شاة ثم توجها إلى المائدة فأجلسها وطلب من الخدم وضع صنوف الطعام أمام كليهما.. لحم مشوي وفطائر وعنب مسكَّر وخبز بالزبيب، الكثير من النبيذ في أباريقه ويخنة عشب حارة. قال ببساطة وهو يمد يده في اللحم وقد بدأ يأكل بشهية واضحة:

- تناولي طعامكِ، تبدين شاحبة.

رمشتْ بعينيها عدة مرات وهي تراقبه على استحياء قبل أن تأكل، كانت شهيته رائعة.. رغم الغضب الدخيل على مزاجيته منذ دقائق كانت حالته تميل إلى الهدوء، هو حقًا يحب الأطفال.. يبدلونه بشكل ما.. يخرجون منه حنانًا مختبئًا.

"قلب الراعي" عادت النبوءة لتناوش أفكارها. هل هي مجرد حجرة علوية فقط، أم إن الأمر متعلق بقلبه أيضًا، نبع حنان مجهول داخله.. هل لهذا يريد منها النسل، لتعلقه بالأطفال؟

انتبهت أنها تفكر كثيرًا بشأنه.. شأنه هو قبل النبوءة. حاولت أن تهدي عقلها بعض السكينة وما كادت تمد يدها إلى الطعام ببعض لقيمات صغيرة سمعت صوته يمر بخشونة فجة:

- تحتاجين إلى الطعام.. تناولي أكثر.. أحب في امرأتي وجود بعض اللحم!

تجمد بصرها بلا تصديق وقد بدت الكياسة عدوًّا لدودًا لهذا الرجل. قالت بعناد خفيف لم تستطع كبحه:

- أنا آكل قدر شهيتي.

ابتسم.. ابتسم مجددًا ها هي ترى الابتسامة العابثة ولا تصدق أنه يفعل.. يبدو أن هذا اليوم كما تقول الخادمات.. سحري!

- لا بأس ببعض اللحم الزائد.

واضطجع وهو يستمتع بمذاق طعامه وعيناه معها في نظرة فهمتها.. قال فجأة بغموض غريب:

- هل تعرفين أجمل ما فيكِ يا "بداية".. أنكِ لا تجيدين فنون الحب.

ولاح على شفتيه تعبير قاتم للحظة، تاريخ ما لا تعرفه، ثم تابع وشعاع أزرق يلتمع ويمر بدكنة عينيه:

- حمقاء تمامًا.. على طبيعتكِ.

فجأة بلا مقدمات مرر سبابته على عنقها، ظل يمررها ببطء مقصود حتى نزل إلى الأسفل وتخطى ترقوتها مرورًا بتجويف نهديها ثم قال بحة عميقة:

- طبيعة خطرة يا "بداية".

همست بحذر وهي لا تعرف فعليًّا ما عليها فعله:

- هل تريد بعض الشراب؟

ابتسم بقسوة ويداه لا تتركها.. بل يتمكن منها أكثر بطريقته ويقول ببطء مدروس:

- أريدكِ أنتِ.

تلك المرة لم يفعل ما هو معتاد فعله بفجاجة مكررة، بل كان يناوشها بهدوء.. يطلبها بإغواء مثل الذي كانت تسمع عنه في أغاني الشعراء وحكايات الفتيات الحالمة. ابتلعت ريقها بتردد وقد شعرت في حيرة تامة فيما يجب أن تفعله. أغمضت عينيها ثم حاولت تجميع حروفها بتركيز:

- حسنًا.. سأصعد إلى الغرفة.

كانت مثل شاة بلهاء صغيرة.. داعبت ابتسامته شفتيه وهو يلمح استقامتها المتوترة ثم غابت عيناه مع أردافها الظاهرة من ثوبها البيتي اللطيف، قبل أن يستقيم فجأة ويضع يد حول خصرها والأخرى تحت ردفيها ليرفعها بسهولة بين ذراعيه ثم يقول بهمس رائق:

- سنصعد.

تحرك بها ببطء، كانت تشعر أن ذلك الوقت من غرفة المائدة نحو غرفة نومها أطول وقت مرَّت به بين البقعتين، خادمة تضحك وأخرى تهمس والراعي في العادة لا يبالي.. هو إن أراد ينالها في أي مكان والجميع ينسحب. دسَّت أنفها بعفوية في جانب عنقه غير منتبهة للارتجاف السريع الذي اجتاحه قبل أن يُسرع بعدها ويغلق باب غرفتهما عليهما.

ومن بعيد.. ركن ما.. خادمة جديدة جميلة.. حدأة كما وصفها "غضب"، والحدأة لديها مهمة محددة قررت أن تبدلها.

عذرًا "غضب".

لا تثق بالنساء.

هدفها الآن فراش الراعي.. وأن تحمل هي نسله!

***

قيلولة تلو قيلولة.. هروب تلو هروب.. لن يتغير شيء. ماتت "ضوء"!

كانت تقف على واجهة المنزل وقد شعرت بألمٍ غريب في معدتها، تقلص حاد مزعج بعدما أعطتها "زليخة" تلك الأعشاب الملونة المتنوعة كي تمضغها، وقالت إنها وصفة

ستخلصها من الحزن. ولكنها أصابتها بوجع معدة.

ابتسمت ساخرة، ثم تنهدت وهي تراقب زخات المطر الناعم المتساقط على الأعشاب النضرة، في حين دارت عيناها بتردد وهي تراقب "زليخة" المنشغلة بإعداد الطعام. فكرت بتوتر أن تتسلل ولو لوقت قصير إلى النهر. أن تغرق في مشهد المياه الجارية وتبكي.. تبكي بقوة حتى تكره البكاء. خطواتها هزمت ترددها، انشغال "زليخة" بإعداد الكعك الذي تحبه ساعدها في تنفيذ الفكرة، هناك على ضفة النهر خانها البكاء، لم يحضر.. المطر تساقط والماء يجري في الجداول ودموعها متجمدة تأبى المشاركة. كانت ترتدي ثوبًا أبيض هادئًا مطرزًا من الحافة وتترك خصلاتها الناعمة منسدلة بحرية تحت الزخات المتساقطة.. رقيقة جدًّا، بل رائعة الفتنة تشبه لوحة زهور بنفسجية كتب عنها مرة في أشعاره!

فجأة دون مقدمات بدأت السماء تبرق وترعد فانتفضت في حيرة ونظرت حولها تحسب مسافة الطريق في هذا الشلال المنهمر، واستمرّت هكذا لوقت قصير حتى ارتطم صوت فجأة بأذنيها وهو يصفر لها من تحت شجرة مظللة عملاقة تحميه من المطر..

- شششش تعالي.

استدارت فلمحت شابًّا هزيلًا بشعر أسود حالك ناعم يتساقط على جبينه وجانب عنقه، ويبتسم لها مطمئنًا، ترددت بعض الشيء وعادت عيناها تبحث عن بديل، إلا أن الشجرة كانت هي الملاذ الوحيد من تساقط المطر الغزير فجأة، عاد لينادي بحزم مجددًا، فلم تمتلك سوى الانصياع وركضت بكل قوتها نحو الشجرة الحامية. وقفت جواره متحاشية النظر نحوه بعد أن شكرته بابتسامة مقتضبة

وظلت تراقب المطر الهائج الذي لم يبدُ أنه سيتوقف أبدًا. كآبة موحشة طلّت فجأة على هدوء النهر مثلما حدث معها.. مثلما احترق "ضوء" منزل "فيصل".

ذهنها غاب في سكون حزنها وهنا طلّ صوته الهادئ فجأة:

- يبدو أن المطر سينهمر إلى الأبد.

تجاهلت مزحته وظلت عيناها متعلقة بالطريق، كانت تفكر في رد فعل "زليخة" إذا ما اكتشفت غيابها، لقد أخبرتها أن "شاهق" أمر بحزم بألا تخرج أبدًا من المنزل. هنا سقط قلبها في قدميها فعلًا حين فكرت فيه.. رد فعله لو علم، غضبه.. ارتجف جسدها دون أن تنتبه فشعرت فجأة بكف الآخر يحتل كفها بلا مقدمات، شهقت في فزع وصرخت به على الفور وهي تسحب يدها:

- أنت.. ماذا تفعل؟

مطّ شفتيه ببساطة ثم أشار إلى جذع الشجرة لتنتبه أن بها تجويفًا مفتوحًا ضخمًا..

- اجلسي هنا، لتنالي بعض الدفء.

هزت رأسها رافضة:

- لا.. أنا سأرحل.

قال بانفعال ساخر:

- هل تودين قتل نفسك بالمرض في إقليم لا يوجد به حكماء؟!

(الحكماء هم المعنيون بعلاج الأمراض قديمًا وقد كان مقرهم في أرض العرش لحاشية "البارود" وعادة ما اعتمد سكان الإقليم على تعاويذ الساحرات).

تشبثت بعنادها ولم تتحرك، إلا إنها لم ترحل أيضًا، كان محقًّا.. إذا ما مرضتُ ماذا ستفعل؟ تطلب تعويذة من "سيراب"! سمعت بعدها تنهده بيأس وهو يتابع:

- لو لم تذهبي إلى التجويف سأذهب أنا.. الشجرة لا تحمي من المطر بشكل كامل.

قطبت جبينها وتجاهلته، في حين استكمل هو بعبث خبيث:

- أو نذهب معًا..

شهقت وقد أطلَّ استنكارها من ملامحها بقوة، وقد ابتعدت عنه بأكثر مسافة مُستطاعة، في حين ضحك هو بشقاوة صبيانية:

- لا تقلقي.. على الأرجح ستلدغنا أفعى ونموت ميتة عشاق.

مبعثرة ومرهقة وغاضبة وتشعر بالبرد والحزن والتيه ردَّت على الفور:

- أنت وحِّ..

سخر موافقًا:

- أعلم!

ثم قال بغموض وهو يتأمل انقشاع الغيوم الذي بدأ على مهل:

- ها هي الشمس ستنجب الضوء مهما طال الغيم!

وطلت بعدها نبرة غريبة من أعماقه:

- ولكن الغيم سيعود!

وعاد ليمط شفتيه بعبثية:

- الشمس تحرق والغيم يُهلك، ويودوس في المنتصف.

بؤس مكلل بالجراح ارتسم فوق ملامحه، ظنته مجرد شاعر عابث يلهث خلف الفتيات.. أحد ذئاب الطبيعة الملونة في مظهر جيد وقيثارة. أغاني الشعراء لا تناسب الطبول.. الطبول في أرض البارود.

البارود هو الشمس، والمشعوذ هو الغيم، ويودوس هي الثلج والجحيم.

هدأ المطر أخيرًا، وهي ركضت.. شكرته سريعًا جدًّا حتى إن حروفها قفزت فوق بعضها بعضًا وركضت تفكر في ذريعة لتقولها لـ "زليخة" كي لا تزجرها. تُسرع في سيرها مثل ورقة شجر وتتهيأ لهجوم ضارٍ من العجوز لأنها عصت أوامر "شاهق". على جبينها ارتسمت خطوط من التجعد اليائس العاشق.

"شاهق"..

هو مجرد وقت وسينسى أمرها تمامًا.

أما "زليخة" فكانت تجلس مع شاب لطيف أنيق لا تعرف كيف سبقها إلى هناك.. صاحب القيثارة.. الشاعر.

نظرت عبر النافذة وحاولت المرور سريعًا باختباء أحمق لم يجدِ، نادتها "زليخة" وقد حملت نظرتها تأنيبًا خفيفًا، في حين مرت منه هو ابتسامة ماكرة.

صوت "زليخة" سيطر على اللحظة وقد أدارت دفة التعارف بمهارة امرأة عجوز:

- تعالي يا "نهاية".. لدينا ضيف.

ثم تابعت بحنان أمومي فيها بالفطرة:

- هذا الولد الشقي ظهر أخيرًا بعد غياب.

اتسعت ابتسامته، ثم قال باستمتاع وكأنما هواء منزل "زليخة" مع هذا الوجه الجميل الزائر يملأ شرايينه بالحياة:

- تجذبني الطبيعة رغمًا عني، تسقط أوراق الشجر في فمي وترضعني جنية النهر من ثدييها.

توردت "نهاية" على الفور، في حين زجرته "زليخة":

- تأدب يا ولد.

ضحك بخبث ثم رفع حاجبيه في براءة:

- ماذا! إنه مجرد تشبيه وحق تحبه الفتيات.

ثم رمقها.. توجه بنظرته إلى نجلها الظاهر على وجهها مباشرة:

- لا توجد جنيات في النهر يا "نهاية".. لقد قتلهنَّ "البارود" كلهنَّ.. الحقير قتل متعة الشعراء الوحيدة.

زفر وغابت نظرته في حداد ساخر بائس، كانت عيناه بهما حدة، ولكن لا تخلو من اللطافة. صوته خليط من الدفء والهمس الرائق وشعره الأسود الغزير بعيدًا عن المطر لافت للنظر. تنحنحت بتحية مبهمة وودت الرحيل، إلا أنه أوقفها بهمسٍ رائق، في حين كانت "زليخة" تضع أمامه الكعك والحليب.

- أعرف اسمك ولا تعرفين اسمي.. أليس لديكِ فضول؟

هزت كتفيها في حيرة، في حين أردفت "زليخة" وهي تعاود الجلوس بعدما قدمت له الطعام:

- "أزرق".

نظرت "نهاية" نحوهما بدهشة:

- "أزرق"!

لوى فمه بلامبالاة:

- نعم، اسم غريب.. نحن خمسة إخوة: "أزرق"، "أحمر"، "أخضر"، "أبيض"، "أسود".

ابتهجت ملامحها وبدت مثل طفلة لديها استعداد لسماع الحكايات:

- حقًّا؟

كادت "زليخة" تسكب الحليب فوق رأسه قبل أن يضحك هو من قلبه ثم تابع:

- لا.. لا.. إنها حكاية فقط في رأسي تمتعني مع العصافير الصغار مثلكِ. تخيلي رجلًا اسمه "أحمر" أو "أخضر" يا لمأساته.

زمَّت شفتيها في غضب واستقامت بعدما كانت قد جلست فعلًا، ثم قالت وقد اغرورقت عيناها بمنابع العبرات:

- أنت سيئ.. تجذبني من حزني بحكاية مزيفة ثم تضحك. أنا سيئة لأنني تركت بكائي لأستمع لك.

كانت تتكلم بعفوية خالصة، لا ترتب حروفها ولا تفكر في صورة شعورها غير المرتب. تنحدر في هوة بكاء رغمًا عنها وتشعر بالذنب للحظات السعادة المسروقة. قال فجأة وبنبرة عميقة ذكية:

- هل يُذهِب البكاء الحزنَ؟

جاوبته بتردد:

- لا.

- هل يزيده؟

- لا أعرف، ربما.

- هل يعيد كلاهما ما فقدتِه؟

صرخت رغمًا عنها:

- لا أبكي لتعود أمي.. أبكي لأنني حزينة وكفى.

قال ببساطة وقد بدت كلماته خليطًا من العبث والسلام:

- حزن غضب فرح بكاء هزيمة انتصار شجاعة هروب.. لن تتحكمي في شعورك أو ما قد يحدث لكِ.. تقبليه وكفى.

هدأ انتحابها قليلًا، ثم وجدت نفسها تسأله فجأة:

- هل فقدتَ أمكَ أم إنها معكَ؟

ارتاحت نبرته بسخرية:

- فقدتُها يا عزيزتي قبل أن أعرفها.. سقط أبي المخمور الأحمق من فوق جرف وهو يحتفل بولادتي وذهبت هي إلى الأفعى.

ثم غامت نظرته كمن يرقد على ماء ونار:

- قوانين "بارود" تكره الأمهات على ما يبدو.

تنهدت وقد مالت إلى السكون، سكبت "زليخة" لها الحليب وأعادتها إلى الجلوس معهم مجددًا.. طلبت من أزرق أن يرتجل شعرًا ما لعله يسليهم وبالأخص "نهاية". ولكن "نهاية" سألته باهتمام لحكايته:

- ومن أطلق عليك اسم أزرق.

- هذه العجوز.

قالها قاطبًا جبينه، في حين ضحكت "زليخة" ضحكة خشنة مرحة. شقت الحروف شفتيه بعدها بغيظ:

- تقول إنه يعني شريان الحياة والحرية، وكلام عبثي كثير من هذا الهراء.

ثم سحب القيثارة، ارتجل شعره وقال بما يشبه الغناء:

- أزرق أزرق لون الماء.. أضرم بارود ناره في أجساد الأحياء. أحمر أحمر لون بغاء.. ولكنّ الطاووس ينتشي بمذاق الدماء.. أخضر أخضر لون الهبة في جسد امرأة مرمري تتدلى مذبوحة من شجرة.. أبيض أبيض داخل قلبي، حتى إن ابتلعت الحبر.. أسود أسود داخل عقلي.. يتصبب العرق مني كالزئبق وأنال امرأتي بحظ نرد وأرسم فوق جبينها كل الألوان. أنا كل الألوان. أزرق أزرق.

مال إلى الخلف بانتشاء مع انتهاء شِعره.. نظرة مكسورة ثم نظرة صارمة ثم نظرة ثورة، ظالم لا بدَّ من رحيله، وإن كان سلاحه الحالي الغناء. تلك الجميلة أمامه تشبه لطافة الحياة، ورق الشجر وندى الأزهار ومنديل قماشي من الحرير. قد يتزوجها كما تمرر "زليخة" في معاني نظرتها.

يتزوجها ويترك الشعر ويعيش بالفأس والمحراث كي يزداد مال "البارود" أكثر وسطوته، ثم يموت ميتة بلا معنى وتأكلها بعده أفعى.

أزرق أزرق

فأسه كلماته وسيفه الشعر

قوته ليست بهلوانية كما يردد العامة بسكونهم المخزي

قوته شوكة في ظهر كل ظالم

أعاد ترتيب ما ارتجله في ذاكرته وحفظه

أغنية جديدة

ضد الظلم

ووعي للعقول الصغيرة مهما حاول "البارود" تقييدها

***

فقدت إحساسها بالزمن.. فقدت إحساسها بقدميها.. فقدت إحساسها بتمردها وأنوثتها ولون العشب حولها.

هي مع كتلة سوداء تسحب الإحساس.

كان يبقيها أمامه على الفرس، لا يتحدث إليها أبدًا.. وحيدان في عراء لا ينتهي، يتوقفان أحيانًا للنوم أو قضاء الحاجة واصطياد طائر مسكين ما وشويه ثم إكمال رحلتهما في صمت. عقلها تعب من محاولات تكهن القادم، قلبها يفتقد "بداية" و"نهاية" و"ضوء" حتى.. في النهار لا تلمح وجهه إلا نادرًا، ملامحه مختفية تحت القلنسوة وكأنه عدو شمس، وفي الليل قسماته المصقولة تصيبها بالاضطراب. لم يكن ينظر إليها مثل نظرات الرجال في العادة.. لا ينتبه لجمالها ولا تتسلل عيناه لفتنتها.

العالم حولهما ساكن مهجور. فراغ تقتحمه صهوة حصان أسود. كانت ضخامة الفرس تتجلى في عدوه، تكاد تشعر أن الأرض تُهرَس تحت حوافره والرمال تشتعل. تنطلق هي في العدو رغمًا عنها معهم وتسمع صفير الريح وهي تمر بسرعة فائقة عكس اتجاهها في أذنيها.

فجأة ووسط العزلة والتيه والتعب والصمت المطبق الممل الذي كاد يفقدها عقلها، ظهر درب كئيب طويل حجره ملون وحدوده جماجم.. جماجم بشرية حقيقية.. رعشة قاتمة احتلت جسدها قبل أن تقول وهي تحاول السيطرة على هذا الشعور المقبض الذي تمكن منها:

- ما هذا؟

قال بنبرة لها صلابة الحجر:

- إنها جماجم من حاولوا العبور.. وضعها "الثقوب" استعراضًا لقوتهم.

- "ثقوب".. ماذا تعني بـ"الثقوب".

- حراس مملكة النوم.. سُمُّوا بهذا الاسم لأن أسهمهم إذا ما لمحتكِ تخترق جسدك في لحظات.. تملؤه بالثقوب.

أطبق أجفانه وكأنما ملَّ من الحديث.. كان يتحرك بالفرس بثقة وثبات كاد يثير جنونها، جرحه من المعركة السابقة لم يلتئم تمامًا بعد، من المستحيل أن ينجو هذا الرجل في أي مواجهة قادمة وعلى قدر رغبتها في التخلص منه على قدر خوفها من أن تقع أسيرة لهؤلاء "الثقوب".

- ماذا سنفعل؟

قالتها بغضب مندمج بالقلق، في حين التمعت عيناها وهي تستدير وتواجهه ببريق ساحر تجاهله على الفور.. قال ساخرًا ببرود:

- توقفتِ ثلاثة أيام عن الحديث وتثرثرين الآن؟!

عاد تمردها إلى الحياة وواجهته ببريق محتد:

- لا تجوز الثرثرة مع خاطف.. خادم البارود وخائنه.. قاتل النغول.

كانت تستفزه في أسوأ وقت ممكن، إلا أنها في لحظة العناد لا تبالي.. لا تسيطر.. امرأة تحتاج إلى مائة درس في الثبات وحده، فماذا عن الباقي. زفر بيأس ثم قال بنبرة رخيمة مقتضبة:

- جيد.. إذن لن تمانعي فيما سأفعله بعد قليل.

نظرت نحوه بترقب:

- ماذا ستفعل؟

تعلقت عيناه بالمسافة أمامه وكان يقيسها في صمت ثم قال بغموض:

- ما أفعله لن يعجبكِ.. ولكنه سيعجبني جدًّا.

وقبل أن تدرك كان السهم المخدر الصغير انسل من يديه بمهارة ليستقر في العرق النابض في عنقها قبل أن تغيب عن الوعي تمامًا.

***

ممر من أجل حصان يحتاج إلى سرج خاص، تصميم صنعه أهل المطرقة مع قارورة أعشاب سحرية أصروا عليه أن يدهن به خشم الحصان قبل أن يخوض الممر. أعشاب ستجعله أكثر هدوءًا.. أما الفرسة المتمردة الأخرى التي حتمًا تحتاج إلى ترويض كان سبيله الوحيد معها التخدير التام. فقدت وعيها في لحظات، سقطت برأسها فوق صدره، فزفر بصلابة ثم حاول إمالة عنقها في وضع مريح فلم يستطع. مال رأسها إلى الخلف في خضم محاولات وتسلل عبقها المدمج برائحة زهور حية إلى أنفه. من جديد زفر وتجاهل فتنتها النائمة وبعنف تلك المرة أحاط خصرها ثم قلبها على بطنها أمامه، فباتت معلقة بشكل عرضي على مقدمة الحصان ثم بدأ يتحرك بحرص.. نحو المملكة التي لا يجوز فيها قتال.. **مملكة النوم**.

كان مسار المملكة يبدأ بتجويف منحدر بعد ممر الجماجم. المسار بعدها رمل مختلط بأوراق شجر جافة موضوعة بحرص من أجل أن ينبه الدوس عليها الحراس النائمين. التعويذة الوحيدة القادرة على هزم صوت تلك الأوراق عشب خاص دُهِنَتْ بها حوافر حصانه كي يضمن خطوات مثل صمت الموتى. صدره يطلق الهواء بحرص، عيناه تدور بحذر حوله، وقد بدأت أجساد الثقوب في الظهور.. مائة وخمسون مسخًا لهم لون يشبه لون لحاء الشجر الميت، وعيون مستديرة صغيرة لها حدة عيون

التماسيح. كان مظهرهم يشبه البشر، ولكن قامة الواحد منهم تبلغ ضعف قامة رجل ضخم، ومن الجسد تطل عشر أذرع! لا يوجد لهم منخار كانوا يتنفسون من فمهم الذي يشبه قوسًا كئيبًا محاطًا بوشوم من اللهب. بدوا وكأنهم محاربون خرجوا من شدق الشيطان نفسه.. الأساطير والتاريخ الحقيقي والكاذب يجزم أن هزيمتهم مستحيلة. نقطة ضعفهم واحدة لا غير، وهي أنهم على الدوام نيام لا يستيقظون سوى للقتل.

كانوا ملتفين وهم في نعاسهم المخيف في دوائر متتابعة أشبه بسلاسل متصلة، وبينهم في المركز كنزهم الثمين.. كنز بحث عنه الأشقياء ولم ينالوا سوى مكانٍ في موكب الجماجم. حدق بعمق نحو بئر الذهب التي تلفظ كل مدة كنوزها فتثير النفس وتذهب العقل وتزرع في القلوب الشجاعة الحمقاء للمنال، ثم ابتسم ساخرًا وأكمل مساره.. مملكة النوم أسهل رحلاته على الإطلاق، فهو رجل لن تهز ثباته كنوز الأرض ولن تحيده عن هدفه.. هدفه الذي صبر لسنوات طوال كي يناله.. **سقوط البارود**.

***

يخنة لحم ومطر.. إناء به بقايا نبيذ.. ورأسها بثقل قبيلة!

ببطء بدأ كل شيء يتضح، هي مستندة إلى جدار في وضع جلوس، بلدة تبدو وكأنها مهجورة تظهر أمامها في شكل عدة منازل، وغيمات عدة تجود بالمطر. برودة طفيفة تسربت لجسدها فحاولت أن تعتدل في جلستها، وحينها اصطدمت بصلابة جسده.. كان يجلس جوارها مباشرةً، بصمته وسكونه وصرامته الوقحة وقلنسوته التي نادرًا ما يستغنى عنها. انتفضت بحزم وقد بدأت ذاكرتها تعود:

- أنت.. أنت ماذا فعلت بي؟ لقد غرزت شيئًا ما في عنقي.

لم يجبها، بوجه ثابت الملامح تأمل تساقط الزخات وقد اندمجت مع قسمات وجهه قسوة صلبة.. أشار لها بالصمت وقد ترك مساحة سمعه لمعزوفة عواء الذئاب. الشمس كانت قد قاربت على المغيب، انتبهت أنهم يجلسون على مدخل حانة مهجورة، الكثير من النبيذ المعتق لهذا السكير وكأنه يُكافئ نفسه! وفجأة قفزت بعقلها الفكرة.. لو فقد تركيزه من الممكن أن تهرب. تتسلل من وسط سكونه.. التمعت عيناها بخبث ثم قالت وهي تدعي الإنهاك:

- أنا جائعة.

لم يتحدث أيضًا، فقط أشار لها بإصبعه إلى باقي اليخنة وكيس خبز جاف أسمر، وعاد ليرتشف نبيذه دون أن يكترث بها. غمغمت بغضب وهي تتمنى أن تلتهمه الذئاب التي يستمع لها، ومضطرة قضمت الخبز والطعام البشع. كان الجوع يقرص معدتها، وجسدها كله يؤلمها بسبب هذا المخدر اللعين الذي على الأرجح ناله من نبات ما كي يخلطه بدمائها. حين نظرت إليه بجانب عينيها للمرة الثانية، لاحظت أنه أطبق جفونه بهدوء وغاب في شرود يخصه. لم يكن نائمًا، استطاعتْ تبين هذا من عدم انتظام أنفاسه، ولكنه بدا مستغرقًا في ظلام كثيف يخصه. تعبير في قتامة الفحم طلَّ منه حين فقط حاولت أن تتحرك:

- أين تظنين نفسكِ ذاهبة؟

زفرت بضيق ثم لوَت شفتيها ممررة كذبة سريعة:

- أريد أن أقضي حاجتي.

ردَّ بصرامة:

- الحانة بها دورة مياه.. اذهبي إلى الداخل.

زفرت بتململ ودخلت إلى المكان المهجور وعقلها يفكر سريعًا عن مخرج من الخلف.. أي هروب أو اختباء حتى.. ضغطت كف يدها بتوتر وقد وجدت فعلًا نافذة قديمة مسدودة ببعض الأخشاب الضعيفة، محاولات عدة حريصة كي لا تمرِّر صوتًا، وتفكير سريع غير متوازن ثم محاولة قفز حيث كانت النافذة تطل على أرض منحدرة بمستوى أدنى. ما بعد الهروب لم يشغل تفكيرها، كانت تفكر أن تهرب منه وفقط.. أن تتخلص بأي شكل من هذا الاحتجاز.

فعلتها.. سريعًا جدًّا، وبرشاقة وعزيمة وإن سقطت.. وسقطت فعلًا من حافة النافذة وقد كاد جسدها اللين أن يتحطم فوق صلابة صدره.

شهقت بصدمة، في حين ظهرت قسوة وجهه أمامها في الظلام وبدت دُكنة عينيه كقار مشتعل. نبرته تتسرب من بين أسنانه بغضب تام ونفاد صبر يود أن يفتتها:

- أين تظنين نفسك ذاهبة؟

تملَّصت.. صرخت.. تلوَّت بعنف مثل نمرة ملت الاحتجاز:

- إلى أي مكان بعيدًا عنك.. هل تظن أنني سأستسلم بسهولة لأسرِكَ هذا وخطتكَ التي لا أعلم عنها شيئًا.. أنا امرأة حرة.. أنا "قلب الأرقب".

اشتعلت ملامحه مثل بركان ثائر:

- حرة! وأي حرية كنتِ ستنالينها في فراش "البارود" يا "قلب الأرقب".

تلوَّن وجهها بحمرة غضب وخزي:

- هذا ليس من شأنكَ.

كانت قبضته شديدة القسوة حول ذراعها حتى شعرت أنها تكاد تخلع، كتمت ألمها في كبرياء وهو يدفعها دفعًا ثم يعيدها إلى المكان الذي كان يجلسها فيه، وكأنما يغرسها في الأرض غرسًا. قال بلهجة آمرة بها قتامة تكفي يودوس كلها:

- أخبرتكِ قبلها، قد أقتلكِ لا أبالي.

طالعتْ نظرة عينيه الصارمة وأرادت أن تواجهه بجسارة وعناد ولكنها توقفت.. لم يكن يناوش، كان الغضب بداخله كالزئير المختلط بالأنياب المغتاظة، ولو حاولت الاقتراب ستكون هي الفريسة.

رفعت ذقنها في كبرياء وسحبت قنينة نبيذ ارتشفت منه القليل تروي ظمأها وتطلب الدفء.. ثم انكمشت في مكانها ونامت، ورغمًا عنها أجَّلت فكرة الهروب حتى حين.. أو ربما المملكة القادمة التي ستحرص أن تمر بها بتيقظ كامل.

وحينها هي من ستقتله.

***

مقعد نصف وثير، وظلام الليل الهانئ بعد قتل وحش..

كان يضطجع مغمضًا عينيه في نوم تام، ملامحه المصقولة بصلابة مرتاحة باسترخاء كامل وساقاه ممددتان أمامه، وعقله غارق في عتمته الخاصة. عتمته وعرة خطيرة وتعبيراته مثل قناع ثلجي بارد.

وقفت أمامه في صمت.. مضمخة بشعور متعدد من الشكر والإعجاب والانتباه.. اقتربت منه وعلى وجهها الفاتن

تردد متناثر في فوضى، حدقت إليه وكأنما تحدق إلى كائن غريب.. رجل! بعد سنوات احتجاز في قبو المشعوذ وحياة محصورة بين "جمر" و"ثلج" والبومة هذا هو الرجل الوحيد الذي رأته.. تعاملت معه.. فهمت معنى تلك الأشواك الموجودة على وجهه وعقدة الحاجبين الساخرة والوقاحة حين يناوشها بنظرته. تعلقت عيناها بملامحه.. تفاصيله.. ابتسمت بخجل لا تصدق حقًّا نفسها..

هل.. انجذبت إليه؟!

- غبية!

رددها عقلها بهمس ليدفعها للابتعاد عنه، ولكنها لم تفعل.. قلبها سمَّرها أمامه. أغمضت عينيها في محاولة مقاومة مستحيلة لذلك الشعور التي تتحرك نحوه، ثم عادت وفتحتها مع تأمل تام له.

هذا **الغضب** الذي أنقذها..

ملامح المعركة بينه وبين الوحش ما زالت حاضرة بتفاصيلها في عقلها، شجاعته.. قوته.. لا يبدو سيئًا كما تحدثتْ عنه "ثلج".. بل يبدو أفضل رجل في يودوس. لم تكن تدرك أنها اقتربت بوجهها منه أكثر مما يجب، كان هو شبه راقد على مقعده، وهي تستند بركبتيها إلى مسند مبطن فباتت قريبة من وجهه. إحساس لاذع حارق مثير مخيف يتمكن منها، وشفتاها الورديتان على مسافة تبيح مع بعض الجذب قُبلة.

فجأة وبلا مقدمات فتح عينيه.. أجفلها تمامًا قدر تجمد الدماء في عروقها وحين حاولت الابتعاد أمسك بمؤخرة رأسها بيده فجمَّد حركتها. أبقاها أسيرة للحظات حارقة وفجَّر ثورة عواطف كثيرة عليها. عيناه صلبة قاتمة مثل ملامحه لا تمرر تعبيرًا واضحًا ولكنه لا يتركها، بل قرَّبها

أكثر لحد يبيح التقاء شفتين جامح..

- أرجوكَ!

قالتها بهمسٍ عاجز عن التنفس، في حين رفع هو أحد حاجبيه برضاً ولم يفك أسرها.. تابعت وعظامها ترتج:

- اتركني.

شبح ابتسامة صخرية ارتسم فوق شفتيه ثم نظر نحوها بغموض لم تفهمه:

- لقد كنتُ متعبًا وأنتِ أيقظتِني.

ردَّت على الفور بهلع:

- لا.. لا.. لم أفعل.. لم ألمسكَ حتى.

همس بمكر دون أن يحل قيدها:

- ماذا كنتِ تفعلين إذن؟

وانقلب السحر على الساحر.. لم يتصور أن حُمرة الخجل قد تهديها تلك الفتنة النارية.. فتنة خطرة موصولة بأجراس تذهب العقل فيه وتطلق الهذيان بلا رحمة. فتنة خرافية تشبه الحكايات والأساطير الممنوعة، فتنة حارقة للقلوب والعقول ومحاجر الأعين، فتنة قادرة على إطلاق كل وحوشه.

اشتعلت عيناه بها ولها، ثم قال بنبرة دافئة لم تخلُ من الخشونة وهو يحتجزها بقوة أخرى تفوق قبضته.. قوة تأثيره.

- العصفورة لا تحلق عاليًا يا جميلة.. تحتاج إلى صقر، ولكن هل تعرفين ما المشكلة.. الصقر إن حلق بها لن يحملها فوق ظهره.. بل بمخالبه.

تنهدتْ بارتباك وبراءة عاجزة عن فهم مقصده ثم تأملته

ببساطة قاتلة:

- أأنت غاضب مني؟

استقام بجذعه فبات قربه منها كارثيًّا، ثم همس بنبرة قادرة على تدميرها تمامًا:

- لا أنصحكِ بإغضابي.. غضبي يجعلني أفعل أشياء محرمة.. خطيرة فوق احتمالكِ.

هزت رأسها على الفور في طاعة فطرية للنجاة وقد ارتعد جسدها كله رغمًا عنها.. كانت تشعر وكأن لمساته تحرقها.. تحرقها بشكل لا تفهمه. هي الوردة الضالة في غابة رجل تتكوم في قلبه المآسي.

مع خفقات قلبها المتتابعة مرت صرامة نبرته جوار أذنيها وقد خف من قيده رأسَها قليلًا:

- غدًا لدينا يوم طويل جدًّا.

كانت نظراته تحاصرها بقدر يفوق الاحتمال، لعبة صغيرة بدأتها ولا تدرك أن الألعاب اللطيفة لا تجوز مع رجلٍ مثله. قالت وهي تتحاشى الالتقاء بنظرته:

- ماذا سنفعل؟

مط شفتيه بخبث:

- أولًا ستعدين لي حساء الخضراوات والخوخ.

أغمضت عينيها مومئة:

- وبعدها أسنرحل من هنا؟

أجاب ببرود وملامحه تجنح نحو جدية صارمة:

- لا تقلقي.. لا أظن أن المشعوذ قد علم بعد.. ولكن أحدهم يبعث بظلاله.

وتعلقت نظرته بزاوية في العتمة وهو يستكمل:

- كان هذا الأضعف يا جميلة.. فكوني ذكية ولا تبتعدي أكثر مما يجب.

وأغلق عينيه ليعود إلى النوم.. ولكن تلك المرة أغلقها عليها.. كان وجهها آخر ما التقطته عيناه.

***

- اركبي!

تطلعت إليه في صدمة وإلى الحصان بعدها، ثم عقدت حاجبيها بلا فهم:

- ماذا؟

زفر بضيق وهو يُكمل تفكيك العربة ثم قال بصوت أجش متسارع:

- سنتخلص من العربة.. لهذا عليكِ أن تتعلمي كيف تمتطين حصانًا.

تمتطينه فقط! هذا الحصان الغريب بستة حوافر ويبدو بحجم قنطور ضخم!! كانت أصابعه مطبقة على اللجام، وعيناه ترمقها بضراوة وهي تتراجع رافضة:

- لا.. لا أستطيع.

بدت نبرته حانقة وكأنما يغرس حروفه بها غرسًا بعد أن استيقظ بأسوأ مزاجية في العالم:

- لا أسألكِ!

ثم جذبها بقوة بذراع واحدة فاستحوذ على خصرها ليرفعها بعدها بسهولة ويضعها فوق السرج دون إرادة منها. شعرت برهبة تامة.. حتى إنها كانت تخاف أن تُلامس اللجام. كانت ذراعاها متشنجتين بشدة وتورد وجنتيها

غاب.. باتت شاحبة جميلة بشكل مختلف. رمقها بغموض ثم غابت عيناه مع مسافة السهول الشاسعة على مدد بصره وقال بنبرة جادة:

- أمامنا طريق طويل مفتوح.. هكذا سنكون فرائس سهلة للعقاب.

ارتجفت خوفًا مع ذكر الطائر المخيف، نظرة ضارية منه اقتنصتها حين لمح هذا الخوف ثم التفت بحدة نحو الحصان الآخر ليمتطيه على الفور بحركة سريعة رشيقة وطلب منها بشكل حازم أن تشد اللجام كي تبدأ في توجيه حصانها. شعرت بالتيه وهي تحاول بشكل مبتدئ خائب والحصان لا يتحرك وكأنما يعاندها، وعيناها ترمق رحيله بيأس وهو يسبقها بسرعة معتدلة. هزت رأسها بقنوط ووجدت نفسها تناديه بعلو صوتها:

- "غضب".. لا أستطيع!

ارتجفت عضلة قاسية من وجهه وهي تذكر اسمه بعفوية حُرَّة وتجمد في مكانه وهلةً قبل أن يقول بجمود هادئ نوعًا ما:

- لا تقلقي.. سأعلمكِ.

استدار بحصانه فوجدها تتمايل على الحصان بقلة حيلة، تترنح مثل أرنبة صغيرة وضعوها فوق صهوة في اتجاه ضواري الغابة. كان لون السماء الأزرق العميق يناسب ملامحها وخُضرة الأعشاب تندمج بلون عينيها في وهج يفوق الاحتمال.

أشرقت ملامحها وهو يعود إليها وكأنما هو منقذها الوحيد.. بطلها المغوار دون منافس..

أسبلت جفنيها بخجل:

- لا تتركني أرجوك.

عقد حاجبيه وهو يدور حولها بحصانه:

- من أين أتت لكِ تلك الفكرة؟

قالت بتأثر وقد لاح على وجهها شجن سنوات سابقة:

- ربما تمل.. ربما تختار حياتك وليس الهلاك مع ظلال المشعوذ.

ارتفع حاجباه في سخرية مظلمة:

- ربما الهلاك قدري.

شعرت بقلبها يخفق في جنون.. خوف وعشق!

- لا.. لا تقل هذا أرجوك.

انحنى فجأة فأجفلها، كان الحصانان يقفان ملتصقين بشكل عكسي وهو قريب منها جدًّا.. تقارب ذكرها بليلة الأمس.. همس بمشاكسة:

- تخافين عليَّ؟!

تخضب وجهها كله بحمرة مُرهقة وتلعثمت على الفور:

- أخاف على الجميع.. على "ثلج" والبومة و"جمر" حتى، وعلى هذا العصفور من صقر قد يناله في لحظة غدر.

غامت عيناه بسخرية لوهلة بسيطة لم تدركها حين ذكرت اسم أحد الجنيتين ثم نظر إليها نظرة ماكرة مدعية وهو يمط شفتيه في حزن:

- بومة وعصفور.. يبدو أنني لست مميزًا لديكِ أبدًا.

ثم غمز لها وتحرك من جديد وهو يشد اللجام ولكن ببطء أكثر وجوارها تلك المرة وهو يعلمها أن تفعل مثله.. مرة تلو أخرى فاجأته، كانت سريعة البديهة عكس ما يبدو

عليها، مروِّضة بالفطرة، فالفرس الذي كان عنيدًا بات معها يمامة. كانت مع كل ركضة وقفزة تتحرر.. تشعر بنفسها بشكل مختلف، خصلاتها تتطاير خلفها وكأنما هي أميرة من حكاية ممنوعة وأنفاسها تتلاحق بجنون ممتع وهي تسابقه. شعرت بقوة ساقيها على الرِّكاب وحرية أناملها وهي تداعب اللجام، وسط السهول الخضراء والمساحة الشاسعة التي يبدو أنها لن تنتهي بسهولة وعبر تلال قريبة لمحت جسد امرأة.. امرأة ممشوقة القوام ترتدي ثوبًا أبيض شفافًا وتنظر إلى كليهما بابتسامة غامضة وكأنها تنتظر قدومهما. شعرها أسود لامع كشلال مجدول يصل إلى كاحليها وعيناها غريبة بلون رمال الصحراء الذهبية. ارتعشت بتوجس من جمالها المخيف شعرت برهبة خانقة وأرادت الرحيل، وصوت غضب يرن في أذنيها باقتضاب قاتم:

- إنها "تاباي"!

أبطأ حركة حصانه وقد التمعت عينا المرأة مع قدومه، وتبادل كلاهما تحية صامتة قبل أن يتابع بلهجة ثلجية:

- لعنة الرجال في الغابة.. من يعاشرها مفقود.

سألته بتوتر:

- ماذا تعني؟

قست ملامحه وهو يتابع:

- ألم أخبركِ من قبل أن الغابة هي الظلام داخلنا.. و"تاباي"(8)* العقاب.

بريقٍ شراسة ارتسم على وجهه وهو يحرك الرِّكاب بعنف موجهًا فرسه للمرأة، في حين حاولت هي أن توقفه بتوسل:

- انتظر لا تذهب.

التوَت شفتاه بسخرية قاتمة:

- تخافين عليَّ وحدي الآن وليس العصفور.

ردَّت بقلق عفوي:

- لا تقترب منها.. ألا تقول إنها تُهلك الرجال.

عقد حاجبيه بمكر ثم قال بنبرة مفعمة بالقوة والغموض.. غموض رجل سكتت عنه نبوءات "حرير":

- ألا تتذكرين.. أنا رجل صادَق ظلامه!

وسبقها نحو الأنثى.. هناك على قمة التل كان هناك منزل منزوٍ أشبه بكهف، أرائكه صخور وأفرشته رمال خشنة، كانَ الظلام قد حل حين لحقتهم هي وحصانها بخطوات بطيئة، ظلام لا يقطعه سوى ضوء شموع خفيف مرتكز على ثمار التفاح.. أنين أنثى في البداية لم تفهمه وحميمية لم تعرفها سوى في الأحلام. كان مستلقيًا على ظهره والمرأة الجميلة المخيفة تعتليه وهي عارية تمامًا وملامحها متلونة بالنشوة. أما هو كان صلبًا كالحجر، وكأن ما يحدث له مجرد هواء يتنفسه للحاجة دون أي متعة. بل التقت عيناه عينيها دون أن يحيد عنها، رمقها بقسوة لم تحتملها وظل يحتجزها حتى تراجعت في صدمة وهربت.

***

أطلقت نفسًا متعبًا في حين وضعت أمام الحصانين بعض الحشائش وظلت تنظر بوجوم إلى مياه بحيرة صغيرة كان شاطئها بعض الحصى الفضي اللامع. غضب مغتاظ سيطر على أنفاسها وهي تتذكر ما رأته، شعور قاتم بأشياء عدة لم تكن تعرفها.. خوف.. خجل.. غيرة! خطورة الكلمة الأخيرة أربكتها وشعرت بقلبها وكأنه محاط بقبضة مؤلمة تهرسه. كانت تمضغ ثمار التوتِ بغضب جائع وتتجاهل

النظر إلى الخلف كي لا تلمح موضعهما، وعيناها ممتلئة بفيض من دمع يود الانفجار.

ظلت هكذا وسط عزلتها مدةً لم تحسبها حتى شعرت بصوته خلفها يطل فجأة وكأنما يخترق عظامها:

- ألا يوجد بعض التوت من أجلي.. أنا جائع.

التوَى فمه بابتسامة خبيثة وهو يجاورها بمكر على صخرتها الصغيرة حتى اصطدم كتفه الصلب بجسدها اللين فابتعدت قدر استطاعتها، ثم مدت يدها ببعض التوتِ من أجله. لم تكن تنظر نحوه، كانت غاضبة منه مثل طفلة، وذراعها ممدودة أمامه دون أن يأخذ شيء. فجأة مع استدارتها نحوه انتبهت أنه يقترب ويأكل التوت من يدها مباشرة.. شفتاه تلامس باطن كفها بهدوء أرجفها ثم ترتاح عيناه بسلامٍ وهو يمضغ الثمرة ويبتلع عصارتها بانتشاء. ظل مستحوذًا على كفها الصغيرة حتى أنهى ما فيه ثم حررها أخيرًا، وقال وعيناه تتألق ببريق ساحر قررت تجاهله:

- لماذا رحلتِ؟

زفرت بارتعاش لا تصدقه:

- ماذا؟ هل كان عليَّ المكوث!

لوى شفتيه بمكر وقد جذبها إلى الحديث الذي يريده، ثم قال وهو يسدل جفونه بإرهاق:

- هذا ما يحتاج إليه الرجل وتفعله المرأة.

سمع أنفاسها المضطربة مع كلماته واحتكاك قدميها التي بدأت تحركهما بارتباك وترسم على الأرض بهما أشكالًا غير مفهومة، حينها فتح عينيه واجتاحها بنظرة لم ترها ثم قال بدفء ممحوح:

- أنتِ ما زالتِ صغيرة جدًّا!

ارتجفت أنفاسها وهي ترفع خصرها عن الصخرة كي تستقيم وتتركه، إلا أنه عاد وأجلسها بذراع واحدة دون أن يتحرك.. وقال فجأة بقسوة قاتمة:

- هل تبكين؟

انتبهت أن دموعها انسابت رغمًا عنها فعلًا، خدعتها ولاحقت بعضها بعضًا لترسم خريطة فوق وجنتيها، قالت نافية بحدة:

- لا!

جذبها من ذراعها على الفور حتى واجهته، عيناه أمام عينيها شفتاه أمام شفتيها أنفاسه اختلطت بأنفاسها.. قال بصرامة مشبعة بلهيب مستعر:

- هل تغارين؟!

في قلبها عاصفة مدوية، شعور يقتلها.. أغمضت عينيها كي تمنع هذا الشلال الغبي المهين ولكنها لم تستطع، بل هزمها أكثر.. أنين تسرب منها بقهر وحين فتحت عينيها اصطدمت بنظرة سوداوية منه لم ترها من قبل. ظلام تام.. ظلام دامس!

وأسنانه تصطك في تحذير وعيناه تُهلكها:

- أنا لستُ الرجل الذي يستحق هذا!

وتركها ورحل.. لـ"تاباي".. للعنة الغابة.. لوحشة تناسب رجلًا مثله.

***

في ظل شجرة ضخمة، وأمام بحيرة محاطة من جهاتها الأربع بتماثيل رمزية تمثل ظلال المشعوذ وقف جوار

تمثال الأفعى. أمامه مجسم العُقاب وعلى الجوانب الوحش والمستذئب.

في قاع نظرته أسرار مدفونة..

وفي رأس طائره التاجي نصف المعرفة!

وقفت على بُعد خطوات منه، تشعر وكأنما حجزت بقعتها مبكرًا في قاع الجحيم.. أحيانًا يتجاهلها أيامًا ولا يتحدث إليها وأحيانًا يبقيها جواره.. يقول إنها تفكر وهو في العادة يذبح المفكّرين ولكنها مسلية.. أفضل من تاريخه الكئيب الذي كان يجول في الطرقات واختفى مع اختفاء جبّاره. بقايا هشيم انتفض في بؤبؤيه قبل أن تميل شفتاه بتعبير ساخر:

- تعرفين من هؤلاء؟

أخفضت رأسها في طاعة لا تمتلك سواها مع "البارود":

- نعم يا سيدي.. إنها ظلال المشعوذ.

ابتسامة وحشية ارتسمت على شفتيه:

- وهل تعلمين لمَ وضعتهم هنا؟

- لا!

- فكري.. أحب مراقبة أفكاركِ.

قالها بنبرة صارمة أخافتها.. يعطيها شعورًا وكأنها مثل دجاجة.. سكان يودوس جميعًا دجاجاته، يراقب أفكارهم وأحلامهم وأوهامهم ويفعل بهم ما يشاء ضاحكًا في النهاية. ولكن على الحاكم دائمًا مراقبة دجاجاته فقد يختبئ بينهن طير جارح.

ردَّت على الفور:

- ربما لديك تعويذة ما تزرع الحياة بهم فتهزم ظلاله.

ضحك ملء شدقيه:

- تعويذة المينوتور لن تتكرر، فالساحرة التي صنعتها لا يوجد لها مثيل في يودوس.

- وأين هي؟

- دفنتُها في بئر.

قالها بنبرة حازمة سوداء، تاريخ حقيقي قاتم بمذاق أحشاء متعفنة. بين حروفه أحيانًا نفاخ تهلك مستمعيه، ولهذا فهم سكان يودوس معنى الصمت. الصمت عُزلة ومتاهة وبئر، سكون ما قبل العاصفة، ونحيب الموتى.

تراجعت في تبجيل، كان من الصعوبة إيجاد أحرف الآن. أسهل ما عليها فعله طبخ قلوب العذارى!

كان لون مياه البحيرة أزرق يميل إلى القرمز تحت ضوء الشمس، لونه المفضل! بدت نظرته استثنائية، مثل نقش بارز يحتل تعبيرات وجهه وهو يفسر بنوع من الأريحية الساخرة:

- أنا رجلٌ لا ينسى ثأره، دومًا ما سيسعى للانتقام.

تسربت حروفها ببأس:

- لا تعرف الغفران؟

ابتسم ابتسامة مرعبة، قرقعت عظامها في لحظة:

- القلب به ظلمة تكفي الأرض كلها.

تدلى فمها بسخرية فشلت أن تكبحها، داخلها امرأة متمردة ثائرة مهما كمم فمها الخضوع:

- إذن أنت رجلٌ كريم.

بدت نظرته مثل نار موقدة.. لم يعاقبها في حينها.. ولكنه فكر في أشكال متعددة له حين يأتي الوقت المناسب. جارى سخريتها بقسوة مرعبة:

- كريم في كل شيء.. العطايا.. المتعة.. والقتل.

عبرت نظرته حدود البحيرة ثم رفع رأسه باستمتاع نحو طائره الوفي وقال وعيناه تدور بين منحوتات الظلال:

- لا بأس من احترام قوة عدوكَ، فالهزيمة تصيب النيام على أرائك الغرور.

تعكرت نبرتها بتوجس وانتباه:

- وأنت رجلٌ لا تنام؟

- أنا رجلٌ يستمتع باللعب مع أعدائه.

- هل يستطيع أحد هزيمة "غاند"!

لم تدرك حماقة ما تفوهت به إلا حين أقبض بكفه فوق عنقها حد حبس أنفاس قاتل. هسيسه مثل أنصال، ووحشية عيناه مسخ مشتعل:

- حاذري من كلامكِ يا طباخة القلوب.. العبث مع رجلٍ مثلي موت.

ثم أخذ أنفاسه وتركها فجأة، نفض يديه وكأنما يتخلص منها ومن لحظة الشر الجامحة. ابتسم بكياسة ملكية، ثم أردف بعينين ناعستين بهما سلام تام:

- أمام منحوتة "غاند" تلك سأعاشر كنزه الثمين، وبعدها ستطبخين لي القلب بنفسك.

وراقبت عيناه طيره.. سيبتعد عنه التاج لمهمة محددة.. إشارة إلى رجله في الظل.. فمثلما يطعنكَ خائن، لديك أنت خائن في الجوار.

الرجل الذي يمتلك الآن الكنز الثمين.. وسيوصلها إلى باب قصره.

"غضب الراعي"

***

الفصل الثامن
الغابة حزينة!

فجأة حل الغيم.. الضباب يجاورهم في رحلتهم من وقت ما غادروا تل "تاباي"، العصافير توقفت عن الزقزقة والأشجار بهت لونها.. أما هي وكأنما النور في وجهها انطفأ. تُلامس ظهر حصانها بشرود وتتحاشى النظر نحوه أو الحديث معه.. تتحاشاه بحزن طفلة صغيرة وقلب بكر. رمقها بنظرة جانبية ماكرة ثم أوقف حصانه ليترجل ويتوجه نحوها.. إلا أنها رفعت ذقنها في كبرياء عنيد:

- أستطيع النزول وحدي.

تعلقت عيناه بها وهو يبتسم في مكر هادئ:

- ستسقطين.. وحينها ستبكين.

أشاحت بوجهها عنه في غضب:

- وما شأنك أن أبكي!

قال بغموض وعيناه تغوص في ملامحها:

- عندها الغابة قد تبكي!

هربت من نظرته، ادعت اللامبالاة وهي تهز كتفيها:

- لن أسقط.

وفعلًا حركت جسدها لتترجل من الحصان ولكنها كانت سريعة متحفزة ففقدت توازنها على الفور ومال جسدها رغمًا عنها حد السقوط، إلا أنها شعرت بيديه القوية تتلقفها، تملصت منه على الفور ثم نظرت نحوه بعبوس:

- أنت أربكتني!

ضحك بقسوة ثم قال هامسًا:

- ربما.

تخطاها وبحث عن بعض الأخشاب كي يشعل نارًا تقي كليهما من البرودة، انتبهت عيناه للسماء.. القمر كامل وهذا يعني احتمالية مواجهة قريبة مع ظل من ظلال المشعوذ. لم يكد يمر الوقت حتى تحقق حدسه.. هطل المطر مزامنًا لهطول دموع حارقة من عينيها. عاد إلى الغرق في الشعور الغامض الذي يجتاحه.. هل حقًّا ترتبط الغابة بها، كلاهما يؤثر ببعضهما بعضًا. اقترب من جسدها المرتجف، ثم ألصق صدره بظهرها فجأة فأجفلها.. حاولت التملص وهي تبتعد عنه:

- ابتعد عني.. ماذا تفعل!

- توقفي عن البكاء.

قالها بصرامة تامة وهو يسيطر على حركتها، وهي تجاهد كي تتخلص منه. استدارت فالتقت نظرتها الحزينة عينيه.. وهج حزنها بوهج سطوته وغضبه..

قالت في يأس مرتعش:

- ابتعد.

حاصرها أكثر.. ولم تكن تدرك أن الحصار متبادلًا:

- لن أتركِكِ حتى تتوقفي عن البكاء.

تهدج صوتها بضعف لطيف:

- ألا تفهم أنا أحاول ولا أستطيع.

- لن أتركِكِ حتى تتوقفي.

اقترب منها حدَّ التلامس.. حصاره تلك المرة كان قاتلًا لها، تتلوى مثل عاشقة غاضبة وقلبها أوراق زهر بسيط.

حاولت أن تحرِك شفتيها المرتجفتين كي تقول شيئًا ولكن كلماتها حُبِستْ، وبعدها فجأة شعرت بدفء ناعم فوقهما.. كانت شفتاه تلامسهما بلطافة هادئة قبل أن يجتاحها بقسوة وتشعر وكأنما قبلته تنغرس بها غرسًا.. شهقت في صدمة تحاول الابتعاد، ولكنه لم يتركها.. حاوط خصرها بقبضة فولاذية وألصقها به ومارست شفتاه السطوة على ثغرها الرقيق حتى امتلكه.

توقف المطر..

توقف البكاء!

ابتعد بعدما مزق براءتها الأولى بطريقته ثم قال بخشونة ماكرة دون أن يتركها:

- يبدو أنني وجدت الحل.

شهقت بعنف وضربت صدره بخجل تام بعد أن خلصت نفسها منه ثم هتفت رافضة:

- أنت وقح.. أنت شرير.

- وقح أم شرير؟ اختاري.

عقدت حاجبيها بغيظ ولم تجب، فتابع متسليًا وقد بدأت روح الغابة في العودة إلى الحياة:

- اختاري وإلا سأقبلكِ ثانية.

- وقح.

قالتها على الفور وهي تهتف بانفعال بريء ثم جلست على صخرة جانبية مبتعدة عنه. راقبته بتردد وخجل جعل أصابعها كل وهلة تلامس شفتيها ونهرته عن اصطياد أرنب.. اختارت وجبة الخوخ المطبوخ وأعدتها بنفسها مع الخضراوات وقد راقه مذاقها الحلو الساخن، مذاق

يشبهها.. يتعلق به رغمًا عنه. تسلطت نظراته عليها وقد عاندته عيناه وأبت تركها، كانت قد عادت مضطرة إلى ارتداء قميصه بعد أن اتسخت أطراف الثوب من الطريق وضايقها في أثناء امتطاء الحصان، خصلاتها السوداء مفروشة حولها في مشهد فاتن وتأكل وجبتها ببطء وقد قررت مشاركتها مع الأرنب الذي كان ينوي اصطياده. تتجاهله.. بل تحاول أن تنسى أنه قبَّلها وأن هذا هزم الحزن. زفر بحرارة راضية وهو يتكئ ويراقبها قبل أن تضيق عيناه بمكر لحظي تبعه صراخ منه فجأة.. يتلوى.. يمسك ببطنه في يأس وينظر إليها..

انتفضت بهلع وركضت نحوه:

- ما بكَ.. ماذا حدث؟

كان يمسك ببطنه وينظر نحوها بوهن بعينيه السوداوين، وهي تنظر إلى الطعام بعجز, هل قتلته! هل تلك الأعشاب التي وضعتها آذته أم ماذا!

رمقته بنظرة راجية وكأنما تتوسل إليه أن يكون بخير.. ركضت نحوه ببراءة حتى صارت فوقه وقد ارتكزت حول جسده بركبتيها بينما جفونه تنسدل.

- لا.. لا.. "غضب" أرجوك.. استفِق.. حادثني.

كانت تحرك رأسه بيأس، وخصلات شعرها رغمًا عنها تساقطت حوله.. عطرها يحتله.. عطر شبيه برائحة العنب الأسود المخلوط بالكرز.. حركته في هلع تبتغي إيقاظه:

- غضب أرجوك.

- ربما عليك أن تجربي قُبلة.

تجمدت مع خشونة صوته التي تسللت، في حين امتلكتها ذراعه الصلبة تمنع حركتها من جديد، أسقطها نحوه أكثر

ثم تابع وبريق خاص يجتاح عينيه:

- ولكن تلك المرة لا أضمن أن النهاية ستعجبك.

اجتاح الخجل ملامحها ككل وتملصت سريعًا من بين ذراعيه فتركها ببساطة.. تركها وظل يراقبها في صمت غامض. قالت بارتعاش طفيف وهي تتكوم تحت دثار خفيف كي تستغرق في النوم:

- أكرهكَ يا "غضب".. أكرهك جدًّا.

نظرة حادة كالمخالب تسربت منه تفوق بساطة عبارتها ألف مرة:

- صدقيني يا جميلة أنا أستحق الكراهية!

كان الهواء باردًا، لمس ارتعاشة جسدها الضعيف من تحت الدثار، اقترب فجأة فجمَّد أوصالها، تمدد جوارها ثم أخذ دثاره فوضعه فوقها وارتاح فوق ظهره دون أن يلمسها.. ثم استكمل بنبرة ظلمتها ممتزجة بالغموض:

- غدًا ستكرهينني أكثر.. وبعد غد أكثر وأكثر وبعدها أكثر وأكثر وأكثر.

- أنا لا أكرهكَ..

قالتها بهدوء تام.. صدق عانق الأحرف في حين حاوط همسها الرفق، ابتسم بقساوة وهو يحركها كي تستدير نحوه:

- حتى لو قابلتِ المسخ؟

- أنتَ لستَ مسخًا.

كانت تتوهج وهي تجيبه، تتوهج بعشق خالص بريء أرجفه.. اشتعلت عيناه بشعور متضارب ثم جذبها نحوه، قال بنبرة مظلمة بالغة البرودة.. نبرة تحذيرية.. نبرة تحميها وربما تحميه:

- لا تتعجلي الجواب يا جميلة، فأنتِ لم تقابليه بعد.

***

انسكب حبر أسود على ورقة بيضاء.. فكانت البداية لطخة!

كانت تتأمله وهو في غياهب النوم، وجهه البيضاوي.. ملامحه المصقولة بالكثير من الحُزن.. ليس "غضب" لا.. بملامحه حزن مختبئ ثقيل يأبى تركه، يفتته هو بالقوة.. بالهمجية.. ببرية ثور ذُبِحَ أكثر من مرة!

انفرجت شفتاها وقد غالبها الخجل حين تذكرت ما حدث بينهما بالليلة الماضية، كان... كان مختلفًا، بطريقة لا تشبهه.. أو ربما هذا هو والحبر الذي انسكب فوقها في أول ليلة لها معه كان مجرد صورة.. تشوه ما لا يعبر عن حقيقته.

تراجعت ببطء ولم تلاحظ أن ابتسامة متشتتة ارتسمت فوق شفتيها بعجز، هي ما زالت خائفة منه.. تتوجس وتفكر وتتردد في كل انفعال أمامه ورغمًا عنها تهزمها عفويتها، فأحيانًا تنتصر وأحيانًا ترسب!

قشعريرة باردة سرت في جسدها وهي تفكر في منزل "حرير".. النبوءة.. قلب الراعي.. الحجرة الممنوعة الموجودة في مكان ما وعليها أن تبحث عنها.

بلا تفكر أو ترتيب وجدت نفسها بعاطفة بحتة تمد يدها نحو موضع قلبه في جسده العاري. تتلمسه بتردد وقد بدأت أناملها ترتجف مع ملامسة الشعيرات الخفيفة المتناثرة فوق صدره. أنفاسها تسارعت.. شعرت بالخجل والارتباك وعلى الفور أبعدت يدها وكأنما أصابتها صاعقة برق.. أو بالأصح حاولت.. فقد احتلت قبضته يدها

الضعيفة بلا مقدمات واحتجزها في عتمة عينيه بلا إرادة:

- هل تمارس أناملكِ تعويذة ما فوق صدري يا "بداية"!

لم تلحظ الابتسامة الجانبية التي توسدت شفتيه وهو يسألها، خفضت رأسها على الفور وقد مارس اللون الأحمر سطوته بعنف فوق وجنتيها:

- لا.. لا.. آسفة!

- هل تعتذر المرأة لملامسة زوجها!

أغمضت عينيها تتمنى محو اللحظة ثم تبعثرت تنهيدتها رغمًا عنها وهي تبرر:

- فقط كنت أطمئن عليك.

استقام في مكانه دون أن يترك يدها، ظلت عيناه مسلطة عليها وقد أسرها بسهولة في مساحته الخاصة دون جهد ثم قال ساخرًا:

- وكيف وجدتني؟!

نظرت نحوه في تيه وقد أسرته بدوره عيناها الصادقتان ولكنه يعاند.. الوحش الضاري داخله يودُّ السيطرة. نقر فوق قلبه وملامحه لا تتبدل، فوضى ماضٍ كامل ترتسم فوق قسماته:

- فاسد أم صالح!

ظلت متجمدة بينما أنياب حروفه تلتهمها:

- القلب.. فاسد أم صالح يا "بداية"؟

- لا أعلم!

ارتفع صوتها وهي تجيب.. قالتها على الفور دون تفكير أو مراوغة. رفع حاجبيه باهتمام وهي تُكمل:

- أرى أنكَ تحمل كليهما؛ الصلاح والفساد.

همس بتوحش:

- وهل يجوز؟

كانت تجيب ببساطة وردة.. رغم التردد والخوف.. الخوف دومًا ليس منه بقدر الخشية من ردة فعله، اكتمال القسوة في عالم المرأة مُزعج والنساء لا يحبِّذن الحرب.. النساء فطرتهنَّ سلام.

قالت ما يناسب رؤية عينيها الصغيرتين لعالم يودوس:

- يجوز نعم.. هذا هو صراع الجميع وفي يودوس ينصر الناس فسادهم.

عقد حاجبيه ساخرًا:

- أحدثكِ عني وتحدثينني عن يودوس كلها.. يا لكِ من امرأة قاسية.

كانت نظرتها تائهة.. هي امرأة صدقها حالة، بعيدة كل البُعد عن مناورات الغواية. دون مقدمات أرجفها بنقرة مباشرة بسبابته فوق موضع قلبها ثم قال برفق غريب:

- صالح.

وتابع هامسًا وعيناه مسلطة عليها:

- أكثر مما يجب!

دق قلبها بقوة، تسارعت أنفاسها وهي تجيب:

- تذكره وكأنه أمر سيئ؟

هاجمت نظرته غيمة من ماضٍ مجهول لها:

- العالم يحتاج إلى بعض الفساد.

عفويًّا ودون تفكير طويل حاولت أن تبتعد.. إلا أنه

جذب ذراعها بشراسة آلمتها ثم تابع بخشونة:

- العالم يحتاج إلى القسوة يا "بداية".. لمسة شر من حين إلى آخر.

قالت رافضة.. فورة شجاعة من قلب لديه طاقة حب للجميع:

- لا.. العالم يحتاج إلى الحب.. يحتاج إلى الجمال.. يحتاج إلى الرفق.

- العالم يحتاج إلى العواء.. يحتاج إلى السيف والأنياب.

- وأيضًا يحتاج إلى زقزقة العصافير وضحكة ماعز صغيرة قد تنعم بحياة هادئة في سلام دون أن يذبحها الراعي أو يأكلها الذئب.

كان يكشر عن أنيابه وكانت هي تغزل الصوف لأنثى ماعز صغيرة، يعيش في عُمق يودوس القاتم وتعيش هي في لوحة خيالية أو تريد أن تعيش في لوحة خيالية.

قُدَّت عيناه بشعاع أزرق خالص، وقال والهمس يكاد يخدشها بعاطفة وقسوة في ذات الحين:

- هل حاولت "ضوء القمر" تدمير هذا الرأس الممتلئ بترهات الخير؟

ولم تدرك الابتسامة الساخرة والمشتاقة إلى أمها التي تسربت منها:

- على الدوام!

رغبة حارقة تملكته، ليست رغبة جسدية فقط، بل رغبة شاملة.. حالة مكتملة من غضب وضحك وسكون وضجيج واكتساح وتسكع فوق شفتيها. حياة كاملة فوق قلب مردوم!

مس قلبه عشق.. مس قلبه غدر.. ومس قلبه فقدان.
ولهذا قلب الراعي هو مخلفات حرب!

***

مس قلبه عشق..

"البارق" و"الرحيق"

نفثت عجوز حكاياتها فوق خيط، وتقرفصت "قمرية" فوق مسند من الخيش والخادمة تمتم حكاية عرفت هوامشها من "غضب".

كانت عجوزًا، اسمها "جدار".. خبيئة منزل وحفرة أسراره، عيناها مستديرة مثل بلورة بها عتمة وخشونة جلدها يشبه ملمس جلد حية. نبرتها باردة مثل رائحة القبور وتبلل شفتيها الجافتين كل لحظة بطرف لسانها دون جدوى.. كان الجفاف يأكلها.

قالت قمرية بخبث وعيناها تتأمل مظهر العجوز الكئيب:

- يقولون إن أسرار بيت الراعي عندكِ؟

امتزج بملامحها انفعال هازئ، صفرة واضحة تخللت بياض عينيها قبل أن تقول بنبرة لها روح الوحل:

- ثلاثة أسرار أعرف منها اثنين.. أعرف القشور والقلب أجهله.

زمَّت "قمرية" شفتيها بنبرة ثقيلة:

- لا تتخابثي معي أيتها العجوز.

كسا الصمت وجه "جدار"، وغابت نظرتها في أفق بعيد.. مررت أطراف أناملها الخشنة على الأرض ثم قالت بصوت متعرج:

- كيف عرفتِ بشأني يا خادمة!

رمشت قمرية جفونها بمكر:

- لديَّ عطية الخبث، كانت تقول أمي إنني وُلدت بها.

- مثل "رحيق" كان لديها العطية نفسها.

التمعت عينا "قمرية" باهتمام، تنفست ببطء وقد غرست بذرتها في الأرض التي تريد وها هي على وشك امتلاك السر الحقيقي.

- أخبريني.

تنحنحت العجوز بضحكة قاتمة:

- لِمَ؟

والخبث يليق ببعضه، المرأة الخبيثة إما تشجع نظيرتها وإما تنسفها.. لا وسط.

قالت "قمرية" بذريعة شيطانية:

- لأن "غضب" سيعود.. سيعود بحثًا عن رحيقه، ومن يعلم قد ينتصر الأخ الأصغر على الأكبر ويغرس رأسه فوق رُمح.. هل تريدين هذا يا "جدار"، هل سينجو إرث الراعي مع من سكتت عنه نبوءات "حرير"!

تحدَّب ظهر العجوز وهي تحرك جسدها لتواجه عطية الخُبث:

- إذن تريدين الانتماء إلى جهة "بارق".

انفعلت جميع حواس "قمرية" في اللحظة نفسها:

- أريد "بارق" نفسه.

سخرت العجوز، ضحكت ضحكة جثة:

- لن يكررها.. لن يُقرن اسمه من جديد بخادمة.

امتطت "قمرية" أفكارها السابحة في الهواء:

- لن أغويه بالعشق مثل "رحيق".. بل بالجسد، يكفي أن أعطيه النغل وسيتزوجني حماية له.

واقتربت إلى العجوز في وثبة، جذبت ذقنها المتجعد وقالت بفحيح مُحذِّر:

- والآن دوركِ.. أريد حكاية "رحيق".. الحقيقة يا "جدار" وليس ترَّهات الثرثرة. من يعلم عسى النغل خاصتي تلك المرة هو من يحكم بيت الراعي.

***

من باطن الزمن.. تدفقت حكاية..

أنثى بتوقيع فتنة خاصة، كانت هزيلة ولكنها كانت جميلة، الابنة الوحيدة لخادمة متوسطة العمر وحارس من حراس بيت الراعي. جلدها الناعم كان له لون قلب ثمرة جوز هند، وملمسه مثل ورق زهر النرجس.. كانت دوما ما تركض حافية في المراعي، تلفت نظر هذا وهاك.. خصلاتها السوداء الطويلة تتحرك خلفها بانسيابية وثوبها ينسدل فيظهر نهدها الأيمن ليدير "بارق" رأسه في غضب وتزجرها أمها و"غضب" يشاهد.

كانت مثل بطلة أسطورة.

غاصت قدماها في باطن الوحل وقالت مرة عازمة لأمها:

- سأتزوج بـ "غضب".

كان العشق بينهما سر الغروب، تتسلل له وتترك نفسها ملكه، تنام فوق ساقيه مبهورة بوقاحته ومغامراته وتغار وتتلوى وتتمرد وتستكين..

- تزوجني! تزوجني ونرحل من هنا.

سخر حينها:

- لا تهتمين بإرث الراعي!

التصقت به، بثَّت عشقها في قُبلة:

- أريدك أنت.

كانت تجري في عروقه مجرى الدماء، ورغم هذا رحل.. لم يفهم أحد ما جال بخاطره وأي رغبة قاتمة احتلته ولكنه غاب أشهرًا.. كانت أخباره تتوالى.. قالوا إنه أراد مغامراته الخاصة وقالوا إنه هرب من سطوة "بارق" وأراد إثبات نفسه، وقالوا أغوته امرأة أجمل منها.. نهشتها الغيرة وقررت أن تذيقه من الكأس نفسها، فكان لـ "بارق" إغواء العشق.

- يا غبية!

قالتها أمها في لحظة هياج، لطمت وشقت ثيابها، لعبة العشق باتت جدية وطلبها "بارق" للزواج في صدمة للجميع، فلم يتصور أحد أنه سيميل إلى خادمة. انقلبت لعبتها عليها، حملقت إلى مرآتها بعجز.. لم تكن تريده.. لم تكن تطيقه حتى! كل ما أرادته أن يعود الآخر على جناح الغيرة ويأخذها.

ولولت الأم، هي ليست عذراء.. ستخرج من بيت الراعي ذليلة في قارب نحو "غاند".

غاند للأرملة

وغاند للعاصية

اعترى ملامحها الرعب، لطمتها مائة لطمة وأرادت هي الهروب، والهروب أيضًا مصيره غاند، أو البارود.

إذا ما هربت الفتاة من الزواج يأخذها البارود.

وإذا ما هربت بعده تنالها "غاند".

شدت صُلبها، عاشرت عطية الخبث خاصتها، امتلكته بالعشق والكيد والحيلة.. تزوجها في زفاف دام سبعة أيام.. مدَّدها على فراشه في رقة تناقض مظهره ونصف حياته.. تجمد حين دفعته، تخابثت بادعاء الخوف مرة والقلق مرة.. ادعاء العشق وازاه الهروب ولم يرغب في أن يُجبرها.

حتى عاد "الغضب"!

عاد لاهثًا، مستعرًا، منفجرًا.

كانت ليلة مظلمة مناسبة لعمى القلوب. أخ فوق فرسه عاد مبتهجًا ليرحب بأخيه الأصغر.

كانت ليلة باردة، تمرر القشعريرة في العظام، نغل مخطوفة قيمته، وأحلامه، والآن حبيبته.

كانت ليلة وسوسة شيطان، "غضب" يسابق الريح ورغبة قاتمة منه في أن يذبحها.. وذبحته هي، بعشقها ولهفتها وضجيج شفتيها فوق شفتيه في قُبلة جائعة له.. تبكي، تتنهد.. تشتاق إليه مثل وحش فتنة كاسر.. نالها دون تفكير، نالها بغضب وحش.. نالها فوق فراش أخيه.

كانت ليلة في جوف العتمة..

لحظة هذيان.

مواجهة قاتمة مغلفة بالظلم والقبح والخيانة.

غضب تجمد.

ثلاثة وجوه محدقة إلى بعضها بعضًا.

سيف أخ أمام رمح آخر..

وصرخة رعب من امرأة مرتبكة متعثرة تراجعت حد النافذة، ورمح بارق يكاد يفتك بـ غضب.

ولم تحتمل أن تراه منحورًا فألقت بنفسها من النافذة!

قالوا رماها "الراعي".. قالوا قتلها "غضب".. قيل وقيل، وحين اختفت بلا شاهد قبر قالوا احتفظ بجثتها في الطابق العلوي.

رحل "غضب" في خضم الفوضى ولم يعد.

وباتت هي في فراش كئيب بغرفة معزولة حبيسة عجزها، شلل تام أصاب كل أطرافها فأصبحت جثة حيَّة.. زوجته ولعنته.. لا يستطيع أن يغفر لها ولا يستطيع أن يثأر منها.

أبقاها هكذا، نصف قلبه الأسود، النصف الفاسد.

مس قلبه عشق.. مس قلبه غدر!

***

المسافة بينها وبين النبوءة اقتربت

ونعم.. حاولت الهروب

هل يجوز أن يتجاهل أحد نبوءات "حرير"؟!

لا تعلم

إلا أنها حاولت..

كانت تنام فوق ذراعه الضخمة، تراقب ضوء القمر المكتمل من النافذة وتفقد نفسها رغمًا عنها معه.. شعرت وكأنما هي مختبئة في ظله، في حين كانت نظراته هو غائمة مع قتامة لون السماء ومتجاهلًا القمر. يحملق إلى فراغ من المستحيل أن تفهمه وما يخص تلك اللحظة صعب عليها أن تسبر أغواره. مهمة صائد العظام اقتربت.. دوره أن يجد "غضب"، يحضره له حيًّا يُرزق ويفتك هو به بالطريقة التي يريد.

في تلك اللحظة كان يمتلك جميع تناقضاته، يملِّس على ذراعها العارية بأنامله اليسرى، واليمنى كانت هي من نقدت صائد العظام ليصطاد أخيه. الهذر كثيرًا عن قوته وهو لا يصدق.

"غضب" ليس أكثر من نغل جبان.

فوق رأسه أسوأ ما في حياته.. جثته الحيَّة. قلب جائع للسواد، قلبها وقلبه.. رأس بات شبيهًا بجمجمة عارية، وعينان جاحظتان في قتامة تكفي العالم كله. كلماتها سكاكين تخترق قلبه، صوتها أشبه بالعواء وقد فقدت انتباهها الآدمي منذ ألقت بنفسها من النافذة. باتت مسخًا لا يجوز الانتقام منه ولا يجوز الغفران له.

كل ما تفعله أنها حين تراه تزمجر وتصرخ منادية "غضب"!

انحناءة مباشرة كانت منه على "بداية"، قُبلة ظاهرها هرس وباطنها احتياج. بعثر خصلاتها ثم قال بنبرة جشة متسلية:

- مذاقكِ اليوم يشبه التين.

- لقد أعدَّت لي الخادمة الجديدة مشروبًا منه.

قالتها بارتجافها المعتاد معه، هذا الارتجاف الأنثوي الذي يخطفه تمامًا، همس بصوت ساخر خفيض:

- يبدو أن تلك الخادمة تعرف كيف تتسلل للرجال.

وأظلمت ملامحه فجأة.. عقد حاجبيه وعانقت نظرتها الظلام:

- ما اسمها؟

- لا أعلم!

قالتها بصدق وتردد وهي تفكر في الخادمة المسكينة التي قد يؤذيها لسبب لا تعلمه، همست بحنانها الفطري:

- لا تؤذِها.. إنها لطيفة تحاول أن تبذل جهدها.

اصطدمت بنظرة غريبة في عينيه، نظرة كراهية خالصة وكأنه يتحول.. يتبدل إلى رجل آخر في لحظات. أغلق جفنيه ثم قال بنبرة صخرية:

- لا تصدقي النساء.

عقدت حاجبيها مندهشة:

- أنا امرأة!

- من يعلم ربما تكذبين يومًا.. أو تكذبين الآن.

لم تشعر بأوصالها، لم تستطع تحريك طرف.. تجمدت في براءة كادت تكشفها.. جذب ذراعها بعنف حتى اصطدمت بصدره العريض ثم قال هامسًا محذرًا:

- هل تكذبين يا "بداية"؟ هل تخفين عني شيئًا؟

- لا لا..

نطقتها بلا تفكير، خوف تام.. نبوءة "حرير" كانت ترقص أمامها، والأفكار والتوقعات تتقطع في خيالها كمشاهد.. غرفة ممنوعة.. قلب الراعي.. النجاة. اعتصر عقلها ألم شديد حتى إنها لم تدرك أنها كانت تدفعه وهو يجتاحها من جديد.. تدفعه ويزمجر أكثر، يرفض ابتعادها عنه.. يتوه هو فيها وإن لم يتجاهل هواجسه بشكل كامل وتتوه هي في مجهول أقوى منها.

مذاق التين تملك منه، كانت مثل خمر لذيذة.. شرب منه بمقدار كي لا يفقد الوعي تمامًا، فمشروب التين المخمَّر يُفقد الرجال تركيزهم وتلك الحمقاء لا تعرف!

***

شهقة منها.. ولدغة ظلام أيقظتها. كان هو يغطُّ في نوم عميق، وذاكرتها تسعفها بثرثرة الخادمة اللطيفة التي أعدَّت لها المشروب الغريب ودلتها على مدخل الطابق العلوي المحرم على الجميع. الطابق الذي يحتفظ فيه بجثة زوجته.

زرعت "قمرية" الفكرة وكانت تعلم أن الحمقاء سيغلبها فضولها، وكانت "بداية" تظن أن "قمرية" مجرد إشارة.. أحد أذرع "حرير" لمساعدتها. رتّبت "قمرية" كل شيء وكانت تعلم أن "بارق" سيكشف حيلة المشروب وسيتبع زوجته، وحينها سيغضب عليها وتشتاق رجولته إلى امرأة فتظهر هي في الصورة. كان الرواق دافئًا بأضواء خافتة.. الباب الضخم الذي تعرفه كما وصفت "قمرية" تمامًا يُفتَح بسهولة، إذ إن خلفه باب آخر. مربع برونزي عليه قفل عنيد ولكن هي أعطتها المفتاح. نالته من "جدار" الموكلة بخدمة رحيق وتنظيفها وتحميمها كل صباح، وفي الليل ترحل.. "بارق" لا يترك "جدار" وحدها أبدًا في الغرفة إلا نادرًا. أما "بداية" فكانت تظن أن "قمرية" مبعوثة "حرير"، وهي من أحضرت لها المفتاح لتحثها على البحث عن مصيرها.

طالعت الفراغ حولها بتردد، حركت المفتاح بحرص ودفعت الباب الثقيل الذي يطل على ظلام دامس.. رواق آخر ظلامه خانق، رائحة لحم بشري به عفونة، ومدخل غرفة قاتم مخيف لها باب خشبي مزدوج. تقترب منه وتود أن تتراجع، صريره عالٍ غريب، فراش مربع عليه شرشف قديم متهالك، ونافذة يطل منها ضوء القمر على وجه مسخ.

هي أمام مسخ.

امرأة تشبه الجثث تضحك لها بغرابة، وقد ظهرت أسنانها

ملطخة بالسواد، جامدة على الفراش مثل منحوتة ولكنَّ ظهرها يتأرجح وكأنما تتأرجح من مشنقة. نظرت نحوها بابتسامة ثم بحقد قبل أن تصرخ صرخة قوية مرعبة جعلتها رغمًا عنها تتراجع وحينها اصطدمت بعظام صدره الصلبة.

وشعرت أن سواد العالم كله سقط فوق رأسها، وعيناه تهرسها مثل قبضته التي احتلت عنقها في اللحظة نفسها:

- ماذا تفعلين هنا؟

***

خدعة التاريخ فن الحُكم..

مرِّر الزيف والحقيقة من الثغر نفسه وانصر بالدمج باطلك!

الشعب حتمًا سيضل بين الأكاذيب والحقائق

ويصدق في النهاية ما تريده أنت أن يصدقه.

مرِّر بالسيف مرة والخديعة مرة..

اجمع معارضيك دومًا حولك.. انصت لهم، احصِهم بتركيز .. ثم اقتلهم أمام الجميع!

اقتنص ديمومة حكمك بالقوة، واجعل طاعتك بالنسبة إليهم أهمية قصوى.. حياة أو موت!

هنا يسقط القانون الأخلاقي.. ويبقى قانون البقاء.

حاصر المفكرين.. اقتل الحكماء.. احصد رؤوس طالبي السلطة.. اشغلهم بالقانون الجائر واجعل أقصى طموحهم تغييره.

نظرة موت تسربت منه نحو محادثه، كان ساخرًا يتحرك بخطوات طاووسية نحو نافذة ضخمة ويرتدي مئزرًا من الحرير الفضي المطرز برسمة ضخمة تمثل المينوتور. رفع كأس

نبيذه باستمتاع نحو شفتيه ثم قال بابتسامة رائقة بارودية:

- إذا ما فكرت في كذبة يا "رشد" فحاول أن تجعلها بقدر الإمكان صادقة.

كان "رشد" أحد حراسه المقربين، يناسبه لفظ عدو جبار أو بالأحرى أحد الحاقدين عليه.. قائد الفيلق الثاني وكثرة عدد جنوده تدب الرعب في قلوب المعارضين.

نفى "رشد" الاتهام على الفور وقال بنبرة يملؤها الحقد:

- لا.. هذا الجبار يا سيدي سألاحقه بنفسي.

ابتسم له البارود ساخرًا ثم سكب باقي كأس النبيذ على الأرض وقال ببرود متسلٍّ:

- إذن قريبًا سأرى دماءك!

ثم أشار له بإصبعه بطريقة صارمة وقال وعيناه تلتمعان بوحشية:

- قبل الوعد بقتل العدو.. جده أولًا.

تراجع القائد في تبرير وقال وهو يجر أذيال خيبته:

- سيدي.. لقد اتخذ طريق الممالك الخمس المحرمة.

تفجر الضحك من ثغر البارود هازئًا:

ألا أتظن أنني أعلم أنه سيتخذ طريق الممالك المحرمة.

قال رشد معترفًا وهو يطأطئ رأسه:

- لا يوجد فيلق لديه استعداد لخوضها.. الفيلق الوحيد الذي كان ليفعلها هو فيلق جبار بنفسه.

رفع البارود كفيه في صدمة:

- هل أنت هنا لتغيظني أم ماذا!

ثم احمرت عيناه بشراسة وهو يقترب منه وقد تسربت

أنفاسه مثل ضربات سوط:

- سيمر بمملكة الخراب قريبًا.. تلك هي الثغرة الممكنة.

- ولكن لا سيدي حراسنا غير مدربين على اختراق مملكة الخراب.. أنت تعلم جيدًا استحالة المرور من طريق البهلوانات.

- ليس مرورًا أيها الأحمق.. بل نفخ.. مبادرة.

ثم زمجر بحقد وعيناه تغيب في ظلمة تخصه:

- لا تسمح أبدًا لعدوك بإحقامك في المعركة مبكرًا.. استنزفه كما يحاول هو استنزافك.

واستدار بدرامية ساخرة، مرَّر كلماته بصرامة وفيلقه الثاني عليه الطاعة وإلا المصير سيكون مثل فيلق جبار:

- استنزف جبار.. حتى يأتيك المعركة جاهزًا للهزيمة.

***

يلتهم برتقالة ونظرته غريبة مشبعة بالحنين.

انكمشتْ في كآبة، كانت تشعر بالجوع رغم أنهما تناولا على الفطور خبزًا أسمر ولحم إوز مشوي. كان الضباب كثيفًا يشعرها بالحزن، لا تعلم في أي وجهة استقرت معه الآن، ولكن حتمًا تلك المنطقة لا تزورها الشمس كثيرًا. حصانه الشيطاني كان هادئًا بدوره، تناول طعامه واستغرق في سكون مهيب.. لأول مرة تلمح سكونًا مثل هذا في حصان.

وكأن بينه وبين حصانه اتفاق ما، نوعٌ من التواصل.. سخرت مع نفسها فيما معناه أن الحيوانات طبعًا تفهم بعضها بعضًا. وراقبته بعدها مدة من كثب، لم يكن ينظر نحوها أو يراقبها.. لا يحتاج.. هي تعلم تمامًا أن أي حركة

منها سيلاحظها طرف نظره، ومع هذا بدت ملامحه غارقة في شرود كئيب، وكأن قاتل النغول يعرف الشعور أو الكآبة. كان ينحت بأظفاره الأرض جانبه ويترك سيفه مرتاحًا جواره وإن لم يتخلَّ عن خنجر صغير تُجزِم أنه سلاحه الحقير في ذبح الأطفال.

غمغمت ساخرة فجذبت انتباهه، رمقها بنظرة حادة، وكلماتها تتسرب باحتقار:

- بهذا الخنجر تقتلهم.. أطفال بريئة لا يملكون الدفاع عن أنفسهم.

لم يجب في حينها، ولكن بعدها بوهلة تسربت منه ضحكة بائسة قبل أن يقول بخشونة ثابتة:

- هل تكرهينني؟

صدمها السؤال، غلتْ غضبًا وهي تجيبه في هياج:

- لنرى.. أنت خادم "البارود" الذي خنته، اختطفتني من وسط عائلتي.. قاتل.. تعاملني وكأنني بقرة.. الكراهية لا شيء جوار شعوري نحوك.

تأملها في هدوء تام، لم تمرر ملامحه أي انفعال يُذكر.. قال بعدها بلامبالاة وبنبرة جافة:

- أنتِ لستِ بقرة.. بل مجرد قطة.

احمرَّ وجهها في غيظ:

- أنا لم أقل إنني بقرة.. بل قلت تعاملني كبقرة، و... ماذا.. قطة!

- قطة مشذَّبة المخالب.. تحتاج إلى بعض الوقت لتنمو ثانية.

- أنا لست مشذبة المخالب.

قالتها في هياجٍ مغتاظ، هي امرأة لها نبرة ناعمة رغمًا عنها، وجه فاتن رغمًا عنها، جسد مفعم بالأنوثة رغمًا عنها.. استقامت ووجَّهت في لحظة واحدة سهمها نحوه، عيناها تلتمع بالتحدي وتفكر بشكل جاد ماذا لو فعلتها الآن.. ماذا لو قتلته!

بثبات التقط ثمرة تفاح بدأ في قضمها في سلام وكأنها غير موجودة بقوسها تهدده، ثم أمال عنقه وقذف باقي الثمرة بعنف حتى سقطت بعيدًا، نظرت نحوه لا تفهمه، وحينما تسللت نبرته بحزم صارم:

- المحارب يجب أن يكون سريع البديهة.

في لحظة كان قد قذف بثمرة أخرى فحركت سهمها على الفور ولكنها لم تفلح في إصابتها. زمَّت شفتيها بغضبٍ، وهو يستكمل بثبات محارب قديم:

- المحارب يجب أن يكون سريعًا.

في المرة الثالثة تحفزت.. جهزت نفسها ولكنه لم يلقِ بالثمرة على الفور، بل قطَّعها إلى ثمان قطع صغيرة وألقى بإحداها وطبعًا لم تستطع إصابتها.. حينها تسللت سخريته بقتامة:

- المحارب يجب أن يكون دقيقًا.

استقام بعدها وتوجه نحوها ببرود حتى واجهها من قرب، بدا مهيبًا قويًّا أمامها وهي مجرد شريحة لحم بشري رقيقة. قال بلهجة جافة:

- تحتاجين إلى الكثير من التدريب.

مزيج من التشتت ارتسم في ملامحها، هي مستعدة لقتله الآن ولا تستطيع، أي حكاية يأخذها لها هذا الجبار.. فجأة ودون مقدمات هرس يدها الممسكة بالقوس حتى

أسقطته، شعرت بتشنج قوي يسري في جسدها كله من الألم، في حين كان همسه تلك المرة مثل الفحيح:

- المحارب يحتاج إلى أن يكون قويًّا.

واستدار وتركها، سحب قربة مياه فشرب حتى ارتوى ثم راقب الطريق بعين خبيرة وقال ببطء بائس:

- باقٍ لنا مسيرة يومان على مملكة الخراب.

- الخراب!

- هم من أطلقوا على نفسهم هذا الاسم، كي يخاف الناس منهم.

هزأت بقتامة وهي تبدأ في التحرك خلفه:

- ستخبرني عنهم تلك المرة!

تابع دون أن يعير سخريتها انتباهه:

- إنهم مجموعة لصوص وقتلة.. بشر يا عزيزتي وهذا أسوأ نوع.

نظرة قاتمة حبرية مثل كماشة سطوة رمقها بها، نظرة تترجم تاريخ من المذابح، الموت.. توحش صراعات البشر. فهم الجميع.. لص وملك، بائس وحقير.. لون الدماء فوق وشوم المحاربين وصرخات النساء إذا ما تم نيلهنَّ كغنيمة بعد عتمة معركة.

في المعارك يهتم الجميع بكتاب الموت، خطوط الانتصار العريضة ولا يكترث أحد بالهوامش.

صمتت شفتاه ببؤس ثم توجه إلى حصانه، رتب السرج وجهز الحصان ثم رمقها بطرف عينيه وقال بجفاف آمر وهو يقذف لها ما يشبه العباءة الموصولة بقلنسوة مثل خاصته:

- من الأفضل أن ترتدي هذا، حجم ثدييك ظاهر.

تيبست اللغة فوق شفتيها، لونها كله تحول لصبغة حمراء وهي تنهره في غضب تام:

- ماذا تقول!

لم يعقبْ، قذف لها العباءة وعاد إلى الانتباه إلى حصانه، امتطى الحصان دون أن يكترث بها ثم قال بغلظة:

- هيا.. لا نمتلك الكثير من الوقت، اصعدي خلفي.

ورسمت عيناه الطريق، وهي تمتطي الفرس خلفه في غيظ، في كل الأحوال خلفه أفضل مائة مرة من ركوبها المهين أمامه. ارتوت بدورها من المياه وثبتت نفسها على الحصان تراقب الطريق. تسبح نحو مجهول وتوقن أن فكرة قتله تبخرت الآن.

هي يجب أن تعرف لمَ يريد قاتل النغول تدريبها، وكيف.

***

مملكة الخراب

أي اسم كان ليناسب القحل أكثر!

لم تصدق ما تراه، حتى أغاني الشعراء وحكايات "زليخة" لم تكن لتقترب من الصورة أمامها، كانت أمام بلدة على شكل حانة! مكان أجدب من كل الجوانب والقلب هراء. كانت الحانة ممتدة بحجم ضخم على أرض دائرية أطرافها هاوية سوى من مسار الذهاب والخروج، أما الجوانب فتبتعد بمسافة طويلة عن المكان بهاويتين تتخلل اليمنى منهم حبال غليظة حتى الوصول لما يشبه العمار. لاحظت أن هناك بعض الرجال قليلي الحجم يمشون على الحبال ذهابًا وإيابًا حاملين مخزون الطعام والشراب باحترافية بهلوانية وفي الوقت نفسه قوة تلفت الانتباه. يحملون كل شيء..

حتى إن بعضهم يحمل نساء مخطوفات!

دارت عيناها في استكشاف مدمج بالصدمة والشفقة وتسرب سؤالها، وقلبها يتوغل رغبة في الفهم:

- ما هذا؟

قال بقسوة ونظرته تراقب المسار بضراوة:

- مملكة الخراب.. ويليق بها أسماء أخرى.. البغاء.. الجدب.. القُبح.

ابتعلت ريقها وعيناها لا تترك مراقبة كل شيء:

- هل تعرف حكايتهم؟

ارتسم فوق ملامحه انفعال يشبه صدوع الصخور، التاريخ المكتوب على ثناياها:

- إنهم بشر أرادوا كل شيء.. يحكم البارود البشر، ويحكم المشعوذ المسوخ، وهؤلاء أرادوا أن يكونوا الاثنين فنالوا ما تمنوه.. انقسموا، بعضهم كان ولاؤه إلى البارود وبعضهم إلى المشعوذ وظنوا أنهم سيجيدون الخديعة، ولكن الخمر أصاب عقولهم بالغباء، وأكل الطمع قلوبهم ولحومهم، فحُكِمَ عليهم بالعزلة في هذا المكان، وسط ممالك المسوخ التي تقع تحت سطوة المشعوذ. هوة من اليمين وأخرى من اليسار، الجدب طريق الذهاب والخروج والنجاة الوحيدة ممالك لا ينجو منها إنسان.

حدقت إلى الرجال الذين يمشون تلك المسافات البائسة فوق الحبال في الطريق الموصل إلى عمار البشر وسألته بتعجب واستكانة تامة حيث كان هو في تلك اللحظة مرشدها الوحيد:

- وهؤلاء؟

مطَّ شفتيه ساخرًا وعيناه ثابتة على المسار مثل كلماته:

- العزلة لا تعني بالضرورة الموت.. تكيَّفوا بما يناسب عقابهم، وهؤلاء من يحملون لهم الزاد وغيره.. نساء، أسلحة، مجموعة بهلوانات دُرِّبوا لسنوات عدة.

صمتت ويقين بائس ينبت في قلبها، يزرع الطاغية في قلب شعبه الخوف.. لا بأس بترك بعض المسوخ كي يوقنوا أن الحياة تحت عرشه جنة. أصاب الوجع أحشاءها.. صوت صرخة فتاة مخطوفة آلمها، مشهد رجل محروق فوق خازوق وعلى ما يبدو حلَّ به عقاب ما كان وحشيًّا.. أيهما أسوأ، البشر أم المسوخ.. لقد مرَّا بمملكتين لا يفترسان سوى من يمر بهما، يطمع فيهما أو يقتحم خصوصيتهما ولكن هؤلاء.. هؤلاء كما يقول حقًّا الأسوأ.. لأنهم بشر.

رغمًا عنها تسلل الرعب إلى قلبها:

- كيف سنتخطى هؤلاء؟

غامت نظرته لوهلة.. همهمة قاتمة تسربت من شفتيه ثم عقد حاجبيه بحزم:

- بالصمت.

- الصمت!

- نعم الصمت والذهب، وكلاهما أحيانًا واحد.

ثم ضرب بقدميه جوانب فرسه، تحرك الحصان ببطء وهي خلفه كما طلب.. تلك المرة أطاعته عن اقتناع، رفعت القلنسوة فوق رأسها لتختفي نصف ملامحها ودثرت نفسها بالعباءة. نبضات قلبها كادت تخترق ظهره أما هو فجهز نفسه للقتال الشرس إذا ما دعت الحاجة.

تلك المملكة الأصعب على الإطلاق. خطته أن يمر في

صمت وينثر عملات الذهب لطمعهم إذا ما احتاج.

المسار دون بوابة، لا تحتاج الحانة الضخمة إلى أبواب فهي عالم كامل ولا يحمل الطريق القادم من مملكة الثقوب زوار.. لا يتخطاها أحد. أزواج العيون كانت ترمقهم في استنكار ودهشة، المكان كان الجحيم بعينه، رائحة خمر وطعام جيد وفاسد ومنيّ وقيء. رجال بهيئات غريبة قاتمة، أحدهم ضخم يرتديّ فرو دب قتله ويركب مكان أظفاره مخالب.. وآخر فوق رأسه هيكل نمر. مكان مغسول بالدماء وراقصات تتمايل وسط جثث رجال قُتِلَتْ لتوها في معركة من أجل التسلية.

ربط حصانه في عمود جانبي واختار له ولها طاولة، كان يجب أن يدعي أنه رحالة كي لا يلفت الانتباه.. "البارود" لن يفوِّت تلك الفرصة هو يعلم جيدًا أنه سيمر من هنا وعلى الأرجح سيرسل المراسيل طلبًا لرأسه مع مكافأة مجزية.. لن يأخذ هؤلاء الرعاع رأسه، ولكنَّ عددًا غفيرًا منهم كاف لتعطيله. جلس وأمرها بعينيه للجلوس ثم أشار لنادلة كيّ تحضر لهما الطعام والشراب.. قالت المرأة بهمس خبيث وهي تضع لهما اللحم والنبيذ وتعد النقود التي رماها لها:

- زائر من طريق الثقوب.. هذا لا يحدث كثيرًا، حدث قبل هذا مرة واحدة.

رمق جانب وجهها المشوه على الأرجح من تجربة أليمة مع سكير ثم مط شفتيه بهدوء وقال وهو يأخذ قطعة من اللحم خاصته في قضمة شرسة:

- إذن هناك من يمر.

همست بفحيح جانب أذنيه:

- يقولون لم يكن بشريًّا.. لقد قتل يومها في حركة سيف

واحدة عشرة رجال.

ثم رمقته بنظرة ذات معنى:

- هل أنت بشري؟

شعر بحرارة أنفاسها اللافحة أمام وجهه، وسبع خطوات تحاصر مائدتهم من الخلف. الرجلٍ بجلد الدب وصديقه وفاجر هزيل آخر يظن نفسه زعيماً مع مساعديه ونخاس أصلع الرأس كان هدفه الجسد الصغير الآخر، إذ في لحظة أزاح القلنسوة من فوق رأسها.

بعدها كل شيء حدث بسرعة فائقة، حملها النخاس من خصرها فدار بها بعيدًا عن الطاولة، في حين زمجر جبَّار وقلب الطاولة بما عليها فوقع الهزيل فوق مساعديه وبدأ قتال شرس مع الرجل الدب والآخر بهيكل النمر، المعركة كانت تبتعد عن عينيها وهي تصرخ، والنخاس يحملها، ترى جبارٍ والرجال تتكاثر عليه، سيفه ينحر وقبضته تضرب وخنجره يُقذف في عنق آخر. تركل هي وترفس، ولكن النخاس ضخم سريع مددها على طاولة بين عدة نساء امتدت أيديهم يحاولن خلع ملابسها.. نزعن العباءة فعلًا وحاولن فك سروالها وصدريتها الجلدية، والنخاس الحقير يخلع بنطاله كي يأخذها لنفسه. ملامحها المشدودة كادت تنهار وعيناها لمحت من بعيد الحصان المربوط وقوسها يزين السرج.. هل كانت لتنفعها نبالها الآن.. صرخت أكثر، تمنت لو امتلكت في تلك اللحظة خنجرًا.. رمقت الرجل اللاهث أمامها بأنفاس خنزير وقد بدأ في حقارة نزع سروالها بنفسه. المعركة الشرسة ابتعدت ولا تعلم هل هزمهم جبار أن هُزم. امرأة تقبض فوق خصلاتها كي تستلم وتكف عن الركل وأخرى تقول إن جمالها سيضمن لها شعبية في المكان حتى بعد أن ينالها النخاس.

نعم هي في الجحيم
تشعر بأنفاسه ونظراته والقادم الأسوأ
صرخة تامة..
ركلة أخيرة لم تكتمل

رأس الرجل الأصلع يبتعد والنساء تصرخ وتجري وجبار من العدم يزيحها من على الطاولة بعنف، ثم يمسك بيد الرجل ويخرج من جعبته ما يشبه الفأس ويقطعها.

تناثرت الدماء وطالت وجهها، صرخ الرجل كالنساء.. امتشق من جديد جبار سيفه وخاض معركة مع آخرين، ولكن تلك المرة جعلها خلفه، ناولها سيف أحد المقتولين.. ظهرها في ظهره.. معركتها معركته.. همسها همسه.

- دافعي عن نفسكِ.

كانت بائسة ولكنها كانت شجاعة به.

تحرك السيف في دفاع غير قادر بعد على القتل. سيف جبار الفولاذي الضخم يخترق الأجساد بلا رحمة، يحاول بعضهم التسلل من ناحيتها، ولكنه يدور باحترافية ويحميها وهو يستكمل معاركه..

كل شيء بدا دمويًّا حتى صرخ النخاس بجهورية يائسة:

- كفى!

ظل الرجل مطبقًا شفتيه من الألم، وامرأة تربط جرح يده المقطوعة، وكلاهما ينظر إلى جبار بحقد:

- كفى.. ولك حق الرحيل.

تنفس باقي الرجال الصُّعداء، المعركة التي خاضوها سمعوا عنها فقط من أجدادهم.. عن رجل يرتدي السواد اخترق مملكتهم.. قتل ونثر الرعب والدماء ولم ينجح أحد في

مجابهته.. كان أسلوب قتاله الشيطاني شبيهًا بذلك.

هذا الجبار ليس مجرد فارس عادي.

بقبضته القوية رفع رأس النخاس نحوه ثم قال بنبرة قاتمة:

- كم عرض "البارود" مقابل رأسي؟

لهث النخاس وهو يعترف:

- العودة.. محو العقاب.

سحب جبار سيفه ومرر نصله على عنق الأصلع بحسم:

- وماذا أيضًا؟

ارتجف جسد النخاس من الرعب والألم ثم تابع وهو ينظر إلى "قلب":

- أن يتقاسمها الرجال.

صدرها ارتجَّ.. قلبها ارتجف بالكراهية والصدمة.. اشتعلت كبرياؤها الحرة في دمائها.. كانت خائرة القوى لتصرخ.. متعبة منهكة يهزمها الدوار.

أعاد جبار سيفه إلى غمده، فك رباط حصانه وهو يسحبه خلفه وهي خلفهما بخطوات شاردة..

وجهها شاحب مثل الجثث، قلبها يؤلمها وكأنما به ثقب، ضعفها يتجسد أمامها.. يغيظها.. يأكلها أكلًا.

ابتعدت خطواتهم عن الخراب.. انتهى طريق ويبدأ آخر.. معها جعبة نبال لا تجيد استعمالها كما يجب، وسيف رجل مقتول لم تستخدمه بعد.. نظرة سوداء تسربت منها ثم توقفت.. قالت ببأس وهي تجفف الدماء التي تناثرت عليها:

- علمني.. أريد أن أصبح مثلكَ.

توقفت خطواته، لم تلمح ارتجاف ملامحه الصلب ولكنها نالت خشونة صوته:

- من الصعب أن تكوني مثلي.. ولكن ستصبحين المقدر لك أن تصبحيه.

هتفت بغضب:

- وكيف لكَ أن تعلم المقدر لي؟

لم يجبها.. تحركت خطواته ببطء وخلفه حصانه، عيناه تقيس مسافة الطريق القادم بجَلد، وفكر في المملكة التالية.. المملكة التي تمثل خطورة على حياته هو..

وهي تعض حروفها.. تصرخ في يأس وبإنهاك شديد تحث خطواتها كي تلحق به:

- أستعود إلى الصمت ثانية.. أخبرني الآن بكل شيء.

لم يجبها.. ملامحه مثل خندق عاد إلى الاختباء تحت قلنسوته وخطواته ثُقل حاسم.

صرامة شفتيه قطعت هياجها في النهاية:

- أغلقي هذا الفم والتزمي الصمت.

صوته انفعال من خندق ويأسها يحاول في تيه لم توقن في لحظتها تكراره:

- إلى متى سيستمر الصمت؟

طلت خشونة صوته من وسط الظلام.. وحينها فقط أيقنت الضوء..

- حتى تظهر مباهجه!

***

الرياح تعوي.

ضحكات القناطير تهزم أشجع القلوب حتى لو قلب جنية "ثلج"..

باطن الأرض يكاد يصرخ بالخيانة، وصغيرة وثقت بها سلمتها هي مثل فريسة سهلة للبارود. مكان الدَّرج مصعد يشبه المنحدر، رواق يضيق وضحكات "جمر" تتابع، واللهيب يشتعل في غرفة تلو غرفة، سحر الأفعى الأخيرة التي واجهاها، كان قاتمًا والتضحية من الخائنة.. فقدت "ثلج" ذراعها.

هزأت "جمر" وهي تدفعها أمامها وقد ربطت طرفها الآخر بحرص بسلسال حديد:

- تبلين حسنًا.

نظرت إليها "ثلج" شذرًا ثم تمتمت بحقد:

- يبدو أنكِ جبانة عن المواجهة بنفسك.

قرَّبتها "جمر" وعيناها تشتعل، والجحيم يعانق همسها بسخرية:

- لستُ أنا اللعينة التي خانت.

جليد أسود انبثق من عيني الأخرى.. حقيقة خالصة، وكلمات مشبعة بالبطش:

- ربما لم أخنْ.. ربما كان ولائي له من البداية.

- يا لكِ من عاهرة.

صرختِ بها "جمر" بقوة وقد انفجر سيل من الجحيم من فمها مهاجمًا الأخرى حتى كاد يذيب عظامها. سكون القصر كابوسي، الأيام تمر ولم تقترب حتى من مكان المتاهة. سيدها في عالم آخر والغدر ملتف كالثعابين.. دحرجت نظرتها على الثلجية في تقزز، ثم قالت بمكر قاتم ضخم مثل وحش:

- لقد مرَّت سبعة أيام.. يبدو أن وقت الذئب قد حان.

وتعكر الفراغ بصرخة، زئير مرعب ووحش محبوس منذ زمن وحان وقت فورته، ارتجَّت الجدران.. تحطمت درجات برج عالٍ بعدما ركضت نحوه بكل قوتها وفكت القفلٍ العنيد.. ابتلع خادمة في طريقه وذبحت مخالبه قنطورًا. أما الثلج فكان ينهار تحته..

خرج مسخ في لمح البصر.

والمواجهة تلك المرة غير مضمونة النتائج.

شق الظلام عواء وفتح آخر عينيه مع صوته وقد أيقن قرب المواجهة.

الظل الثاني.

المستذئب.

***

بعضهم يناسبهم الأسى.

قوم الرق!

أهل كهوف المعرفة الذي تم طمس أنوفهم وهويتهم.

زفير مكتوم طل منه، رائحة البحر تتسلل إلى أنفه، في حين يبتعد رجاله عنه بمسافة محسومة حيث الولوج إلى الكهوف محرم، ولكنه رجلُ المتاهات.. لن يوقفه شيء. السماء صارت داكنة، والقمر متكاسل مع أنه مكتمل. مشعل صغير في يد عجوز يقترب منه، وله عين مفقودة وضع له "البارود" الذي انتزعها بلورة من زجاج. سقطت كلماته ببأس وهو يتشمم المحارب الأرقب أمامه:

- انتظرناك طويلًا.

- كلٌّ في وقته.

قالها "شاهق" بثبات وتبع الرجل، ظُلمة تلو ظُلمة.. أجساد أطفال هزيلة ترمقه في ترقب.. المشعل بناره الخافتة يكفي بالكاد للطريق، ورائحة عفونة تتسرب رويدًا رويدًا إلى أنفه. الظلام يناسب الأوهام وإن اختبأت الحقيقة به في ركن ما، والشمس لا تلمس المكان ولا جلودهم.. عقاب بارودي صارم أعطاهم نصف حياة.

بنبرة متجمدة حادث "شاهق" دليله:

- أين هو؟

قال الشيخ وهو يشير إلى تجويف جانبي عَفِن الرائحة:

- هُنا.. لقد أمسكناه منذ أيام.

تحركت خطوات "شاهق" بحسم، رآه ممددًا.. على وجهه ابتسامة كلب ضعيف وشفتاه هاجمهما لون أبيض شاحب. ضحك "تاريخ" بصوت متهالك:

- "شاهق الأرقب" بنفسه!

صمت تام احتلَّ ملامح "شاهق" المصقولة، أشار بسبابته إلى الشيخ ذي العين الزجاجية أن يبتعد ورقدت عيناه فوق تفاصيل الشيخ الآخر الذي اقترب من الموت ثم قال ساخرًا:

- حان وقتك يا "تاريخ".

قال بخبث:

- ما تفعله لن يُجدي.. أنت تعلم مهما حدث يصل "البارود" إلى المعبد في النهاية ويحرقه.

كانت أنفاسه تهرول، صراع "البارود" والكفوف معروف على مدار السنوات، كفوف الرَّق هكذا هو اسمهم، أطفال لا تكبر، لا تتحدث ولا تسمع ولا ترى..

حاشية ممتازة ولكنها ليست تحت سيطرة "البارود". حاول قتلهم كثيرًا.. نفيهم من على وجه الأرض ولم يفلح، كانوا محميين بسحر مجهول عنيد.. المعبد كله به سحر مجهول خاص. لم يرد "البارود" أن تخور قواه أو تمرر هزيمته أمام شعبه بسببهم، فترك الحرب معهم حتى حين، اكتفى بمحاصرتهم أحيانًا وحماية تواريخه!

الكفوف كانت دومًا موجودة لكل حاكم، ولكنهم كانوا رجالًا أصحاء يصنعون الرقوق ويكتبون التاريخ بها.. حتى طمس هويتهم، قتل منهم الكثير، ومن بقي استمر عاجزًا فاقدًا حتى لحرية عبق الهواء. وحينها ظهرت الكفوف الأخرى.. كفوف الرَّق.

كل تاريخ من تواريخ "البارود" إذا ما وجدوه يُقتل، تُسكب دماؤه في فوضى ويغمس الأطفال فيها كفوفهم ثم يمررونها على جدران معبد سري تُفتح بوابته حينها من أحد جوانب الكهف.. بعد سنوات وسنوات يسقط الكذب من على الجدران والحقيقة تبقى.

كل تاريخ من تواريخه قُتِلَ بالطريقة نفسها، ولكنه دومًا ما كان يصل إلى المعبد ويحرقه قبل أن تبزغ الحقيقة للناس بشكل ما.

قال "تاريخ" بنبرة خشنة:

- هل فكرت مرة كيف ستظهر الحقيقة على الجدران؟

اختلطت عتمة "شاهق" بسخرية جامدة:

- البارود وحده يعلم.. لم يجد أحدهم من قبل المعبد سواه.

تقرفص "تاريخ" ضاحكًا:

- وما الذي يجعلك تظن أن الأمر سيختلف هذه المرة؟

وهنا همس "شاهق" بقسوة مخيفة جوار ضحكته:

- صدقني.. الأمر تلك المرة مختلف!

تلوَّنت شفتا الشيخ "تاريخ" بخبث:

- يُقال إن الرجل يقول الحقيقة قبل موته، ولكن في يودوس يقولون الكذب.. هل تعرف لماذا؟

انحنت نظرة "شاهق" نحوه باستهجان ثم قال بهدوء حكيم:

- لأنهم يظنون أن الحكم للبارود في أرض الموت أيضًا، والنجاة تحت حكمه لا تكتمل سوى بالخداع.

ابتسم "تاريخ" ابتسامة مثل كومة معرفة قاتمة:

- وأنت لا تصدق هذا يا "شاهق الأرقب".

- التاريخ يقول ما يقول الحقيقي والمزيف.

شهق "تاريخ" بمناورة أخيرة:

- سأصدقك.. سأخبرك عن جيش "البارود" السري.

عقد "شاهق" حاجبيه بسخرية:

- "البارود" لن يضع سر جيشه في جَعبة شيخ عاجلًا أم آجلًا سيموت وتفضح أسراره.

ثم تقدم خطوة أخيرة، محض الأوهام التي سيبيعها التاريخ في آخر لحظة بلا ثمن. رفع يده في الهواء بسرعة ثابتة وحركها بقوة صلبة ليأخذ نصل سيفه الحاد وضعًا أفقيًا صارمًا ذبح به عنق الشيخ على الفور.. ذبحه ببطء شرس ضمن الكثير من النزف، ثم استكمل وقتامة همسه تفترش الأرض مع الدماء:

- هل تعلم لمَ تركك جبار، لمَ لمْ يقتلك من قبل؟.. كي أقتلكَ بنفسي!

هُرِعَتْ الكفوف، التصقت الدماء بالجلد الكثيف ثم انفتح باب سري على معبد له أربع أركان، كل ركن بمجسم عنكبوت ضخم.. وكل عنكبوت له لون.

أسود

فضة

ذهب

وأحمر قانٍ بلون الدماء التي تناثرت على الجدران.

***

أحمر.. أسود.. فضة.. ذهب.

جثة بلا حياة، دماء فوق كفوف، جدران المعرفة تتشكل.

"شاهق الأرقب" في منتصف المعبد.. رجل المتاهات يرتب مساراته.

دماء فوق الكفوف.. دماء فوق الجدران.. المعرفة سريعًا تتشكل.. لا يوجد وقت بجُود السنوات كي يسقط الزيف. رفع ذراعيه بسطوة ثم أسقطهما.. حان وقتها.. دعاها صاحب العين الواحدة للدخول.. تتهادى في خطوات ثابتة والخمار الأسود الشفاف ينسدل فوق ملامحها. ثوبها قاتم مطرزة أطرافه بخيوط دم وشعرها الأسود يطير خلفها كالشلال.

عبر بوابات المعبد بداية عهد، عبر كفوف الرَّق مفاتيح الحقائق، عبر دماء التاريخ تتجسد المعرفة، عبر خيوط العناكب محراب قوته.

أخرجت من جَعبتها الأربعة.. كل عنكبوت توجه إلى ركن، حركت ذراعيها وقد تناثرت تعاويذها بصوت

قوي له صدى.. تراجعت الكفوف بعدما أتَمَّت مهمتها وأغلق عليهما ذو العين الواحدة باب المعبد وقد هاله ما رأى.. عناكب الساحرة الأربعة تتضاعف في الحجم بشكل مخيف.. يغزلون خيوطهم بسرعة مرعبة فوق الجدران. خيوط تتسلق الدماء المصبوغة وتلتصق بها بقوة شيطانية.

"بعد سنوات وسنوات يسقط الكذب من على الجدران والحقيقة تبقى".

"شاهق الأرقب" لا يمتلك الوقت لتلك السنوات.

أمامه شهر واحد

سيراب هي الثغرة السحرية، وخيوط العناكب مصيره. التصقت الخيوط بالجدران، شكلت شبكة ضخمة مخيفة وسيراب تتحرك وتهز رأسها وتندمج مع شغف عناكبها. التصق الحرير بالكذب وبدأ في استخلاصه.. وبدأت الحقيقة في التشكل فوق الجدران. الدماء المتجمدة تكوِّن حروف كتابة داكنة مثل رماد متفحم وتابعت الأربعة عناكب نسج خيوطها سريعًا حول الكهف كله..

ترياق خيوطه ذهب صلابته تفوق قوة الفولاذ

وشبح خيوطه مثل وهم شفاف من يلمسها يطير عقله

زئبق خيوطه حد سيف.. قادرة على قطع الرؤوس لو تناثرت

أما الخيوط الحمراء فهي سم عنيد قاتل بمجرد اللمس

إيغالًا في مباهج الصمت بدأت النهاية، وعبر صحراء يودوس فقد البارود تاريخه. متاهات الأرقب تتعاظم، والبأس حان وقته بعد صبر سنوات.

نظرة منتصرة متجمدة مثل ثلج مميت ارتسمت فوق ملامحه، وخطوات حادة وهي جواره خارج المعبد في

حينه. حتى أكملت العناكب مهمتها وأخفته كله تحت خيوط اختراقها مستحيل إلا لو جاء البارود بسحر المينوتور نفسه.

***

أرض العرش

قصر البارود

بلور متجمد في نظرة زرقاء، ملأت الشمس كأس عينيه بنار خالصة وقلب عذراء فقد الشهية به. ضربة عملاقة في منتصف صدره، ودماء تاريخه تسقط ولكن تلك المرة الرؤيا مختلفة.

صرخ بعلو صوته حتى ظن ساكنو القصر أن لعنة "غاند" نفسها حلت عليهم.. فكه تصلب بشكل وحشي وحطمت يداه عنق خادمة كان حظها العثر أنها صادفته.

تشكل حرسه الأول في ثوانٍ معدودة حوله بشكل دائري ورفعوا سيوفهم استعدادًا للنفير بأمر الحاكم.

- مات "تاريخ".

- سنجد المعبد يا سيدي.

ابتسامة هازئة ارتسمت على شفتيه، ثقيلة.. التمرد تلك المرة ليس كسابقه.. خبث الخطة فاحت رائحته..

شهق بوحشية أمام جمجمة قائده الأول.. وانبعثت من عينيه ظُلمة أول مرة يلمحها به:

- هذا يفوق قدراتك.

كان غضبه في تلك اللحظة قادرًا على التهام قلوبهم جميعًا.

احذر بارود

فالجَعبة ما زال بها الكثير بعد.

أشار مجرد إشارة بسبابته فهرب الجميع. وحلَّ الظلام على القصر في صمت مريع. وهدة سوداء تشكلت تحت قدميه وحريق فيها يشبه الرماد وآخر موازٍ له بعينيه تمامًا.

قاع الجحيم تشكل وشخص ما يحتاج إلى زيارة.

أرض يودوس

وكر "حرير"

من بئر قاتمة بدأ موت.. وحياة.

وكر العظام المنثورة.

ضحكة هازئة من الثغر الكئيب.

عينان؛ واحدة بلون حجر أزرق، والأخرى ظلام مشتق من لهيب.

الشدق حكاية مرعبة.

والحقيقة وليمة وحش.

اضطجع أمامها بابتسامة من جحيم.

وتسرب صوته بهدوء تام.

هدوء يشبه القبر تمامًا.

- مرحبًا أمي!

***

الفصل التاسع

تماثيل مخيفة على شكل وحوش لا تعرفها، وكأنها طرح كوابيس.. كانت قبيحة مشوهة المعالم، ملامحها غير مرتبة وكأنما الذي صنعها نحات مختل مصاب بلعنة الكوابيس. ألقت عليهم نظرة متأملة ثم قالت في وجوم:

- ما هذا؟

- إنه تحذير!

بنبرته المهيبة أجابها، منذ آخر كلمة وظل الصمت ضيفهما لوقت لا بأس به.. مرر الإشارة وكفى..

"الصمت إذا ما بدأت مباهجه ستصنع المستحيل"

ملامحه بدت عازمة على مجهول جديد لا تفهمه، المملكة الرابعة والأخطر.. لها شروط قاسية للنجاة أولها ألا تتحدث عن أسرارها لامرأة!

أخذ حفنة من تراب ثم ناداها بعينيه، اقتربت منه فأشار لها أن تمد يدها ثم فرك التراب لينزل على كفها وقال بصرامة:

- عاهديني.

- ماذا!

- عاهديني إن لم أخرج من تلك المملكة معكِ تُكملين الطريق.

شعرت بدقات قلبها كلها تنبض دفعة واحدة، جبهتها تتعرق.. جسدها يرتعش ولم تتصور أبدًا أن ينطق لسانها بكلمات كتلك:

- ماذا تقول؟ أنت حتى لم تدربني بعد.

بصوت يشبه فخامة الرعد قال وهو يشحذ سيفه:

- لا تقلقي.. سنمكث هنا وقتًا كافيًا.

ثم تنفس ببطء وكأنه يشتمُّ رائحة محاربين تمررها الرياح:

- وقد تحمل الرياح لنا بعض اللحم البشري للتدريبات.

شفتاها انفرجتا في حيرة وإعجاب في الوقت نفسه، سألته بعدها بما يجول في صدرها منذ تركا مملكة الخراب:

- كيف لم ألاحظ من قبل.. أنت تقاتل بشكل مختلف.. لم أرَ من يقاتل مثلكَ أبدًا.

ابتسامة صلبة ساخرة تسربت من جانب شفتيه، وهي تكمل بتفكر:

- كيف لم ألاحظ من قبل!

عانقت نظرته الفراغ حوله والمجهول في تاريخه ثم قال بنبرة مظلمة:

- لأنه ببساطة أغلب من راقبوا قتالي من كثب ماتوا!

رمقته بتحفز:

- حتى "البارود"!

أطلق ضحكة خفيفة ثم تابع وهو يشحذ سيفه:

- "البارود" ترك مراقبة المعارك منذ زمن.. ملَّا!

لاحظت أن نغمة احتقار ما تسربت من نبرته، سوداوية خاصة اجتاحت عينيه وكراهية قاتمة تملكت وجهه كله.

بعدها فجأة توجه نحوها، أمسك بالسهم خاصتها وناولها إياه ثم قال في توجيه:

- لعبة الأسهم سهلة ما دام هدفك أكبر وأبطأ.. وما دمتِ أنتِ ثابتة.

- ثابتة! ماذا تقصد؟

رفع حاجبيه في تلميح واضح ثم تابع:

- الرامي الموهوب سيطلق سهمه وهو يتحرك بدوره، يركض فوق ظهر حصان.

نبض قلبها بشكل مختلف.. التحدي ناسبها وأخافها:

- هذا يبدو مستحيلًا.

- هذا يفعله الكثيرون فعلًا.. ولكنكِ ستكونين أفضلهم.

كلماته أشعلت الرغبة المستعرة داخلها بالتفوق.. بجعل نبالها نصب أعينها والتميز حد ذكر التاريخ لاسمها.. التاريخ الحقيقي.

انتشت بقوتها القادمة وإن كانت كلماته قاصمة:

- لأنك ستتدربين على يد جبار.

كلماته تتابعت وهو يحضر السهم ويركب فوق حصانه ويبدو أنه يمتلك موهبة كل أنواع القتال بدوره:

- سهم الرامي لا يتردد.. لا يخطئ.. سهم الرامي في كل الأحوال مميت.

يركض بسرعة قوية ويضرب سهمه فجأة فيصيب صقراً في مقتل بلا تردد. يدفعها إلى التجربة.. يضرب الحصان بساقه، يقذف حجراً فتخرج من قفص معد خمس حمامات ويطلب منها إصابة السوداء منهن. ظنت أن الأمر سهل حين نفذه، ولكن معها بدا مستحيلًا، سرعة جسدها على الحصان مع حركة الهدف تصيب سهمها بالعجز.. تخطئ مرة تلو أخرى.. تصرخ تغضب وتشعر أنها لن تصمد.

- مجددًا.

يقولها بحسم.. يضرب مخباً آخر بطيور أسرع، ومرة مع أصغر.. كل مرة يطلب منها ضرب طير بلون مختلف..

كانت تحاول يائسة أن تبطئ من سرعة الحصان كي تستطيع الرمي بدقة، عقلها مشغول بتثبيت نفسها على السرج مع إمساكها بالسهم حتى لا يحدث الأسوأ وتسقط.. تدريبات "شاهق" الآن تبدو مجرد بداية، ولكن مع هذا الجبار هي في أرض معركة.

أخيرًا بعد محاولات بدت لا نهائية.. ساعات وساعات.. أصابت هدفها. صرخت ومن الحماس كادت تقع من فوق الحصان، ولكن بسرعة تمالكت نفسها فالنظرة منه حينها بدت كإنذار بالقتل.

حدق إليها بجمود صلب ثم قال بخشونة وهو يعدل سرج حصانه:

- في القتال لا تحمسي زيادة على المطلوب، ولا تغضبي زيادة على المسموح.. وازني شعورك كي تهزمي عدوكِ.

وبعدها فجأة ودون مقدمات سحب سيفه من غمده في سرعة خيالية فقذف القوس والوتر من يدها بحركة واحدة ليقول بعدها بتباهٍ قاسٍ:

- ودومًا كوني يقظة..

وظنت أنهما انتهيا لهذا اليوم، كانت تشعر بالإنهاك فعلًا والجوع وعدم التركيز والرغبة الحارقة في الاستحمام والنوم. إلا أنها تفاجأت به يحرر نفسًا جديدًا به خمس طيور ويطلب منها في سرعة قياسية أن تترجل عن الحصان وتأخذ نبالها من الأرض ثم تمتطيه ثانية وتركض لاحقة بهم وتصيبهم جميعًا

"قلب النبال"

بدأ تجهيز المعركة

والجبار هو المعلم الذي ستخرج من تحت يديه أخرى.

***

بعد مرور خمسة أيام..

هي تكرهه.. هذا الرجل هو أسوأ رجل قابلته.. أسوأ رجل في يودوس.. بل أسوأ رجل في العالم كله.

كان يضطجع مسندًا رأسه إلى صخرة، ويمضغ بعض اللحم المقدد ويشرب النبيذ. نظرته إليها ساخرة صلبة وهي تشعر بتشنج تام في عضلات ذراعيها و لم تقترب حتى من تحقيق ما كلفها به.. دلوين ضخمين ممتلئين بالصخور وهي تحملهم بكلتا يديها وتذهب وتعود وتصعد هضبة وتنزل وغير مسموح لها أبدًا بالراحة.

تصرخ بيأس حانق:

- ذراعي تتمزق.. بل تمزقت فعلًا.. اللعنة عليك وعلى يودوس و"البارود" و"شاهق" معكم.. الدلو سيسقط وذراعي متعلقة به مفصولة عن جسدي.

قال ببرود ثلجي وعيناه منتبهة مع طعامه:

- قوتكِ ضعيفة.. عليكِ أن تمسكي بسيف محارب ثقيل وتجيدين هذا.. الحرب ليست نبالًا فقط!

تنهدت في يأس:

- أنا لن أحارب.. أنا سأتزوج بأي شيء وحين يموت سأقبِّل "غاند" من فمها.

كادت الابتسامة تداعب ثغره، كتمها متسليًا ثم تابع:

- لن يتزوج أحد امرأة بذراع واحدة.

زمجرت بغضب وتابعت، تحركت ببطء شديد الآن وتود بحق الاستسلام واليأس وأكل الخبز والفواكه.

- أستطيع أن أكتفي بالنبال.. لا أمانع.

- ماذا لو أخذ المقاتل نبالك؟

صرخت مغتاظة:

- لا أهتم.

نظرته تحولت إلى قتامة تامة بها اشتعال قاسٍ:

- حسنًا ما دمتِ لا تهتمين فكفى.. تستطيعين حينها أن تعاشريه كي يتركَكِ حية.

تسربت حروفها محذرة في غضب:

- لا تتحدث معي هكذا.

- احملي الدلو وتابعي تدريبكِ.

ضاقت عيناها في معاندة تامة.. متحدية ومتهورة ومتعبة ومخطوفة في حكاية لم تخترها.. ولكن داخلها قبس ما يريد أن يكمل، قبس من "ضوء القمر".

- أنا أكرهكَ.

مط شفتيه بابتسامة مستمتعة وتابع تناول لحمه ثم قال بهدوء تام:

- لا أهتم!

***

وأخيرًا وبعد ساعات بدت لا منتهية هي وجسدها ومياه عذبة..

كانت تشعر وكأنما عليها طبقات وطبقات من الوسخ، عظامها كلها تؤلمها وذهنها يحتاج إلى الراحة.. ألا يقول هو إن المحارب يحتاج إلى التركيز.. كي تتيقظ عليها أن تنال بعض الاسترخاء أولًا. لن تمانع لو كان سبعة أيام. وسط سكونها ذكرى من منزلها السابق طلت.. ما كانت تتمرد عليه اشتاقت إليه، الطاولة المستديرة التي كانت تضع

"زليخة" فوقها طعام العشاء وتجمعها مع "بداية" و"نهاية"، ثم تقص عليهن الحكايات.. أغاني الشعراء وكذبات الرحالة ونظرة "ضوء" القاتمة والغريبة لهنَّ دون أن تشاركهنَّ، ولكنها كانت تقف وراء الستار وتتلصص على بهجتهن الصغيرة. هي تفتقد كل هذا، تفتقد هذا الدفء.. براءة "بداية" وحنان "نهاية" واختلال "ضوء".

كان الكهف به ظلامه الخاص، مشعل وآخر في جوانبه وما يشبه حوض الاستحمام، ولكن على شكل جدول عذب يربِّت جسدها العاري المنهك. وقت مستقطع من قسوة الجبار كانت تستحقه وعزلة مطلوبة لأنثى بين الجدران. أسندت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها ولم تبالِ حتى لو استغرقت في النوم واستفاقت على غرق. كان التعب يتراكم فوق عظامها، معدتها لا تشتاق إلى الطعام ولا إلى الشراب بقدر رغبة عقلها في السكون التام.. قسماتها المتحفزة هدأت الآن، وجهها غاب في سلام مستقطع وابتسامة ناعمة ارتسمت فوق شفتيها مع هذا الهروب المستحق للحظات.. مجرد لحظات! فسكون الماء تحرك فجأة، ولم تكن حركة خفيفة عفوية.. بل جسد صلب ثقيل شاركها خلوتها.

فتحت عينيها في صدمة ثم تحركت بحرص كي تتأكد من عدم ظهور مفاتنها من المياه:

- ماذا تفعل هنا؟

أراح رأسه بهدوء ثم قال وهو مغمض عينيه دون أن يكترث بها:

- ماذا يبدو لك؟! أحتاج إلى حمام مياه عذبة بدوري.

انفجرت بغضب كعادتها:

- ليس الآن.. بعد أن أنتهي.

حملق إليها بنظرة قاسية أرجفتها ثم قال بخشونة لا مبالية:

- تستطيعين المغادرة إن أردتِ.

همت لتفعلها فعلًا، ولكنها أيقنت أنها ستظهر بشكلٍ ما عارية تمامًا أمامه، لم تحتمل الفكرة ولم تحتمل أيضًا مشاركتها معه حوض الاستحمام هذا حتى لو كان واسعًا بمقدار لا يسمح له ملامستها بأي شكل.. كان يرتاح على طرفه، وهي بعيدة عنه بمسافة متوسطة على الطرف الآخر. حواسها تحفزت وشعرت بعدم الراحة، في حين كانت هو ملامحه ترتاح ببرود تام وكأنه معتاد مشاركة النساء العرايا لحظات كتلك.

قررت تجاهله قدر استطاعتها وانتظار أن ينتهي وغض بصرها عنه حين يخرج. ثم أيقنت أنه هو أمامها الآن.. دون أسلحته وتجبره، كما ولدته أمه.. هل لو أرادت تهديده تستطيع.. أحد دروس المحاربين خاصتها الآن.. التسلل.. الإغواء.. النحر لو رغبت والأكثر تسلية التهديد.

لاحظ نظرتها المتأملة نحوه وابتسامتها الشقية، فقال وهو يرسم ابتسامة ساخرة فوق وجهه:

- شاركيني أفكاركِ!

- مطت شفتيها بخبث:

- ألوم نفسي.. كان يجب أن أشعر بكَ قبل أن تدخل للمياه، هل تفقدنا الراحة التركيز.

قال بشموخ وقد بدت ملامحه مصقولة بالكثير:

- لستِ وحدكِ.. حتى أعظم القادة تفقدهم أوقات السلام مباهج الحرب.

التمعت عيناها في دهشة حماسية:

- مباهج الحرب! وماذا عن مباهج الصمت؟

كانت تتسلل إلى معرفة تريدها، ما بينه وبين "شاهق".. أي هدف يستحق أن يضحي بها ابن عمها في رحلة كتلك، أم إن طلب "البارود" فاجأه وكان جبار سبيله الوحيد.

انفعال رمادي يشبه مخلفات الحريق ارتسم في عينيه.. ثم تسربت حروفه ببطء عميق:

- كلٌّ في وقته.

إلا أنها أرادت المزيد، قوانينها الخاصة ستكتبها... المحارب له القوة، والمحاربة ستستغل الفرصة. بدأت تترك مساحتها وتقترب منه، حريصة كل الحرص ألا تظهر من جسدها مفاتن، ولكنها تناور كي تنال مرادها..

- وماذا لو تعجلتُ، أردتكَ أن تخبرني؟

حدق إليها بغموض ثم قال فجأة دون أن يهتز ثباته:

- حاولي.

ارتبكت لن تنكر، لم تتصور أنه سيستجيب بتلك السهولة.. تلك الوقاحة.

ولكن ماذا، ففي النهاية هو رجل.. مشهد تهديد عنقه عاد إلى الارتسام مجددًا في ذهنها، تلك المرة ستلقن التلميذة المعلم درسًا لن يُنسى. كان صوت خرير المياه يبعث الطمأنينة والرغبات المتعددة. ادَّعت ملامحها الاسترخاء، وجسدها كله كان يرتعش، انتصر التهور واقتربت أكثر:

- أنت هنا تبدو مختلفًا تمامًا.

ومع المناورة التي تنتويها، فإن همسها هنا لم يكن يكذب، هو مختلف حقًّا الآن دون دروعه وقتامة قلنسوته وسيفه

المخيف الثقيل. يبدو.. إنسانًا وليس "جبار" الذي يخافه الجميع هو وشيطانه الأسود.

عضَّت شفتيها في حركة رخيصة ولكنه لم ينكر.. بدت حقًّا مغوية:

- هل تعلم تلك هي أول مرة سأقبِّل فيها رجلًا.

ومع قربها الأخير.. إلى حدٍّ ظنته آمنًا ويكفي كي تميل بقبلة خادعة ثم تسحب خنجره الظاهر من ملابسه خلفه جمدها صوته الذي أدركت تلميحه متأخرًا!

- قُبلة.. هل تظنين أن هذا كافٍ بالنسبة إليَّ!

وقبل أن تستوعب جارت شهقتها سيطرة ذراعه الصلبة فوق خصرها قبل أن يجذبها نحوه في ارتطام كان لها كارثة. تجمدت خوفًا حتى من التملص، في حين انغرست أصابعه في لحمها وهو يهمس قرب شفتيها بفحيح قاسٍ:

- لا تمارسي ألعابًا أكبر منكِ.

ثم حررها فجأة كما جذبها وتركها وخرج من المياه ساحبًا كومة ملابسه وترك لها بسخرية تامة الخنجر.

درس آخر للمحارب داخلها.. وقبله المرأة.

لا تخُض معركة لا تستطيع تحمل عواقبها.

***

- عاد "شاهق".

عبارة على لسان "زليخة" قلبت عالمها، رغم أنها واثقة أنها لن تراه.. هو رماها ونسيها وانتهى.

ولكن مجرد وجوده في الإقليم.. سيرته.. طلة عبارة تحمل اسمه.. كافية لتقلب عالمها.. يُنزل عليها أمطار اللهفة وصواعق العشق. رفعت نظراتها بعدم تركيز نحو أزرق

الذي كانت تداعبه فكرة قصيدة، يقولها بوقاحة لا تغضبها، فهو يزين كلماته بشغف نحو اللغة ولا شيء غيرها.

- تلك القصيدة ماكرة.. تراودني عن نفسي.. تريد أن تطارحني الغرام.

منحته ابتسامة خجلة خالبة للب ثم عادت إلى ما تفعله، كانت تعد مكونات اليخنة كما علمتها "زليخة" تمامًا وإن غفلت عن وضع الأعشاب التي تمنح المذاق.. رفعت الملعقة نحو فمها لتتذوق الخليط وقد مررت ملامحها انفعالًا يائسًا حائرًا.. لم تدرك أين المشكلة تمامًا. تجهمت ملامحها وغابت في ورطتها الخاصة، وإن كانت ورطة بسيطة من وجهة نظره. طعام سيئ المذاق أفضل من لا طعام على الإطلاق.

جذب من يدها الملعقة على حين غرة وأخذ بعض المذاق لنفسه، وقد ابتسم وهو يلمح تحفز ملامحها البريئة واتسعت عيناه وهو يدعي التقييم بشكل جاد:

- ممم سأعيش.

- حقًّا.. سيعجب الخالة "زليخة"؟

- ليس لدرجة أن يُعجب الخالة "زليخة" يا "نهاية".. الطعام عندها هدف سامٍ قد تقتلك من أجله.

شحبت ملامحها بخيبة أمل وقد بدا أن مزاحه قاسٍ عليها، إلا أنه تابع ببساطة متسلية:

- احذفي اليخنة من قائمة مهاراتكِ.

أطبقت شفتيها في خجل ثم قالت بيأس:

- هي الطعام الوحيد الذي تعلمت إعداده.

عقد حاجبيه يائسًا وبساطة تلك المسكينة متمثلة في

إعداد وجبة.. جلس جوارها ثم أشار إلى السماء الزرقاء والسحب التي تتشكل بخيال خاص، ثم قال وهو يشير إلى إحداها سارحًا:

- ربما ليس مصيرك مجرد يخنة وزوج يرضى يا "نهاية".

ورفع حاجبه الأيسر وهو ينظر إليها بتأمل:

- هل تريدين هذا؟

كانت تريد هذا حقًّا، ولكن مع رجل واحد فقط.. معه لا تفكر.. يتبخر كل شيء ويبقى هو وفقط.

تمتمت بتردد ومن داخلها تريد أن تتحاشى الحديث عن هذا الأمر:

- لا أعرف.

استشعر صدقها، ودَّ لو يستطيع ملامسة ملامحها الرقيقة بسبابته، هي رقيقة جدًّا بشكل يعطيه انطباعًا أنه لو لامسها ستذوب. ربما حقًّا لو ترك الشعر ودفن نفسه في بيت كي يدور في طاحونة يودوس لاختارها دون تردد. ولكنه وهب نفسه إلى شعره.. إلى كفاحه.. هذا فقط ما يجعل قلبه يخفق في صدره.

همس لها بخفة وهو يرتاح في جلسته، يلقي بنفسه إلى الخلف حتى بات نائمًا على ظهره:

- كوني ما تريدين.. كوني أنتِ وفقط.

نظرت نحوه في تيه:

- كيف؟

اتسعت ابتسامته في سلام:

- تمردي.. ارفضي التاريخ لو شئتِ، والحاضر والمستقبل.. ارفضي يودوس.. اهربي من "زليخة" حتى.

الجمال الفطري بملامحها مثل اللؤلؤ في قاع المحيط..
انفعلت في صدق:

- ولكن العمة "زليخة" طيبة لا أود تركها.

ضاقت عيناه بمقدار الابتسامة.. وكان مقدارًا وفيرًا:

- أنت رائعة جدًّا، ولطيفة جدًّا، وجميلة جدًّا.. هذا الرجل الذي سينالك محظوظ.

التمعت عيناها بخجل وشكر وبعدها نظرتها هربت.. قلبها وعقلها وكل جوارحها متعلقة برجل واحد..

رجل لا يؤمن بالحظ.. يصنع حظه بنفسه.

وفي منزله، قرب مدفأة وخطط خاصة به همس أحد رجاله بمعلومة تهمه.. في منزل "زليخة" حيث يبقي جوهرته حتى حين، أحدهم يتردد ويتودد ويدور حول المكان.

اسمه أزرق!

***

هي امرأة تخلق بين ضلوعه حربًا طاحنة دون أن تدرك..

عيناه انحدرت نحوها بنظرة قاتمة سريعة، و"زليخة" تتراجع، هي فتحت الباب مثل طفلة وحين رأته أمامها ركضت، تعابير وجهها الصغيرة تجمدت وحروفها تلعثمت أما أقدامها فهرولت أمام نظراته الحادة.

- أعدي أوراق التوت يا "نهاية".

قالتها "زليخة" بلطف آمرة، وهي تحييه بتبجيل وتقوده نحو المجلس.. تتحدث بفخر وكأنما تقدم ابنتها:

- هي تجيد إعدادها.

- أعلم.

ردَّ بقتامة تامة، تجولت عيناه بحدة صقرية في المكان وكأنما يستنبط وجود آخر قبله.. نظراته تشبه التهديد الخفي وملامحه تمرر قسوة مبطنة جعلت "زليخة" نفسها تشعر بالتوتر.

كانت هي تتوتر أمام القدر.. تحاول.. تذهب وتعود.. تبدل ثوبها سبع مرات من أجله.

التمعت عيناه وهي تظن أنه لا يراها، لا يراها أبدًا وهي كلها مستقرة في عينيه، روحها تنفرط مع نظرته الجامدة وقد وضعت أمامه المشروب وانسحبت، بحَّة صوتها تتقطع، وأنفاسها تنفصل عن العالم، عن الجدران والأثاث وممرات البيت الصغيرة.. عن كل شيءٍ سواه.

- أنا سأذهب يا عمة.

ابتسمت لها العجوز، في حين تجاهلها هو في حينها، سحب قدح أوراق التوت الساخنة ثم قال بصوت صارم أجش:

- جهزي حالك.. ستذهبين معي!

عبارة، مجرد عبارة أشعلت في صدرها حربًا! وقفت متجمدة لا تستطيع حتى أن تنظر نحوه، وكلمات "زليخة" تتمم حديثه في استسلام.. استلام عجوز أيقنت بحنكتها الآن ما غفلت عنه.

- اغتسلي يا "نهاية" وارتدي أفضل ما عندكِ.. ستذهبين مع ابن عمك!

همست بضعف فبدا صوتها بعيدًا وكأنها محبوسة في قنينة:

- إلى أين؟

ولم تجب العمة، هو من أجاب وهو يستدير نحوها بكامل جسده، يفتت عزيمتها المفتتة من الأساس ويحتجزها في

صلابة عينيه مع عبارة واحدة.. بل كلمة، ستبدل كل شيء!

- منزلي.

لحظات بدلت كل شيء، وجهها شاحب ومتورد في الوقت نفسه.. قلبها يركض.. عقلها في أرض المستحيلات.

هي معه.. تخطو جواره.. بل تركب في عربة فخمة معه والخيل يتهادى، أنفاسه تحتل المساحة حولها.. سطوته تُرجِفها.. توترها يتصاعد وهمسها الخافت يحاول المرور من بين شفتيها:

- هل أنت غاضب مني؟

جاوب بقسوة جامدة دون أن ينظر نحوها:

- لماذا؟ هل فعلتِ ما يغضبني يا "نهاية"؟

نفت بهلع حتى إن صوتها خرج متحشرجًا:

- لا.. لا لم أفعل شيئًا.

كان صدرها يعلو ويهبط بشكل مبالغ فيه، وكأن هذا ما ينقصه.. أناملها الرفيعة تتشابك في توتر ووجنتاها تصطبغ بحمرة قاتلة.

مرر كلماته باقتضاب وعيناه تختلس النظر نحوها:

- مكانكِ في منزلي.. "زليخة" كانت مجرد وضع مؤقت.

شعرت بنفسها تغرق.. منزله.. جواره هو وزوجته.. يا لها من قسوة، التزمت الصمت وهربت بالنظر نحو النافذة.. المسافة لم تكن بعيدة وهذا أفضل.. تلك الخلوة معه كانت تذبحها، منزله الضخم أشبه بقصر يوازي قصر الراعي حجمًا، خطواتها خلفه خاضعة وعيناها تتحاشى النظر نحو

"سيراب" التي بمجرد رؤيتها عانقتها.. عيناها تلتمع ببريق مخيف وصبغة شفتيها القاسية تقول بسطوة:

- إنها جميلة جدًّا يا "شاهق".

تجاهلها وأشار لها أن تتبعه، حيَّتها في صمت وصعدت خلفه إلى الغرفة، كانت غرفة واسعة مفروشة بحرص بما يناسبها، غرفة تجاور غرفته تماما! شكرته بحذر:

- شكرًا لك.

ظلت عيناه مسلطة عليها بلا تعبير واضح وقد خفضت هي رأسها في خجل.. كل ما التقطته قسوة نظرته التي كادت تفتتها..

- لا خروج من المنزل إلا بإذني.

وزاد بحزم آمر:

- واذا ما أردتِ شيئًا اطلبي مني مباشرة أو من أم العقرب.. هي مسؤولة عن خدمتكِ.

تنفست الصُّعداء لأنه لم يذكر زوجته، هي لا تستطيع التعامل بأريحية مع فكرة زوجة عادية له، فماذا لو كانت "سيراب نجم". فجأة دون مقدمات ترقرقت العبرات في عينيها، مع أنها معه.. مع أنها بين جدران الرجل الوحيد الذي تحبه كانت تشعر بوحشة فظيعة. منزل "زليخة" ومزاح "أزرق" رغم كل شيء أكثر بساطة.

هنا هي في عرين الأرقب.. ولا تضمن الخروج ناجية.

حافية في صحراء عشقه همهمت:

- شكرًا لك.

- لا تشكريني.

قاطعها بحسم.. تلك المرة اقترب، أخرج من جيبه منديلًا

قماشيًّا مسح به عبراتها دون أن ينبس ببنت شفة، وهي كلها في رجفة مشتعلة.

بروح طفلة قالت مبررة:

- أشعر بالوحشة.. آسفة.

أنفاسه الثقيلة حاوطتها، صرامة شفتيه مررت ردَّه بصلابة تامة:

- ستعتادين المكان بعد أيام.

ولا تصدق أنها ستقول هذا.. لا تصدق حقًّا ولكن وجودها جواره يصيبها بالانهيار.

- وماذا لو لم أعتد.. أستعيدني إلى العمة "زليخة"؟

قسوة تامة شقَّت انفعال ثغره، وعيناه تأكلها بغلظة.. عيناه تكبلها كما كلماته تمامًا:

- أنتِ لن تغادري هذا المنزل أبدًا يا "نهاية".

***

- ماذا تفعلين هنا!

التمعت عيناه ببريق حاد مخيف يوازي فولاذ رمحه، يده اليمنى تجمدها باكتساح موجع فوق نعومة عنقها:

- انطقي!

قالها باشتعال صارخ، عروق جسده زرقاء نافرة وأنفاسه سعير كامل.

كانت ترتجف وتشهق وخوفها قبل غضبه يجثم على صدرها.. روحه حرب وروحها سلام يحاول.. روحها روح يمامة تريد الطيران وكل ما حولها يقيدها.. يعجزها.. وروحه الرمح الذي سيقطع جناح اليمامة. حملها بذراع واحدة، تحرك بها ولكن ليس إلى غرفتهما.. ليس إلى

مكان علوي آخر.. بل إلى القبو!

ألقاها بعنف تام فوق فراش فقير ومزاجيته أمامها سوداء غامضة.. هذا الغضب المتشكل من مأساة..

همس بفحيح قاسٍ وقبضته تلك المرة تهرس ذراعها:

- يبدو أنكِ لم تكوني تستحقين الطريقة التي عاملتكِ بها.

بنصف قدرة وإنهاك تام وعينين زائغتين تمامًا توسلت إليه:

- "بارق"، أرجوك.

أُضرمت النار في دُكنة عينيه وهتف بحدة وهو يدفعها تلك المرة لترتطم بالجدار:

- لقد تخطيتِ حدودك يا "بداية".. تخطيتِها حقًّا.

وتابع بنظرة تحتقرها تمامًا:

- يبدو أنكِ لستِ البريئة التي ظننتُ.

ارتعشت حدقتاها، وسخطه يستكمل، يدمي روحها بطريقته الخاصة:

- مكانك هنا.. كما تستحقين.. مجرد شاة!

سقطت "البداية" في براثن "قاتل ذئاب".. سقطت قبل حتى أن تبدأ! بدأ كابوس وهي كانت امرأة متشبثة بالأحلام. لون عينيه قاتم وروحه أكثر سوادًا.

ماذا تفعل بنا الإنسانية؟ تُفقدنا من نحب!

سقطت الشاة في أرض الراعي، عاشرها عنوة. لم يكن الأمر برغبة حتى، بل مجرد رسالة تضعها في مرتبة أقل من سبايا الحرب. بعدما انتهى استقام وهو ينظر نحوها في قتامة:

- هذا القبو لا يعرف أحد في القصر بوجوده.. أعرف امرأة حُبِسَتْ فيه مرة! غير أنها لم تكن مثلكِ.. أنتِ لا شيءٍ جوارها.

قال عبارته الأخيرة باحتقار تام، حروف مثل نصال كادت تقطع لحمها..

- أيًّا كانت اللعبة التي تمارسينها هنا لن تنجح.

قسوة فحيحه التصقت بعظامها، شعرت وكأنما ستصاحبها مدى الدهر.. مدت يدها ببطء مُنهك كي تأخذ ثوبها وترتديه فنظر نحوها نظرة ممتلئة بالشراسة والامتهان..

- ستعلمين جيدًا عقوبة خيانة الراعي!

وهرست خطواته أرض القبو ورحل.

أما هي فذُبحت.. ذُبحت بنصل غريب أسود. اختنقت بماضٍ لا تعلمه ودفعت ثمن ترتيبات آخرين وضعوا "البداية" كغنيمة.

رأس الشاة المقطوع في منتصف الوليمة.. واليمامة التي دق عنقها فأس عتيق.

ضاعت "البداية"، والكتاب بحُكم الراعي مُغلق!

***

قضمات الظلام أنهكت جسدها الضعيف، ثلاثة أيام مرت وهي كما هي.. مهانة فوق فراش فقير إذا ما أرادها. رفضت الطعام فدسه رغمًا عنها في فمها.. دخلت رغمًا عنها حربًا طاحنة لا تفهم شرارتها، كانت عاجزة عن الردِّ.. عن الرفض.. عن إدراك تفاصيل النبوءة!

"قلب الراعي"

أي قلب!

عقلها يصرخ وينتبه إلى وجوده وسط قفزات اليوم الكئيب، الشمس لم تعانق بشرتها ووجها ذبل.. عظامها تتكسر حين ينالها، روحها تتكسر وهذا ما يريده؛ يحولها إلى المسخ الذي تستحق أن تكونه! يحول نفسه إلى المسخ الذي يريد أن يكونه!

الأبطال تُهزَم والمسوخ تنتصر.. وندوب الحرب تصيب الجميع رجالًا ونساءً.. في قلب الراعي وجع.. في قلب الراعي مقبرة.. في قلب الراعي سر خطير لا يجوز لأحد فوق أرض يودوس معرفته. الراعي ملعون بخيانات النساء.. واحدة باسم الجسد وأخرى بطموحات أخطر!

هي محظوظة لأنه حتى الآن لم يقتلها.

***

قبل ثلاثة أيام

شك نما في صدره

زوجة تدَّعي البراءة وتُخفي أمرًا، زوجة علم أنها زارت "حرير"، وعبث نبوءة ما يريد أن يسبر أغواره وأسراره.

تلك المرة لم يعاشرها، بل وثب فوقها.. نظرته قبر ونظرتها تكاد تيأس في الحياة.

كل ما قالته حينها وجع كئيب، نبرة مسكونة باليأس:

- أي نسل تبتغيه مني! ما بيننا لا تجوز معه حياة.

اقترب منها وفحيحه كالحفر في جلدها:

- من قال إنني ابتغي النسل منكِ الآن!

ثم توحشت مخالب حروفه لتجاري قسوة قبضته عليها:

- الشاة تؤدي غرضها حتى تُذبح!

وضاقت عيناه بتوحش ساخر:

- ولكن إلى من أرسل رأسكِ.. "شاهق" أم "البارود"؟

تجمدت أوصالها تمامًا، حُبِسَتْ أنفاسها وسط جحيم كلمات احتلَّت ليس فقط الفراغ بينهما، بل تسربت إلى مسامها مثل سُمٍّ حارق.. والنبرة منه قار أسود.. كلمات دفعتها من فوق سفح جبل فمزقتها أشلاء:

- أخبريني يا بدايتي اللعينة مع أي منهم أبرمتِ اتفاقكِ؟!

***

قلب المستذئب ظُلمة شيطان.. ومصير فريسته النهش بأسنانه.

الغابة تُظلم، وهي تكره الظلام.. يذكرها بالقبو العلوي! بضحكات "جمر" المرعبة وزحف نظرة "ثلج" القاتمة.

لامست صدره في خوف..

- "غضب"، لا تتركني أبدًا.

وجهه مثل حد سيف ونظرته مخيفة لم تلمحها هكذا من قبل، الظلمة حوله تبتلعهما معًا وذراعه الصلبة ترفعها بحركة واحدة فوق الحصان، ثم يقيد رسغيها حول عنقه.

- ماذا تفعل؟

قالتها في عجز تام.. دموعها تتساقط كالشلال ونظرته هو تحدق إليها بصلابة سوداء. غضب جامح وزعقة حاسمة في الحصان كي يركض، يركض ويركض.. يبتعد بها إلى أقصى مسافة ممكنة عن أنياب المستذئب.

عاجزة فوق حصان بستة حوافر، يركض بسرعة خيالية وخيال وحش عيونه حمراء مخيفة مثل الجمر يظهر.. صرخة غضب تشق صمت الغابة وقتال عنيف يبدأ.. قتال مخيف.. كيف سينجو من مسخ كهذا!

صرخت بيأس في الحصان، حاولت عاجزة تحريك يدها الموثوقة من حول عنقه كي تحرر نفسها وتسقط عائدة بلا جدوى. سرعة الريح التي يركض بها الخيل تهزمها، وثاق يديها لا يرحم ولا يبدو منه فكاك. عجزها تحزن معه الحيوانات والطيور والأشجار، و"غضبها" في لحظة ما الآن وقتال غير متكافئ يمزق لحمه. صرخت من جديد.. حرقة وحسرة تمكنت منها، غضب يتعاظم، لون خصلاتها يتغير، فضة غريبة تحتلها. كانت تذرف الدمع بشكل متواصل، تلهث بيأس.. تشعر وكأنما ابتعدت عنه بمسافة قاتلة لن تسمح لها برؤيته مجددًا. وضعت يدها فوق قلبها علها تهدئ من روعه.. أو حتى من عشقه البريء. صرخته الأخيرة تتردد في أذنيها وقتاله يصلها من خلال الغابة. قتال المسخ تلك المرة ليس بهين. كافحت مجددًا مع الوثاق، حاولت حتى جرحت رسغيها وتساقطت دماؤها على الأرض وفروع الأشجار المكسورة.

وفجأة!

حدث ما لم نتوقعه.

ارتعبت.. رجفة فزع سرت في جسدها والحصان نفسه تجمد متوقفًا عن الحركة، فقد باتت الفروع الميتة المكسورة حيَّة.. تلتف حولها، تشكل انحناءً ما لا تفهمه.

وفجأة مجددًا.

بطرف مدبب مخيف اقترب منها مزقت الفروع الوثاق.. وأجبرت الحصان على العودة.

الغابة معها.. الغابة تستمع لها.. الطرق مفتوحة وسرعة الحصان ملكها الآن، شعرها الفضي يتبعثر خلفها دون أن تدرك وأمام عينيها من بعيد معركة جحيم.

وحش كاسح، يفوق حجمه حجم "غضب" خمس مرات. مخالبه تلاحقه وسيف "غضب" يثابر مع قفزاته كي يخترق أنسجته العضلية وجلده السميك الشبيه بجلد تمساح. كاد "غضب" ينتصر بمهارته وقوة سيفه ولكن المستذئب بدا مدفوعًا بقوة قاتمة وهو ينقض عليه بأنيابه الحادة انقضاض قاتل، يطبق على عنقه ويقترب من قضمه حد ميتة بشعة. يكبله ويرفس "غضب" بقسوة فيشتت انتباهه ويرفع سيفه ليغرسه مباشرة في إحدى عينيه. صرخة عاتية متوحشة خرجت من حنجرة المستذئب، ويد تمسك عينيه، والأخرى تخترق لحم غضب باستعار كريه وتنزع المخالب الجلد لتتفجر الدماء بجرح قاتل. تصرخ هي في عجز.. تركض بكل قوتها نحو الوحش الكريه و"غضب" يثابر بما تبقى له من قوة كي يجهز عليه. يحرك سيفه في قتال عنيف ويثابر بحركة انتحارية رغم آلامه كي يخزق العين الأخرى.

هاج المستذئب بظلامه وخرجت صرخته تلك المرة شديدة الثقل، و"غضب" يتحامل على نفسه ويضرب بالسيف بكل قوته في منتصف قلبه تمامًا.

حتى سقط كلاهما.. جثة المستذئب وجسد غضب المسجى بجرح الأنياب الجارحة. ملامحه هدأت بعد صراع طويل، وجرحه يقتله ببطء.

شهقت لا تصدق نفسها.. سحبته بيأس وقد بدأت في منع تدفق الدماء بيديها العاريتين.. نظرت نحوه في توسل والقشعريرة الباردة تمتزج مع الرعب في جسدها:

- لن تتركني.

ملَّس بيده فوق وجهها وقد شق الضعف طريقه نحوه، رأسه ثقيل والبرودة تزحف إليه. دماؤه لم تجف بعد.. بل تنزف بقدر أرعبها. مزقت قميصه ثم بدأت في ربطه بيأس

على الجرح.. طفقت تدور تجمع بعض النباتات بفطرة تامة وتضعها فوق جرحه.. ترتكز على ركبتيها جواره بعجز وتمسك بجرحه، وهو كان قد فقد الوعي تمامًا.

- لا.. لا.. لا تذهب أرجوك.

بكت بكل طاقتها، كانت تنتحب بعجز حقيقي:

- لن ترحل هل تفهمني.. لن ترحل لأنني.. لأنني.. لأنني أحبك.

ألصقت شفتيها بشفتيه، لم تكن قبلة حياة بل كانت قبلة تشبث، عجز تام وحيرة عاشقة تفقد معشوقها. حواسها كلها انتبهت فجأة مع شبه استفاقة منه.. همس متعب يتسرب وأناملة تتخلل خصلاتها الناعمة.

- كهف الضوء.

- ماذا؟!

- ستعرفينه.

سريعًا غاب عن الوعي.. روحها أوجعتها وكأن قلبها سقط فجأة، حبست حزنها كي لا تمطر الغابة ويسوء الوضع أكثر.. حاولت بكل جهدها سحبه، كانت ضعيفة بالنسبة إلى قوة جسده. خطواتها تترنح في خضم جهادها حتى أهداها عقلها فجأة إلى فكرة، سحبت أحد الحبال المعلقة في سرج الحصان وبدأت تلفها حول جسده ثم ربطت الطرف الآخر من الحبل بأحد الحصانين وحددت المسار بدقة كي تدفعه لسحب جسد "غضب".. بحرص كانت توجهه وتمسك بالجسد بلطف حتى استطاعت أخيرًا أن ترفعه على ظهر الحصان الآخر. حينها سريعًا ثبتته وقبلت وجنته بحنان ومجددًا شفتيه، ثم امتطت الحصان الآخر وجعلت حصانه خلفها.. تقود الطريق تلك المرة بفطرة

تامة، واندماج بالغابة لم تدركه كله بعد.. باحثة عن ما لا تعلمه.

كهف الضوء.

***

- لطيفة

قالتها "سيراب "بخبث وهي تتغنج حول مقعده، تقبض فوق عنكبوت مسكين قررت ادخاره كتحلية وترسم بسبابتها في الهواء دوائر سحرية تخص تعاويذها.. مكر المرأة زفرة كيد ومكر الساحرة رياح مسمومة.

واجهها بنظرة باردة ثم احتجزها في دهاليز عينيه:

- دعكِ من "نهاية" الآن.. لدينا بعض الأمور لنتحدث فيها.

دون أن يرف لها جفن قالت بحروف متبخترة:

- ماذا! أنت أمرت وأنا نفذت، يبدو أن متاهاتك يا "شاهق" تحوي كل شيء.. حتى عناكبي الأثيرة.

عقد حاجبيه وهو يتفحصها بمكر:

- أنت امرأة لديها طموحها الخاص.

قهقهت، ضاقت عيناها بخبث واضح.

- في يودوس أنت تنجو بالخديعة.

مط شفتيه بخبث يفوق خبثها.. إذ المناورة مع الأرقب ليست بالأمر الهين.

- ربما، والبعض ينجو أيضًا باللعب على جميع الأحجار.

ارتسمت فوق شفتيها ابتسامة ماكرة:

- هل تظن أن ولائي ما زال قائمًا للبارود؟

كانت حُنكته تفهم أعمال امرأة مثلها، عيناه تلتقط انفعالات ملامحها مع كل حرف وعقله يفند حروفها كي يلتقط الكذب من الصدق..

- "سيراب" أنتِ لا ولاء لكِ.. أنت تلعبين لمصلحتكِ الخاصة.

تجاهلت عبارته عن قصد ثم همست ساخرة:

- مرهِق جدًّا أن تتزوج الأنثى من رجل يفهمها.

ثم تقدمت نحوه، كانت ترتدي ثوبًا حريريًّا من اللون الأسود مفتوح من الجانبين بفتحة طولية على كل طرف يظهران عُري ساقيها حتى الفخذين. قسماتها القاسية لها فتنتها الخاصة، تعويذة بين النهدين قادرة على جذب انتباه أقوى الرجال. جلست فوق ساقيه بوضع عكسي وهي تشاركه المقعد نفسه، ثم همست أمام شفتيه بإغواء:

- علينا في لعبة الأحجار أن نبحث عن مسارات النصر.. "البارود" لن يعطيني نسلي.

كادت تزحف عليه مثل حية، تثيره بطريقتها الخاصة وتدفن شفتيها في عنقه ناقرة قبلاتها بنهج أنثى عنكبوت سامة. تركها تحاول دون أن يرف له جفن ثم أبعدها بهدوء وقد رمقها بنظرة جافة:

- سيحدث بطريقتي يا "سيراب".

ترنحت كلماتها بغنج خبيث:

- أعطيني ما أريد.. كي ننال معًا تعويذة المينوتور.

مال نحو أذنيها بصرامة وقال بخشونة علقت بذهنها:

- لا تقلقي يا زوجتي العزيزة هذا الأمر أنا رتبته جيدًا!!

انغرست حروفه في جسدها ورحل، لهب الغرفة النصف

مضاء يضخم ظله الراحل والكتلة السوداء في عينيها تندمج بتأثير العناكب.

مكر الساحرات ريح مسمومة، وامرأة العناكب لديها خططها الخاصة.

"حرير".. نبوءة.. ونبوءات "حرير" دومًا خادعة.. عبث من جسد ميت.. "سيراب نجم" و"شاهق الأرقب". والنسل الذي تنتظره.

غافلِ الظلام الضوء مرة وأنجب السحر الأسود، ثم ابتلعه رَق مجهول قبل أن يدفن "البارود" بنفسه الساحرة التي أنجبته. سحر المينوتور محرم، مجهول الهوية، سره العظيم رَق مخبأ وصدق التاريخ أول خيط نحوه.. تعويذة العثور عليها درب من المستحيل، ولكنها ستتدبر أمرها.

نسل "سيراب نجم" حتمًا قادم وسيعطيها إياه "الأرقب"، ولكن ليس كما يظن.

نبوءات "حرير" خادعة.. تحمل أكثر من معنى.. والفطنة ليست متاحة للجميع.

نسلها جيش كامل.

نسلها سيكون تماثيل المينوتور نفسها.

والتعويذة مصلحة متبادلة.. هي ستكشفها وهو من سيقودها إليها.. ووقتها ستكون السيطرة لها وحدها.

سيراب نجم

***

وجهها يفيض بالقوة. هي امرأة القوة الناعمة، أخطر شيء في الكون! أرادت أن تسحره.. هل أجدتِ سحر البدايات يا "بداية"!

خطوات مثل الموت تخطت الطابق العلوي، غرفة الرحيق! الجثة الحية التي قرر استغلالها كما استغلته تماماً. لا يوجد أفضل من تمرير أكذوبة مثيرة للغثيان في أرض نبتت على أكاذيب التاريخ.

رجل مهووس بالانتقام من خائنة.. أو رجل مهووس بمعاشرة جثة!

أي شيء يحفظ كنزه، يبقيه بعيداً حتى حين.

بوحشة مستعرة تخطى "رحيق" الواجمة مثل مسخ.. حرك الفراش، جذب ذراعاً مخفية ما، وظهرت فتحة سرية من الجدار اختفى فيها وأغلقها خلفه!

***

مرت خمسة أيام.. وعليها خمسة أشهر، لقد كانت تقول "ضوء" إن الوقت يتضخم في الظلام.. يتمدد في العتمة حتى يبتلع كل شيء.

وجهها وجه شبح مُتعب، حروفها تتعثر في ضعف.. تستسلم رغماً عنها:

- سأخبركَ بكل شيء.

وانعكست ظلال الحزن فوق عينيها:

- ولكن أرجوك أريد أن أرى "نهاية".. يكفي أنني فقدتُ "قلب".. اتركني أعيش معها في سلام.

رمقها بنظرة حارقة ثم قال وهو يصك فوق أسنانه:

- هل تعرفين ما مشكلتك حقًّا يا "بداية".. أنكِ غبية.

تجولت عيناه بظلمة على تفاصيلها:

- لن تُملي شروطكِ، لا تمتلكين تلك الرفاهية.

ولم يكترث حتى بسماع اعترافها المزعوم هو انتوى عدم

تصديقها، قال بنبرة قوية جبارة مررت رجفة خادعة لركبتيها:

- هل تعلمين عقاب الشاة الشاردة يا "بداية"؟

ضحك بعنترية قاسية ثم هرس ذراعها بأصابعه الفولاذية:

- لا أُلقيها للذئاب؛ نهش الذئاب لها رحمة.

ثم تابع وهمساته تخترق جلدها مثل الشوك:

- لمَ أعطيها لذئب، في حين أمتلك أنا رفاهية الاستمتاع باللحم؟

بانطفاء تام واجهته، قوة يائسة بمقدار قشة:

- فلتذبحني الآن وننتهي.

حفر نبراته في صدرها:

- قلت لكِ أخبريني لمن أرسل رأسكِ!

وهو رجل في غضبه عنيد.. عشرة ثيران برية، اتسعت عيناه بانفعال أرعبها وقبض تلك المرة بيده على فخذها بمهانة مقصودة وشراسة حد العقاب:

- أم أستمتع باللحم خاصتي قليلًا حتى ينضج.

أخرجت الكلمات من جوفها بيأس:

- "بارق" أرجوك..

واشتعل هو أكثر، مذاق حروفه فوق شفتيها تلك المرة أيقظ شياطين غضبه، هرس خصلاتها بيده بعد أن وثب فوقها:

- كيف فعلتِها، كيف خدعتني براءتك المزعومة!

ضعفها الرقيق لم يثنِه، كان الشيطان قد تملكه.. بل تملكه يومًا بعد آخر وهو يتصور وصولها إلى ما أخفاه

لسنوات ثم خيانته بتسليمه لأعدائه.. أغمضت عينيها في عجز، في حين كاد هو أن يهشم رأسها في الجدار وندم ناري يرتسم على شفتيه:

- لقد.. لقد ظننتُ شفاء القلب معكِ!

***

عيناه لم تعد تندمج باللهيب الأزرق.. بل يرقص فيها لهب داكن.

شاة وراعي، وربما حقًّا الذئب أرحم!

خيالها في الظلام يمرر الهلاوس، "نهاية" ترقص و"قلب" تضحك.. تقول لها بصوت شامت مهتاج:

- كيف حال الثور البري؟

وتهمس بفحيح وصوتها يتعاظم.. يحتل الفراغ كله:

- افعلي ما علمتُه لكِ من قبل.

صدرها يؤلمها.. قلبها يوجعها.. طوت ذراعيها على بطنها واتخذت وضعًا جنينيًّا، عيناها تذرفان دمعًا يحرق وجنتيها و"قلب" في خيالها تدق الباب بإلحاح.

- افعليها يا "بداية".. افعليها يا بدايته اللعينة.

انتفضت وقلبها يدق بعنف في صدرها.. عبراتها بعد وقت تجمدت على جيوب عينيها ودون وعي جذبت حلية الشعر خاصتها وشكلتها كما علمتها "قلب".. بدأت في تمريرها في تجويف القفل بحرص بطيء وقد خلت ملامحها من التعبير.. كانت في تيهها الخاص.. في "قلب" الراعي الأسود.. في ظلمة العالم الحقيقة بعد ظن ساذج بأن السلام ينتصر.

اليوم الأول من المحاولة

عاد من رحلة صيد طويلة.. ألقى برأس الشاة بين ساقيها وطلب منها أن تطبخها لكليهما.

ليل مظلم ساكن هي تعدها له وهو يرفع قدميه في وجهها.. صرامة وجهه الجحيم وعقابه لا ينتهي. الظلمة الحالكة تشع من عينيه، صدره يعلو ويهبط وكل انفعالاته تتصارع كي تجهز عليها.. طلب منها بهدوء مهين أن تخلع ملابسها ومارس دوره كزوج، ثم تركها دون أن يقول شيئًا.

اليوم الثاني من المحاولة

كادت تنجح، وصلت إلى النصف تقريبًا قبل وقت حضوره بفارق بسيط. هو يأتيها مع غروب الشمس.

تلك المرة كانت سوداويته قمة.. لم يلمسها.. قال إنه سيذبح أنثى الماعز الصغيرة وستطبخها له في المرة القادمة. راقب انفعال ملامحها من كثب ثم قال بصوت بارد قاتم:

- ماذا يجدر بي أن أفعل معكِ أكثر! لا تقلقي سأفكر في شيء.

اليوم الثالث من المحاولة

تجلس مقرفصة أمام الباب المفتوح والقدر يدفعها في مسار لم تتوقعه.. بعيدًا عن النبوءات.. بعيدًا عن المكايد.. بعيدًا عن قسوة البشر.

وربما قريبًا من الموت.

خطواته الثقيلة وصلت هذا اليوم بعد غروب الشمس بوقت..

مصاب بنوبة جحيم.. في معدته خنجر حارق.. وفي قلبه وتد قاسٍ.. وفي فمه مذاق العلقم.

لطالما سبق غضبه حكمته وتلك المرة هي أول ضحاياه.

هربت بدايته.

هربت ومصيرها مصير كل زوجة هاربة.

"غاند"

***

الفصل العاشر

قاتل الذئاب.. موسوم بالعجز.. بالفقدان.

هرس الغضب امرأة، صرع القبح الجمال. الرحلة محفورة في ذهنه.

والمشهد للكوابيس..

لحم بشري تمزقه "غاند".

عبر نوافذ القصر الكئيب منذ سنوات بدأت مأساة.. وهو اللعين الذي يكررها. لون الغضب دموي قبيح، زاهق للروح الحرة.

كتمان!

كان هذا اسمها.. وقيل اختارته لها امرأة عابرة غريبة الطلة، ساعدت أمها في المخاض وقالت لها سمِّيها كتمان.. هي ستجيد حفظ السر!

كان جمالها استثنائيًّا، وقع أبوه في غرامها على الفور حين رآها وعاهد نفسه أن تكون له، وهذا ليس بالشيء الصعب في يودوس. كانت من أسرة بسيطة الحال، أمها امرأة تغزل الصوف وأبوها نجار وقيل إنه من نسل رجل حكيم. إرثها منه صندوق واحد أخذته إلى منزل زوجها وكان عهدها معه ألا يفتح الصندوق أبدًا.

مرت سنوات..

حتى برقت الحقيقة!

قاع الصندوق ذنب.. قاع الصندوق محرم بأمر "البارود".. وكاتمة الأسرار اكتشف سرها الراعي الكبير في ليلة مظلمة.

كانت تجيد القراءة، سر حُفِظَ لسنوات ولا يعرف أحد

من علمها.. نبتت على حفظ السر حتى حين وقالت لها "حرير" في نبوءة لم يكن يعلمها أحد.

"البداية في قلب الراعي!"

قاع الصندوق المسحور.. حياة.. رقوق مسحورة.. وثائق مخبأة خطيرة.. تاريخ مدون صادق.. حروف للنخبة في زمن الجهل. أصل التعويذة، والسر الذي سيبدل كل شيء!

توسلت إليه كي يحفظ السر ولأنه يعشقها فعل.. ولكنه منعها من مشاركة هذا السر مع ابنهما "بارق".

كان يقولها دومًا بحكمة يودوسية مزعجة..

- لا أريد أن تصيبه لعنتكِ!

كانت تحاول جاهدة لتنيره وكان هو يدفعه نحو قسوة الظلام، تتسلل.. تجاهد كي تمرر له الحرف على حين غرة ولكن الزوج بالمرصاد.

ومع كل هذا كان عشقه لها دومًا منتصرًا.. ينزل.. يتحمل ما يرفضه فقط من أجل أن تبقى له، سمح لها ببناء غرفة سرية هي من تعرف طريقها وحدها، ثم قتل الذين بنوها لها.

في سبيل العشق يحدث الكثير، حمل جسدها آثار أصابعه في السراء والضراء!

كانت ليلة عاصفة.

قالوا إن الراعي الكبير تبدل حاله.. من قال أصابه سحر، ومن قال أصابه مس.. سيطر "البارود" على أطماع أهل الإقليم، تخلى عن الحديد والنار ومرَّر خبثًا ممكنًا× مداعبة أطماع البشر.

كان "البارود" ثائرًا لاهثًا خلف الرقوق المسحورة، فتش جميع قصور الإقليم.. ذبح فتاة أمام أبيها فقط لأن الألسنة تفوهت باحتمالية معرفته السر، إعصار جنوده طال الجميع وحين لم ينجح غذى أطماعهم.

المال والسلطة وسطوة السحر أيضًا متاحة..

سقط الراعي فريسة أطماعه وكانت هي تعلم أن "البارود" إن علم سيذبحه على طاولة المفاوضات، كانت أمينة السر ومهما حدث أبدًا لن تتخلى.

***

أيام محفورة في ذاكرته

جسدها الضعيف الذي سحله أبوه، جرها جرًّا من خصلاتها نحو القبو وحين حاول الدفاع عنها لطمه. ساومها أيامًا وأشهر، منع عنها الطعام حتى كادت تموت.. جَلَدها بقسوة.. لم يفهم كيف يتحول العشق إلى هذا القبح الشنيع، كيف تقتلِ أطماع الإنسان حكمته، تسلل إلى زنزانتها.. كان مراهقًا شابًّا لم يكتمل نمو قوته الكاملة بعد، توسل إليها كي تخبر أباه بالسر.

- أخبريه يا أمي.. أخبريه.

بتعب تشبثت بطرف قميصه، طبعت فوق وجنته الصلبة الثائرة قُبلة:

- حين تكبر سـ تفهم.

حان وقت التحرر، حان وقت ترك القفص الذهبي وتسليم الرسالة.. بتعاسة ستفتقده اغرورقت عيناها بالدموع.. عانقته بكل قوتها ثم تسللت نبرتها بضعف:

- ساعدني يا "بارق".

همسها بارد منهك، لم يفكر.. فكَّ قيدها وحملها بين ذراعيه.. فكر أن يخبئها في غرفته، أو في الغابة ويحميها من الذئاب بنفسه.. ولكنها كانت تعرف تمامًا ما تفعله، في ظلام القصر الكئيب، والراعي الكبير متمرد عليها يعاشر جواريه ويحتسي الخمر.. من غرفة مهجورة مظلمة ضغطت على الجدار لتنفتح هوة سرية، سلالم ملتفة صعدتها بلا قوة فحملها بين ذراعيه مجددًا، حتى وصلا.. غرفة دائرية.. رفوف خشبية متعددة والعديد من الرقوق والكتب.. إرث مدفون حتى يحين وقته.. ما أفنت حياتها من أجله، ومن أجله ستموت.

- حافظ عليه يا "بارق".. هنا قلب الراعي!

- كوني هنا.. ابقي.. وأنا سأراعيك لن يعرف أحد بوجودك.

قالها بحماس ملتهب غاضب خائف باكٍ.. أنفاسه سعير وحنجرته ترتجف.. مررت سبابتها الباردةً على ملامحه وقد استسلمت لليقين.

- انتهى وقتي!

لحظة لا منسية، قيء التجبر.. هربت أمه رغمًا عنه، ظن أنه يساعدها حين جهَّز لها رحالًا كي تجد قوم المطرقة، هكذا أقنعته.. ولكن بعد أيام وبعد انتشار خبر هروبها في الإقليم وجدها رجال البارود ونُفِّذَ فيها حكم الرحيل إلى "غاند".

قارب تعيس مظلم بشمعة واحدة، امرأة تنتظر قدرها ساقوها إلى الموت.. نهر ثم بحر ثائر مخيف.. طعم العلقم في فمه لا يهدأ.. هرب!

حاول يائسًا أن ينقذها، سرق قاربَ صياد شيخ وقرعت

طبول الفقدان قلبه، وكأن النهر يعانده والبحر يهزمه وقلب الراعي كُتِبَ عليه الفقدان. لهاثه صارخ يبحث عنها..

- أمي.. كتمان!

وصوت "غاند" يطل.. مرعب! أفعى ضخمة تبدو وكأنها خرجت إلى العالم من ثغرة جحيم. وقارب وحيد بامرأة تساق إلى قدرها!

- لاااااا.

الموج يمنعه، البحر يكاد يغرقه.. الأمواج تحارب ذراعيه بعد أن قفز من قاربه المتهالك بُغية إنقاذها. لحظة فاسدة.. لحظة مشبعة بالقهر.. لحظة بدلته تمامًا.. قضت عليه مبكرًا جدًّا وعلمته أن الضعيف يؤكل.. الخير يؤكل.. قلبه يؤكل.

أمام عينيه المثابرة وجسده الغريق.. ابتلعتها "غاند"!

***

قلب الراعي كتمان.. قلب الراعي طرح قاع صندوق اللعنة والمعرفة.. قلب الراعي فقدان.. رذيلة العجز والغضب.. قلب الراعي مخلفات حرب!

في هذا اليوم مات، وبعدها بأعوام وُلِدَ من جديد حين هرس بأسه قطيع ذئاب.

في هذا اليوم فهم الضعف حتى أخذ القوة غلابًا.

في هذا اليوم عاد بروح محطمة، وأب ملتاع هيستيري قرر أن يرشق الجدران بفؤوس غضبه ويهدم المنزل باحثًا عمَّا ماتت من أجله حبيبته!

يومها اقترب من أبيه بعين اخترقها شعاع أزرق مخيف لأول مرة يراه به.

نشوة البأس الكاملة..

قال بوحشية هادئة وحروف أنضجتها الصدمة..

- لو فعلتها.. سأقتلكَ!

الذئب العجوز يعرف متى يحين وقته، والأسد العجوز يسلِّم السلطة لأقوى تابعيه كي يموت في أمان.. والراعي العجوز انتهى، وأيقن سطوة البأس أمامه.

ينبوع القسوة متاح للجميع، وواحد فقط من كل عشرة يجيد الاغتراف.

وريث الراعي بارقه، و"غضب" النغل الذي طالما أعلن تمرده..

نسل كتمان وزلزالها.

أكله الندم في النهاية.

عاش حزينًا بعدها ومات تعيسًا وأوصاه بحفظ السر وهزيمة "البارود"، مات في القبو ميتة بائسة درامية، كان العجز قد تمكن منه والضعف لعنة الأقوياء. أمرهم أن يقيدوه بالجنازير ويمنعوا عنه الطعام والشراب.

حتى رحل إلى حبيبته.. صاحبة الصندوق الملعون.. كتمان!

***

"بداية"!

هرستها ضراوة الحياة.

الرحلة محفورة في ذهنه، والمشهد للكوابيس..

لحم بشري تمزقه "غاند".

لا.. لن تتكرر المأساة، خطواته تهرس الأرض وتسابق الزمن، زمجرته وحش محتجز.. قلبه منتفض كالملسوع.. ركضه مجنون!

الليل يسابقه والنهار إذا ما حل ولم يجدها سيمرر الجواسيس الخبر والأسوأ لو وجدها رجال "البارود" بأنفسهم. حوافر جواده تحتك بالأرض احتكاك النيران، الفراغ حوله لا يحمل رائحتها.. لا يوجد أثر خطوات مغروسة حول المنزل، نظرته الدامية مسحت حتى لحاء الأشجار بحثًا عن خصلة متعلقة منها. متسترًا بظلام الليل ومهارته في التسلل مثل ضارٍ ليلي وصل إلى منزل "شاهق الأرقب"، تلصص على النوافذ تسلل برؤيته قدر ما استطاع ولا شيء.. لا يوجد لها أثر.. منزل "زليخة" منزل "ضوء القمر" الذي بات من رماد. لا شيء!

نظرته اتقدت أكثر وأكثر، أراد أن يقلب الأرض رأسًا على عقب حتى يجدها.. وفكر لو أن "شاهق" أخفاها ومع كل سخط يشتعل بداخله، فإن هذا سيكون أفضل من انتشار خبر هروبها. مندفعًا ثائرًا يتناثر الزبد من بين شفتيه عاد إلى المنزل وحدس غريب يقول له إنها ربما اختبأت هناك.. أو خرجت وعادت.. هي أبسط من التخطيط.

هي بدايته اللعينة!

وصلت إلى قاع قلبه وانتهى.

في عشقها هو كالذبيح سقط بثقله كله!

هي أبسط من التلون.. الخبث.. إنقاذ نفسها. أرادت أن تأخذ قبل هروبها الماعز الصغيرة.. كي لا يذبحها.. ومن التعب سقطت في نوم عميق بين سلام الحيوانات اللطيفة محتضنة الماعز الصغيرة.

وجد أثر خطواتها وعيناه تنهار بلا تصديق. كان يبحث في الخارج، وخطواتها في الداخل.

جسدها منكمش مُنهك ونور الفجر اقترب وتسلل إلى

ملامح وجهها.

ضم قبضته حتى ابيضت من الغضب.. كاد يفقدها بسبب ثورته الهائجة.. بسبب خبث خادمة.. فقدانها كان ليكون نصلًا حادًّا يخترق ضلوعه، نصل يقضي عليه تلك المرة.. دون وعي، وعيناه تلتمعان بها سحب يدها الصغيرة ليقبلها.. رجفة تامة حدثت فجأة، انتفضت في ذعر، انكمشت في عجز وخيبة وهي تضم جسدها بذراعيها وتنظر نحوه بخوف.

بُتِرَ تحررها.. شجاعتها فارقت الحياة.. هوت الحقيقة فوق رأسها وقد باتت أسيرته مجددًا. عيناها ذابلة بسببه، وجهها خائف حزين بسببه، جسدها يرتعش بسببه. ووسط كل هذا جذبها بذراع واحدة ليهرسها فوق صدره.. وكانت بلا طاقة حتى لتفهم، كل ما التقطته حمله لها بين ذراعيه حتى وصلا لغرفتهما.. خلع عنها ثوبها المتسخ ووضع فوقها ثوبًا نظيفًا ناعمًا، طلب الطعام ومرره لشفتيها بنفسه.. ووسط سكونها وتجمد لسانها خطفها في عينيه.. أخذها إلى العمق وصوته الرخيم القوي آخر ما التقطه أذنها قبل أن تغط رغمًا عنها مجددًا من التعب في نوم عميق.

- دونك يا "بداية" يحترق البارق فقدًا.. ومعك يحترق عشقًا.

***

السيف لا تظهر قوته إلا حين يخترق اللحم الحي!

سيفها يشق الهواء، وسهمها يخترقه.. السهم اتجاه واحد والسيف يدور، والمحارب يجب أن يكون ماهرًا في كل أنواع القتال.

تحاول مجاراته، يمينًا يسارًا إلى الأمام.. تهوي بضربة

ضعيفة ثم تيأس:

- أفضِّل أن أكون رامية فقط.

قال بخشونة وقد قذف بسيفها كالعادة بضربة مباغتة:

- لا تعلمين متى ستحتاجين السيف.

- ألا يجوز لي الاختيار؟

- عليكِ أن تكوني جاهزة.

صرخت بغيظ حين أسقط سيفها للمرة الثانية، قال بغرور وهو يلقي بسيفه مللًا من المبارزة:

- تحتاجين إلى تقوية ضربتكِ.

أرادت أن تعترض بمعاندة ولكنه كان محقًّا.. ضربتها ضعيفة، حتى إن كفها مملوءة بالكدمات. تراجعت راضخة، وعيناها تراقب باستهجان صيده غزالًا. شق بطنه وتدلت أحشاؤه.

- اضربي.

قالها بأمر نافذ.. ترددت.. شعرت بالغثيان.. خفقات قلبها تسارعت، وهو يناولها السيف بحزم.

تضرب مضطرة.. تضرب غاضبة.. تغرس النصل في اللحم.. تقطعه. الأمر ليس بالسهولة التي كانت تظنها، مقاومة اللحم مُرجفة، يشق السيف الهواء بسلاسة ولكن شق اللحم يحتاج إلى الكثير من التدريب.

طعنة

عشرة

مائة طعنة

أنت تفقد جزءًا من إنسانيتك كي تحمي ما تبقى من

إنسانيتك بالقتل!

المبارزة خطة وتنفيذ، والنصل ليست وظيفته الوصول فقط، بل الاختراق.

بصرامة أمرها:

- اغرسي السيف وحرريه ثم اغرسيه مجددًا.

وبصراع جاوبت:

- ولكن الرائحة سيئة.

ضاقت عيناه بسوداوية:

- رائحة الموت قبيحة.

"قلب النبال"، ونصل السيف..

غزال تلو آخر، طيور تحلق، سهم ونصل، أيام تمر ومن جديد تشكلها.

صوته قوي يرج حواسها:

- لتكن ضربة سيفك بسرعة نبضة القلب وقوة مينوتور.

- والسهم؟

- أسرع من الفكرة.

***

تتجمد، ثم تندفع.. تضرب السيف بنصف قوة.. وترمي السهم بمهارة ليست كاملة بعد.

تلهث متسائلة وهي تشاركه لحم غزال هي من ذبحته:

- أمامنا الكثير؟

حدق إليها بصمت:

- بعض الوقت.

توجست وقد شعرت أن لديه خطة ولم يصرح.

يومان آخران.. تثب عند رأسه كي تفاجئه فيسحبها بذراع واحدة والخنجر فوق عنقها.. يلوي شفتيه بصلابة:

- ليس بعد!

تلوَّت حانقة، ابتعدت عنه وهي تهندم ملابسها.. اعتدل ثم أشار نحو فمه ومنخاره وقال بهدوء:

- خطواتك جيدة، ولكن تعلمي أن تكتمي أنفاسك.

ردَّت بصخب عنيد:

- أنت لا يعجبك شيء.

التفت لها ببرود:

- المحارب لا يُبهَر بسهولة.

رفعت عينيها نحوه متحدية:

- صدقني أنا أستطيع إبهارك لو أردت.

مزيج من الابتسامة الساخرة والقسوة ارتسما على ملامحه:

- لن أُبهَر بفتنتك يا "قلب".

احمرَّ وجهها كله بغضب:

- لا أقصد الفتنة.

كانت نظرتها تتألق حين تُعاند، شعاع من العسل الخالص السخي أمام نفق مظلم.. قار قابل للاشتعال.. قالت هامسة والمواجهة بينهما في أوجِها:

- تاريخك يحمل الكثير يا جبار.

أطبق شفتيه بلامبالاة:

- ثم ماذا؟

همست بخفوت متحدٍّ:

- أنتوي معرفته.

اعتقلها بانفعال صلب، بعثر قوتها وقد قيَّد كلام ذراعيها خلف ظهرها وشل حركتها تمامًا..

- الخندق لا يبوح بدواخله بتلك السهولة.

الغريب أنها لم تنتفض.. لم تحاول الابتعاد ولكن ملامحها رغم كل شيء كانت تستهجنه، إنسانيتها لا تغفر له قتل الأطفال.. هو محارب تخلى عن إنسانيته بأسوأ صورة.. هو صاحب أحقر وسيلة وأفضل غاية!

قالت وعيناها تلتمع بنظرة فولاذية:

- لم أقل إنها مهمة سهلة.

ضحك بقسوة:

- أنتِ امرأة تتركين كل الطرق وتأخذين طريق العاصفة.

رغم سلطوية قبضتيه على رسغيها بشكل قاسٍ مقصود لم تمرر ملامحها الألم، بل ردَّت ببأس:

- أنت من تختار الطريق يا جبار، وأنا متدربتك ورهينتك.

لمعة سخية ظهرت بمقلتيه:

- هل رأيتِ.. اكتسبتِ مني الحكمة.

- من السيف أم منكَ؟

- كلاهما.

تركها فجأة فكادت تسقط أرضًا، بدا وكأنما يراقب الأفق ويحصي الوقت بطريقته. منذ أيام أرسل بطائر يحمل رسالة لـ "شاهق الأرقب".. في أرض يودوس اضطر

سكانها إلى ابتكار نوع من المراسلات بعيدًا عن الكتابة. ربط هو في قدم الطائر حبل ثلاث عقد وهذا معناه أنه تخطى ثلاث ممالك وينتظر هدية "البارود"! و"شاهق" يجهز الرد الذي يتمنى أن يكون منافيًا لحدسه.

في أرض يودوس ابتكار المراسلات مختلف. أرسل إليه "شاهق الأرقب" من تقتله لتمرير إشارة بدء، وقتل هو المرسال متممًا الإشارة! في أرض يودوس المراسلات قد تكون قسوة وقد تكون دماءً لا هروب منها..

عاد الطائر!

عاد ومخالبه جميعها مصبوغة بلون أحمر

تم إعدام فيلقه كله!

وحول القدم اليمنى قماشة فضية مدمَّمة وحول اليسرى قماشة فضية بعقدتين.

قُتِلَتْ "ضوء القمر" ومن قتلها قائد الفيلق الثاني!

رشد!

انفعال قاتم شيطاني ارتسم فوق شفتيه وهو ينطق باسمها:

- "قلب"!

- ماذا؟

- ماذا علمتكِ!

تاهت منه، نظرت نحوه في توجس وهو يتابع..

- في القتال لا تغضبي زيادة عن المسموح!

ثم اتشحت عيناه بنظرة مسممة.. بحيم أعدائه:

- استعدي.. نحن في انتظار بعض اللحم البشري.

***

هي لا تنظر نحوه مباشرة، بل تختطف النظر..

المنزل فخم ضخم، منزل "شاهق الأرقب" له تصميمه المتفرد. مدخل أشبه بساحة واسعة وطاولة طعام ضخمة عادة ما يجلس هو على مقدمتها و"سيراب" في الطرف وبينهما مسافات. مقعدها هي جعلته "أم العقرب" بأمره قريبًا منه، وباقي المقاعد المتناثرة فارغة على الدوام حيث هو ليس من محبي فوضى الولائم. كانت تستدعي أنفاسها الهاربة، تفرك أناملها الصغيرة بتوتر واضح وتتحاشى النظر نحوه مرة ونحو "سيراب" ألف مرة.. تلك المرأة حقًّا تخيفها.

بدأ الخدم في وضع الطعام بالتتابع، أم العقرب وثلاث جواري.. رائحة الحساء جيدة ولكنها كانت فاقدة تمامًا للشهية، بعد وقت ليس بقليل، والجميع يتناول طعامه في صمت وهي تحرك ملعقتها دون أن تأكل أجفلها صوته الصارم.

قال اسمها بخشونة تامة تحمل بعض الاستهجان..

- "نهاية"!

احمر وجهها على الفور وشعرت برغبة تامة في التلاشي، في حين تابع هو بحزم:

- تناولي طعامك.

على مهل بدأت في ارتشاف الحساء وأخذ بعض اللحم مرغمة، تنكمش في بلاهة عذرية ولا تدرك أن كل ما فيها يثيره!

ولكن "سيراب" تدرك..

هي امرأة تفهم أعين الرجال، تفهم رغباتهم، تعرف عين الصياد حين يريد السمكة!

ابتسامة ساخرة زحفت نحو شفتيها..

- تناولي طعامك يا "نهاية".. أم إن الفاكهة لا تأكل اللحم؟!

لم تفهم "نهاية" المسكينة غرض العبارة، في حين التمعت عيناه هو بقسوة ذكورية تامة وقال بتصميم حاسم أرجفها وقد تاهت بين كلماته كتيه ثمرة فاكهة بين راحتيه:

- نعم.. الفاكهة تؤكل.

لوت آكلة العناكب شفتيها بمكر:

- إذن هي محظوظة لأنها ليست عنكبوتًا صغيرًا!

حدقت إليها "نهاية" بصدمة وقد تصلبت قطع الطعام بجوفها، و"سيراب" تتابع وهي تقصد إخافتها بانتشاء خبيث:

- كان ليكون لقاءً مدهشًا مثيرًا.

نبرة "شاهق" الحازمة القوية قطعت فقرة الاستعراض التي مارستها، ضاقت عيناه وهو يقول لها بحدة صارمة:

- انزعي من رأسك تلك الأفكار الخيالية.. إنها "نهاية الأرقب".

تطلعت "سيراب" نحوه بنديَّة، و"نهاية" يحيط بها خوف خانق وتشعر برغبة قوية في الرحيل.

عينا سيراب المسكونتان بظلام كيان أسود عاشر أمها انتعشت مثل تعويذة حيَّة:

- تشرفنا يا "نهاية الأرقب".

ولم تكن نظرتها موجهة نحو "نهاية".. بل إليه..

فوق تابوت التعاويذ التمعت فكرة، وظن يحسم الميزان بشكل مختلف. مطرقة ثقيلة قد تكون في مصلحتها. وريشة

في طرف "شاهق الأرقب".

الأرقب لديه نقطة ضعف!

***

حين تهب رائحة عطره.. هي تتوه. تصاب بالدوار.

لقاء ليلي تحت عباءة مصادفة.

هي تتأمل الأرض وهو يتأمل شفتيها، هذا الثغر الشهي الذي يحاول الصمود أمامه.

ببعثرة كلمات توترت هي وكانت نظرته هو حادة كالشفرة.

- ماذا تفعلين هنا!

- آسفة.

قالتها وهي تحاول أن ترفع النظر نحو هيبته، المسافة بينها وبينه خطيرة.. ترتدي ثوب نوم لطيف وهو عاد من الخارج لتوه، والوقت تعدى منتصف الليل بمدة لا بأس بها. تحكمت في أنفاسها في محاولة يائسة:

- هناك أمر...

التوَت شفتاه بانفعال راضٍ ولم تلحظ أنه اتكأ على حاجز الجدار بتسلية يراقب تلك الهنيهة اللطيفة التي دون وعي أهدتها له..

- ماذا؟

اتسعت عيناها في توتر وقد عادت إلى خفض نظرها من جديد، وتلك المرة خرجت كلماتها تعانق بكاءً يريد الانفجار..

- هناك.. هناك عنكبوت في غرفتي!

كان جسدها الصغير يكاد ينتفض، وشفتاها تتخذان تعبيرًا يائسًا جدًّا.. مكسوة بالبراءة والرعب وحشرة صغيرة قادرة على هزيمتها. لديها مزيج خاص بها وحدها، ضعفها بشكل ما قوتها الخاصة.. الخاصة جدًّا.

- هل شيَّد العنكبوت منزله أم إنه رحالة مسكين هارب من أسنان "سيراب"!

قالها بنبرة ظاهرها جاد إلا أن المحتوى مازح.. ستموت، ستنهار حتمًا.. "شاهق الأرقب" يمازحها..

بهشاشة مسكينة جاوبت:

- لا أعلم لقد ركضتُ.

وتبدو فكرة مرافقته إياها إلى غرفتها لقتل ما تخافه مغرية جدًّا، إلا أنه قال بمزاج زئبقي صعب جدًّا على صغيرة مثلها مواكبته:

- عليك أن تقرري إذن.. قتله أم إعطاءه منزلًا؟

توردت وجنتاها بتردد:

- ألا يجوز أن أفتح له باب النافذة ليرحل وكفى.. منحه الحرية.

- العناكب لا تبحث عن الحرية، بل تحجز نفسها في شباكها.

همست بقوتها المناسبة لها.. أفكارها العفوية الواصلة إلى عمق لا يدركه الحكماء أحيانًا:

- إذن هو مجرد مسكين يريد منزلًا.. أن يختبئ بين شباكه في أمان.

قال بخشونة وسلطته بمجرد حروف تامة عليها..

- لا تدعي "سيراب" إذن تقربه.

وتخطاها بجمود لا يخلو من الانتباه التام لها، معه هي تطفو وتغرق.. تفهم الصمت ويرهقها النبض.. شجاعة وخائبة.. ولكنها حافظت على حياة العنكبوت المسكين، لم يكن ضخمًا كما ظنت.. بل بحجم عقلة اصبع، ينزوي في ركن بعيد وكل أمله اصطياد ذبابة.

عقدت حاجبيها وهي تنظر نحوه في شجاعة:

- لا تخفْ.. لن أدعَ "سيراب" تأكلك.

***

هي ليست خبيرة في طرق الغابة.. هي تتبع حدسها، تكتشف نفسها مع كل خطوة، كل ورقة شجر يابسة تدوسها وكل ورقة خضراء تطحنها مع الأعشاب والفواكه وتمررها إلى جوفه. كل صخرة وكل نبتة وكل جدول توقفت عنده الخيول للطعام والماء. أول يوم كانت تضع أوراق الأشجار على جروحه وترمقه بلهفة.. تمرر بسبابتها الرقيقة المياه المنعشة على شفتيه وتغيب في ملامحه..

- لا تتركني يا "غضب".

تثب فوق الجواد.. تتابع طريقها.. تتشكل به ويتشكل بها.. عند أحجار ارتصَّت مثل دوائر مغلقة وقفت وكأنما شعرت أن بالمكان سحرًا خاصًا. نبشت الأرض وانتقت الزرع واختارت بين صخور ضخمة ما يشبه الملاذ فأسندته فيه.. حادثت عينيه اللتين كانتا بين الوعي والغياب:

- اصمد يا حبيبي.

تنطق بها بعفوية.. بصدق تام لا تخجل ولا تبالي، تدثره بالأغطية وتمتطي الخيل باحثة عن طعام يعطيه قوة. تنفست بيأس حين وجدت دجاجة رمادية وبعد عدة محاولات فاشلة في الإمساك بها فعلتها، وعلى صخرة ملساء

مددت العنق وأغمضت عينيها ثم هوت بالفأس!

- ابتلع الحساء يا غضب.. لقد قتلتُ من أجلك.

قالتها بيأس حزين، ثم مسحت حبات العرق اللؤلؤية من جبينها وهي تحيطه بعينيها:

- أرجوك.

- قتلتِ!

قالها ببأس ساخر وشفتاه تنثني بتعب، كادت تقفز وكادت توقع الحساء عليه ولكنها تماسكت، لهثت بارتجاف فرح:

- يا إلهي.. أنت عدت.. عدت.

عقد حاجبيه بمشاكسة رغم آلامه:

- لا تقلقي.. لن أذهب إلى أي مكان.

قاطعته بسرعة وهي تهتف بانفعال صادق حلو:

- فلنتجمد هنا لا أبالي.. المهم أن تعود.

أغمض عينيه وهو يتحكم في آلامه وقال بنبرة مشبعة بالسخرية:

- أنا لا أستحق هذا!

وهي كانت هائمة فيه.. في استفاقته، حتى إنها لم تستمع له.. كانت تقطع لحم الدجاج وتضعه في فمه ثم تسقيه الحساء بلهفة..

- أنا أبحث عن كهف الضوء.. اصمد قليلًا وسأجده.

لهجته بدت ناعمة وهو يمد أنامله ويتخلل خصلاتها:

- تعدينني يا جميلة؟

- أعدك!

***

وحدها في الغابة تجول.. هو بين وعي ولا وعي ينتصر، وهي تتبع الهمسات.. هكذا قررت دون خوف، الغابة تهمس لها.. تريها الطريق.. تزرع فكرة في لمح البصر فتلاحقها قبل أن تختفي. بدأت الأشجار الكثيفة في الانحسار، سارت مسافة يوم ونصف تقريبًا، شعرت وكأنما مع الطريق العشوائي الذي تتخذه أنها تغادر بوابات لا مرئية وتكتشف أماكن جديدة.. النهر الصغير بلغت أقصاه وفي محيط مساحة غريبة محاطة بالجبال وجدت نفسها في مكان يشبه الجنة، جداول مياه ومجموعة جبال قصيرة ليست ضخمة تحيط بأرض جميلة فارغة مثل حماية، بستان فواكه وكأنه ظهر من العدم ومدخل كهف على اليسار مثل فجوة سوداء في باطن الجبل. بعبور سلس ومتردد تخطت الجداول وحادثت نفسها بيأس وهي تنظر إلى جسده الممدد على ظهر الحصان.

- هل هذا هو كهف الضوء؟ أنا لا أرى أي ضوء قط مجرد ظلام!

المدخل كان قاسيًا قاتمًا مثل مدخل قبر، حين اقتربت وجدت أن فرصة الدخول بالأحصنة مستحيلة، حيث الفجوة بالكاد تتسع للأجساد البشرية مع بعض الزحف. انحنت تحاول رؤية شيء في الظلام الدامس فلم تستطع.. همست في النهاية لنفسها يائسة:

- أتمنى أن يصدق حدسي.. فحياة غضب تتوقف عليه.

واستطاعت بعدها بخفة رغم تعبها ربط الحصانين في إحدى الأشجار، ثم سحب جسده كي تزحف به نحو الكهف المنشود.. مهمة تبدو مستحيلة، تلهث.. تتعب.. تحاول يائسة سحبه مرة ودفعه مرة تلو مرة، حتى حدث ما

لم تتوقعه.. انزلقت هي وهو بما يشبه نفقًا شديد الانحدار حتى سقطت في مكان واسع غريب محاط بالصخور من كل اتجاه وفي منتصفه حفرة متوسطة مخيفة.. حفرة مظلمة تمامًا.

شهقت ترغب في البكاء، ضربت الأرض بعجز وقد شعرت أنها وصلت إلى طريق مسدود، ما يشبه المقبرة الضخمة حيث في أركان المكان توجد عدة هياكل عظمية. امتزج القنوط بملامحها وأول ما فعلته كانت محاولاتها الاطمئنان من خلال وضع أذنها فوق صدره كي تنال صوت نبضه.. شعرت وكأنما لا تسمعه، أصابها الهلع.. حركته بعنف يائس وهي تضرب صدره بكل قوتها:

- "غضب".. لا!

تقارب وجهه، تقبل شفتيه بعشوائية.. تبكي بحرقة.. تعانقه وترفعه نحوها وتندمج أنفاسها بأنفاسه..

أنفاسه...

تشعر به الآن.

الدموع تنهمر من عينيها مثل شلال، حياته على المحك ولكنها ما زالت حياة.. مسحت عبراتها ثم قبضت على الأرض غير مدركة سر اندماج ماء دمعها بالأرض.. أطراف الحفرة.. وفجأة، تسرب شعاع "ضوء" قوي من منتصف الحفرة المعتمة.. حتى أضاء المكان كله، كان ضخمًا شعرت في البداية وكأنما يعمي البصر ولكنه بعدها هدأ وأصبح مثل تسرب شعاع شمس ذهبي متوهج لم ترَ مثله قط!

شعاع محير.. يبعث الراحة والتيه والدفء.. شعرت وكأنما خيالها يُسحَق، كل الأفكار التي تمتلكها.. عيناها

تلتمع وأحشاؤها تؤلمها والضوء يلفه.. يلفه بشكل كامل ويأخذه منها قبل أن يسقط به في قاع الحفرة!

- لا.

بعجز صرخت:

- لاااا.

بخيبة بقنوط بيأس.. قلبها يتهاوى.. عقلها ينفجر.. وفي اللحظة نفسها ينفجر من الحفرة ينبوع مياه دافئ يرفع جسده لها من جديد.

تلهث بلا تصديق.. تأخذه.. تحتضنه.. جسده صلب بلا جروح، المياه تجف من عليه وملامحه تُصقَل وكأنه يولد من جديد.. يندمج بقوة مجهولة هي من أهدتها إليه!

حين فتح عينيه شهقت لا تصدق:

- لقد ابتلعتك الأرض في جوفها!

تنهد بتعب ثم أحاط وجنتيها القلقتين والباردتين بكفيه دون أن ينبس بحرف. اختلطت عبراتها بلهفتها بفرحتها بتيهها.. رددت بلا تركيز:

- أنت بخير.. بخير!

وعانقته بكل قوتها كامل.. عانقته وتجمدت ملامحها وهي تراقب تشكل أحرف من الذهب الخالص فوق سطح مياه الينبوع المضيء..

شامبالا (9).. أرض الشمس الدائمة!

***

صوته هامس في أذنها.. يده تحملها.. خطواته ثابتة بها هادئة كظل! غرفة امرأة عانقت الموت، لحظة قاتمة لا تود استعادتها.. هروب عاجزة عنه، وهو يسيطر على

جسدها..

- أين أنا؟

- في قلب الراعي.

تغيب.. تشيح ببصرها عنه.. تتخبط تضطرب.. منذ أيام وهو يمرِّضها بنفسه، يطعمها بيديه، يعانقها في الصحو والنوم.. بعدما كاد يهدمها يبنيها من جديد فوق صدره..

- ما زالتِ خائفة مني؟

قالها وعيناه تميل بيأس، ينصهر بها تمامًا وهي عفويتها تغلبها، يخالط تيهها البكاء:

- لقد قلتَ إنكَ ستقطع رأسي.

شفتاها تنتهج وضعًا بائسًا ويطحن هو شفتيها في شغف.. قبلة مطبقة في البداية ثم جائعة ثم معتذرة.. قسوة متسلطة في العشق.. لهاث حار يندمج بها..

- ملعونة القسوة مع امرأة مثلكِ.

وجهه يكاد يلاصق وجهها، جسدها ملكه.. باب سري ينفتح وسلم ملتوٍ يصعده معها.

أبحرت بنظرها في المساحة غير مصدقة، غرفة مستديرة من الخشب اللامع، رفوف عدة بـ رقوق وكتب متعددة.. صندوق غريب الشكل يوجد في أحد الأركان. نافذة علوية وحيدة صغيرة جدًّا لتمرير ضوء الشمس والهواء. لهيب الشموع يزين الظلام وظلال الكتب تتشكل على الجدران.

رددتها بصدمة وعيناها تتعلق به:

- هذا قلب الراعي!

قاطعها بهمس خشن:

- هنا أنتِ هنا هي...

- لا أفهم.

- ولا أنا.. ولكن على ما يبدو هذا المكان من أجلكِ.

همست بترقب:

- أنت تعلم!

مد أنامله نحو ذقنها برفق:

- تجيدين القراءة.. اللعنة كما يسميها أبي.. الأمر بات جليًّا.

ارتجفت رغم كل شيء بقلق ولكنه حاوطها، ابتلع قلقها وابتلعت ذراعاه جسدها الصغير.. همس بضعف.. لأول مرة تلمح هذا الضعف منه:

- هل لديكِ استعداد لسماع الحكاية؟

التوَت شفتاها بنصف اطمئنان:

- من البداية.

حاوط وجنتيها ونظرته تجاهد للخلاص من وحشته بها:

- أنتِ البداية.

ثم مالت ابتسامته بقسوة ساخرة:

- ولا أعلم إن كنتُ أستحقكِ!

كانت القبلات في تلك اللحظة هي لغته الوحيدة للتعبير، وكأنه ينصهر بها بطريقة جديدة. تملّكه الغضب والعشق. أضرم النيران في قلبه وكاد يحول روحها إلى أشلاء.

وآثامه في عينيها واضحة..

- تخافين مني؟

- لا!

ابتسم بقسوة وهو يربت على رأسها:

- كاذبة.

ثم وضع أنامله فوق شفتيها:

- حتى هذا الكذب اللطيف لا يليق بكِ.

تنهدت والحيرة ما زالت مسيطرة عليها:

- ربما أحاول ألا أخاف.

طوَّقها بعينيه وبداخله رغبة محمومة بانتزاع كل ما سبق.. انتزاع كل شياطين غضبه التي تفجرت في براءتها:

- وأنا سأحاول بدوري أن أمحي خوفكِ.

***

- هل تعلمين ما ينقص يودوس؟ كرنفال للقتل.. الشعب يشعر بالملل.

قالها بابتسامة مثل طعنة، مرور طاووسي وبين يديه قلب طلب منها أن تطهيه على بعضه، ويمارس هو عليه همجية القضم!

غرس نظرته بها وتابع بنبرة كشر بها عن أنيابه:

- قابلت منذ عدَّة أيام امرأة تثير بي همجية قبيحة!

وتابع وهو يستمتع بطراوة اللحم:

- أنتِ ماهرة يا...

- "صحو"!

- اسم غريب.

- كل شيءٍ غريب في يودوس.

التمع ضوء عينيه الذي يشبه الذهب الذائب:

- تعجبينني.

كونها تختار متى تصمت ومتى تتحدث ذكاءً، ربما هي مزية بقاء أهل حافة السرداب رغم تمردهم. أخفضت رأسها وأحاطت خصلاتها الشقراء المسترسلة بجسدها، وهو حولها يدور ببطء متسلٍّ:

- صحو متوسط أم أكثر مما يجب.

- صحو مضروب فوق رأسه.

سخريتها القاتمة أعجبته، الشعب الراضي ببؤسه هو ذوقه المفضّل! روحه المظلمة تجسدت في عينيه وهو يقترب منها.. يهمس وينتظر الصراحة التي قد تغضبه قد تثير إعجابه لا أحد يعلم ولكن هي لا تمتلك النجاة هنا سوى بالصدق..

- ما رأيكِ في تناول القلوب؟

- يبعث في جسدي القشعريرة.

بدت مثل زهرة برية مستهلَكة بعض الشيء ولكنها جميلة.. امرأة مدججة بحصافة اللسان رغم أن يودوس أرض الجهل.

- من علمكِ الكلام.

- لا أعرفها.. امرأة كانت تزورنا من حين إلى آخر تقص علينا الحكايات.

كانت ترفرف أهدابها بقلق، تعرف أنه لم يكن من المفترض أن تعترف بأمر كهذا، ولكن مجددًا هي لا تمتلك سوى الصدق.

ابتسامة عقربية هازئة ارتسمت فوق شفتيه:

- هؤلاء العجائز الثرثارات، حتى غاند غير كافية لتخليصي منهم.

ثم اضطجع بانفعال ظلامي، امتطت عيناه صهوة ذكريات قاتمة وقال بنبرة متسلية ولكن بها غضب مكتوم:

- أخبريني حكاية منهم.

ارتجف لسانها رغبة في الهروب.

- لا أتذكر.

حرك نبيذه في القدح بتمرد ثم تابع وهو يستمتع بالمذاق:

- هيا.. لا أريد استبدال الدماء بالنبيذ وصدقيني مذاقها أغنى!

ابتلعت ريقها برعب، هو رجلٌ قادر على تنفيذ ما يقوله أيًّا كان.. أمامه هي جبانة جدًّا وأحيانًا شجاعة جدًّا، تتراقص في عقلها أفكار متناقضة بين طاعته ورغبتها في أكل قلبه!

لم تجد مناصًا من مجاراته، الركوب في قاربه والاستسلام للدفة.. لا تحتاج حتى إلى أن تعصر رأسها بحثًا عن حكاية.. أشهرهم يعرفها أهل السرداب وكررتها العجائز عدة مرات، يقولون إنهم سمعوها من عجوز خيالية تقود شعبًا اسمه المطرقة!

صوتها كان يرتعش، ولكنه في الوقت نفسه كان منتعشًا صحوًا مثل شعاع الشمس:

- كانوا يقولون إن يودوس نشأت من تعويذة ساحرة عظيمة.. تعويذة نمت بشكلٍ خاطئ ولهذا هي ملعونة.

انفعلت عيناه مثل هشيم أرض محروقة..

- وماذا أيضًا.

اكتسى صوتها بمرارة خاصة:

- تتوه الحكايات على الألسنة يا سيدي فتتوه الحقيقة.

التعاويذ مشحونة بالأمنيات، والغضب. والشر والخير متلاحمان لا ينجو أحدهما دون الآخر. ارتاح في مقعده بحزن ساخر، اعتراف إنساني من وحش!

- هي ساحرة سيئة جدًّا!

ثم تشكلت ملامحه بحقد دفين:

- قتلتها! ولكنها عادت من جديد.

ركضت الحيرة على لسانها:

- هل تقصد أن روحها ضالة؟

عبث ساخر تشكل فوق ثغره:

- لا.. هي عادت فعلًا، ومن وقتها علمتُ أنني لا أستطيع قتلها.

ردَّت بتفكر:

- ربما أحد غيرك يستطيع.

الشيطان داخله استمتع بالحديث، تفحصها بمكر ثم تابع وهو يمط شفتيه بتركيز:

- فكرة! ولكنها تحتاج إلى تجربة.

- ماذا تعني؟

- لنجرب الآن معي أنا أولًا!

تيه أشعرها بالدوار تمكن منها، أيقنت متأخرة أنه استقام من مقعده.. سحبها نحوه ثم استلقى على الفراش.

قال بهدوء وهو يفتح مئزره ويستلقي بصدر عارٍ.

- تعالي اجلسي فوقي!

إرشاد غريب مقلق، عيناه مغمضة في هدوء مستسلم والتعبير لطيف جدًّا آمر!

لهثت رغبة في الهروب:

- سيدي، أرجوك أريد الرحيل.

- تعالي حالًا.

أمره تلك المرة كان حاسمًا، نبرة أجبرتها على الطاعة.. امتطته وفقاعة حيرة ممتزجة بالخوف تحيط بها.. عبث كابوسي بامتياز.. ظلَّت متجمدة حتى وجهها وحروفه رغم الهدوء تنزل عليها كالصاعقة:

- جوارك خنجر على الطاولة خذيه.

ترنحت باحثة عن ردة فعل، شهقت برفض وقد خرجت حروفها مسحوقة:

- أرجوكَ يا سيدي!

أطلق زفرة حارة ثم قال ببأس مخيف رغم أنها هي من تمسك بالنصل..

- ستنفذين ما آمرِكِ به.

وبعدها كانت حروفه الضربة القاصمة:

- اقتليني!

***

- اقتليني!

قالها بحق.. ببساطة تامة وكأنما يطلب منها إعداد كأس نبيذ، يمسك بوركيها في شهوة جسدية ويطلب منها أن تغرس في صدره السكين!

أنفاسها صخب وأنفاسه فحيح

على وجهها هزيمة وعلى وجهه ابتسامة ظافرة.

- افعليها!

- لا.

- افعليها الآن.

أمر واجب النفاذ، صلابة نظرته تحركها.. رفعت الخنجر وإن بدت يدها عازمة كانت عيناها ترتعش. تناشده ولا تريد وفجأة يحرك هو يدها كي ينغرس السكين في اللحم.

منتصف القلب تمامًا.

ينغرس ببطء وعلى وجهه ابتسامة قاتمة.. تعبير مخيف!

في حين انتفضت هي كالملدوغة استقام هو يمط جسده، يسحب السكين الذي دخل وخرج دون نقطة دماء واحدة وتمر فوق شفتيه ابتسامة ضارية.

- هل رأيتِ البعض لا يُقتَل!

حركت رأسها في هلع، في حين تعاظمت قبضته فوق عنقها الرفيع، أمال رأسه باستمتاع ثم قال وعيناه تلتمعان بنشوة قاتمة:

- بارود أول.. بارود ثانٍ.. بارود ثالث.. جميعنا الرجل نفسه يا عزيزتي.

وقبل أن تكتمل الحشرجة كان قد كسر عنقها بحركة واحدة.

رمقها بتعبير راكد ثم مط شفتيه بلا تأثر ونادى أحد حراسه..

- أريد طباخة جديدة.

***

الفصل الحادي عشر

هي أخطأت نعم.

هذا الخطأ اللطيف الضعيف الذي لا يؤذي أحدًا.

وقفت دامعة أمام المرآة وهي تتذكر الصباح الكئيب، خصلات "سيراب" السوداء المخيفة تمشي خلفها مثل ظل شيطاني وتبتسم لها ابتسامة جثة قبل أن تفرقع بأصابعها لإحدى خادمتها وتختفي في غرفة ممتلئة بالعناكب والتعاويذ. هو يغيب أغلب وقت الصباح، "شاهق الأرقب" رجل انشغالاته عدّة يسيطر على نصف الإقليم، وتحمل متاهاته مجهولًا يهابه الجميع.. "بداية" في بيت الراعي، و"قلب" رحلت مخطوفة وهي تطمئن نفسها كل ليلة بعد لحظات بكاء متفرقة أنها ستكون بخير.

تقاسيم وجهها اشتاقت إلى النهر، اشتاقت إلى محادثة المياه ومراقبة الأسماك الملونة والرقص هناك أو البكاء. بدا اقتراحًا عذبًا ومعذِّبًا، همسة عصفورية شجعتها.. عصفور لحوح مثابر، صوته ثقيل غريب.. وتسلق شجرة!

- أزرق!

بشهقة طفلة نطقت اسمه وهي تنظر بلا تصديق من النافذة، يمسك قيثارته ويحرك رأسه الصغير الحجم نوعًا ما، مع خصلاته الناعمة، في حين تلتمع عيناه السوداوان بشقاوة:

- تجعلينني أبدو كمفاجأة سيئة.

بدت مثل قطعة حلوى مذعورة وهي تتلفت حولها:

- اذهب كي لا يراك رجال "شاهق" أرجوك.

- راقبوا الأرض ونسوا الأشجار.

قالها بسلاسة مرحة ثم تابع ساخرًا:

- الحرس دومًا غبي هل تعرفين لمَ؟

حاورته في يأس:

- لمَ؟

قال بتسلية ممزوجة بالمنطق:

- لأنهم مدربون على الطاعة.

تنهدتْ في استسلام:

- هل تعلم افتقدتكَ.. افتقدت "زليخة".

راقب براءة عينيها، وإن كانت تفترسهما هالة داكنة طفيفة من كثرة البكاء ثم قال بحسم:

- ارحلي.. أنتِ لستِ دجاجة محجوزة في قفص لا تستطيع الركض ولا الطيران.

- إنه "شاهق" أنت لا تفهم.

عقد حاجبيه بتعجب:

- ابن عمكِ ومسؤول عنكِ، ولكنه لا يمتلك أحقية احتجاز روح.

بدت مثل فراشة تفهم متأخرًا الشرنقة:

- كلامك غريب.

أما هو فخروفه صاعقة تغذي تمرده حين ينطق بها:

- الغرابة هي ما لا نعرفه فقط.

بعدها ارتخى حاجباه بمزاح مشاكس:

- "نهاية" لقد آلمتني مؤخرتي من هذا الغصن.. هيا قابليني عند النهر.

توهجت وجنتاها بحمرة:

- لا أستطيع أخبرتكَ. أنا لن أتسلق الشجر مثلكَ والحرس أمام بوابة المنزل.

تأمل فتنتها الخائفة اللطيفة ثم قال بانفعال لحظي:

- إذن سأحملكِ.

حركت رأسها في رفض قاطع مسكين صدَّقه على الفور، وحينها ضحك.. ضحك من قلبه وفكر.. كم من بريئة مثل "نهاية" في يودوس.. كم من بريئة وقعت فريسة للبارود، للأفعى.. للقوانين الجائرة.. لرجل مثل "شاهق" ليس أكثر من مجرد ذراع سلطة وبطش للبارود أو لنفسه.

السلطة بكل صورها نهجها البطش.

من بين شفتيها انسكبت كلماتها بلطف:

- ارحل يا أزرق أرجوكَ.. أخاف أن يراكَ أحد.

أمال عنقه بشكل جانبي ثم ابتسم لها مودعًا، عاد كما ذهب، قفز من شجرة إلى أخرى بمهارة وأغلقت هي نافذتها بعد أن اطمأنت لرحيله. لم تشهد الخطوة الأخيرة!

نزوله متباهيًا من آخر غصن حتى وجد أحد رجال "شاهق" أمامه، مرر سكينه الضخم الشبيه بالمنجل حول عنقه ثم ابتسم ابتسامة كريهة قبل أن يسحبه كذبيحة لقائده.

***

ممدد على الأرض وحوله حلقة من الخيالة، حبل ثقيل بعقدة ملفوف حول عنقه، في حين يمسك بطرفه الرجل القبيح الذي اقتنصه في البداية.. وجوههم المتجهمة والحادة الملامح ترمقه بازدراء، وسيوفهم الطويلة تناوش صدره في سخرية لاذعة.

- حقير يتجرأ على بيت الأرقب.

- صعلوك الكلمات سينال جزاءه.

- هل جننتكَ.. تقترب من دائرة "شاهق الأرقب".

كانوا يرشقونه بالألفاظ في غضب بيّن وهم في انتظار سيدهم، رغم كل الفزع الذين أرادوا زرعه به كان يرمقهم بابتسامة ساخرة، يد البطش مستمرة والخوف لا يضمن النجاة. فجأة توجه انتباههم إلى فارس قادم من بعيد.. قامته الضخمة تحتل الجواد وهيبته واضحة كما سمع عنه. تحرك ببطء حازم وهو ما زال على جواده حتى تقدم منه ورمقه بنظرة صارمة قاتمة وأحد الرجال يتقدم مفسراً:

- وجدناه يتلصص على منزلك يا سيدي.. يتسلق الأشجار.

رمقه "شاهق" بنظرة جامدة ولم يبدُ على ملامحه أي انفعال، فقط التمعت عيناه بانفعال هجري فاحم وقال بهدوء صخري:

- اسمك أزرق!

كانت عيناه تتوهج باستعار، نص الهوية هنا بدا شهادة موت.. قسوة حقيقية وليست مختالة كما دوران رجاله. كرر الشاعر الكلمة بشجاعة كانت كل ما يمتلك في تلك اللحظة:

- نعم.. أزرق.

سخرية بحجم جبل تسللت من عيني "الأرقب" وهو يطحن جسد الثائر الصغير بحروفه:

- هل يليق بكَ؟!

في خارطة المتاهات لرجلٍ مثله لا يدرك الكثيرون

المعنى، الشاعر ينظر إليه بحرص وهو يستكمل ببساطة مظلمة:

- لنجعله يليق بكَ!

بفرقعة إصبع أعطى الإشارة لرجاله فتحركت الأحصنة، ودون قدرة منه حتى على المقاومة وجد أزرق نفسه يُسحب، يُسحل، يرتفع الحبل إلى غصن شجرة عنيد ويرتفع جسده النحيل خلفه، كان يجاهد لينال أنفاسه، يضع أنامله التي كادت تنكسر حاجزًا بين الحبل الغليظ وعنقه الذي سيدق، أقدامه التي لا تطال الأرض ترفس، ورغبة في الحياة تتدفق في أوردته.

لونه الحي يُمحى.

يتحول إلى اللون أزرق!

عينا "شاهق" تلتمع في نشوة شر خالص:

- هل رأيت!

كان يلهث وهو يجاهد كي ينال الحياة، حتى تمرير حرف.. يمارس الطيران رغمًا عنه ويلتصق بالأغصان الآن بشكل مختلف.. يا لها من سخرية لاذعة.

ها هو ثائر قريبًا مفقود.

لن تفتقده يودوس.

المسافة بينه وبين المقبرة تقترب.

وعلى الأرجح لن يرهقوا أنفسهم بتابوت.. سيتركونه لنسر جائع.

الدماء بدأت تتسرب من عنقه وأنامله التي تثابر كي تنقذه على حافة الاستسلام. عيناه تقترب من سكنى الموت الكئيب ويواجه رجلًا، الموت بالنسبة إليه حدث

عادي، مارسه كثيرًا.

فجأة ووسط نظرة بائسة تتسرب من رجل المتاهات، فرقع إصبعه فترك أحد رجاله الحبل ليسقط أزرق ويرتطم جسده بالأرض، وأنفاسه تجاهد لالتقاط الحياة. يزحف رغمًا عنه ويخلع الحبل الملوث بالدماء وهو ينظر نحو "شاهق" ورغمًا عنه أهوال الموت ارتسمت فوق ملامحه.

اقترب "شاهق" منه ثم ارتكز على ساقيه ومال نحوه محدقًا بسوداوية:

- هل تعرف لمَ لم أقتلكَ!

كانت أنفاس أزرق ما زالت غير منتظمة، متسارعة مردومة بالضعف والغضب.. تابع "شاهق" بنبرة ثقيلة وعيناه تكتسي بالقسوة:

- لأنكَ حشرة تحاول.. لو كنت رجلًا لقتلتكَ.

هاج أزرق وإن لن تمنحه قدرته شيئًا أمام "شاهق".. شعر بنفسه صغيرًا جدًا، صعلوكًا في البدايات أمام رجل بمخالب. طفل داخله يتسلق الشجر ويوزع الأحرف ووقت المعارك من مثله الطرف الأضعف..

هل تنتصر الكلمة؟!

هو يصدِّق!

ولكن ليس مع رجلٍ مثل "شاهق"..

هو عاقبه لأنه فكر في التسلل نحو امرأة تخصه!

مرر رسالة موت.. ولو فعلها مجددًا سيكون عنقه الثمن لا محالة.

***

هو لا ينظر نحوها مجرد نظرة.. بل يختطفها في مساحة

عينيه. العظيم "شاهق الأرقب" يحتجزها في محرابه.. مساحته.. قصره. شعرت بنفسها تتمزق، تخطو الخطوة وتعود.. تائهة فيما حدث وما قد يحدث. لقد قالت "أم العقرب" إن أحد الرجال سحب أزرق، شهقت حينها في فزع وركضت.. أفكارها الصغيرة تجمدت وقواها خارت حتى قبل المواجهة. بعد مواجهة صغيرة باكية أمام المرآة مع نفسها جاءتها "أم العقرب" بخبر جمد الدم في عروقها.. "شاهق" يريدها في غرفته.

بعينين نصف مغلقتين وتوتر تام همست وهي تتحاشى النظر نحوه:

- "أم العقرب" أخبرتني أنكَ تريد الحديث معي.

انحنت شفتاه بطريقة صارمة حيث هو رجل لا يبتسم، لا تليق به تلك المزية الباهتة.. أشار بسبابته إلى مقعد مقابل للأريكة التي يضطجع عليها ثم قال بقسوة آمرة:

- اجلسي هنا.

عضلة متمردة نبضت في خدها الأيسر مع أمره، كانت متوترة جدًّا.. يكفيها ما حدث ويحدث، بل وجودها هنا في منزله.. بين جدرانه، معه ومع زوجته، ومؤخرًا ظهور أزرق كمتسلل في المنزل. ارتجف جسدها كله حين فقط مر بخاطرها ذكر "سيراب"، ثم قالت ورموشها نفسها تتوتر:

- هل يجوز أن أطلب منكَ شيئًا.

التمعت عيناه باهتمام وهو يراقبها، كان يراقب كل تفصيلة منها وهي لا تدرك.. لم تدرك أبدًا. عبرت عيناه على ملامحها ببطء قبل أن يتابع باستهانة:

- أنا أطلبكِ ويبدو أن لديكِ شيئًا لتقوليه بدوركِ.

ارتجف صوتها بارتباك:

- نعم.. يبدو ذلك!

حينها بدأت في مواجهة ملامحه، عيناه بتلك الصبغة القاتمة التي كانت وما زالت تربكها، تتلاعب بها.. تقضي عليها تمامًا. تسلل من عينيها حزن ضعيف. ماذا تفعل؟ ماذا تظن؟ كُسر قلبها وانتهى..

كاذبة "قلب"، زرعت في أوردتها الأمنيات بعد أن أجبرت نفسها على اليأس، هو لم يشعر بها من قبل ولن يشعر أبدًا.. حتى غضبه بشأن أزرق هي حميَّة عائلية تامة، هو لا يراها أنثى من الأساس. أنثاه هي "سيراب" مهما بدت امرأة مخيفة أو غريبة يهرب منها الجميع.

هي زوجته التي حتمًا تتعرَّى في فراشه كل ليلة ثم تصعد إلى السطح في الفجر لابتلاع عناكبها!

ارتجف جسدها مجددًا، لم تدرك أنها صرخت، خرجت كلماتها برعشة يائسة:

- أريد الرحيل من هنا!

- ماذا!

ردُّه كان قاتمًا حد التحذير، حين رفعت عينيها نحوه صُعقت بنظرته الصارمة.. استقامت بتوتر تام، تراجعت إلى الخلف وجسدها ينكمش:

- أريد العودة إلى منزل العمة "زليخة".

ضاقت عيناه بقسوة لم تفهمها في البداية، وبؤبؤاه حريق، هدر بقسوة لم تتوقعها:

- هل هناك حكاية لا أعلمها!

وقبل أن تدرك كان قد استقام، أحاط ذراعها الضعيفة بأنامله شديدة الخشونة، ثم تابع وقساوة كلماته تتابع

وتضربها في مقتل:

- أم تريدين العودة إليه!

لم تستوعب، فقدت القدرة على التركيز تمامًا، وحروفه تصفعها:

- أعود إلى من!

- أزرق.

قالها وهو يعتصر حروفه بغضبٍ تام، اتهام مبطن لم تدرك إهانته في البداية، بل انتفضت في براءة تدافع عن نفسها:

- لا.. لا أقسم لك إنه مجرد فتى يلقي الشعر.. كان يجعلني أضحك.

كانت تنكمش وهي تتحدث، تستوعب الآن حماقتها التامة، اختارت أسوأ توقيت كي تخبره برغبتها في الرحيل، النيران مشتعلة وهي تمدها بالخشب وأوراق الشجر كي تتعاظم. تدرك أنها هشة.. بريئة الأفكار أمام طواحين القسوة، تشعر بنفسها صغيرة.. ثم مُهانة.. أدركتها بعدها بلحظات، ألهذا يستبقيها في منزله! مثل قطعة أثاث.. يحتجزها تبعًا لتقاليد وأعراف حتى يزوجها لرجل مناسب ويتخلص من عار قد يحدث. وجدت نفسها تنتفض.. تحاول تخليص نفسها من قبضته، ودموعها تنهمر:

- كيف تظنُّ بي ذلك؟ كيف؟!

دون جهد سيطر عليها.. كانت معركة حمامة أمام عُقاب، أمسك بكلتا ذراعيها، فسيطر على انتفاضتها ثم فجأة بلا مقدمات قرَّبها إليه، خصلاتها المتفرقة نتاج محاولة التملص منه اصطدمت بأنفه ثم سكونها المصدوم بعدها استقر قُرب قلبه، وشفتاه تميل ليتحدث بحرارة قُرب فكها الأيمن:

- أنا لم أتهمكِ بشيء.

سكنت، ودقات قلبها حرب، توجس وفوضى.. أنفاسها تتسارع وهو يميل نحوها أكثر، كانت حريقًا داخل تمثال ثلجي. تابع واقتراب شفتاه من فكها بات غير جائز.. لم يتقاربا بتلك الطريقة من قبل أبدًا. كانت في قمة توترها.. قلبها يركض، أعضاؤها ترتجف وبعد قليل ستسقط إلى الهاوية.

- مكانكِ هنا يا "نهاية".

توقف ثم استكمل بنبرة قوية وبطيئة لها مغزى:

- في منزلي.

صدرها كان يعلو ويهبط، كانت نصفين.. نصف عاجز بريء يعلم من داخله أن هذا الرجل لا يريدها ولا يشعر بها أبدًا، ونصف آخر تائه أيقظته "قلب" بعبارتها الشهيرة من قبل.

"ألم تلاحظي حقًّا.. كيف ينظر إليكِ، إنه يأكلكِ بعينيه!".

وبعدها.. حين رفعت عينيها نحوه.. كان نصف "قلب" هو المنتصر.

كانت عيناه تشتهيها كما لم يشتهِ رجلٌ امرأةً قط.

***

تحدق إلى جمالها، جسدها البض المثير.. خططها الأثيرة! أي نعم الراعي سامح زوجته وحدث بينهما مالا يعلمه أحد، ولكن هذا لا يعني أن فرصتها تبخرت. كان الوقت قد بات متأخرًا، همس الحقول الهادئ يحمل صفير الخنافس وصرير الجرذان، وضوء الشمعة القصيرة في غرفتها قارب على النفاد. طرقات صلبة على الباب في

البداية أرعشتها، حين فتحته وجدت خادمة عجوزًا وجهها يشبه القبر تأمرها بصمت أن تتبعها.. كانت ترتدي ثوبًا قاتمًا من الصوف الرمادي وغطاء رأس مستديرًا تخفي به خصلاتها البيضاء المشعثة. لم تنطق بحرف، ولكنها دفعتها بأصابع ثقيلة نحو بوابة المنزل لتجد نفسها في الحديقة الخارجية. استدارت بهلع:

- ماذا فعلتِ؟ لا تصرفيني أرجوكِ لا يوجد مكان أذهب إليه.

- صه.. الراعي يريدك.. اذهبي من هذا الاتجاه.

رفعت رأسها وقد اشتعلت عيناها بحماس رغم شعورها بالحسرة لأنها لم ترتدِ ثوبًا مناسبًا، ربما يكون مكشوفًا بشكل أفضل من ملابس الخادمات العتيقة. تحركت بحرص نحو المكان الذي أشارت لها الخادمة كي تذهب إليه، إصطبل قديم مهجور لم تكن تعلم فائدته، ولكن يبدو أن الراعي يمتلك فيه مزاجية خاصة. رجل قبيح بعين واحدة كان يقف جوار الباب حين وصلت وآخر بملامح ربما ألطف وأكثر سمنة.. فتحوا الباب الثقيل كي تتقدم وهناك على مسافة نظر لا بأس بها لمحته. كان يجلس بهيبة تخصه مثل ملك غابة هزم الذئاب والأسود، رغم قوة "غضب" التي قد تبدو ظاهرة فإنه كما يقال.. هو لا شيء جواره. التمعت عيناها بإثارة عاقدة العزم أن تنال حلمها دون هوادة حتى لو بنغل.

أن تصبح زوجة السيد..

- أنتِ "قمرية"!

قالها بصوت صلب قوي جعل أنفاسها تتلاحق.. أومأت بطاعة خبيثة وتقدمت منه أكثر دون أن يدعوها ثم قالت بنبرة موحية:

- خادمتكَ وجاريتكَ يا سيدي.

بدت عيناه قاسيتين مثل الحجر وهو يراقب مخارج حروفها المتغنجة، تلويها مثل أفعى.. وخطتها اللعينة التي كادت تفقده بدايته. أوقفها بإشارة يد، ثم قال بنبرة صارمة حادة قلبت الطاولة على الفور:

- من أرسلكِ!

- ماذا!

تلجلجت.. شعرت أن ما رتبت له ضاع وباتت في مواجهة شيء آخر، ارتبكت في البداية ثم سريعًا عانقت ملامحها كذبة:

- يا سيدي أنا مسكينة أبحث عن السقف والخبز.. لم يرسلني أحد.

- ولم تتحدثي مع "جدار" أيضًا!

نبرته القاتمة الساخرة أرجفتها، حدقت إلى ملامحه بعجز، وركضت أفكارها سريعًا طلبًا للنجاة، هي تحفر في المحظورات وهو لن يرحمها. صرخت بتوسل:

- سيدي أرجوكَ أنا مجردة خادمة ثرثارة.

أشار بسبابته لأحد الرجال فلم تدرك ما يحدث إلا بعد فوات الأوان، حملها الرجل من خصرها بسلاسة ثم مددها على ما يشبه الطاولة الخشبية، والآخر يشحذ سيفًا ثقيلًا مخيفًا استعدادًا لقطع رأسها!

- لا.. لا.. انتظر.

كانت تصرخ بكل قوتها، تركل وترفس وتلعن اللحظة التي دخلت فيها هذا المنزل وتلعن "غضب".

- "غضب" من أرسلني.. أخوكَ هو من أرسلني

أرجوكَ.. أرجوكَ.

التمعت عيناه بقتامة تامة وأوقف جلاده بإشارة ثم أشار إليها إشارة حاسمة بعينيه أن تُكمل فتابعت لاهثة:

- هو.. هو من دفعني إلى المجيء.. طلب مني أن أتسلل إلى الدور العلوي.

باتت نظرته شبيهة بخراب الحروب:

- لماذا؟

تابعت وحروفها تتوسل الحياة وتبدي الندم:

- كي أخبره ما يوجد هناك.. كي يعرف إن كانت زوجتكَ الأولى حية أم لا.

كانت تظن أنها تقدم لنفسها حبل النجاة ولا تعلم أنها تلف مشنقة، لم يعد الأمر مجرد خبث كاد يودي بـ "بداية" بل خطورة حالية عليها.. على قلبه.. إرثه.. عضلة قاسية نبضت في خده مع ذكر سيرة الخائن وإشارة حازمة من عينيه فتحت قبرًا!

يتدفق الخير من القلب.. الشجاعة والصلابة والأمان. ومن القلب نفسه تتدفق القسوة، الشراسة والبطش والموت.

في الصباح التالي.. وعلى واجهة المطبخ الضخم مكان دخول الخدم جميعا.

عُلِّقَ رأس امرأة كانت في يوم ما جميلة.

جزاء خيانة الراعي!

***

صباح بارد

خطة مختلة بنرجسية بارود!

خمسمائة رجل قد يصل منهم مائة، حبال ثقيلة سيزحف عليها الفرسان وصولًا إلى مملكة الخراب برماحهم الفولاذية المعلقة وسيوفهم الصلبة. قائد الفيلق "رشد" يقودهم بنفسه، والذهاب إلى مملكة الخراب كي يوفروا لهم الخيل والعتاد. رائحة الحوافر تمتزج بالأديم، وفعلًا مائة فارس هم من وصلوا استعدادًا لملاحقة الجبار ورهينته.

الفيلق الرابع الأكثر عددًا، وهذا ليس كله في مواجهة رجل حان وقت موته. سيكون قتله ملهمًا كما أمر الزعيم.. حكاية كافية بإصابة مستمعها بالكوابيس!

وإن حدث العكس فالبارود لا يخسر.. حينها سيتأكد من حدسه.

حوافر تقترب..

ظلمة عينيه تنتبه، وحُنكته تحسب وقت الوصول..

قال بقسوة قاتمة وصوته يندمج بخندق ملامحه:

- لحم بشري!

نظرت نحوه في صدمة، هو بصدد محاربة رجال فيلق قوته بائسة ومعركة الفوز بها عبث أساطير.

- هل تستمع لوقع قدومهم.. إن عددهم مهول.. مائة فارس، ومائة حصان ضد جبار وقلب تعلمت منذ أيام إتقان السهم!

جاوبها بصلابة حديدية:

- الحروب تحمل المجازفة!

ثم وثب فجأة وقد قفز فوق حصانه وأشار نحو تبة عالية بها أكثر من مكان للاختفاء لا بأس به أعده وقال بحزم مرتَّب:

- الفيلق دون رماة على الأرجح، وهذا في مصلحتنا، صوِّبي بسرعة وانتقلي أكثر من مرة بحرص بين المخابئ كي لا يكشفوكِ.

- وإذا اكتشفوا مكاني؟

- حينها سيحين وقت السيف الذي دربتكِ عليه.

قالها بصرامة وهو يتخطاها ويضرب بقدمه غمد السيف الذي تعلقه حول خصرها. صهيل الخيول يقترب.. صهيل الخيول مرعب، عيناه حازمة شيطانية..

- الآن اصعدي.

ضرب بقدميه جوانب خيله وصرخ بهياج محارب لم ترَ مثل شجاعته.. يواجههم وحده.. يقترب إلى مسافة محدودة كي يسمح لسهمها بإصابتهم وينتظرهم في جسارة جبارة. نظرته نظرة ذئب.. نظرة أسد.. نظرة دب ضارٍ.. نظرة عند المواجهة لا تخشى الموت.

***

جبار جبار

صرخ الرجال، التفُّوا حوله باهتياج القتال.. سيف مرة رمح مرة، قتال سريع صادم.. أحدهم يتقدم بمطرقة يحاول أن يدق قدمه، ولكنَّ سيفه يسبقه وفي لا وقت يقطع العنق.. آخر يزأر ويدور كي يغدر به من الخلف فينطلق سهمها بسرعة ولكنها لا تصيبه.. تصيب الحصان.

ضجيج مخيف وباهر.

وهو يقاتل بقوة شيطانية.

الرجال تتراجع وكل من يسقط من فوق حصانه بسبب أسهمها لا يعود.

هي أسهمها غير قاتلة، وهو سيفه بحيم الأعناق والقلوب والبطون، والمحظوظ يفقد ذراعًا. سرعة دورانه مربكة لهم وسيطرته على حصانه تفوقهم مهارة بمراحل. ابتسامة "رشد" الكريهة تراقب في حقد. لقد انقسم الفيلق وأول خمسين رجل في هزيمة صادمة. عيناه لمحت الجسد الأنثوي الذي يساعده بالأسهم، تركض بين مخابئ عدة وقد فقدت حرصها في التخفي. تلهث بخوف وعجز وشجاعة وإثارة والكثير من الشعور المتضارب، والرياح الباردة تلسع وجهها. جبار أمام عينيها يقاتل بضراوة لم ترَ مثلها أبدًا، سيفه قادر على جزِّ عنق ثلاثة رجال في ضربة واحدة وضراوة خنجره بيد أخرى تمزق الأحشاء. بأس الرجال اهتزّ.. بعضهم تراجع والآخر سعى إلى سحب الجرحى وتركوا الجثث. "رشد" بحنق لم يواجه.. بل في خضم الفوضى ركض نحو الغنيمة. ركض نحوها هي!

***

- حينها سيحين وقت السيف.

كلماته ترن في أذنيها، سهمها توقف حين لمحت القادم نحوها، قائد الفيلق نفسه! لم تصدق.. أما "رشد" فكان يعلم جيدًا أنه وحده غير قادر على هزيمة جبار، وبعد ما رآه حتى الخمسمائة رجل لن ينجوا منه. البارود جازف بهم كي يحقق غرضه. ينال رأس "جبار"، أو حقيقة كانت غائبة عنه.

"جبار" لم يتدرب على القتال وسط رجال البارود.

من جهزه صاحب قوة شيطانية.

لهاثه يريدها بسرعة قبل أن ينتبه الآخر، ركضت بعجز وتفكيرها في المواجهة.. سيفها سيحاول أمام قائد من قادة البارود. سهمها نفسه لم ينل لحمًا بشريًّا بعد فماذا عن

السيف.

مكبلة بخوفها حاولت.. سحبته من الغمد ولم تكن ترتعش ولكنها كانت تائهة، عين تبحث عن جبار وعين تواجه فارسًا ضخم الجثة حقير العينين، كان قد قرر قتلها في البداية وحين لمح عذرية القتال الأولى قرر اختطافها وتقديمها حيّة لباروده.

مدت السيف تحاول، لم يسقط منها مثلما كان يحدث مع جبار، عضلات ذراعيها باتت أقوى. صوتها هادر زاعق وهي تتقدم ونجحت فعلًا في جرح ذراعه، ولكن لسببين أولهما أنه لم يكن يقاتلها من الأساس، والثاني أنها ما زالت غير قادرة على القتل.

محاربة لم تُصقَل بعد.

***

- لقد قتل "ضوء القمر"

باتت المعركة سكونًا صادمًا. باب من الجحيم فُتحَ.. صوته صلابة محارب قتل وحده 70 فارسًا ونال هو بعض الجراح. ملامحه مصقولة بظلمة دامسة من تاريخه وتجرع لقسوة الموت.

تجمدت.. تصلبت وهي تستدير وترمقه بعيون جاحظة، وحملت شفتا رشد ابتسامة ساخرة.

حرك رأسه بقتامة وعيناه تخاطب عينيها:

- هذا قاتل أمك.. ذبحها في سكون الليل بأمر من سيده.

- لا.. لا..

رددتها بيأس، صدمة، تعاسة! إنكار تام وعيناها تكاد

تفجر الدمع والسيف يسقط.

القوة سهلة في الأحلام، القتل هيّن في الحكايات..

شعرت أن أنفها ينزف، ضعفها قاتل سخيف مقيت.. سيفها مُقيَّد، يقولون إن الهياج والغضب يفقد المحارب حكمته حين يقاتل. ولكن هي حدث لها العكس تمامًا، تجمدت.. لم تقوَ حتى على القتال. رفضت اللحظة ورد فعلها وكلماته، وصرخت تكذبه:

- لم يحدث.. "ضوء القمر" لم تمت.

قال بصوت صارم ثقيل مر على الكثير من الندوب:

- المقاتل لا ينكر ضحاياه حتى لو كان وغدًا.

ثم رفع رأسه بتحدٍّ لـ"رشد" الذي أيقن نهاية الحكاية، فيلقه بين مقتول وهارب والفتاة أفضل فرصة له.. يغضبها كي تهتاج وتتقدم نحوه، يأخذها رهينة تساعد في هروبه من تلميذ الشيطان هذا. قال بقتامة مستفزة مقصودة:

- أردتُ أن أحمل رأسها للبارود، ولكنه طلب منا أن نتركها ذبيحة في رسالة لـ "شاهق".

ارتجف قلبها، قلبها يوجعها ما هذا الألم.. عيناها تحبس دمعًا انفجاريًّا.. بذور سواد تتناثر حولها وسريعًا تنبت أشجار الغضب والحقد والألم.

صرخت بقوة.. شعرت وكأنما صرختها رجت الأرض، ألقت بالسيف وانتزعت سهمًا من الجَعبة بعنف ثم وجهت سهمها إلى القاتل. سهم متجمد سخيف كئيب غير قادر حتى على محاولة الثأر. سهم محترق وعمود دخانه وهم.. سهم ضعيف خاوٍ مثلها تمامًا.

ودون قرار حاسم.. وبين حصار الحزن والغيظ هوى قلبها قبلها، وانطلقت تركض بكل قوتها مبتعدة عن الجميع.

وقبل أن يستوعب "رشد" الصدمة كان "جبار" قد لاحقه بمطرقة فوق رأسه!

***

- أكرهكَ!

كانت قد مرت ساعات، رائحة الجثث فاحت وعيناها يسيل منها دمع شبيه بالدم، قوسها يتدلى جوار ذراعها وشعرها ممزوج بالغبار، والتعاسة تحتل ملامحها.

واجهها بنظرة سوداء باردة ثم قال بلامبالاة:

- الحزن يصقل القلب.

هاجمته في غضب.. هياج..

- كيف تفكر أخبرني! كيف تفعل بي هذا!!

كانت ترتجف بقوة، عيناها متسعتان على آخرهما.. نظرتها خاوية وضائعة ولا تتحمل شجاعة لوم نفسها. هي تركت قاتل أمها وركضت، هي مجرد صورة محاربة باهتة ليس أكثر.. شجاعة مثقوبة.. فكرة محطمة قبل أن تكتمل.

فجأة بلا مقدمات أطلَّت منه نبرة قاتمة وبعينين فيهما انفعال مثل لهب أسود:

- لقد فعلتها قبلكِ!

تجمدت نظرتها ونطق لسانها بثقل:

- ماذا!

ظلت ملامحه صلبة ثابتة للحظات قبل أن يتابع بسكون غريب وهو ينفرد ببعض النبيذ الذي كان "رشد" يحتفظ به للاحتفال بالنصر عليه..

- شاهدته وهو يقتلها وهربت!

- من؟

- البارود!!

ولـ "جبار" حكاية.. طفل في التاسعة لم تنمُ بعد عضلات صدره يجول في أرض العرش باحثًا عن أخته.. قالوا أخذها رجال البارود بعد أن رفضت قبيحًا سكيرًا زوجًا، وباتت في عرف قانون جائر محظية. أب قتل نفسه حسرة وأم تتوَّج ضحية لـ "غاند"! ركض صغير ووجد لنفسه مكانًا في عبيد البارود يساعد في تنظيف الأسلحة وإطعام الخيول والتسلل إلى القصر بحثًا في وجوه الجواري. كان يتلصص على المضاجعة من حرس البارود ولهفة قاتمة داخله تخاف أن تكون إحداهن أخته..

البعض يكبر سريعًا.. سريعًا جدًّا.

ويصقله الحزن سريعًا جدًّا.

بعد عام كامل علم أنها باتت محظية للحاكم، لم يكن يفهم ما يعني هذا، ولكن طابق الجواري خاصته بالمئات.. من يطلبها مرة لا تعود ثانية بل تنتقل إلى مرتبة أعلى. وصل متأخرًا إلى جناحها، علم من جارية زميلتها أنها طُلِبَتْ منذ ساعات فقط لتكون للبارود.. أصابه العجز واللوثة، تسلل بحجمه الصغير بين النوافذ وتسلق بعضها، ومن نافذة سوداء رأى ما جمد أنفاسه.. ما بدله إلى الأبد..

البارود يقتلع "قلب" أخته بعد أن عاشرها ويقذفه لخادمة كي تطبخه له!!

شهقت في صدمة، وقد باتت حدقتاه حفرتي نار وهو يعود إلى ماضٍ ثقيل..

- هل تعلمين ما فعلتُ لحظتها.. ركضتُ! ركضتُ برعب.. بجبن.. في حيرة.. في صدمة.. ركضتُ حتى

فقدتُ ما تبقى من روحي.

دمدمت بحزن وشفقة:

- كنت مجرد طفل.. وهو..

- هو يمتص منهنَّ الحياة.

قالها بغضب مكتوم، تفسير قاتم للمسخ الذي يواجهونه.. تدفقت من عينيه نظرة مظلمة:

- وحين امتلكتُ البأس كي أغرس النصل في قلبه اكتشفت أنه بلا "قلب"!

ارتعشتْ عيناها بصدمة، ومضات من حديثها معه تعود.. مسخ العرش.. مسخ التاج.. احذر بارود!

حملقت إليه والقشعريرة تتمكن منها:

- لا يموت!

قال بنبرة كالفولاذ القاصم:

- لا يموت! يموت الجميع ويبقى هو.. يتجدد كالحرباء. يتلوَّن ويتلوَّى ويمارس دور ثلاثة حكام في تاريخ يزيف به ما يشاء.

شعرت وكأن عدة نصال انغرست في قلبها في ساعات قليلة، أنفاسها تخرج بصعوبة، حزنها يندمج بصدمتها.. وقلبها يموت ويتشكل من جديد..

ضغطت حروفها بحسرة وغيظ، أحشاؤها تؤلمها.. رائحة الجثث أصابتها بالغثيان..

- أنا جبانة.

أراح رأسه إلى الخلف ثم قال ببساطة قاتمة، البأس الذي تشكل على مدار سنوات:

- القتل ليس بالسهولة التي يصورها الخيال.

ردَّت تتشبث بقدرته:

- أنت تفعلها بيسر.

نبرته بدت خلاصة محارب معاركه بعدد شعر رأسه:

- أخبرتكِ.. الحزن يصقل القلوب، والظلام يشكلنا بعدها.

ثم التمعت عيناه بقسوة وهو يشير لها بسبابته لجسد مقيد بشجرة، محارب رخيص بلا هدف بلا جبهة. خادم البارود في الباطل والباطل.

- هو لكِ.. افعلي به ما تشائين.

وأغمض عينيه استسلامًا لراحة مستقطعة بعد معركة طويلة، نصف الحكاية مر، والنصف المختبئ ملحمة! ثباته مرتكزًا على بأسه وقسوة براثنه تتحضر منذ أعوام لنيل عدوه العتيد.

***

رائحة الجثث هدأت، تكاثرت عليها النسور.. حقير ذبح "الضوء" يضحك بُغية استفزاز ضعفها، جرح عميق في جبهته من ضربة "جبار" وتجمدت دماؤه مُشكِّلة خريطة قبيحة، هسيسه وهو ينظر إليها يشبه هسيس ثعبان:

- سآخذك للبارود، انتقمي منه بنفسك.

- حسنًا!

لم ينتبه للتغيير، قتامة الملامح.. التشكل بعد الحزن، القلنسوة فوق رأسها شبيهة بقلنسوة "جبار"!

فكت وثاقه وقبل أن يستعيد إدراكه كانت قد رفعت قوسها في وجهه.

"قلب النبال".

- اركض!

ومتأخرًا وبلا حكمة استهانت بمحاربة صغيرة استوعب متأخرًا، حاول التقدم ليكسر شكيمتها فاستقر السهم في منتصف رأسه.

"قلب النبال"

مهمة قتل أولى

وكانت سهلة التصويب

"قلب النبال"

تشكلت من جديد

*

مليئة ذراعاها حروفًا!

إرثها من "ضوء القمر"

تجلس مسندة رأسها إلى الجدار، وساقاها ممدودتان، ورأسه هو يتوسدهما، ينظر إليها أحيانًا وأحيانًا يغمض عينيه ويطلب منها أن تقرأ له.

- ألا تمل.

- أحب صوتكِ.

كانت الوثائق والكتب كثيرة.. بعضها يتحدث عن يودوس التي تعرفها، محارق الظلم وحشد من غوغاء على شكل حرس بارودي. وبعضها مجهول المعنى.. وكأنها عبارات منقوصة تنتظر التكملة.

- انظر.

قالتها بلهفة وهي تشير إلى عبارة غريبة:

"يموت النغل عند...".

نالت انتباهه، استقام يخطف المخطوطة بل كاد ينتزعها منها وقد أحرقه العجز عن القراءة في تلك اللحظة. قال يحثها:

- تابعي هل هناك المزيد.

- نعم.. في تلك المخطوطة.

وسحبت أخرى ثم تابعت قراءة ما يشبه لغزًا:

"حرير ملفوف في قماط يسقط حين...".

والعبارة أيضًا ناقصة. المخطوطات تبدو هكذا في بعضها، والأخرى موسومة برموز غامضة، حروف لا تعرفها.. لغة أخرى.. سألها باهتمام:

- هل علمتكِ "ضوء القمر" لغةَ أخرى.

- لا.. تلك هي اللغة الوحيدة التي مررتها لنا.

ألقى نظرة مجددًا على المخطوطات، الآن يفهم أهميتها.. حرص أمه، هل المقصودة "حرير".. هل هناك طريقة للقضاء عليها!

ومن المقصود بالنغل.

هل هو "غضب"؟!

أطرق برأسه يفكر، وشعرت هي بالحزن لأنها مررت له المعرفة ربما، ولكن جوارها العجز والحيرة.

- آسفة.

رمقها بنظرة متشبثة طويلة:

- آسفة! أنتِ الضوء الذي وجدني.

التفتت نحوه بسلام ناعس.. لم تكن تعلم نصفه المظلم

الذي هرس امرأة كادت تمثل خطورة عليها، أمر الخدم بإخفاء الخبر عنها.. فتلك القسوة لا تناسبها.

عاطفته الثائرة نحوها اندمجت بأسرار يخوضانها معًا.. هي حكمته، هي معرفته.. هي نصفه بشكل ما..

رفعت عينيها نحوه بنظرة دافئة:

- ماذا لو قرأنا معًا؟

حرك رأسه رافضًا:

- فات العمر يا بدايتي.

- لا شيء يفوت.

وسحبته نحو الكتب أكثر.. تلك المرة كانت تقرأ وتمرر له شكل الأحرف، تشكله بشكل جديد.. تعطيه بشكل جديد.. أشياء كانت له ظلامًا دامسًا، وبفضلها تتضح وضوح الشمس في عينيه.

معانٍ وفلسفة حياة وحكايات شعبية تحمل إسقاطاتها الخاصة.

ينابيع المعرفة خطيرة.. تطوقك وتتمكن منكَ ولكنها تضمن خروجكَ منتصرًا، تناطح الوهم، أسرارها متشعبة. ينابيع المعرفة تحتاج إلى الصبر.

يموت النغل عند...

كان هذا ما لا يطيق صبرًا عليه!

***

ضوء القمر يومض على طرف بحيرة، سمكة ملوَّنة تقفز من القاع وصوت أوراق الشجر وكأنه يهمس..

بحيوية بريئة قالت وهي تجاوره ولم يكن قد تعافى من كل جروحه بعد:

- الغابة جميلة جدًّا.. لمَ قُلت إنها الظلام؟

ابتسامة ماكرة ارتاحت فوق شفتيه وهو يجيبها مضطجعًا:

- لم أقل هذا.. قُلت هي انعكاسنا.

ثم استدار نحوها فجأة، عيناه التمعتا وأنامله داعبت خصلاتها وأطراف وجهها:

- وأنتِ على ما يبدو الظلام لم يقربكِ قط.

قاطعته ببراءة:

- وأنت؟!

مالت شفتاه باستهزاء مدمج بحدة ساخطة:

- أكثر مما يجب.

اعترضتْ مثل قطة صغيرة:

- لا أراكَ هكذا أبدًا.

- ربما ترين القشرة.

- ربما أرى القلب.

صغيرة تناور بشجاعة، تضع كل ثقتها به.. تتشبث بذراعه وتراقب القمر وتُكمِل:

- ماذا لو بقينا هنا!

تكمل بعفوية خطيرة.. نور القمر يشكل لوحة راحة وفتنة فوق ملامحها، وشفتاها تعانق الكلمات في سلام:

- إلى الأبد.

ارتاحت عيناه وهو يتأملها:

- تبدو دعوة مستحيلة الرفض.

كانت مثل الوردة التي تزرع السلام في منتصف المعركة،

تنبش عن الضوء الأبيض في الظلمة، تفتح دفتر الغيم وتجد سحابة مبهجة.

- حقًّا! لن يصيبك الملل؟

- من ماذا؟

- مني!

ضحك بقسوة:

- بالتأكيد.

ثم تابع وهو يتأمل حزنها اللطيف الجميل جدًّا:

- ظلام الرجال قبيح يا جميلة.

كادت تبكي وحينها ستحزن الريح، إلا أنه قال بصدق غريب تام:

- ولكن لنبقى قليلًا ما رأيكِ؟

شعرت بكل كيانها يتجمد والأحلام تتحول إلى حقيقة، تيه يحيط بها.. ماذا تريد حقًّا؟ أن تجد "ضوء القمر" أم المكوث في سعادة الغابة. الهواء والماء والعشب معها والأشجار والزهر والطيور والمجهول يسحبها ويبعدها.. يصرفها ويبقيها.

فجأة تجمدت خوفًا عليه، شهقت رافضة والحزن والخوف يتملك مقلتيها دون أن تدرك أن بوابة الخروج من الغابة طريق نحو بارود ينتظرها.

- لا! أنت قلت إننا يجب أن نخرج قبل أن يجدنا العُقاب.

ارتجفت نبرته بصدق:

- سأواجهه.

- لاااا.

رفضت في هلع.. المستذئب كاد يقتله، فماذا عن العقاب.

قال وعيناه مثبتتان عليها:

- خائفة؟!

ردَّت بتمزق:

- لن أفقدكَ.

ابتسامة ما زالت ضعيفة ارتسمت فوق شفتيه:

- ربما تساعدينني تلك المرة.

ارتخى حاجباها بيأس لم يفهم قوتها بعد، ولكنه رآها.. رأى اندماجها مع الغابة وتأثرها بها.. نبرة صوته بدت هادئة وهو يتابع:

- يجب أن ننتظره.

تأملتْه بلا فهم.. فقط خوف صارخ عليه:

- لا أفهم!

لا تفهم، يليق بها!

لا تفهم الشرور.. لا تفهم الغدر.. لا تفهم طبقات الظلام فوق القلوب ووجع الشر حين يحتلها.. لا تفهم ألسنة الجحيم. ونشوة القتل عند البشر والمسوخ. لا تفهم ضجيج المعارك، ولا لعنات البشر على بعضهم بعضا.

لا تفهم كلمة بارود وماذا يريد منها.

قالها بحسم:

- سننتظر!

ثم سحبها نحو صدره كي تستكين، راقب غياب القمر،

واتخذ قراره، وعيناه تضيقان على دُكنة تخصه.

دكنة يعاركها ضوء.

ومن يعلم من سينتصر!

***

سكون عجوز..

مصاب بالشيخوخة والعجز، جنية تتحرك بالأصفاد وأخرى قوتها اشتعال.. صوت الهواء غريب جدًّا، وكأنه يعزف بداية عاصفة، وخلف جدار توجد فجوة. مكان يمتزج فيه الظلام بالضياع!

لهثت "ثلج" بتحفز، واتقدت عينا "جمر" بحماس.. نظراتها تتجول على الجدار وكفوفها تلمسه، وأنفاسها تتسارع بعد رحلة بحث طويلة منهكة..

- لا أصدق أنها المتاهة!

صرخت.. ضحكتها باتت زلزالًا، رقصت رقصة النهاية واجتاح ملامحها النصر. بدأت نظرتها تتجول في جميع زوايا الجدار، ثم فجأة بدأت تقفز على الأرض بشكل بدا عشوائيًّا وتضغط بقدميها في بقع محددة حتى انفتح مع يشبه المخبأ المرسوم عليه خريطة، مجرد نقاط موزعة بشكل محدد، اتقدت عيناها باحتراق طفيف مرَّر ما يشبه شعاع الشمس الذي حينها اخترق النقاط فثقبها، ومن خلال الخريطة ظهرت علامات الثقوب على الحائط لتشكل ما يشبه مدخلًا سحريًّا فتح به فتحة على الفور.

ضحكة منتصرة شيطانية تسربت من جوفها، وخطوات متعجلة دفعت في بدايتها بـ"ثلج"..

طريق يشبه السرداب الصغير ومسار مظلم آخر دكنته مذهِبة للعقل.

دخان أسود يشتت الرؤية، جدار السرداب قشور محترقة، مائة حيَّة صارخة تتدلى من السقف، كان المسار يشبه الممر الأسود، يضيق على كليهما من الجوانب حد هرس الأجساد ثم تنشق الجدران عن نصال مميتة صغيرة تخترق جلدهم، ولكنها ما تلبث أن تتوقف بعد تعويذة صارخة من "جمر". الطعنات جارت لهاث "ثلج" المتعبة ولكنها تثابر من أجل خدمة بارودها، البارود رجل الخطوات المسبقة.. هي قضت سنوات طويلة في قصر المشعوذ تحت ستار جاسوس نائم، مباح له اكتساب الثقة بعد خمسين عامًا. صبر يستحق المكافأة.. بعد أيام سيخرج "غضب" بالفتاة من الغابة، وسيكون البارود في انتظاره، وحينها سيفقد المشعوذ غنيمته إلى الأبد.

شاطئ أبيض ببعض الشرور وشاطئ مظلم بـ"غاند".

أي اختيار يناسب يودوس!

كانت الحواف الحادة قد رسمت الألم فوق جسدها الثلجي، أصفاد "جمر" تسبب حريقًا مؤلمًا من التقاء الوهج بالصقيع. خطواتها من الإنهاك أبطأ وعيناها تتسارع في فضول.. فضول عن شكل المتاهة. فجأة أصبح السرداب شديد الانحدار، إلا أن الغريب أن طريقهم صعودًا.. ستنحدر كلاهما لا محالة، وسط أنفاسها اللاهثة شقت "جمر" الجدار بنيرانها فظهرت سلسلتان حديديتان على الجوانب استطاعت كلتاهما أن تتشبث بها، هنا فجأة في حركة أثارت تعجبها خلعت "جمر" عنها القيود، نظرت إلى رسغيها شبه المحترقين ثم نظرت إلى "جمر" في توجس فتابعت الأخرى ساخرة:

- ماذا ستفعلين هنا!

تشبثت كلتاهما بالسلاسل الحديدية في صعود مثابر،

ضحكات كئيبة تحيط بهما قالت "جمر" إنها ضحكات النساء اللواتي ابتلعتهنَّ "غاند"! ظلمة ملتوية تحيط بالصعود.. الصعود إلى الهاوية!

عتمة رمادية فوق رؤوسهما وكأنما هما في قمة القصر وسماء المتاهة، دماء داكنة ملطخة على الجدران المحفورة بها أخاديد صغيرة على شكل كتابة! وجه تمثال عديم الملامح يظهر فوق بوابة ضخمة لا يوجد لها قفل أو ذراع، بل ما يشبه العجلة الدائرية الضخمة كي تتحرك.

- ساعديني.

قالتها "جمر" بحزم لاهث، النيران تتوهج في عينيها بشكل كامل وساعداها مشتعلان تمامًا وهي تحرك العجلة، عجلة لا تتحرك سوى بقوة الثلج والنار.. أزيز قاتم انطلق وبوابة ضخمة فُتحت على ما يشبه غرفة دائرية ضخمة جدًّا وفي جدارها الخلفي باب آخر معتم أسود يحرسه كائن شيطاني ضخم.

الغائب الذي لم يظهر من سنوات.

أقوى ظلال المشعوذ بعد الأفعى.

حتى إن حجمه تضاعف وبات ريشه المختلط من اللون الأبيض والرماد صورة مرعبة. الكائن المجنح، الشيطان الطائر.

العُقاب!

وخلفه بوابة المتاهة.

***

- أيتها الجدران.. أوصلي إليه رسالتي.. حادثيه من أجلي.

همست بها "جمر" بسعادة ويأس، "ثلج" تضحك ساخرة

وهي تلامس الحجر بأناملها وكأنما تتواصل معه، ترسم كلماتها ولا تنطقها.

قالت "ثلج" بخبث منتصر:

- لا تحاولي.. الوقت هزمه وهزمكِ.

- ليس بعد!

صرخت بها "جمر" بعنف، نظرت باتقاد نحو العُقاب النائم.. اقتربت منه.. همست بمكر في أذنه:

- هل تتذكر آخر بقايا بشرية نالها مذاقكَ؟!

بدأ صوتها في التدفق إلى رأسه، سحبه من غفوته ودفعه إلى التحرك بعيدًا عن بوابة المتاهة:

- المتاهة لا تحتاج إلى حراستكَ الآن.. لديكَ مهمة أهم.

نفثت أمام منقاره الوحشي نفثة حارة عميقة:

- لحم بشري.. أعلم أنكَ تتوق إليه، فمذاقه أفضل من لحم القناطير.

وتراقص ضوء متلهف أمام عينيها:

- حان وقتنا الآن هل تفهم! وقت سطوتنا نحن.

فجأة صاح العقاب صيحة ضخمة أرجفت جسد "ثلج"، اهتزت جدران الغرفة بقوة وفرد جناحيه مثل وحش مخيف ضخم، وبدأ يضرب بهما بعنف حتى انشق السقف العلوى من فوقهما وترك صقيع الرياح أثاره فوق الجميع.

صفير حاد.. ضوء شمس غائب، رمادية غيم وعينا الجنية تشتعل أكثر.. الجدران تمرر لها خبرًا ثمينًا.. ثمينًا جدًّا!

لهاثها حارق وكلماتها لهيب أسود..

- لا تقرب الفتاة.. اقتل "غضب"!

وشق الجناحان صمت الهواء بصراخ ضرباتهما.. تراجعت "ثلج" في توجس وبدأت "جمر" في رسم تعاويذها على الباب وضحكاتها تتناثر بقسوة مرعبة..

حان وقت خروج المشعوذ!

***

الفصل الثاني عشر

الشعب ينسج الحكايات عن حكامه، الحقيقة والافتراء.. يقدسه ويلعنه بناءً على أكاذيب، في النهاية التاريخ سيُزيِّف وأنا اخترت الزيف الذي يناسبني!

"احذر بارود"

في لعبة الحرب كل الأسلحة مباحة، وكل المكر ممكن.

سقط "رشد"!

كان له أنف معقوص يشبه العجرفة، وصوت له لمحة غباء.

لن يفتقده.

أحيانًا عليكَ أن تضحي بورقة ثقيلة كي تكشف الورقة الأصلية.

***

- تدريبك خرافي يا جبار.

همس بها لنفسه بقسوة قاضمة للسان، سنوات طويلة كان يقود فيلق الصفوة فقط بنصف قوته كي لا يلفت الانتباه.

ليست خيانة.. بل ترتيب على مهل، مثل زحف حرب ثقيلة من عدو متلهِّف للقتال.

اقترب من مجسم صغير غريب، مرَّر أصابعه على أجزائه بلهفة قاتل، وهو فعلًا قتل النحات الذي صممه له.

أكل قلبه!

البارود لا يتغذى على قلوب العذراوات فقط، هنَّ فقط مذاقهنَّ أشهى! أحيانًا يشعر به يخفق بشدة عندما ينتزعه. أحيانًا مذاقه يشبه مذاق الفتاة نفسها حين يخترقها.

قلب العذراء مثير للمذاق

عادت عيناه إلى المجسم ثم ضاقت في مكر تام.

منحوتات صغيرة تمثل جيشه السري الذي سيظهر فقط حين يستدعيه. حين يزيح الستار عن سره الأعظم، يستفزه "جبار".. ويحاول "شاهق".

ولكن لا.. ليس بعد.

سيظهر في وقته.

***

وإن قصدت أن تثير جنونه لن تفعلها بتلك الطريقة!

امرأة علمته معنى المذاق..

توزّع البهجة حتى لو حملت حزن العالم، وتعطي الجميع حصتهم المستحقة من الطفولة.

في بيت الراعي فوضى لذيذة

في بيت الراعي "بداية"!

حين استيقظ على صوت ضحكات نساء لم يستوعب في البداية ما يحدث، هرج ومرج لطيف.. وصراخ وضحكات وصوت ماعز!

انتبه من غفوته فلاحظ أنها ليست مستلقية بين ذراعيه كما الوضع في الأيام الحالية.. هي حتى حين تستيقظ قبله تظل ساكنة تحت سطوة عناقه كي لا توقظه. ولكنَّ الشقية هذا اليوم تسللت.. لم يشعر بها أبدًا. استنبط من صوت الضحكات ضحكتها، سعادة صاخبة تتسلل من النافذة، ومن النافذة أيضًا حين نظر لمح بهجة تعابيرها وهي تنظر نحو طفلة تحاول جاهدة أن تسابق الماعز!

سبع خادمات وهي وطفلتان وساحة ممنوعة على الرجال،

فقد صرفت كل الحرس، وهذا هو ما أنقذها منه، فقد كنَّ جميعهنَّ يتسابقن في ركضٍ مهووس مع بعضهنَّ مرة، ومع الماعز مرة ويرفعنَ أثوابهنَّ الطويلة إلى أعلى سيقانهن أحيانًا كي يركضن جيدًا!

كانت هي تجاهد كي تلاحقهنَّ، أغلبهن يفقنها في الوزن والحجم، وإن كانت ساقاها الأجمل بينهنَّ، لن يجادل.

رسمت شفتاه ابتسامة عابثة وهو يتأمل حرية ساقيها تحت وقع الركض، وإن بدت سرعتها مثيرة للشفقة. لو لاحقها فيل سيمسك بها، فماذا عن قاتل ذئاب!

***

صوت ضحكة

صوت ركض

صرف الجميع وأخذها لنفسه

انفرد بها في الغابة الصغيرة القريبة، وقال والتسلية تتراقص فوق شفتيه:

- لنتسابق.

ضحكت يائسة:

- نمرٌ جوار سلحفاة!

لم يسمح لها بالتراجع، حملها بذراع واحدة ثم دار وقد طبع قبلة حارة سريعة فوق شفتيها قبل أن تندمج عيناه بالشعلة الزرقاء ويقول بحسم:

- قاتل ذئاب.

وسريعًا دار بها مجددًا ثم وضعها كي تقف جواره، عقد حاجبيه في جدية ساخرة:

- سأعد إلى عشرة بعد أن تبدئي الركض وأتحرك.

انهار حاجباها في يأس باسم:

- هذا مهين.

ولكنها بشقاوة تامة ناوشته، ركضت حتى قبل أن تبدأ الإشارة الفعلية، ركضت بكل قوتها حتى إنها كادت تتعثر ومتأخرًا أدركت أن الخطوة الراكضة منه بخمسة منها.. نالها بلا جهد، ولم يسبقها.. بل اقتنصها كما يقتنص ضارٍ فريسته.

حين سقط بها ثم احتجزها تحت جسده ضربت صدره بتذمر مدلل:

- لقد قُلتَ نتسابق!

داعب أنفها بأنفه بشقاوة ثم قال متنهدًا:

- بدلتُ القوانين.

همست بمثالية تناسبها:

- لا يجوز.

وهنا اقترب منها بكل كيانه، لم يقبلها ولكن كان يحتجزها في عينيه بتعبير غريب قبل أن يقول بغموض:

- في يودوس كل شيء يجوز!

بعدها وقبل أن تدرك نهض واقتلعها معه من الأرض كما غرسها بجسده قبل. سحبها من يدها سريعًا، حملها.. وضعها فوق حصانه ثم امتطاه خلفها، وفوق جيدها الناعم من الخلف استند بشفتيه ثم قال بجدية صلبة:

- تشبثي جيدًا!

شهقت بعدها على الفور والحصان ينطلق بسرعة قوية، تشبثت بحزام السرج في توتر رغم أنه كان فعلًا يطوِّق خصرها بإحدى ذراعيه، يركض بها في متاهات في غابة

لم تعهدها من قبل. الغابات في يودوس متعددة، منها الصغير ومنها الرائع التي تتخلله الجداول وأكثرها هو مسار الطرق بين الممالك. بعضها مأهول ممهد للمسير وبعضها لا.. والمسخ في الحكايات الغابة المحرمة على البارود!

لا تعرف لمَ تذكرت الآن هذا الجزء من المخطوطة التي قرأتها بالأمس.

البارود لا يستطيع أن يطأ الغابة المحرمة ولهذا يجند ما يستطيع من رجاله كي يتخطوها.

عادت إلى حاضرها وهي تحاول استيعاب تشعب الطريق حولها:

- أين نحن؟

قال بجدية ومحاوطة ذراعه تزداد حماية حول خصرها:

- هذا المكان لا يعرفه غيري.

- هل نحن في طريق مملكة العرش؟

- لا.. إنها منطقة منفصلة تتوجه نحو أقصى غرب مملكة العرش ولكن دون الوصول إليها.

تنهدت بتيه وضربات الرياح تزعج عينيها:

- لا أفهم.

قال بصوت غمرها بشعور غريب.. ترقب.. أمان:

- الراعي له قوته بدوره!

بعدها وبمسافة محسوبة توقف، نزع من تجويف في ملابسه ما يشبه الشارة الزرقاء المربوط في آخرها أداة غريبة مثل البوق ولكن بتصميم مميز، حدقت إليه وهو يسحبه ثم ينفخ به لتصدر نغمة معينة شبيهة جدًا بعواء ذئب، وبعدها من العدم طوقتهم أجساد برؤوس ذئاب،

ونبرته تحاوطها من كل اتجاه ويقول بسطوة:

- قاتل الذئاب له ذئابه الخاصة.

كان ثبات ملامحهم مُقبضًا، وجوههم مصبوغة بمادة سوداء لامعة ورماحهم ضخمة حوافها مصقولة ببراعة. كانت أحجامهم طبيعية ليست ضخمة، ولكن فوق رأس كل واحد منهم تجويف رأس ذئب ودثارهم الجلود.

- هاااااا.

قالوها بصوت قاتم واحد تحية له، كان عدد ما تراهم منهم مائة رجل وبعدها حين أجلسها أمامه وكأنه يتلو عليها عهدًا أخبرها أنهم ألف رجل.

- من هؤلاء يا "بارق"؟

- أخبرتكِ، ذئابي!

- لا أفهم.

قال بصلابة فولاذية:

- هل ظننتِ حقًّا أن "بارق الراعي" سيقف مكتفًا يديه يحمي إرثه وعائلته بالطاعة!

لمعة عينيه كانت صارمة، صوته قيادة جناح مسلح في جيش ضخم.

- لن أسمح بفقدان أحد من عائلتي يا "بداية".

بقلبها اللطيف الفطري قالت بصدق:

- ما حولنا هذا خير أم شر؟

قال ببطء حازم:

- كلاهما.. نحن نحتاج إلى كليهما.

ثم تحولت عيناه إلى كتلة من الحجر وهو يشير بسبابته إلى

ذئابه:

- إنهم لا يأكلون اللحم الناضج، يمضغونه نيئًا.. في المعارك يستطيعون قضم أطراف أعدائهم.. لا يتمتعون بالذكاء الكافي ولكنهم أدوات قتل.

رفضت عيناها برهبة، إنكار بريء تمكن منها وخبر طاعن يرهق قلبها بشأنه.

هو نصف ونصف.

خير وشر!

دقَّت حروفه قلبها بأغراس عميقة..

- الخير يحتاج إلى شر كي يحميه.

همست بخفوت رافض:

- ما ذنبهم!

رأس الراعي.. قلب الراعي.. كيان الراعي كله يحتويها، يوجهها بصبر. قال ونبرته ترتاح فوق لهفة عينيها:

- كانت قبيلة شاردة، حاولت التمرد على البارود فأمر بذبحهم جميعًا، ذُبح من ذُبح ونجا من نجا، لقد التقطتُ ضياعهم، وجهته ودربته وشكلته على مدار سنوات. أصبحوا الشر الذي أحتاج إليه ويحتاجون إليه.

- لقد فقدوا إنسانيتهم.

- الإنسانية لن تبني العالم وحدها.

صوته طغا على صوتها مثل رنين صارم، نظرته الحجرية تناغمت أكثر الآن مع ملامح وجهه ويده سحبتها وسط كل هذا بلطف كي تستقيم وتقف جواره. نظر نحوهم نظرة حادة ثاقبة ثم عاد ونظر إليها بعمق شديد:

- إنهم ذئابكِ الآن كما هم ذئابي.

بساطتها اندمجت بهلع ركض فوق لسانها:

- ماذا! "بارق" ماذا تعني!

مط شفتيه بضراوة:

- سيستمتعون لأوامركِ مثلما يستمعون لأوامري تمامًا.. كل ما عليكِ نفخ البوق.

سألته رافضة:

- لمَ؟

سحب يدها نحو قلبه، رمقها بنظرة أصابت عقلها بالخدر، وقال وصوته يأسرها بلا فكاك:

- لأنك أصبحتِ قلب الراعي يا "بداية"، وأنا لن أفقد قلبي مجددًا.

- هاااا.

أفرغت حناجر المسوخ طاعة جديدة.

نفخة البوق منها كانت ضعيفة ولكنها أدت الغرض.. قلبها غريب، يتشكل من جديد.

البداية في قلب الراعي.

ليست بدايته وحده.. بل بداية تشكلها من جديد معه.

***

الشمس في منتصف السماء تهرس رأسها بحرارة حارقة، جثة "رشد" جذبت الذباب والغريب أن النسور لم تقربها، وكأن شموخ أكلة الموت أنفت لحمه!

بالكاد مسَّت طعامها منذ يومين، هل القتل يفقد الشهية! جبار يأكل مثل ثور!!

حين انطلقت سخريتها بهمهمة غير مفهومة ضحك بخشونة

وهو يقضم قطعة لحم مطاطية المضغ.

- ستعتادين!

- هل تتذكر أول رجل قتلتَه؟

قالتها بنظرة فضية خالصة، حيرة عائمة في مقلتيها، تتابع الحروف في حلقها بخشونة، وشعور غريب بمذاق دماء رشد في فمها، حين أطلقت السهم تناثرت دماؤه فوق وجهها، لم تصب بالهلع ولكنها تجمدت.. شعرت أنها لن تعود أبدًا كما كانت.

قال وهو يتطلع نحوها بجمود هادئ:

- طبعًا أتذكره، كان أحد حراس البارود.. الرجل الذي جاء وأخذ أختي من المنزل.

- انتقمتَ منه؟

- لم تكن له قيمة، مجرد عبد ينفذ الأوامر ولكني أردت أن أقتله.

اقتربت منه بتحفز:

- كيف فعلتها؟

نفس ثقيل تسرب من صدره وهو يضطجع بابتسامة ساخرة ويعود إلى الماضي:

- غرزت النصل بهدوء.. لم أفكر.. تبعته نحو حانة، كان سكيرًا ولكنه كان قويًا مثل بغل، حين غرست النصل في المرة الأولى لم يمت، بل استل سيفه وركض نحوي.

قاطعته بلهفة:

- ماذا حدث بعدها؟

ارتجفت عضلة خده وهو يتابع:

- باتت معركة حياة أو موت، كنت مختالًا.. أنهيت أول مرحلة من تدريبي وطمعت في التنفيذ، ولكنني كنت ما زلت في البداية، حدث بنصل رفيع ضعيف.

- هربت؟

- لا قفزت فوق عنقه من الخلف وذبحته.

صلابة مقلتيه بدت ثقيلة جدًّا بحجم جبل من الحديد. نبرته شبيهة بالصمت.. هدوؤها سكون وكأنما رأى الموت كثيرًا حتى التصق به. عيناه تكيفت على ظلامه وقلبه مصنوع من الفولاذ.

سألته وهي تحرر كل شعورها:

- كم كان عمرك؟

- خمسة عشر عامًا.

شهقت مع جوابه وتابع هو حينما بحكمة قاتمة:

- وكان مذاق دمائه في فمي مثلما تستشعرين رشد تمامًا.

شهقت ترغب في البكاء، الانهيار.. هذا الضعف المتسلل لها يشعرها بالخجل.. ترفضه بقسوة محترقة. قالت بهمسٍ عنيد:

- أريد قلبًا مثل درع، يقتنص ولا يتأثر.

والهمس وصل إلى القمة، لم تتوقع أبدًا أن تقول ذلك بكل روحها وكيانها تلك المرة:

- أريد أن أصبح مثلكَ!

تطلع إليها بملامح جامدة:

- تلك أمنية خطرة.

بدت متوسلة، مهتاجة بالقتال والانتقام، مهتاجة كي

تهرب من لمحات الضعف التي تحاصرها.

- علمني أن أقاتل مثلكَ.

اقترب منها، جذب رأسها الصغير العنيد نحوه وقال وهو يبتسم بسيطرة قاتمة:

- لكِ دور يناسبكِ.

تأرجحت بعناد سريع وفي لحظة كانت تضع حد سيفها الفولاذي فوق عنقه. كان السيف الخاص بـ"رشد "والمنتمي إلى فيلق البارود .. السيف الذي ربما ذبح أمها وتنتوي اقتناص الكثيرين منهم به. قالت هامسة بانتصار شرس:

- لا تستخفَّ بي.

ابتسم بتسلية تلك المرة وقبل أن تدرك كان قد سيطر عليها بسلاسة بقوته وقذف السيف من يدها ثم عكس الوضع فوثب فوقها مقيدًا يديها تحت سطوة جسده ثم همس جوار أذنيها بمكر:

- لا تستخفي بي!

كانت قبضته العملاقة تعتصر رسغها النحيل، مع كل ما اكتسبته من قوة خلال المدة السابقة فإنها لم تكن قد اقتربت بعد إلى عشر قوته، كيف كانت تفكر!

تنهدت باستسلام..

- كيف يمكن هزيمتكَ! هل يجوز المكر؟

تركها ثم اعتدل في جلسته وقال بلامبالاة وهو يرتشف نبيذه:

- أستبهجكِ هزيمتي؟

- لو فعلتُها أنا!

غرورها اندمج بفتنتها في تلك اللحظة، لا ينكر أنها تأملها للحظات قصيرة.

جمالها يشبه جمال مدينة عريقة، هي امرأة لها وجه كالتاريخ.. حين ينظر إلى عينيها يرى تاريخ يودوس، يرى تيجان الذهب الأحمر التي تتحاكى عنها الأساطير وغناء جنيات الأنهار.. يرى لون العقيق الأخضر الذي باتت زراعته إثمًا محرمًا، وسكون نساء النواح في سعادة قبل أن يلعنهم البارود بتلك المهمة. هي امرأة جمالها يستحق البذخ في الوصف، ليس لأنها باهرة الجمال أو صاحبة فتنة ليس لها مثيل.. بل لأن فتنتها أسطورية، حالة كمال برية، غابة وقوس ونهر و"حرير" يتدفق في الأنهار.

غامت نظرته كي يكتم أفكاره، ثم قال ببأس رجل مر بكل شيء سوى البهجة!

- لو فعلتِها سيكون بمزاجي أنا.

ومال نحوها بانفعال أرجفها.. اهتز القلب الذي يظن أنه جماد، اهتز لرجل سكن الموت قلبه.

- ستهزميني حين أسمح لكِ..

***

حان وقت مملكة الوهم.

حكاية تتوارى في النفوس.

التمرير غير مسموح، الحكايات محروقة على الألسنة.. إذا ما نجوت انتهى، وإذا ما هلكت انتهى. الرجل لا يستطيع تخطيها وحده، وإذا ما وجد نجاته في امرأة تشاركه الرحلة غير مسموح أن يخبرها كيف تنقذه!

كانت الرياح الآن بعد يوم الشمس الحارقة تهب بشدة، صقيع أرجف جسدها. زخات المطر بدأت في التطاير

وصوت الرعد معزوفة قاتمة.

- ألن تخبرني عنها؟

ردَّ بحضور يشبه حضور الضباب:

- هي حقيقةٌ تحترق حروفها فوق اللسان ليبقى الوهم.

- لا أفهمك يا جبَّار.

- سنرى!

حصاناهما يتحركان ببطء حذر، مجرى مياه ظهر من العدم كان هو بوابة الدخول.. حين تخطيا الشلال وابتلت ملابسهما وعتادهما بالكامل وجدت نفسها معه داخل ما يشبه الكهف.. كان أقرب إلى مسار داخل كهف، جوانبه شلالات مياه ضعيفة رائقة تخلق حولهما ما يشبه المرآة. مرآة لا ترى فيها شيئًا سوى نفسها، لا يبدو الأمر خطرًا، ولكنها تشعر بالانقباض التام. أحشاؤها تتلوى بعنف في إشارة قاتمة، قلبها يحيط به دثار أسود كئيب، وعقلها يطلق إشارات تحذيرية.

- جبار!

همست تحادثه بحذر ولكنه لم يجب، حين استدارت له لمحت في عينيه نظرة وحشية تامة وانفعال للمرة الأولى تراه منه. انفعال مهتاج غير عاقل، جسده يرتج وسيفه يحتد وصرخته صلبة، وهو يركض بكل قوته كي يخترق مرايا المياه ويقتل ما يراه داخلها. كانت لحظة فطرة تامة لا تحتمل التفكير، اعترضت طريقه بجسدها فسقط كلاهما أرضًا قبل أن يصل. ثقله للوهلة الأولى كان مؤلمًا خانقًا لها، ولكنه ما لبث أن اعتدل سريعًا كي يكمل مسيرته وحينها لاحظت احمرار عينياه بلون حجر دم لم يكن طبيعيًّا، لم يكن طبيعيًّا أبدًا.

مثل غول صرخ، سعى ليتقدم مرة أخرى.. المرايا وهم قاتل للرجال. منهم من يرى أوجاعه.. منهم من يرى ذكرياته الكئيبة المعلقة في لا وعيه، منهم من يرى المجد، ومنهم من يرى السلطة، ومنهم من يرى جيشًا كاملًا في انتظار قيادته. ومفقود من يتخطى مرايا الشلالات.

كان يراه، بلحمه ودمه ونظرته السوداء وهو يقتلع قلب أخته! يرى موتها اللحظي.

فقدان الحياة المقيت من أجل مجد مسخ. جسد البارود بعدها يرتفع أمامه ويتعاظم، يتحداه كي يأتي ويقتله.. يفتح قميصه ويوجه له صدره العاري.. يقضم القلب نيئًا. يقترب من الجثمان، يلعق الوجه الميت، يسحق الملامح بيديه.

هجم "جبار" بوحشية، ركض عنيف بدت عاجزة عن فعل شيء معه تلك المرة.. لو تخطى الشلال سيهلك، هكذا يخبرها حدسها. الركض الآن في حالتها غير مجدٍ، من المستحيل أن تلحق به أو أن يستطيع ضعف جسدها السيطرة عليه. انحنت تصرخ، وقت قصير جدًا يمثل لها ألف فكرة.. المسافة بينه وبين حد الشلال باتت لا شيء، لم تفكر.. سحبت السهم وأطلقته عليه!

***

- لا لا!

وجهها شاحب، همسها مرتجف، جسد كليهما مبلل بعد أن تخطيا شلال المياه على جانب الخروج، كانت مهمة مستحيلة.. سحبت ثقل جسده بكل قوتها، كسرت السهم المنتصب فوق ظهره وتركت باقيه حتى تستطيع معالجة الجرح، دقات قلبها تتسارع على نحو مؤلم، أنفاسها تتسارع إلى حد لا يمكنها السيطرة عليه وعقلها يرتج.

حين مددت جسده المبلل فوق الرمال بدأت بلهفة تبحث عن دقات قلبه، تلتقط ولو أي أنفاس بطيئة متسربة من صدره. كانت قد مددته بوضع جانبي كي تحافظ على ثبات باقي السهم المخترق لظهره. السهم الذي لا تعلم أعطَّله أم من سرعة جامحة بات قاتلًا!

تسرب اليأس منها وهي تقول بأنفاس لاهثة:

- تشبث بالحياة أيها الوغد.

ومن جديد عادت لتُلامِس بأذنها صدره، وهي مثل غريق مهتاج يبحث عن الحياة، مرارة غريبة اعتصرت قلبها حين فكرت في فقدانه، عهدها الأحمق الأول رنَّ بذاكرتها، أن تقتله. اللعنة لن تفعلها الآن بحماقة سهم مهتاج.

ضربت قلبه.. صدره.. وجهه.. أسقطت جبهتها فوق جبهته وهي تلعنه وتلعن نفسها:

- استفِق، هل تفهم، لن تموت الآن.

شعرت برجَّة لجَّتَها وبعدها سعال وأنفاس بصعوبة تخرج، وهو ببطء يفتح عينيه ليقول بسخرية متعبة:

- هل تلك هي طريقتك في معالجة جريح!

كادت تقفز من السعادة.. تنحني فوقه كي تتأكد أنه يتحدث ثم تعود وتنتصب في حماس وتدور حول نفسها بلا تركيز، وتحضر مياهًا ثم قماشة ضخمة كي تكتم دماء الجرح وتنظر نحوه في عجز. ابتسم بتعب ثم قال بنبرة ثقيلة:

- لا تقلقي سأخبرك ما عليكِ فعله.

تدفقت من عينيها نظرة تعلقت به:

- أنا آسفة.

أما هو فدبيب الحياة من جديد كان نظرته:

- أنتِ أنقذتِ حياتي.

بعدها تحت توجيهاته لم تصدق ما فعلته، سحبت السهم بحرص سريع. كان موضعه شبه قاتل، ولهذا ربما أفقده الوعي، فسهم في الكتف أو القدم لم يكن ليمنع تقدمه. حين سحبته حدث ما توقعته، ولكن الواقع مخيف، تدفق الدماء أرعبها وبسرعة بدأت في وضع قماش الضماد ومِياه الحمض كي تمنع تلوثه، تربطه بحرص وتأخذ من جعبة يمتلكها أعشابًا خاصة، قال إنها علاجية قوية التأثير. حين فكَّكت قميصه لمعالجة الجرح لاحظت أن جلده الخلفي ممتلئًا بالكثير من الندوب، جراح محارب! شعور غريب عصف بكيانها وهي تتلمسها.. تسأله:

- هل تتذكر أول ندبة؟

زفر أنفاسه ببطء ثم قال بظلمة غامضة:

- نعم.. كانت من الرجل الذي علمني القتال.

- ولم فعلها؟

- كي أفهم مواطن عجزي ثم أهزمها.

بدا وكأنه سرح في مجهول، ذكريات قاتمة احتلت خلاياه، وتفاصيل من القوة والبؤس تجسدت في ذاكرته. سألته وهي تسبر أغواره:

- هل نستطيع هزيمة مواطن عجزنا!

- بالتأكيد.

كانت لحظتهما معًا شبيهة بحكاية من الأساطير، مطر قليل يتساقط وخيمة نصبتها كي تبقيهما في دفء.. أربع ممالك مرَّت ومسار قارب على نهاية لا تعلمها بعد.

جاورته.. أسندت رأسها فوق كتفه وكأنه المأوى.. أمان حالي مهم جدًّا.

- هل كرهته يومًا؟

كانت تقصد من دربه وكان يفهم مقصدها، هي تتحدث عن نفسها أيضًا.. تحلل شعورها بشأنه من البداية حتى تلك اللحظة. شبه ابتسامة توسَّدت جانب شفتيه وهو يلمح بطرف عينيه ارتياح رأسها الجميل فوق كتفه ثم قال بخشونة صادقة:

- كرهتُه جدًّا.

- ثم؟

- ظللت أكرهه سنوات ولا أعلم أما زلت أكرهه أم لا.. إلا أنني أقدره تقدير التلميذ للمعلم.

- أكان معلمًا جيدًا؟

تاريخ معارك ارتسم في عينيه:

- كان رائعًا، هو الوحيد في يودوس الذي يفوق البارود قوة.

هنا اعتدلت.. انتباهها ارتجَّ، احتراق في حلقها حاولت منعه وذهول كامل احتلَّ عينيها، رددت كلماته في لا تصديق:

- الوحيد الذي يفوق البارود قوة!

سقطت باقي حروفه فوق رأسها سقطة مدوية. حجر ضخم لا يغير اللعبة بل يدمر الطاولة:

- المشعوذ.

***

بداية نهاية ما..

قصر المشعوذ.. غابة محرمة.. قصر البارود..

بين ثلاث بقع يركض الغبار في رغبة أن يتحدث، الرياح بها تاريخ مسموم، والمعركة قائمة بين الوحش والممسوس.

***

الغابة..

ومض البرق يتتابع في السماء، وموقد نار ضعيفة خبت حتى من قبل حضور المطر، فوق جذع شجرة خبأها.. احتلَّ رأسها بكفيه ثم أسند فوق جبهتها جبهته وقال وهو يغرس كلماته بها.

- حان الوقت

تشبثت به.. تشبثها كان محتلًّا يائسًا يحمل خمشة هياج طفلة بأظفارها:

- لنرحل من هنا.. لنخرج من الغابة.

حدق إلى عينيها بإصرار:

- مستحيل!

يزحف الغيم نحو السماء، تصرخ عاصفة مع ضربات جناح قادمة.. عقاب اختطف أمها وسجن عالمها سنواتٍ يعود. شهقت.. صرخ الصدر وانكتم الصوت، تقرفصتْ في تجويف بين لحاء عجوز، عيناها تتابع ما قبل المعركة في لهفة.. هو بين يديه رمح ضخم وفقط، لا يرتدي درعًا من حديد أو يحتمي بسهم شيطاني ضخم. انهالت فوق رأسها الأفكار المظلمة. "كيف بحق السماء يمكن أن يفوز!".

فجأة.. ومن العدم.. صرخة وحش ينقض، أجنحة ثقيلة تضرب الهواء بضراوة، عقاب يبدو مثل شيطان طائر من بعيد، فماذا عن الالتحام. مقدمة رمح "غضب"

تدور في الهواء، تدافع وتحاول، في حين يقف هو على صخرة ضخمة بجسارة ينتظر غريمه. صوت العُقاب مخيف مثل صرخة شرسة، سرعته القاتلة اقتنصت "غضب"، قبض على ساقه بمخالبه كي يحمله ويطير، ولكن "غضب" باغته بضربة رمح قوية في جانب جسده. تحرك الجناحان محدثين عاصفة، ابتعد وحينها رفع بـ"غضب" فسقط وارتطم جسده بالصخرة بعنف، وحين استقام كان منقار العُقاب الحاد يحاول شق بطنه ونيل أحشائه، الرمح في يده يضرب مدافعًا، ولكن جسد العُقاب ضخم جدًّا لا يتأثر بالضربات حد القتل. الأسوأ سيحدث لا محالة.. قالتها لنفسها بذعر، ضربة قاصمة من جناحه أطاحت بالرمح، "غضب" يقفز في رشاقة من صخرة إلى صخرة رغم جرح ساقه، ويخرج سيفه ولكنَّ العُقاب يطير محلقًا بعيدًا فجأة، ويعود بسرعة خارقة وسط عاصفة أجنحته. كلما استطاع "غضب" كبح هجومه ازداد شراسة.. يطير بسرعة عالية جدًّا ويعود من جديد ونيته التقام عنق "غضب" بمنقاره المعقوف. قامة "غضب" القوية وعضلاته المفتولة جعلته قادرًا لوقت لا بأس به على الصمود، ضرباته حاسمة حتى إن حد سيفه كاد يخترق لحم العنق، ولكن العُقاب انتزع منه السيف بمخالبه. عبس وجهه وانقضَّ هو على العُقاب صارخًا، وبعدها في مشهد أجلمها التحم جسداهما التحامًا عنيفًا، كان يضرب وجه العُقاب بقبضته وبكل ما أوتي من قوة، مع أن حجم جسده كله يكاد وجه العقاب يقارب نصفه، يلف ساقيه حول عنق المسخ ويحاول جاهدًا بكل قوته تقييده. سحب من خلف حزام بنطاله سلاحًا آخر بنصل مقوس ثم بدأ في ضرب العقاب به بكل قوته مرة تلو مرة لتتفجر الدماء مع صرخة الطائر وقد انتزع النصل بعض اللحم. ولكنه لم يمتْ.. صرخ بضراوة

وابتعد في الأفق.

أنفاس كليهما بالكاد تتلاحق.. الغيم يعود وشراسة الجناح تعود.. وجه طائر آخر ما غريب بعيد يراقب المعركة.

طائر التاج!

صرخة أخرى قادمة.. العُقاب بكل قوته ووسط ظلمة الرياح وهبوط الأمطار التي حضرت ينقض بسرعة خارقة وينتزع جسد غضب بمخالبه.

- لاااااااااا

صرخت لا تصدق.

ركضت وقلبها يموت.

جسد "غضب" يبتعد وهو يقاوم بكل قوته مخالب العُقاب ويضرب بسلاحه ساقيه، ولكن لا جدوى، ضخامة الحيوان جعلت هزيمته مستحيلة. وقت قصير جدًّا وسيتركه العقاب.

وسيموت!

سيرتطم بالأرض وتتناثر شجاعته في أشلاء.

صرخت يائسة.. شعرت بقتامة الهلاك.

"ربما تساعديني تلك المرة".

تذكرت عبارته، صوته يخترق يأسها.. مفاصلها ترتج وعيناها تتوه وتتوه وتشتعل.

"ربما تساعديني تلك المرة".

حجر.. شجر.. أديم.. ثقوب القوة.

الغابة تنتمي لها!

كانت عيناها تشتعل بألوان عدة، أخضر.. أزرق.. ترابي.. ناري.. خصلاتها تستطيل ومقدمة رأسها تصطبغ بلون فضي لامع.

تُغمِض عينيها.. ترفع ذراعيها ومعها ترتفع الأشجار وتتحرك فروعها مثل أفاعي كي تلاحق العقاب.

الغابة تنتمي إليها.

ثقوب من ضوء لامع قوي تنفتح في الأرض وينطلق شعاع جحيمي يعمي الأبصار. الطيور هلعت والحيوانات ركضت وهاوية ضخمة سوداء انفتحت في منتصف الغابة، الفروع تنقضُّ على جناحي المسخ فيصرخ في صدمة ويائسًا يفلت "غضب" الذي يقتنصه فرع شجرة قوي ويمنع ارتطامه بالأرض.

الغابة تنتمي إليها.

ذراعاها ترتجان، فينبعث الضوء بقوة حارقة تعمي العُقاب، يرفرف بجناحيه في هياج محاولًا التخلص من قيد الأفرع الشيطانية، ولكنها تسقطه، يرتطم جسده المغطى بالريش القاتم بالأرض ويتدحرج قرب حافة الهاوية.

تفتح عينيها أخيرًا.. أنفاسها سريعة لا تصدق.. نظرته مع نظرتها.. عزيمته مع ارتباكها.

وبسرعة يلتقط سيفه ويخر بكل طاقته تلك المرة العُقاب.

صرخة أخيرة.

مات المسخ.

مات الظل الثالث

وتدحرج جسده الضخم ليسقط في الهوة ثم تُغلق عليه.

وما بعد الملحمة لمح طرف عينيه طائرًا متوسطَ الحجم

يطير بكل قوته مبتعدًا، وأن ما رآه بصره رآه سيده فعلًا وعلم النتيجة.

طائر التاج.

عين البارود.

***

قصر البارود

دثار أسود حول بحيرة، منحوتات ظلال أربع.. ضحكته ترتج فتحرك سكون المياه، ترتج وتحتل ملامحه بجنون.. جبينه يتغضّن، عيناه تضيق بحقد، وفمه ينثني بضراوة.

طائر تاجه يصرخ.

وأمام عينيه هو يرتسم مشهد عقاب مقتول!

طائر تاجه يصرخ.

نبوءة حروفها تحترق أمام عينيه.

سيسقط حكمك بسبب النغل!

طائر تاجه يصرخ.

وامتداد حجري قاتم يزاح عنه دثار المنحوتة الخامسة.

عيناه تنقضُّ على المشهد بقتامة.

وانفعال ثغره غليان مميت.

- مرحبًا يا أخي!

المنحوتة الخامسة.

المشعوذ.

***

قصر المشعوذ

باب المتاهة

باب معتم أسود يشقُّ منتصف جدار. حوافه دخان سحري.. نقوشه تاريخ قاتم.. وقِفله وجه "غاند"!

"ثلج" تضحك بخبث وجمر تحايل الباب بالتعاويذ.

غمغمة "ثلج" قاتمة خبيثة:

- فات الوقت لن يخرج.

- فاز البارود.

- احذر بارود.

تطوِّق "جمر" بأناملها القفل.. ترنيمة خاصة ومفتاح من عظام قنطور يظهر من تجويف سحري، صوت دوامة رج الجدران.

باب ينفتح

تراجعت "ثلج" في حذر وآخر أمانيها بضعفه وسط متاهته تجاهد كي تتحقق.

مات ثلاثة ظلال.

وباقٍ "غاند" فقط!

جسد مهيب يظهر يلفه السواد، وحوله يدور دخان رمادي لامع.

الوجه غائب تحت دثار قاتم يخفيه من الجوانب والسيقان البشرية تبدو ضعيفة، وقد تدلت من مقعد حديدي يطفو في الهواء حوافه أشواك، وكلتا اليدين في قيد!

جسد مهيب يظهر يلفه السواد.

قوس ناري يحلق فوقه.

أفاعٍ تتلوى وقد بدت على استعداد لتمزيق من يقترب.

بدأت "جمر" في تلاوة تعويذة، حروفها مثل خيط دقيق يجيد ما يفعله، الأفاعي تتلاشى والمقعد يدور بسرعة ثم يسقط مرتطمًا بالأرض ولكنْ محافظًا على ثباته.

تركض "جمر" نحوه، و"ثلج" تخطو بحذر خلفها.

ينقشع الدخان وتبقى الظلمة سوى من ضوء طفيف مسلط على الوجه.

وجه ساكن المتاهة.

غضب الراعي!

ضحكات "جمر" تتابع بجنون مثل لهيب داكن.

وصوت "ثلج" يتسرب في صدمة مثل أنفاس شبح سيموت.

- إذا كان هذا هو غضب، فمن الذي معها في الغابة!

ضحكات "جمر" تعلو.. تخترق صمت القناطير وأميال غابة كان هو من يحتلها معها من البداية.

المشعوذ

***

الفصل الثالث عشر

يتتابع الخير والشر على الأرض مثل تتابع النهار والليل. لا يستغني أحدهم عن الآخر!

الغابة صرخت في البداية، ثم هدأت.. باتت أشد وحشة. رزمة خيزران مثقوب سقطت فجأة فوق رأسها وقبل الاصطدام حجزه هو بذراعه الصلبة.

عيناها تعلقت به، نظرتها بدت مثل صرخة صامتة:

- أنت بخير!

حاصرها بنظرة صلبة لها قوة ذراعه نفسها، ثم جذبها نحوه بيد واحدة. كانت منهكة، تبدو مثل عصفورة ناجية من ارتجاج الأرض. أسندت رأسها فوق كتفه وكأنما تستسلم للغرق في سبات مستحق، وهمست بارتياح مؤججة دون قصد عدة شهوات تنتفض في جسده..

- أنت بخير.

نامت مثل طفلة، حملها بسلاسة بين ذراعيه ثم وضعها في تجويف صخري متوسط كان يبدو مثل حاجز أمان كاف لكليهما، لم ينطق بحرف واحد منذ هزيمة العقاب، فقط التمع ظلام عينيه بما يشبه لحظة مسحورة يركض فيها ثلاثة ظلال! اندمجت نظرته مع رمادية السماء، الشمس غابت.. عادت الغابة الآن إلى ظلامها بحق! نهر راكد انتفض.. سمكة سوداء لامعة تعاظمت وبلعت تمساحًا. وجه وحش.. وجه ذئب.. وجه عقاب.. جميعهم تتابعوا فوق ملامحه.

مخالب وحش.. أنياب ذئب.. جناحا عقاب بلون قاتم أسود.. جميعهم تتابعوا فوق ظل جسده المواجه لرمادية السماء.

المنفي يعود

الظلام سيهزم الضوء!

ثلاثة ظلال وباقٍ الرابع!

والذروة.. فك لعنة تعويذة.

***

المتاهة

خدعة التاريخ!

الظُلم يمنحك الحُنكة، والخوف والموت والخطر!

إذا ما زيَّف عدوُّك التاريخ، زيِّف أنت ثغراتك التي سيحاول المرور لك منها.

***

آخر حضور "ثلج" في الحياة تجمد تام، وجمر ضحكاتها سعير.

- لم تكن هناك متاهة من الأساس!

فم المجهول ظلامه ارتجَّ، وهياج القناطير شقَّ الصمت حين سقطت فوق رأسهم جثة الجنية الباردة ثم تحطمت إلى ألف قطعة. "غاند" تضحك بهوس، تغوص في البحر بجنون باحثة عن طعام ثم تصعد ناظرة إلى حارسها فيرمقها بعينه الكئيبة الصغيرة مثل بصر سنجاب ويقذف لها ببقايا آخر قنطور ميت لديه.

***

حارس الأفعى حتى حين.

ومن اعتادها.. وتمنى أن يطلب ودَّها.. كي تقتل له المشعوذ نفسه.

حارس الأفعى الحزين.

فيصل الأرقب

***

قدمه الحافية المشققة تخطت الصخور الجامدة في البقعة المنفية خلف القصر، لحيته البيضاء المشعّثة تصل إلى سرّته ونبضه الحزين تباطأ منذ توقفت البومة عن الزيارة! كهف ضيق يكفي بالكاد شخصًا واحدًا هزيلًا هو مكان نومه في الليل، وصحن طعام ممتلئ بلحم القرود وخبز يابس كل ثلاثة أيام يحضره له قنطور عابس.

سبعة عشر عامًا مروا حتى الآن.

أولها طافت البومة فوق رأسه ثم تحدثت بالصوت الذي يعرفه، وآخرها صيحة قناطير مهتاجة مع أشلاء جنية ثلجية نالت آخر لسعة عقاب من الجمر.

***

- هاااااااا

قالها بصوت جهوري خشن حزين، قذف برأس القنطور الميت آخر الزاد معه لـ"غاند" وفكر أن يقتصد من لحم القرود خاصته إذا ما طلبت المزيد كي لا تأخذ رأسه هو! قرفص في تعب بعدها والأمنية المكررة تهرس ما تبقى من إنسانيته، علّ البحر يرسل جسدًا بشريًا ما كي تقتات الأفعى ولا تأكله هذا اليوم.

"اصمد يومًا آخر".

كلمات "ضوء" في صوت البومة له كلما جاءت، كانت تطمئنه على صغيرته وعلى البداية والنهاية والقلب الثائر. تهدهد أمنياتهما المستحيلة. ينقطع نفسه من المحاولات وتؤكد هي بعزم السحر الملقى عليها.

- المشعوذ لا يموت.. مثله مثل الآخر.

ملعونة هي بتعويذة وملعون نسلها ونسله. تقاوم.. تحاول.. تتوسل شذرة نجاة من قلب ممسوس أسود أن يسمح لها برؤيتها، فوافق ولكن بشرط السحر. بومة غير مسموح لها بكشف الأسرار. علمها القراءة والكتابة وأمرها أن تعلم الثلاث فتيات ومعهم "شاهق"!

كل عام تعود إلى هيئتها مرة فقط مع زوجها الذي أصبح خادم "غاند"، باع نفسه للظل الأعظم عسى أن يمتلك جزءًا من الشر بدوره كي يهزم الجميع وينقذ عائلته. كل عام تعود إلى هيئتها وتسأله ورأسها يميل في حزن فوق كتفه:

- هل هو جيد بحق، هل هو النجاة؟!

وفم المجهول قاتم، ضبابي بأربعة ظلال والخامس مس من ظلام!

يجيب "فيصل" وحلقه يشتعل بكراهية:

- ظلام لم نختره.. ألا يحق لنا اختيار ظلامنا يا "ضوء".

بيأس تضحك وتبكي:

- أنت تصادق الشر لتهزمه.

وببأس تشبث هو بأمنيته القاتمة على مدار سنوات..

- وهو يسعى إلى الشر كي يهزم البارود.

- ربما يخلصنا منه.

- ربما يفوقه في الأذى.. يودوس بين سندان مسخ ومطرقة ممسوس.

يزحف الحزن إلى ملامحها، تعود بومة.. تصادق ابنتها، تطلب منها ألا تثق بالجنيات، أن تبقى بين الجدران في

أمان قاتم!

تصرخ "غاند" فجأة وتخطفه من ذكرياته، صرخة غريبة محتدّة جامحة.. ضحكات الجنية النارية تهتاج من نافذة القصر وكرات من نار تضرب القناطير لتنتفض.. تتحول.. تتعاظم بضعف حجمها ثلاث مرات. تصبح قناطير نارية.

المشعوذ يستعيد قوته

يستعيد ظلاله

المشعوذ يجهز جيشه.

***

تركض بكل عزمها.. تضرب صدره، تصرخ لاعنة وبعدها سريعًا تدرك وتتجمد.

المشعوذ.. هو.. "شاهق".. مباهج الصمت!

قوسها ينتفض والسهم يواجه عنقه، عيناها في عينيه ونبرتها أمام ثبات ملامحه

- كيف؟

رمق جبهتها المتحفزة التي تبللت بالعرق رغم الصقيع ثم قال بنبرة بطيئة هادئة:

- حين نقاتل ليس علينا استخدام قوتنا الجسمانية فقط.. الدهاء له موقعه في المعركة.

- لا تمارس معي ألاعيب الحكمة.

قالتها بغضب محتدّ.. المشعوذ هو الممسوس الذي يحتجر أختًا لم تعرفها قط، هو بطل مأساة عائلتها.. هو الشر الذي لا تعرفه وباتت عالقة مع تلميذه!

بانتفاض يائس قالت وهي تنقر عنقه برأس السهم:

- أخبرني أنك لست معه.. أخبرني أنك تمارس أحد ألاعيبك.

قابل ثورتها بهدوء صلب دون أن يكترث حتى بتحريك عنقه بعيدًا عن السهم:

- عليكِ أن تثقي بي.

صرخت بكل قوة صراخ تمتلكها:

- أنا لا أعرفك كي أثق بكَ.

شعرت وكأنها معه تعود إلى نقطة الصفر، ظلال قاتمة تحيط بها، وجهه أمامها كالحجر لا تستطيع أن تستنبط منه شيئًا. ابتعدت تزيد المسافة الفاصلة بينها وبينه، انكمشت في غضب وحزن، أرادت أن تركض بأقصى سرعة.. تركض بكل قوتها عائدة إلى الإقليم. أنفاسها كانت باردة مثل الصقيع حولها، وقلبها ساخن غاضب مهتاج. جسدها تشنج وهي تستدير من جديد نحوه ثم تقول بعزم:

- لن أخطو معكَ خطوة واحدة إلا بعد أن تخبرني بكل شيء.

كبرياؤها ارتسمت فوق ملامحها، سكون المحارب جارى حميته في عقلها، نظرة عينيها منقسمة؛ واحدة نارية وواحدة ثبات صارم. وقف مكانه للحظات يتأملها ثم قال بالجمود الحجري نفسه الذي لازمه منذ "بداية" ثورتها:

- نحن نتعلم بالمواقف وليس الكلمات.

قالت باحتراق:

- قلت كفى!

بقوة أخرس تمرد صوتها، جهورية جشة صارمة جارت انفعالًا غاشمًا من عينيه:

- لا تنسي أنني معلمك.

- وهو كان معلمكَ.

- وأخبرتكَ في وقت ما كرهته.

كلماته بدت وكأنها خرجت من حاجز ضيق من روحه، صراحته حادة واضحة رجل لا يكذب ولكنه لا يبوح. من عاش في خنادق الصمت طوال عمره لن يكون البوح من سماته، من وقع فريسة الظلم والانتقام والصمود بوجه محارب مخلص للطغيان لن يحيد عن مساره بسبب ثورة امرأة حركت في قلبه نبضًا.

امرأة بكل عزمها وجنونها وشذرة كذب كانت آخر مقاومتها له:

- وأنا أكرهك!

***

مملكة الجنيات

آخر مسار الرحلة

فتاة تتسلق مصيرها مع رجل عانق مصيرُه لسنواتٍ المجهولَ، عيناها غضب، خوف، تمرد، وبطش مطلوبٍ، ليس بالقوة وحدها ننتصر.. ولا المهارة.. ولا العزيمة. الشر مطلوب رغمًا عنَّا.

تنهدت في شجن، كانت بعيدة عنه بجسدها، ولكن رغمًا عنها بشعورها تستند إليه:

- كيف كنت تقتلهم.. تذبحهم بلا تردد!

كانت تقصد النغول، لم يجب.. تركيزه بدا منصبًّا على الأفق أمامه، نباتات خضراء متمادية في الطول ظهرت وخلفها أشجار كثيفة، بقعة أدغال غريبة الشكل حيث

أوراق الشجر والنباتات كلها باللون الأحمر.

مملكة الجنيات.. جميعهنَّ من فصيلة الجنية "جمر" مساعدة المشعوذ، كان لهنَّ تميز خاص وهو سرعتهنَّ، حين تركض الواحدة منهنَّ تبدو مثل سهم محترق. آخر المملكة سور ضخم جدًّا على مد البصر، تسلّقه مستحيل والالتفاف حوله غير متاح. المسار الوحيد من خلال بوابة تُفتح بطريقة واحدة.

قتلهنَّ!

كان فوق حصانه بكامل عتاده، بدا متألقًا بهيئته المنتقاة.. درعه الحديدية وقلنسوته الداكنة، عيناه أحيانًا بسيطة هادئة جدًّا كما هو الآن وهو ينظر إليها عكس الشراسة التي تحتله حين يقاتل.

- إنه دورك!

قالها بهدوء متسلٍّ، ثم تراجعت خطواته بفرسه قليلًا ليترك لها مساحة الحركة أمامه. حدقت إليه بصدمة ثم صاحت بلا تصديق:

- ماذا تعني؟ وحدي!

- أنتِ محاربة ناضجة الآن.

ملعون أنت يا "جبار"، ملعون بدروسك القاسية.. ها هو يلقيها في أدغال الجنيات ليتخلص منها. فكرت في حنق وقد تشتت ثباتها الانفعالي فعلًا. بدت هنا مثل تلميذة نسيت كل ما تعلمته قبل الاختبار. الخوف يزحف إلى قلبها وعدم الفهم يشتتها.

***

- كيف؟

- ستكتشفين.

- هل تنتقم مني؟

- بل أعلمكِ.

ودَّت لو تمتلك في تلك اللحظة قراءة أفكاره، تخطته بعزيمة واضطرار، رفعت رأسها بكبرياء تراقب مقدمة الأدغال والشمس الحارقة التي تتسلط أشعتها عليها فقط وسط فقاعة من البرودة. ضاقت عيناها بتأمل سريع للمساحة ثم رفعت ذقنها معاندة:

- ماذا أفعل؟

- ستكتشفين بنفسكِ.

كانت ما زالت نبرته متسلية بشكل أغاظها، ولكن الغريب أنه أعجبها أيضًا، أعجبها أنه يثق بها، يثق بتخطيها تلك المملكة وحدها وكأنه أعدَّها جيدًا لهذا الدور. هراء الشك به تبخر ولحظة اليقين في النهاية غالبًا ما تهزم الغضب ولو مؤقتًا.

"شاهق" لديه خطة.

جبَّار لديه خطة.

كررها عقلها وهي تتقدم، في المعارك حتى لو فقدت بوصلة المعرفة عليكَ التعامل مع فريقكَ بحكمة كي لا تصيبكَ انتكاسة الهزيمة.

حصانها بطيء بتحفز في البداية، عيناها سريعة تلمح جمرات حارقة تتحرك حولها بسرعة خيالية، مثل شهب سماء ولكن على الأرض. شعرت بالعجز في البداية، زمجرت بغضب وهي تحاول تحرير سهمها وتخفق. تخفق ثم تخفق ثم تخفق.

سخط تام سيطر عليها، شعرت وكأنما لم تتدرب بما فيه الكفاية أو تدريبها كان فاشلًا.. ولكن كيف.

كيف كيف كيف!

عقلها يكرر، انتباهها يترتب أخيرًا وقلقها يتحرر من سلاسله.

في المعركة ليس عليك التقيد بالقوانين في كل الأوقات.

عليك أن تتبع غريزتك.

ترجَّلت عن الحصان، خلعت الدرع الثقيلة الذي يقيدها والسترة القابضة لأنفاسها، الحرارة خانقة فعلًا بسبب تركيز الشمس واشتعال الجنيات، تركت نفسها بقميص خفيف والسروال والقوس.

تحررت.

تحركت كزوبعة.

سهمها وهي تركض يقتنصهم بالتتابع، وكلما اقتنصت واحدة تحركت البوابة.. انفرجت قليلًا.. كانت تلتقط أنفاسها سريعًا وسط النداءات وسهمها يقتنصهم دون رحمة. عيناها تلتمع.. نشوة الفوز في المعارك لا يوجد لها مثيل.

طوَّق السهم أعداءه، وفهمت محاربة صيحتها القتالية. وُلِدَ القلب من جديد.

"قلب جبار"!

"قلب الجبار"!

كل الأسماء هنا تحمل معنى.

نظر إليها بفخر وقد استدارت له ونشوة الانتصار مرتسمة فوق ملامحها، فُتحت البوابة كاملة بعد قتل عشر جنيات

وانسحبت الناجيات.

أرادت أن تعود لامتطاء حصانها ولكنه لم يسمح لها، جذبها بذراع واحدة لتشاركه صهوة حصانه، جسدها متدثر بمعطفه معه، ورغمًا عنها أجبرها على الغوص بين ذراعيه.

بعد البوابة دهشة عظيمة.

بعد البوابة عالم كامل.

بوابة أخرى أكثر ضخامة فُتِحَتْ من أجله.

بوابة أرض الموت.

بل أرض النغول.

جيش جبار!

***

" لم يفكر أحد من أهل يودوس من قبل في أصل كلمة "بارود"، اعتبروا أنه سقط فوق رأسهم من السماء مثل ضوء الشمس الحارق. ولكن بعض الحكايات تسللت من تاريخ قديم مع أنه ذبحه كله! تاريخ مع قبل يودوس.. المملكة التي اشتق اسمه منها".

- هذا فقط؟

- هذا كل ما ترويه تلك المخطوطة.

حين سألها كانت تقلبها بين يديها بهدوء، ملامحها حين تتغلغل في تفاصيل المخطوطات تنكمش بشكل جذاب جدًّا، وكأنما المعرفة تناسبها. مالت شفتاه وهو يتأملها بشغف:

- هل المعرفة تناسب البداية؟

ردَّت وقد بدا على ملامحها التيه:

- أعتقد.. فالبداية تشبه البحث والنهاية هي ما نجده!

حاوطها بذراعيه، على ضوء الشموع الخافتة كان يجلس كلاهما بين الرقوق. تبتسم حين تجد القصائد وفهم أنها تحب الشعر وتخاف من المخطوطات المجهولة. تسأله في عجز وتشبث:

- هل نفعل الصواب؟

- أكيد.

انتفضت في إنكار، لحظة هروب آمن ينبض بها قلبها أحيانًا:

- ماذا لو كان العكس، ماذا لو أخفتْ أمك تلك المخطوطات كي لا يجدها أحد! ماذا لو كان يجب ألا أجدها أنا!

انتفضتْ أكثر.. كانت في صراع.. ترفض شعورها لأنها تنبذ أطواق النجاة، وترفض لهفة المعرفة خوفًا مما هو قادم. حاوط وجهها بكفيه، غاصت عيناه بملامحها ينتزع المدفون في أعماقها.. قال بصوت خشن داعم، صوت يجعلها مثل دمية بحجم عصفورة تنام بسلام بين كفيه:

- أخبريني يا بدايتي ماذا وجدتِ في المخطوطات؟ لماذا تخافين بهذا الشكل!

قالت ورجفة تتمكن من ملامحها:

- ما أجده يجعلني أخاف، أشعر بظلمة غريبة تجتاح قلبي.. انظر هنا إلى تلك العبارة:

"علينا أن نصل إلى عمق الظلام كي نفهم الضوء".

انكمشت ملامحها في خوف:

- ماذا لو لم نتحمله، ماذا لو كان عمق الظلام بشعًا جدًّا

بشكل لا يُحتمل.

وشهقت تكتم كلماتها، تشعر وكأن تلك المعرفة قاع هاوية عليها أن تسقط فيه وتخرج قلب ظلامه ثم توزعه على الجميع! فالمخطوطات بين سطورها توضح المسكوت عنه.. تتسلل للحكايات، تناور بعبارات منقوصة اذا ترتبت بشكل صحيح ربما سيعرفون الكثير، يصلون إلى النهاية وهي خائفة من تلك النهاية. شعرت بجسمها كله يرتجف وألقت الأوراق، رمقته بعجز تام، رغبة عاطفية في الضعف.. في الاستسلام ليودوس الحالية والعيش في السلام المنقوص بدلًا من دفع الثمن الباهظ من أجل كماله. حين صارحته ابتسم لها ثم جذبها بين ذراعيه وقد أسند رأسها الصغير فوق صدره ثم تنهد بحكمة:

- لا يوجد سلام كامل، الشر يموت بالتأكيد ويسود الخير، ولكن بعد وقت ليس بقليل ستلد امرأة ما شرًا جديدًا وتتكرر المهزلة بشكل مختلف!

- إذن فلنبقِ على هذه المهزلة!

قالتها بتوسل لطيف، كانت تدفن رأسها في قميصه مثل طفلة وتتنفس عبقه وتود الآن في تلك اللحظة أن تندمج به إلى الأبد ولا تتركه أبدًا.

رفع ذقنها نحوه ثم قال وعيناه تتأملها:

- وجنتاك وأنت تبكين تبدو مثل خبز شهي!

ضربت صدره بيدها وهي تبتسم يائسة ثم تجعد جبينها في رفض مسكين وهي تُكمل:

- ماذا لو فتحنا الصندوق السحري وأعدنا كل الكتب بداخله ثم دفناه تحت شجرة صنوبر وعشنا في منزل فوق قمتها بعيدًا عن كل شيء.

كانت تحتضنه وهي تتحدث، تحيط جسده الضخم بذراعيها القصيرتين بعفوية تامة، تتمكن منه دون قصد، تسيطر عليه بسلاسة لم تفعلها امرأة قبلها. لو تركت نفسها الآن لطحن عظامها بالعشق. لهث وهو يواجه ملامحها:

- نتوهج البداية مع البارق.

نظرت نحوه في حيرة فتابع وعيناه ترتاح على ملامحها:

- ونتوهج مع المعرفة رغم أنها تخاف.

ثم عقد حاجبيه في بساطة لم تكن لتندمج به من قبل، هو رجل عاش بقناع صلب لأن يودوس تهرس الضعفاء، وإن كان جوهر قلبه يود التدثر ببساطتها.

- جميعنا نخاف المجهول يا "بداية"، ولكننا نعيش مجد حاكم مختل بعد وقت سيمل ويذبحنا جميعًا.

تأملته وهي تلامس لحيته:

- ظننتك لا تكترث.

نالت منه صلابة حكيمة لم تلمسها من قبل جوار نبرة عتيقة توضح أن الراعي ليس مجرد الهمجي الذي تمرره الحكايات، بل رجلٌ له حكمته وأسراره:

- هذا الظن ما يبقينا أحياء حتى ننال ذروة القوة.

رضخ الجد.. رضخ الأب، سلام الرضوخ لا بأس به أحيانًا، وكاد يصبح مثلهم، ولكن زرعت الشرارة امرأة ابتلعتها "غاند"، وبعد عشرين عامًا جاءت البداية لتشعلها. الآن كل شيء له معنى.

حروف المخطوطات تنهض، تحمل السلاح وتصبح ذات قوة. أكوام من الرقوق دفع كاتبوها وحافظوها الثمن حياتهم، نزف أحبار ساوى نزف الدماء على المقاصل.

غمرته تنهداتها الخائفة فجذبها إلى صدره بلا مقدمات، تذوَّق شفتيها بعنف يحتاج إليها، ودفعته هي نجلًا من ممارسة هذا الحق أمام الكتب. همست برفض نجل:

- لا!

- ماذا!

- ليس هنا.

نظر نحوها بدهشة باسمة وهي تتابع:

- ربما كتبته أوراق سحرية ووجدها أحد بعدنا.

تقاطع حاجباه في يأس ضاحك، وأيقن أن تلك المرأة لا تهديه المعرفة ولا العاطفة فقط..

بل كل شعور ممكن، كل فطرة وبساطة ولطافة وأحلام جميلة مجنونة. كل التحام ممكنٍ معها يشعره أنه حي، أن الحياة ذات معنى خاص جدًا، أنها امرأة لا تناسب العشق العادي، امرأة علمته الهرولة.. بتهور جذبها نحوه والبداية تفرد يحتاج إليه تلك المرة.

- إذن لنجعله ملهمًا!

***

في ليلة ما، زحف شبح كاذب وعاشر امرأة، وكان النسل مختلفًا.

عادت الساحرات!

ما قبل يودوس أُعدِمْنَ جميعًا ونُفيت أقواهم في حكايةٍ تشيب لها العقول، ويقال إن "حرير" عاهدت شبحًا منبوذًا من السماء، وجاءت النساء على شكل ظل ضخم، وبات يُعرف بالظل المجهول صاحب نسل الساحرات.

حتى تبدلت اللعبة.

***

حرير

مثلما أحضرت الشبح مثلما صرفته، مثلما أنشأتهنَّ قيَّدت قوتهنَّ ولعنتهنَّ بـ"سيف الأرقب"، واختارت آكلة العناكب المناسبة للنبوءة. آخر نسل الساحرات.

***

سيراب

في خضم كابوس غريب وجدت نفسها عارية، تزحف في الصحراء بعد أن امتصت دماء عنكبوت ضخم ثم يعاشرها البارود بنفسه.

في أرض يودوس كي تنجو عليك أن تفهم الجميع.. تخدع الجميع.. تسلك الطريق المتعرج بدلًا من أن تقع ضحية الطريق المباشر.

***

سيراب نجم

ملكة فن التضليل

ابتسمت له تناور، صبغة شفتيها كانت من دماء عنكبوت حي وضعت آخر قطراته في النبيذ. عتادها عقلها وطموحها وحشية قلب لا يعرف الخير ولا الشر. يعرف "سيراب".. "سيراب" وفقط.

- "شاهق" وجد المنجم.

تراقصت حافة الكأس أمام شفتيها، في حين جلس هو مرتخيًا في عرشه وحوله خمس عذراوات لخدمته، ابتسامته خامدة منهكة تبحث عن اشتعال ومذاق خديعة أخيه له لم يغادر فمه بعد.

مط شفتيه يقيِّمها ثم قال بلا اكتراث:

- معلومة ليست جديدة يا خادمتي المزيفة.

ضحكة رنانة تسربت منها قبل أن تقترب وتجلس تحت قدميه متابعة بجرأة:

- ما فائدة خادم غبي مخلص.. أنا أناور ولكن قد أضمن لك الفوز.

- والثمن؟

لمح في عينيها الطمع والمكر وهي تهمس بفحيح:

- المينوتور بعد أن تنتصر أريدهم لي.

ابتسامة ساخرة هادئة ارتسمت فوق شفتيه:

- هل هذا ما طلبه منكِ "شاهق" يا "سيراب"؟

أومأت في طاعة حيَّة، كانت لعبتها خطيرة ولكن مطلوبة.. في الحرب هي من النوع ذي الوجهين، تلقي بأحجارها هنا وهناك، وفي النهاية ستعانق المنتصر. متباهية دارت حوله، تأملت الفتيات اللاتي اختارهنَّ لتلك الليلة، إحداهنَّ ستلقى مصيرًا لا تتوقعه. قالت بصوت ناعم خفيض وهي تقترب منه:

- أنا أبتغي رضاك أنت!

- إذن أخبريني بمكان المعبد.

قالها بهمس حار.. ترجم عقلها المشهد سريعًا.. الملك يفاوض، والمسخ مهتز.. لم ينخرها في لحظتها، حين جاءته جازفت وهي تعلم، ولكن من قد ينال انتصارًا دون مجازفة! "شاهق الأرقب" ومتاهته أيضًا مجازفة محتملة.. خديعة "حرير" مطروحة على الطاولة. الساحرة التي اختارتها لتلك المهمة قد تتخلص منها بفرقعة إصبع إذا ما عادت

لها قوتها. سلطت نظرتها عليه مباشرة وقالت بصدق وهي تقطر بعضًا من دمائها في فمه كي يتأكد أنها لا تكذب:

- "شاهق" خبيث.. لقد وضع فوق عيني عصبة طوال طريق الذهاب والإياب.

رفع حاجبيه بسطوة لن ترضى سوى بالانتصار:

- ستناديكِ عناكبكِ.

مالت شفتاها بخبث:

- نعم.. ولكن حينها قد يلاحق عنقي سيف الأرقب.

- ما فائدتكِ يا ساحرة الغم!

احتدَّ وقد اشتعلت زرقة عينيه، مناورة الطامعة كان يتوقعها ولهذا تركها لـ"شاهق".. ألا تظن أن البارود بدوره لديه خططه.

احذر بارود

على مدار سنوات ودماء تواريخه تكشف الأسرار كلها سوى سر واحد.. السر الذي يبحث عنه. المخطوطات السرية المختبئة صندوق سحري.. **الرقوق المسحورة**.

لم يترك شجرة في الغابة إلا واقتلعها بحثًا عنه.. نثر الجواسيس في بيوت الجميع وهاجم أبصار الطيور دون جدوى. المخطوطات التي تحمل سحر فك التعويذة، أو ذروتها.. تحمل أصل الحقيقة. تعويذة "حرير" التي صنعته هو وأخاه.

وأوجدت يودوس!

على مدار سنوات وهو يبحث حتى علم أن السر لن ينكشف سوى من دماء نحرها سيف الأرقب. السيف الوحيد الذي بقي من المملكة القديمة.. أرض ما قبل

يودوس.

مُلك أبيه!

احذر بارود

ابتسامة مسخ ارتسمت على شفتيه، بسرعة جبارة دار وسط خمسة أجساد، طعن سريع قاتم، تفسخ اللحم عن القلوب وزادت شراهة المسخ فقضم اللحم الطري النيء من الجسد مباشرة. خلفها ضحك بسطوة مخيفة، المشاهدة تختلف عن الحكايات، وآكلة العناكب تحتاج إلى دفعة كي تدرك القوة الحقيقية.

شهقت ورائحة الدماء تفوح والخطر في أنفاسه بدا واضحًا عليها:

- "شاهق" لديه ثغرة.. لديه نقطة ضعف.

فاحت رائحة القلوب من فمه جوار قسوة نبرته:

- لقد تحايل "جبَّار" وأخذ "قلب".. صاحبة النبوءة.

- ليست "قلب".. إنها الأخت الصغرى.. "نهاية"!

غامت عيناه بشراسة الشمس حين تحترق:

- وما نبوءة تلك؟!

- لا أعلم بعد.. ولكن تلك الصغيرة تمتلك قلب الأرقب.. خذها منه وسيفقد صوابه.

***

على عكاز تحرك عجوز

يودوس تصرخ

عقاب بارودي بامتياز

الحاكم يحتاج من حين إلى آخر إلى أن يحافظ على رونق

ظهوره.. عبثًا يداعب شعبه بالقتل. الحاكم له متمردوه ومشجعوه وبطانته وجميعهم يخططون لسقوطه. ولهذا لا يستمر حاكم بقلب طيب أو قلب مريض أو حتى قلب أسود. المتعة أن يكون بلا قلب!

***

احذر بارود.. مشانق خمس عشرة جثة!

نادى المنادي، وزينت الأجساد قلب الساحة كي يشاهد الجميع. كتيبة سرية وتم الإعدام.

هو حاكم رائع.. لا يوجد في عهده سجون. المُخطئ يُقتل!

***

حملت الرياح رائحة عفونة طفيفة من الجثث المعلقة، وأصابت قلوب الجميع وحشة، نظر طفل بانتباه يستوعب قسوة القتل وشقَّت امرأة ثوبها في عويل حين استوعبت أن زوجها من المشنوقين وهذا يعني نهايتها بين أنياب "غاند".

على عكاز تحرك عجوز وخلفه فضول خمس فتيات وكانت هي السادسة، لقد نبهها "شاهق" بحزم ألا تغادر المنزل، ولكنها تحايلت كي ترى "زليخة" وتغيب قليلًا جوار نهر منزلها القديم. أخذتها خطواتها إلى الساحة رغمًا عنها، جذبها الضجيج بشكل قدري.. وهناك...

وسط خمس عشرة جثة معلقة كان هو المنتصف، الجثة الثامنة!

أزرق أزرق!!

انتهى

مقطع شعر من الذاكرة يجتاح قلبها بصوته

أزرق أزرق لون الماء.. أضرم بارود ناره في أجساد الأحياء!

انتهى

الظلم يبقى!

***

جرفها الحزن.. جرفها الخوف.. جرفها التيه.. وجدت نفسها مرتجفة جوار مجرى النهر وصورتها تهتز، عبراتها تركض وقلبها خافق مذعور. حدقت إلى الفراغ بتجمد، تذكرت كلمات أزرق.. كل أشعاره التي سمعتها تحتل رأسها دفعة واحدة.

"الظلم يستفحل حين نتهاوى ويستفحل أكثر حين نقاوم".

"كلما جاع الشعب سيتدافع نحو الرضوخ".

"صقل السيف فكرة قبل أن يكون واقعًا".

كتمت معدتها صرخة، صرخت بعنف وهي تستدعي صورته، غياب "ضوء القمر".. اختطاف "قلب".. حكايات عن أخت مجهولة وأب ابتلعه بحر "غاند". لحظات مثل كابوس.. ويقين يهرب عمرها الصغير منه.

لا توجد نجاة في يودوس!

***

- "نهاية"..

صوته احتل الفراغ، جسده ظهر من خلفها ثم حاوطها بقوة.. أدارها نحوه بحزم. جذبها لتستقر بين ذراعيه، وجسدها كله يترجف.. وهج قاتم في عينيه بزغ، ويده كانت تعتصر جسدها في عناق حماية كانت أفكاره تترتب في أكثر من اتجاه.

الوحش يمرر تهديداته ويبعث برسائل خطيرة، آكل القلوب سيتوحش قريبًا ويلعب بجميع أحجاره، وتلك هي المجازفة المنتظرة. فالمسخ لديه فيلق كامل عاطل.. ممنوع من الظهور، مجهول يربكهم حتى الآن، وخطوة عليهم معرفتها قبل المواجهة. ولهذا يمارس البارود خبثه ويطلق شياطين غضبه المباحة. تعجبه اللعبة ويجلس فوق مقعد دوار، وأحجاره تتسابق كي تبهره بحركة فوز. وهناك حجر دخيل، أهداه ما يعلم متسرعًا!

كانت هي تستريح فوق صدره، تغوص في الأمان خاصتها بتركيز مهتز، لم تكن واعية بالكامل ففي اللحظة التي وقفت فيها جوار النهر كان التيه يؤرجحها بين الحلم والكابوس. حين استوعبت، حين اجتاحت أنفها رائحته المميزة انتفضت ككل، شعرت بنفسها وكأنما تسقط في قاع متاهات "شاهق الأرقب" بلحمه وشحمه وأنفاسه، وهذا فوق ما تحتمل. ابتعدت ودفعته بلا تركيز ثم انهمرت عبرات عينيها بوجع.

- قتلوه.. مات وكأنه لا شيء.

بانفعال صلب مصقول أمرها أن تهدأ:

- تماسكي يا "نهاية".

- لا يستحق هذا يا "شاهق".. لا يستحق.

هنا انهارت، روحها اندمجت بحزن شديد، كانت أبسط من كل هذا الوجع، من كل هذا الخوف الذي حملته الرياح للجميع مع رائحة الموت القاتمة. حين نظرت نحوه بعجز انتبهت متأخرة لاحتمالية غضبه من كل هذا الحزن على أزرق، إلا أن متاهات "شاهق" كانت أعمق من أفكارها. كان هو قد خطط في عقله فعلًا سيناريو حمايتها هي!

أزرق ليس اختيارًا عبثيًّا من "البارود"، وليس الغرض فقط حبس كلمة.. أزرق هو رسالة واضحة له، بأن "نهاية" مستهدفة.. "نهاية" هي عصفورة ضعفه.. "نهاية" ورقة رابحة في يد العدو إذا ما نالها.. هي الابنة الثالثة لـ "ضوء القمر" والتي لم تنلْ نبوءتها بعد.. دورها غير معلوم حتى الآن والانتظار من الجميع حكمة، ولكن الوحش ثار، المسخ قرر أن يتصرف بطيش!

طيش أمام طيش والخسارة حسبة فوز.

امتلك مرفقها ثم سحبها خلفه..

- ماذا؟ أين سنذهب!

لم ينطق، الرياح الآن معبئة بالجواسيس. وحين يختفي بها عليه أن يفعل ذلك بكل حرص ممكن!

***

- جهزي حالك.. سنتزوج بعد قليل!

حين يدحرج رجل امرأة من فوق سطح جبل!

وسط الأنفاس المنهوكة، والقلب المثقل بالخوف وقبله الخرف.. مع تهاوي في الحزن والقلق لازمها أيامًا دفعها دفعة خفيفة كي تتوسط غرفتها ثم أغرقها بنص هازم. استدارت في صدمة فالتقفتها عيناه المتأملتان لها بهدوء تام! صمت غريب بعدها احتل الفراغ بينهما وتلاه تبدل ملامحها بين الرضوخ والعصيان، بين الحرب والراحة!

تنهدت تتراجع فاقتحمها بطريقته، جذبها نحوه بلا حواجز..

- لا أفهم!

- تفهمين الآن!!

تعبيره ملامحه الجامدة جاورت عبارته النافية لضياعها، صوت ونبض واحد يقول إنها ستصبح امرأته أمام الجميع.. تعجّل لم يكن يبتغيه ولكن أحد أسراره انكشف وكفى. كان يبقيها أو يظن أنه يبقيها في سلام ما دامت بعيدة عنه.. يتمنى ألا تتورط في نبوءات "حرير" مثل أختيها.. يبتغي بحق أن تخرج من إطار صورة المعركة الأخيرة. رفعت عينيها المذهولتين نحوه فأهداها نظرة مستحيلة المقاومة ثم قال بخفوت جبار:

- "بداية" ستحضر بعد قليل ومعها ثوب عروس!

هلع طفلة ارتسم فوق ملامحها، طفلة تنال أمنية حياتها وتخاف. خطوة عرجاء حاولت أن تبتعد ولكنه حاصرها، نفذ انتماؤها إليه باحتجاز.

- تخافين؟

لم تمتلك حرفًا للنطق به فاقترب من شفتيها حد اللثمة القاتلة ثم كرر بهمسٍ صارم:

- تخافين؟

أومأت مثل مغلوبة على عشقها، صوت دقات قلبها طبل.. شعورها يعدو.. ساقاها فقدتا القوة فكادت تسقط لولا ذراعاه. نصف ابتسامة توهجت فوق شفتيها، "شاهق الأرقب" الذي لا يبتسم أبدًا ينزل للانحناء من أجلها. مرت حروفه على أعينها قبل السمع:

- لا بأس.. سأعلمكِ ألا تخافي مني.

لحظة عشق انتزعت المتاهات من عقله لهنيهة قصيرة، وسيطرة قلب نازعت سطوة العقل. لحظة من باطن المتاهات والنهاية له.

***

وفي الغابة.. مشعوذ وغنيمته. مشعوذ استعاد ظلاله!

أخذ رشفة من مشروب حار المذاق أعدته ثم ارتاح في فرشته، منزل غريب معزول وجدته وهي تمشي جواره وحينها قفزت مثل طفلة. اشتهاؤها كله تمثل في اكتشاف هذا المكان الجديد، محاولة إعداد الخبز من أجله والنظر بلهفة نحو دجاجة أعطتهم بيضة ثم إعداد هذا المشروب الغريب من خليط أوراق جمعتها. استردَّت عافيتها بعد عدة أيام، وبعدها تناست ما حدث.. تناست قوتها! تلك القوة التي أربكتها فهربت منها، الإنسان في أعماقه شهوة السطوة وهي في أعماقها سلام. خير الأرض.. النبات.. الماء.. والشمس والنار والقمر.

هسيس الحطب المحترق جوارهما كان كلمات الليل، وتفاصيل رحلة قاسية رغمًا عنه ترتسم على ملامحه. بتردد اقتربت منه، ثمار التفاح تشتعل بحدقتيها واختلاجة شفتيها تخلق في قلبه صراعًا مرًّا. وضعت يدها مكان جروحه ثم قالت ببراءة تامة:

- لقد تعافيت سريعًا.

***

غامت نظرته بتعبير غريب لم تفهمه:

- لأننا هزمنا الظل!

أغمضت عينيها تبتغي الهروب من ذكرى ما حدث، ثم نطقت بخجل ضخم فجر حمرة نضرة بوجنتيها:

- هل يمكن أن نبقى هنا الآن؟

دون أن ينطق حاوطها بذراعه فبدا الفرار منه مستحيلًا، التمعت عيناه باحتجاز مُهلك ثم كرر بمكر العبارة التي قالها سابقًا حين تهورت بعفوية قاتلة:

- تبدو دعوة مستحيلة الرفض.

إلا أنه تلك المرة تَمَّم الحديث بمذاق مختلف، قوته الثائرة المدمجة بثلاث ظلال اندمجت مع كلماته:

- تحتملين؟

بتيه تبعثرت، شعرت بنفسها صغيرة جدًّا أمامه، وشفتاه تميل بقسوة غير مفهومة لها:

- تحتملين يا جميلة؟

عقدت حاجبيها بغضب متدلل، كانت تهرب من فحوى كلماته المربكة بطريقتها البسيطة:

- توقف عن مناداتي بهذا الاسم.. لا أحبه.

تأملها باستمتاع، وهي تتخلص من الكلمات المحشوة بقلبها:

- لا يعجبني.

ردَّ بهدوء وصورتها تهتز في حدقيته:

- لا أناديكِ بل أصفكِ.

ببراءة العالم واجهته، براءة فتاة لسنوات اُحتُجِزَتْ في تعويذة قبح هو نفسه لا يفهم سببها.

- أنا جميلة!

من صدره خرجت العبارة بهمس منتفض.. صدق وسط ظلام فُرِضَ عليه.. ارتخت عيناه وارتج صوته ومارست أنفاسه الحارة السطوة:

- جدًّا.

انكمش جسدها بخجل.. أشاحت ببصرها عنه وابتسامة العشق تتلألأ فوق شفتيها فسارعت تخبئها:

- ما زلتُ لا أحبه.

حاولت أن تبتعد، إلا أنه دون مقدمات وبعنف صارم جذبها نحوه فأسقطها فوق صدره، توترت في اضطراب وانفجرت ملامحها نجلًا ولهفةً فتابع وأنفاسه ترتاح فوق شفتيها:

- ما رأيك أن نبحث عن اسمك الحقيقي.

ارتخت ملامحها في يأس:

- لا أظن أن أحدًا في العالم يعلم، هل أعطتني أمي اسمًا؟ أبي؟!

التوَت شفتاه بتعبير قاتم:

- ربما المشعوذ من يعرفه.

شعر بانقباضة قلبها فوق صدره، انقباضة كادت تُخرج أنياب ذئب.. تُنبت بشكل مفاجئ جناحي عقاب يحيطا بهما ويحتجزها حينها معه إلى الأبد. سقطت خصلاتها فوق وجهها حين مال رأسها إلى الأسفل بتفكر حزين فرفع وجهها نحوه مواجهًا عيناها بكل طاقته:

- ربما تفهمين ما غاب عنكِ.

تشبثت بطرف قميصه دون وعي وهنا كان كلاهما يُهلِك الآخر.. قالت بصدق تام حارق له:

- أنا لا أريد سوى أن أكون معكَ.

وهنا كان العناق له سطوة ولها ما يشبه السقوط.. تعلقت به وكأنه الشيء الوحيد المستحق في الحياة، ودون قصد أراحت شفتيها فوق عنقه ففجرت نبض قلب مقتول!

همس جوار أذنيها بهمسٍ مرتج:

- تثقين بي؟

وأومأت وشفتاها تلامس عنقه.

خُسِفَ القمر وطل نور فضي من الأعماق!

وظل عناقه محاصرًا لها حتى إنها لم تستطع رفع رأسها الصغير حين قال ما قاله.

فقط.. تجمدت ثمار التفاح.

- سنعود إلى أرض الثلج.. قصر المشعوذ!

***

نهاية" القسم الأول"

انتظرونا مع القسم الثاني

آسيوس

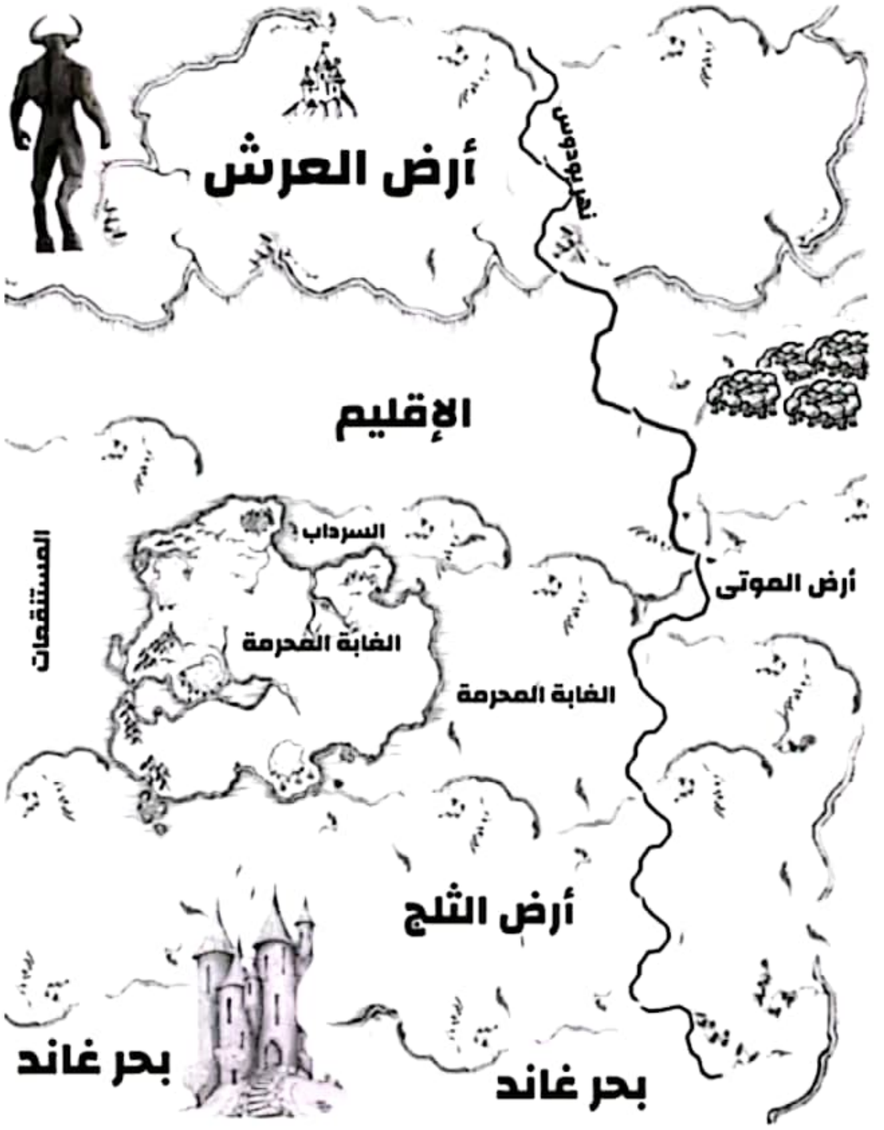

(1) المينوتور: وحش أسطوري إغريقي له رأس ثور وجسم رجل وهم حراس يودوس من الشمال.

(2) غاند: الأفعى التي تحرس بحر الجنوب وتقع تحت سيطرة المشعوذ.

(3) القنطور: مخلوق أسطوري إغريقي نصفه العلوي بشري والنصف السفلي لحصان.

(4) قصر المغناطيس: ذُكِرَ تمثال مغناطيسي شهير في تراث ألف ليلة وليلة (حكاية العور العشرة)

(5) تعود شعيرة قتل النساء بعد موت أزواجهن إلى شعيرة دينية عند بعض الهندوس تسمى سُتي

(6) طائر التاج مستوحى من طائر المظلة الذي يعيش في كولومبيا.

(7) وادي العميان: مستوحى من قصة بلد العميان لـ جورج ويلز

(8) تاباي: أسطورة من حضارة المايا

(9) شامبالا: مملكة أسطورية تقع في جوف الأرض.

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تلك المرة حين يخرج من المتاهة سترينه، لقد حان الوقت.. ولهذا عليكِ أن تهربي.

وقبل أن تنطق بتساؤلها كان عقلها قد مرره، أيقنت أن ما يحدث بينها وبين "ثلج" نوع من التواصل الروحي لا تعلم عنه "جمر" شيئًا.

- كيف؟

وتناثرت الحروف مثل أشلاء.. سراب من الممكن أن يُصبح حقيقة، ونجاة حتمًا ستثير جنون الوحش.

- من خلاله.. الرجل الوحيد المسموحُ له بالقدوم إلى هنا.. "غضب الراعي".

ضائع
t.me/twinkling4

تشكيل للنشر والتوزيع
٦٥ ش التحرير
متفرع من ش محمد فريد عابدين القاهرة - مصر
E-mail: publish@tashkeel-publishing.com
Tashkeel
201006250473
www.tashkeel-publishing.com

9 789776 963405

COVER ART BY MAHDI DAWOOD